

# تاريخ

## الأفكار الاقتصادية

الأستاذ الدكتور  
عبد علي كاظم المعموري



بسم الله الرحمن الرحيم

**تاريخ الأفكار الاقتصادية**

## محفوظة جميع الحقوق

رقم التصنيف :	٣٣٠
المؤلف ومن هو في حكمه :	عبد علي المعموري.
عنوان الكتاب :	تاريخ الافكار الاقتصادية.
رقم الإيداع :	٢٠١١/٧/٢٨٧٥
الواصفات :	الفكر الاقتصادي // الاقتصاد // المذاهب الاقتصادية.
بيانات الناشر :	عمان - دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.	
(ردمك) ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٣٢-٦٣٦-٥	

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي وجه، أو بأي طريقة أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم التسجيل، أم بخلاف ذلك، دون الحصول على إذن الناشر الخطي، وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

الطبعة الأولى ٢٠١٢-١٤٣٣هـ.



## دار الحامد للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شفا بدران - شارع العرب مقابل جامعة العلوم التطبيقية

هاتف: ٥٣٣١٠٨١ ٦ ٩٦٢ فاكس: ٥٣٣٥٩٤ ٦ ٩٦٢

ص.ب. (٣٦٦) الرمز البريدي: (١١٩٤١) عمان - الأردن

[www.daralhamed.net](http://www.daralhamed.net)

E-mail : [daralhamed@yahoo.com](mailto:daralhamed@yahoo.com)

# تاريخ الأفكار الاقتصادية

الأستاذ الدكتور

عبد علي كاظم المعموري

كلية العلوم السياسية - جامعة النهرين





بسم الله الرحمن الرحيم

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥/٢٠} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦/٢٠})

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي {٢٧/٢٠} يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨/٢٠})

صدق الله العظيم

سورة طه (الآيات ٢٥ - ٢٨)



الإهداء

إلى من أسماهم الرسول الكريم ﴿ ﷺ ﴾

(عياي)

فقراء الأرض





## المحتويات

الصفحة	الموضوع
٢٥	المقدمة
	الفصل الأول
٣١	مدخل لدراسة الفكر الاقتصادي
٣٣	تمهيد
٣٤	أولاً : أهمية مادة تاريخ الفكر الاقتصادي
٣٥	ثانياً : عناصر الفكر الاقتصادي
٣٥	١- التحليل الاقتصادي والنظرية الاقتصادية
٣٦	٢- السياسة الاقتصادية
٣٦	٣- المذهب الاقتصادي
٣٧	ثالثاً : الفكر الاقتصادي والفلسفة
٣٧	١- الفكر الاقتصادي والفلسفة الاجتماعية
٣٨	٢ - الفكر الاقتصادي والفلسفة العامة
٣٨	أ- الاتجاه المثالي
٣٩	ب - الاتجاه المادي
٤٠	رابعاً: الفكر الاقتصادي والمنهج الاقتصادي
٤٠	١- المنهج الاستنتاجي
٤٠	٢- المنهج الاستقرائي
٤٢	هوامش ومصادر الفصل الأول

	الفصل الثاني
٤٣	النظرات والتنظيم الاقتصادي في بلاد وادي الرافدين
٤٥	تمهيد
٤٦	المبحث الأول: المدخل التاريخي
٤٦	أولاً : العصر الشبيه بالتاريخي
٤٦	ثانياً : العصر التاريخي (عصر فجر السلالات)
٤٩	المبحث الثاني: العبودية في بلاد وادي الرافدين
٤٩	أولاً : نمط الإنتاج العبودي في الشرق
٥٢	ثانياً : التركيب الاجتماعي في الحضارة البابلية
٥٥	المبحث الثالث: مصادر العبودية في بابل
٥٥	أولاً : أسرى الحرب
٥٦	ثانياً : استيراد العبيد
٥٧	ثالثاً : العبودية بسبب الدين
٥٨	رابعاً : العبودية بسبب الفقر والمجاعة
٥٩	خامساً : ملاحظات حول العبودية الشرقية
٦٢	المبحث الرابع: التنظيم الاقتصادي
٦٢	أولاً : السلطة / الدولة
٦٤	ثانياً : الملكية
٦٦	ثالثاً : الضرائب
٦٩	رابعاً : القروض والربا
٧١	خامساً : النقود
٧٤	سادساً : التجارة
٧٧	هوامش ومصادر الفصل الثاني

### الفصل الثالث

#### الفكر الاقتصادي في العهد القديم الأوربي

٨١	تمهيد
٨٣	المبحث الأول: الفكر الاقتصادي عند الإغريق (اليونانيين)
٨٤	أولاً : طبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية
٨٤	ثانياً : المعالم الرئيسة لأفكار فلاسفة اليونان
٨٧	المبحث الثاني: أعلام الفكر اليوناني
٩٠	أولاً : أفلاطون
٩٠	نظرات أفلاطون في المسائل الاقتصادية
٩٣	١- الملكية الخاصة
٩٤	٢- تدخل الدولة
٩٤	٣- تقسيم السكان
٩٥	٤- النقد والقيمة والتجارة
٩٦	ثانياً : كسينافون
٩٧	١- إدارة الاقتصاد
٩٧	٢- الموقف من الزراعة والحرفة
٩٨	٣- البطرة الى البضاعة والقيمة
٩٨	٤- النظرة الى النقود
٩٩	ثالثاً : أرسطو
٩٩	١- فلسفة أرسطو
٩٩	٢- أرسطو وأيديولوجية المجتمع العبودي
١٠٠	٣- الموقف من الملكية
١٠١	٤- أفكار أرسطو عن البضاعة
١٠٣	٥- الموقف من الدولة
١٠٤	٦- أرسطو والفعالية الاقتصادية
١٠٤	٧- الموقف من الربا والفائدة

١٠٦	٨- النظرة الى النقود
١٠٧	المبحث الثالث: الفكر الاقتصادي عند الرومان
١٠٧	أولا : الملامح الأساسية للفكر الروماني
١٠٩	ثانيا : أعلام الفكر الروماني
١٠٩	١- كاتون
١١٠	٢- فارون
١١١	٣- كالوميل
١١٣	هوامش ومصادر الفصل الثالث
	الفصل الرابع
١١٥	الفكر الاقتصادي الأوربي الوسيط
١١٧	تمهيد
١١٩	المبحث الأول: طبيعة وبنية المجتمع الإقطاعي
١١٩	أولا: الأساس المادي للفكر الاقتصادي الوسيط
١٢٠	ثانيا : طبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية
١٢٣	ثالثاً: خصائص النظام الإقطاعي
١٢٥	المبحث الثاني: المدرسة السكولانية
١٢٥	أولا : مفهوم المدرسة
١٢٨	ثانيا : المصادر الرئيسة للفكر الاقتصادي المدرسي
١٢٩	١- الكتاب المقدس والتعاليم الدينية
١٣١	٢- التعاليم الكنسية
١٣١	٣- الفلسفة اليونانية
١٣٣	المبحث الثالث: أبرز أعلام المدرسة السكولانية (توماس الإكويني)
١٣٣	أولا : حياته
١٣٤	ثانيا : النظرات الاقتصادية
١٤٧	هوامش ومصادر الفصل الرابع

	الفصل الخامس
١٥١	الفكر الاقتصادي الإسلامي
١٥٣	تمهيد
١٥٦	المبحث الأول: الأسس المادية والفكرية
١٥٦	أولاً : الحالة الاقتصادية الاجتماعية
١٥٦	١- طبيعة النشاط الاقتصادي
١٥٨	٢- الفئات الاجتماعية
١٥٨	٣- الملكية
١٥٩	ثانياً : مكانة الفكر الإسلامي من الفكر العالمي
١٦٤	ثالثاً : مصادر الفكر الاقتصادي الإسلامي
١٦٥	١- القرآن الكريم والسنة النبوية
١٦٦	٢- أطروحات علماء المسلمين
١٦٧	رابعاً: القوانين الأساسية للنظام الإسلامي
١٦٧	١- قانون التسخير
١٦٨	٢- قانون الاستحلاف
١٧٠	المبحث الثاني: المنظور الإسلامي للمشكلة الاقتصادية والاستحلاف
١٧٠	أولاً : المشكلة الاقتصادية
١٧١	١- المنظور الرأسمالي
١٧٣	٢- المنظور الاشتراكي
١٧٥	٣- المنظور الإسلامي
١٧٧	ثانياً : الاستحلاف ( الملكية )
١٧٧	١- مفهوم الاستحلاف
١٧٩	٢- ضوابط ومحددات الاستحلاف
١٨١	٣- إشكال الاستحلاف
١٨٤	المبحث الثالث: النظريات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام
١٨٤	أولاً : نظرية الأسعار

١٨٩	ثانيا : نظرية الأجور
١٩٣	ثالثا : نظرية التوزيع
١٩٦	رابعا : نظرية الاستهلاك
٢٠٤	خامسا : نظرية التكافل الاجتماعي
٢٠٩	المبحث الرابع: أعلام الفكر الإسلامي
٢١٠	أولا : ابن خلدون
٢١٠	- نظرات ابن خلدون الاقتصادية
٢١٠	أ- الملكية
٢١١	ب- المذهب الاقتصادي
٢١٢	ت- العمل وقيمة السلعة
٢١٣	ج- المشكلة الاقتصادية
٢١٤	ثانيا : المقرئزي
٢١٤	١- حياته
٢١٥	٢- منهج المقرئزي
٢١٦	٣- تحليل المقرئزي للأزمة الاقتصادية
٢١٧	٤- العلاء والتضخم
٢١٨	٥- السيولة النقدية
٢٢١	هوامش ومصادر الفصل الخامس

#### الفصل السادس

٢٢٩	الفكر الاقتصادي للمدرسة التجارية
٢٣١	تمهيد
٢٣٤	المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية الداعمة لظهور المذهب التجاري
٢٣٥	أولا : الاستغلال المتزايد لرقيق الأرض
٢٣٧	ثانيا : الاستكشافات الجغرافية
٢٣٩	ثالثا : تراجع سلطة الكنيسة

٢٤١	رابعاً : ظهور الدولة القومية
٢٤٤	المبحث الثاني: الانتقال إلى غمط الإنتاج الرأسمالي
٢٤٤	أولاً : طبيعة التحولات في القطاعات الاقتصادية
٢٤٤	١- القطاع الحرفي
٢٤٧	٢- القطاع الزراعي
٢٤٨	ثانياً : شروط الإنتاج الرأسمالي
٢٤٩	ثالثاً : مصادر التراكم الأولي (البداية) لرأس المال
٢٤٩	١- عملية التسييج
٢٥٠	٢- النشاطات الربوية
٢٥٠	٣- نهب المستعمرات
٢٥١	٤- التبادل اللامتكافئ
٢٥٣	المبحث الثالث: جوهر الفكر التجاري والأفكار المشتركة
٢٥٣	أولاً : جوهر الماركنتيلية
٢٥٥	ثانياً : الأفكار المشتركة للماركنتيليين
٢٥٨	المبحث الرابع: السياسات الاقتصادية للماركنتيليين
٢٥٨	أولاً : السياسة المعدنية في أسبانيا
٢٦٠	ثانياً : السياسة الصناعية في فرنسا
٢٦٣	ثالثاً : السياسة التجارية في إنكلترا
٢٦٥	المبحث الخامس: أعلام المدرسة التجارية
٢٦٥	أولاً: توماس مان
٢٦٩	ثانياً. جون بودان
٢٧١	ثالثاً: وليم بتي
٢٧٩	هوامش ومصادر الفصل السادس



## الفصل السابع

٢٨٣	المذهب الطبيعي (الفيزوقراطي)
٢٨٥	تمهيد
٢٨٧	المبحث الأول: مصادر المذهب الطبيعي
٢٩٠	المبحث الثاني: الآراء الاقتصادية للطبيين
٢٩٠	أولا : فكرة النظام الطبيعي
٢٩٢	ثانيا : الإنتاج
٢٩٣	ثالثا : الأحرار وسعر الفائدة
٢٩٤	رابعا : الجدول الاقتصادي
٢٩٦	خامسا : نظرية التجارة الخارجية
٢٩٨	سادسا : الضريبة الواحدة
٣٠٠	سابعا : الدولة
٣٠٣	المبحث الثالث: أبرز أعلام الفكر الطبيعي ( ت ر ج و )
٣٠٣	أولا : حياته
٣٠٤	ثانيا : آراؤه الاقتصادية
٣٠٤	١- تقسيم المجتمع
٣٠٦	٢- الربح والفائدة
٣٠٦	٣- التراكم الرأسمالي
٣٠٧	٤- الموضوعات الاقتصادية الأخرى
٣٠٨	هوامش ومصادر الفصل السابع

## الفصل الثامن

٣٠٩	المكر الكلاسيكي
٣١١	تمهيد
٣١٣	المبحث الأول: الوسط التاريخي والتطورات المادية والفكرية
٣١٤	أولا: تكوين البناء النظري الكلاسيكي

٣١٥	ثانيا: التطورات المادية
٣١٧	المبحث الثاني: الآراء الاقتصادية لمؤسس المدرسة الكلاسيكية
٣١٧	أولا: منهجية البحث
٣١٨	ثانيا: الفلسفة الاقتصادية
٣٢٠	ثالثا: السياسة الاقتصادية
٣٢٠	رابعا: الدولة
٣٢٢	خامسا: مفهوم القيمة
٣٢٤	سادسا: الثروة
٣٢٥	سابعاً: الربح
٣٢٦	ثامنا: الأجور
٣٢٧	تاسعا: التجارة الخارجية
٣٢٩	المبحث الثالث: أبرز أعلام الفكر الكلاسيكي
٣٢٩	أولا: ديفيد ريكاردو
٣٢٩	١- التكوين المعرفي
٣٣٠	٢- منهجية البحث
٣٣٠	٣- نظرية التوزيع
٣٣٢	٤- الربح
٣٣٤	٥- القيمة
٣٣٦	٦- الأجور
٣٣٧	نظرية التجارة الخارجية
٣٣٩	ثانيا : توماس روبرت مالثوس
٣٣٩	١- التكوين المعرفي والمنهج
٣٤٠	٢- نظرية مالثوس في السكان
٣٤٢	٣- نقد نظرية مالثوس
٣٤٢	٤- نظرية مالثوس في القيمة

٣٤٤	٥- نظرية الأزمة الاقتصادية
٣٤٦	هوامش ومصادر الفصل الثامن
	<b>الفصل التاسع</b>
٣٤٩	الأفكار الرومانسية والإصلاحية الاجتماعية في الاقتصاد
٣٥١	تمهيد
٣٥٣	المبحث الأول: الرومانسية الاقتصادية
٣٥٤	سيسموني
٣٥٤	أولاً: النشاط الفكري والمنهج
٣٥٥	ثانياً: الأفكار الاقتصادية
٣٥٥	١- نقد الفلسفة الاقتصادية
٣٥٦	٢- القيمة والتوزيع
٣٥٧	٣- الأزمة الاقتصادية
٣٥٨	المبحث الثاني: الإصلاحية
٣٥٨	أولاً: سان سيمون
٣٥٨	١- النشاط الفكري والمنهج
٣٥٩	٢- الحرية والملكية
٣٦٠	٣- التنظيم الصناعي
٣٦١	ثانياً: كارل رودبيرتس
٣٦١	١- النشاط الفكري والمنهج
٣٦٢	٢- نظرية النمو التاريخي
٣٦٣	٣- الإنتاج
٣٦٣	٤- التوزيع
٣٦٦	هوامش الفصل التاسع

	الفصل العاشر
٣٦٧	الفكر الاشتراكي
٣٦٩	تمهيد
٣٧١	المبحث الأول: الاشتراكية المثالية (الخيالية) والفوضوية
٣٧١	أولاً: الاشتراكية الخيالية: روبرت أوبن
٣٧٢	١- النشاط الفكري والعلمي
٣٧٤	٢- نظرية القيمة
٣٧٥	٣- الربح
٣٧٦	٤- أفكار أخرى
٣٧٦	ثانياً : الاشتراكية الفوضوية (جوزيف برودون)
٣٧٦	١- المفهوم والتكوين
٣٧٨	٢- المنهج الفكري
٣٧٩	٣- الملكية الخاصة
٣٨٠	٤- العدالة
٣٨١	المبحث الثاني: الفكر الاشتراكي الماركسي (كارل ماركس)
٣٨٣	أولاً: النظام الفكري الماركسي
٣٨٥	ثانياً: الأفكار الاقتصادية
٣٨٥	١- نظرية القيمة
٣٨٦	٢- نظرية فائض القيمة
٣٨٨	٣- نظرية التركيب العضوي لرأس المال
٣٩٠	٤- نظرية اتجاه معدل الربح نحو الانخفاض وحدوث الازمات
٣٩٢	ثالثاً: تقويم الماركسية
٣٩٤	هوامش ومصادر الفصل العاشر

## الفصل الحادي عشر

### المدرسة الحدية

٣٩٧

#### تمهيد

٣٩٩

#### المبحث الأول: أسس التحليل الحدي

٤٠١

##### أولاً : منهجية البحث

٤٠١

##### ثانياً : مذهب الحدية

٤٠٢

##### ثالثاً : المفهوم الذاتي للقيمة

٤٠٣

#### المبحث الثاني: أعلام المدرسة الحدية

٤٠٥

##### أولاً : التيار المساوي (كارل منجر)

٤٠٥

##### ١- الأفكار العامة

٤٠٥

##### ٢- الثروة والقيمة

٤٠٦

##### ٣- السعر

٤٠٧

##### ثانياً : التيار الحدي في لندن (جيفونر)

٤٠٨

##### ١- الأفكار العامة

٤٠٨

##### ٢- تحليل المنفعة

٤٠٩

##### ٣- القيمة

٤١٠

#### هوامش ومصادر الفصل الحادي عشر

٤١٣

## الفصل الثاني عشر

### مدرسة التوازن العام

٤١٣

#### تمهيد

٤١٥

#### المبحث الأول: ليون والراس

٤١٧

##### أولاً : التكوين المعرفي والمنهج

٤١٧

##### ثانياً. تحليل ظاهرة تداحل المنفعة - الندرة

٤١٨

##### ثالثاً: نظرية التوازن العام

٤١٩

##### رابعاً: انتقاد آراء والراس

٤٢١

٤٢٢	المبحث الثاني: الفريد مارشال
٤٢٢	أولاً: أهمية فكر مارشال
٤٢٤	ثانياً: منهج البحث
٤٢٥	ثالثاً: نظرية القيمة والتوزيع
٤٢٧	رابعاً: التوازن الجزئي
٤٢٨	خامساً: انتقاد آراء مارشال
٤٢٩	المبحث الثالث: فليفريدو باريتو
٤٢٩	أولاً: التكوين المعرفي
٤٣٠	ثانياً: أمثلة باريتو
٤٣٢	هوامش الفصل الثاني عشر

### الفصل الثالث عشر

٤٣٣	الفكر الكينزي
٤٣٥	تمهيد
٤٣٦	المبحث الأول: مسوغات ظهور الفكر الكينزي
٤٣٦	أولاً: التكوين المعرفي
٤٣٨	ثانياً: أزمة الفكر الرأسمالي
٤٤٢	المبحث الثاني: الآراء الاقتصادية الكينزية
٤٤٢	أولاً: البطالة والاستخدام
٤٤٤	ثانياً: الدولة والسياسات المالية
٤٤٥	ثالثاً: السياسة النقدية
٤٤٧	هوامش الفصل الثالث عشر

## الفصل الرابع عشر

٤٤٩	المدرسة النقدية وتياراتها الرئيسة
٤٥١	تمهيد
٤٥٣	المبحث الأول: أسس الفكر النقدي
٤٥٥	المبحث الثاني: التيارات الرئيسة للمدرسة النقدية
٤٥٥	أولاً: تيار التوقعات العقلانية
٤٥٥	١- المرجعية الفكرية
٤٥٦	٢- التضخم
٤٥٧	٣- السياسة الاقتصادية
٤٥٨	٤- السياسة المالية
٤٦٠	٥- أسواق الأسهم والسندات
٤٦١	ثانياً: تيار اقتصاديات جانب العرض
٤٦٣	هوامش الفصل الرابع عشر

## الفصل الخامس عشر

٤٦٥	حصار الطوائف في الفكر الاقتصادي
٤٦٧	تمهيد
٤٦٩	المبحث الأول: فكر النشأة والتوسع الرأسمالي
٤٦٩	أولاً: أسس الفكر الاقتصادي المنظم
٤٧٢	ثانياً: الفكر الاقتصادي للتوسع الرأسمالي
٤٧٥	ثالثاً: النظرية الاقتصادية للتوسع الرأسمالي
٤٨٠	المبحث الثاني: الفكر الاقتصادي للرأسمالية الحديثة
٤٨٠	أولاً: الفكر الاقتصادي في القرن العشرين
٤٨٣	ثانياً: الفكر الاقتصادي للرأسمالية المعولمة
٤٨٧	هوامش الفصل الخامس عشر

	الفصل السادس عشر
٤٨٩	الفكر الاقتصادي في العالم الثالث
٤٩١	تمهيد
٤٩٣	المبحث الأول: أطروحات مدرسة التبعية
٤٩٣	أولاً: التوجهات العامة
٤٩٧	ثانياً: نظرية التبعية
٤٩٨	ثالثاً: الدولة التابعة
٥٠١	المبحث الثاني: أطروحات الماركسيين الجدد (سمير أمين)
٥٠١	أولاً: حياته ومؤلفاته
٥٠٤	ثانياً: الإشكالية الأساسية في فكر سمير أمين
٥٠٥	ثالثاً: الأفكار الاقتصادية
٥٠٦	١- الرأسمالية : النية والتحول والآليات
٥٠٩	٢- النظام العالمي
٥١٤	٣- قانون القيمة في الأطراف
٥١٧	٤- تمفصل أنماط الإنتاج
٥٢٠	٥- تعاقب التشكيلات الاقتصادية – الاجتماعية
٥٢٢	هوامش الفصل السادس عشر





## مقدمة

ثمة حقيقة أساسية يواحبها من يسر غور البحث في تاريخ الأفكار الاقتصادية، وهي مواجهته لإشكالية مركبة، تتورع مابين إشكالية المنهج (أو الملهجية)، التي يعتمد عليها الباحث في دراسة تطور هذا الفكر والارتباط المتصل بين التاريخ "كحوادث" جرت في زمان ومكان معينين وانعكاساتها على الفكر الاقتصادي.

إن السعي الحثيث للبشر في التفكير في كمة الوجود، يعبر عن وعي العقل الإنساني بجوهر مكونات علمه، فالتفكير في طبيعة الأشياء والظواهرات، هي عملية مستمرة نستدل عليها من التاريخ المكتوب للبشرية، والتي نرعت شيئاً فشيئاً نحو الملهجية المنظمة، مستفيدة من التركيم المعرفي المستمر وتطور أدوات التحليل لتصبح أكثر انتظاماً وتعمقاً.

لذلك فأنا في إطار بحثنا نجد أن هالك نوعين من التفكير، أحدهما فكر متخصص أقصى له النشاط الذهني العلمي والممهج كنتاج للتدقيق الواعي والفعلي، سواءً بالبرهان الحسي أم بالتجربة، والآخر تفكير معرفي عام ذو صعة انطباعية لا يرتقي إلى أنشاء الفكرة ذات المضمون العلمي.

على وفق ذلك فإن التفكير بالطواهر المحيطة بالإنسان عبر تاريخه الممتد لآلاف السنين لم ينقطع يوماً ما، من هنا تستدي تلكم الصلة العضوية بين "الطابع التاريخي" والفكر، والاقتصادي ليس بمأى عنه، وأن كانت لكل مجتمع شواعله الرئيسة في كل مرحلة، فقد أشغل البابليون في إقامة المعابد للآلهة والسعي لأرضائها والتقرب إليها، فإن الاثنيين (الإغريق) اهتموا بفلسفة والسياسة، ومثلهم الرومان بالقوانين المتعددة لإدارة إمبراطوريتهم، إلى أن وصل الأمر بأهل القرون الوسطى الأوربية المدفعين صوب إضفاء الطابع الكسبي على مجتمعاتهم، ثم الاهتمام بالفيزياء والفلك والكيمياء والتجارة أبان عصر التنوير والنهضة.

إن اللافت للنظر في كل ذلك هو حضور الاقتصاد باستمرار كقاسم مشترك، وشغل شاغل للإنسان من أجل الحفاظ على وجوده وديمومته وحفظ نوعه، ليصل طرداً مع التطور إلى عصر الصناعات الفائقة، فتتاج الحصار التاريخية للمجتمعات، هو أنبية مشحونة معبرة عن المعنى والمضمون في مراحل مختلفة من تاريخها.

فيمكن التعرف على السومريين عبر الكتابة (السومرية) المميرة، وأستدل على الأكديين عبر (حصارة الرقورات) في دولة أكد والوركاء، وحمورابي عبر قوانينه الواردة في مسئلة المشهورة، والأهرامات نتاجاً لحصارة الفراعنة، والإغريق والرومان من خلال معابدهم وملاعب القتال والمسارح هذه الموجودات المادية ليست المحسدة في أطهار الشخصية الحصارية فقط بل المركبت الثقافية هي الجزء الآخر من شواخصها، فالألياذة والألياذة والشهامة وملحمة كلكامش ومجلس النسوة مثلت معالم لتراثها الفكري.

وعليه الأفكار الاقتصادية هي دائماً نتاج لزمانها ومكانها، وهي انعكاس للواقع، وعلى وفق ذلك لا يمكن النظر إليها بعيداً عن العالم الذي تفسره - ومثلما يتغير العالم (وهو في الواقع في تحول مستمر)، فإن هذه الأفكار لابد أن تتغير أيضاً، أذا أريد لها أن تحتفظ بأهميتها.

فلم يكن بالمستطاع فهم الحاضر الذي نعيشه دون التحقيق في الماضي السحيق لتاريخ البشرية، فالماضي موحود في الحاضر بهذه الدرجة أم تلك، والمستقبل سيستبقي حتماً الجوانب الفعلة لما هو موجود الآن.

في هذا المؤلف لا أريد أن أبحث في الفكر الاقتصادي المحرد فحسب بل في تأريحية هذا الفكر، إذ أن هذا الأخير عاش في كنف مجتمعه وأحداثه، تأثر وأثر في آن واحد، وعندئذ نصبح ليس أمام تأريخ محرد للإنسانية، أو عده رواية غامضة الأحداث لا نجد لها تفسيراً، بل هو في الحقيقة عملية أنسية للظواهر المشحونة لهذا التأريخ فمادة البحث لا تنطق بنفسها إلا عن وجودها الزمني، وهي لا تملك إلا

هويتها الوجودية، إما عدا ذلك فهو قراءة تحاول استنتاج معنى ما كان له معنى، وإعطاء نوع من المعنى لما كان يقدم نفسه بلا معنى تماماً، كما يفعل عالم الآثار.

إن التفاعل الجدلي بين نمو النظرية ونمو المنهج العلمي وأساليبه، يعد أمراً ضرورياً ولازماً، فمن يفكر ينظر بلا ملاحظة (بحث ومنهج)، وكذا الحال لمن يلاحظ بلا فكر، فكل منهما لا يصل إلى حقائق دقيقة ذات معنى، وأن وصل، فأما إلى تجريدات غير مبرهنة، أو إلى أكوام من الورق فاقدة الروح والمعنى!.

والمنهج المعتمد في هذا المؤلف حرص على إقامة صلة وثيقة بين وقائع التاريخ والفكر الاقتصادي وتبلور النظرية الاقتصادية، في إطار المرحلة التاريخية الموصوفة اجتماعياً واقتصادياً، بحانب ضامن وحدة الرؤيا في تحسير الفجوة المفترضة ما بين الفكر الحديث (والمعاصر) وما بين الفكر الاقتصادي السابق.

إذا عمدنا إلى بيان دور المفكرين الإسلاميين في تأصيل طواهر اقتصادية محددة وشاخصة، والآتيان بفكر اقتصادي ظل بعض منه يتداوله السائحون إلى الآن، كدلالة موضوعية على وحدة الفكر الإنساني وتفاعله المتبادل.

لقد أسعفتني حربي في تدريس مادة تأريخ الفكر الاقتصادي لسنوات طويلة في الدراسات الأولية والعليا في جامعات نابل والقادسية وكريلاء والبهرين، والاطلاع على المصادر المختلفة، من توصيف وتحديد ما يقع ضمنها وما تم استبعاده قسراً سواءاً، من قبل الكتاب الأوربيين الذين عدو الفكر نتاجاً أوريبياً حالصاً، يبدأ عبد الإغريق والرومان، أم أولئك الكتاب العرب الذين تصهلوا تاريخ أمتهم وما أنجزه مفكروهم سواء في حضارة بابل أم في مصر مروراً بالمفكرين الإسلاميين أبان عصر النهضة الإسلامية.

إن المتتبع الحذق واللماح لمجريات تطو الفكر الاقتصادي يكشف من أن الباء الفكري جاء تراكمياً، وليس بقفزات أو انقطاعات تاريخية. فالسوء الكلاسيكي جاء على وفق جهود وإرهاصات الفكر الفيزوقراطي (الطبيعي)، في حين جاءت

المريدمانية على خلفية الفكر الكلاسيكي مع التحديد، بينما رأيت الكيربية أن العودة الى بعض  
مرتكرات المرحلة الماركنتيلية كفيل بإعطاء دفع فكري جديد.

وهكذا فان الفكر لا يولد من فراغ بل هو تعبير عن واقع حقيقي وليس يوتوبي، أي انه فعلاً  
انعكاس للواقع وتعبير متقدم عليه، لذلك لا يمكن الركون الى أطروحة بعينها على أنها مسك الختام،  
طالما أن الحياة ممتدة الى ما شاء الله (سبحانه وتعالى) (أن الساعة آتية لا ريب فيها).

ما لا أحده تسويعاً هو أن الإمام بكل محررات الفكر الاقتصادي الإنساني وجمعها وتبويبها  
هو خارج المتصور المعقول أو الممكن، وحسبي أنني احتهدت بما وفقني الله إليه، أملاً أن يكون  
هذا الجزء كما هو الجزء الأول موقراً الفرصة للحد الأدنى من المعرفة في هذا المجال، ويطر الإطلاع  
والقراءة مكمناً للإمام بالفكر الاقتصادي، وما الكمال إلا الله حلت قدرته فهو العليم بكل شيء

في نهاية مطاف هذا مع الفكر الاقتصادي لمرحلة تاريخية امتدت من ٢٥٠٠ ق.م إلى نهايات  
القرن العشرين، أشكر الله سبحانه وتعالى الشكر كله على ما وفقني إليه.

وفي خواتيم هذا التقديم، أود الإشارة إلى أنني حاولت قدر ما استطعت أن أكون حيادياً في  
عرض الموضوعات دور إطلاق التقديرات المسبقة على رصانة الأفكار أم عدمها، سائلاً المولى عز  
وجل أن يوفقنا لما هو خير الناس، شاكراً لكل من كان له فصل المساعدة والدعم والتشجيع لإخراج  
هذا المؤلف والله يجزيهم خير الجزاء.

ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، فالتشجيع الذي لقيته من أخواني وزملائي الأكاديميين العراقيين  
لمخلصين الشرفاء في مختلف الجامعات، كنت استمد منهم قوتي متى ما فترت عرمتي، شكري العميم  
لمن كان لهم الفصل علي في مراحل دراستي كافة، وفي مقدمتهم أساتذتي الذين لن أنساهم ما حييت  
رحمهم الله جميعاً، وأسكنهم فسيح جناته، الدكتور فاضل عباس الحسب، هاشم علون السامرائي،

الدكتور علاء شفيق الراوي، الدكتور خزعل اليرماني، الدكتور خزعل مهدي الجاسم، الدين نهلت من ينبوع علمهم وفكرهم ما يحفزني دوماً.

وللأستاذة الأجلة الأستاذ الدكتور سالم توفيق البجفي -جامعة الموصل والأستاذ الدكتور علي عبد محمد سعيد الراوي- جامعة بغداد، والأستاذ الدكتور أسامة عبد المحيد العاني-الجامعة المستنصرية، الحراء والمقومين العلميين لهذا للكتاب، الذي أريد له ان يغطي جميع المفردات المقررة لمادة الفكر الاقتصادي في اقسام الاقتصاد للجامعات العراقية.

والشكر موصول لعائلتي التي وفرت ما استطاعت لي في ظرف العراق الاستثنائي بامتياز، للبحث والتأليف بدءً من زوجتي العزيزة وحييائي باقي (عفران- وديان- بان- زينب) وقرة عيني ولدي الوحيد(سلوان)، لهم محبتي وما بقي لي من عمري.

**المؤلف**

**بابل- العراق**

**٢٠١١**



## **الفصل الأول**

### **مدخل لدراسة تاريخ الفكر الاقتصادي**





## الفصل الأول

### مدخل لدراسة تاريخ الأفكار الاقتصادية

#### تمهيد

إن تطور الفكر الاقتصادي لم يكن سوى نتاج تطور الأحداث الاقتصادية أي الوقائع الاقتصادية، وتاريخ الفكر هو تاريخ الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض وأحس بالحقيقة الأساسية وهي حاجاته المتعددة والمتطورة على الدوام وموارده المحدودة نسبياً ومن ارتباطهما تتدفق المشكلات والظواهر الاقتصادية ليأتي الفكر الاقتصادي انعكاساً لهذه الوقائع محاولاً تحسيدها والتعبير عنها.

ولما كن الاقتصادي منذ بدايات التنظير له اجتماعياً- تاريخياً فإن استخدام مقولاته وأفكاره بشكل معمم يصح لكل زمان ومكان من شأنه أن يصادر حقيقة التاريخ ويفقده صفة العلمية، كما أن ارتباط الاقتصادي بمطومة مبادئ قيمية معينة يجعله ذا سمة أخلاقية وبعيائها يفقد صفته العلمية أيضاً.

لهذا نجد في دراستنا لتاريخ الأفكار الاقتصادية أن هذه المنظومات من الممكن أن تكون عاملاً مسانداً مدافعاً للإنسان في محاولته لفهم الروابط التي تتحكم بالظواهر الاقتصادية ليكشف عن القوانين التي تحكم هذه الظواهر أو تكبح جماح سعيه نحو ذلك.

ودراسة الفكر الاقتصادي من خلال التطور التاريخي للمجتمعات يعني أن غرضنا الأساس هو دراسة النتائج التي تمخض عنها هذا التطور لأن تاريخ كل علم جزء لا يتجزأ من هذا العلم فندرس لعلم الاقتصاد سيلا حظ بسهولة أن معرفة تاريخ تطور هذا الفكر تحتل أهمية كبيرة، مقارنة بالعلوم الأخرى، فقد لا يحتاج طالب الطب أو الرياضيات بصورة حتمية إلى دراسة تاريخ تطور هذه العلوم. بسبب من أن فهم النظريات الاقتصادية الحديثة لا يتم إلا في ضوء الآراء والمفاهيم السابقة.

وتتقود تطورات الحياة الاقتصادية والنشاط الاقتصادي من محدودية المشكلات إلى تسارعها وشموليتها ومن الانعلاق إلى الانفتاح الواسع في العلاقات الاقتصادية إلى سد الاقتصاد على مجرد الإنتاج أو التوزيع الأولي إلى الاهتمام بالمشكلات العالمية وما يكتنف الاقتصاد المحلي من آثار بسببها.

وبهذا فإن تاريخ الفكر يظل ملازماً لتاريخ الوقائع، وفي كل مرة يحاول الإنسان أن يعدل ويضيف وأن يبتكر أو يغير من أفكاره بما يتناسب مع محريات الأحداث والوقائع. وبغية استكمال الإطار المفاهيمي لمادة تاريخ الفكر الاقتصادي سنتناول موضوعات متفرقة تشكل مدخلاً مناسباً لكي يكون الولوج إلى دراسته منتظماً وهي:

أولاً: أهمية مادة تاريخ الفكر الاقتصادي

ويمكن بيان ذلك في ضوء النقاط الآتية:

إن دراسة تاريخ الفكر الاقتصادي تعطي الفرصة لفهم النظريات الاقتصادية المعاصرة، طالما أن الفكر الاقتصادي هو سلسلة مترابطة الحلقات، والأفكار الاقتصادية هي ليست تركيبات منطقية محدودة يمكن الإلمام بها بداتها والافتقار عليها، بل الحقيقة تشير أن أية مجهودات موضوعية لكشف حقائق الاقتصاد المعاصر تتضمن بالاحتتم مجهودات مفكرين سابقين، والفكر بمجمله هيكر بناء قائم على أسس ولكل مفكر دور فيه.

تجنب دراسة تاريخ الفكر خطورة التجريد الشائع في العلوم الأخرى وتصهي على علم الاقتصاد طابعاً عملياً، ومؤكدة إسهامه في تيار الفكر العام من ناحية، وأهمية الجوانب الأخلاقية والاجتماعية من ناحية أخرى.

إدراك نسبية Relativity الأفكار الاقتصادية وعدم تمتعها بقيم مطلقة وتوقفها على الظروف الزمانية والمكانية مما يؤكد أهمية التمييز بين الاقتصاد كمجموعة

قوانين موضوعية وبين التفسيرات المختلفة لها انطلاقاً من اختلاف المنهج Method واختلاف الفلسفة.

تعد دراسة الفكر الاقتصادي مهمة لإثبات استمرارية الفكر ووحدة منذ العصور القديمة وحتى الآن، ويلغي تماماً الطروحات التي تشير إلى وجود فترات انقطاع فكري ولا سيما في العصور الوسطى.

يمكن ملاحظة أن التفكير الاقتصادي لكل عصر يظل رهناً بطبيعة المشكلات والوقائع الخاصة به والتي من الممكن أن تكون مختلفة عن غيره من العصور، والفكر يتأثر بدرجة كبيرة بالواقع الاقتصادي الموجود.

تفيدنا دراسة الفكر الاقتصادي في إثبات أن الفكر الاقتصادي الإسلامي جزء لا يتجزأ من الفكر الإنساني وهو حلقة مهمة من حلقات هذا الفكر وليس معزولاً عنها تبعاً لمبدأ التفاعل بين الحضارات الإنسانية.

ثانياً: عناصر الفكر الاقتصادي

#### ١- التحليل الاقتصادي أو النظرية الاقتصادية

(Economic analysis or Economic theory)

ويقصد بها تلك الدراسة العلمية التي تهدف إلى الكشف عن القوانين والروابط التي تحكم العلاقات والطواهر الاقتصادية المختلفة وتحاول اكتشاف عللها وأسبابها، وترصد ردود الفعل التي تحدث في السلوك الاقتصادي، وتشخص الآلية (ميكانيزم) التي تسير بموجبها والقوانين التي تحكمها وتبدو مهمة الاقتصادي في هذا الجانب لا تخرج عن سياق كشف تلك القوانين وتحديد ما دون أن يصدر أي حكم عليها.

هذا الدور يتطابق مع دور عالم الطبيعة أو الكيميائي في كشف الطواهر الطبيعية وبيان القوانين التي تخضع لها من دون أن يتدخل للحكم عليها.

## ٢- السياسة الاقتصادية (Economic policy)

وتعني دراسة أفضل السبل أو الوسائل التي يمكن أن تعتمد عليها السلطات العامة بغية تحقيق هدف معين أو غاية معينة، ولهذا توسم السياسة العامة بأنها عائية، وهذا يعني دراسة أحسن الطرق لتحقيق أهداف معينة، من مثل هل يستحسن ترك الحياة الاقتصادية حرة من دون تدخل من جانب الحكومة؟ أو قيام الحكومة بالتدخل لتحقيق أكبر قسط من إشباع الحاجات الأساسية ومن ثم الوصول إلى درجة معينة من الرفاهية الاقتصادية.

ويأتي في السياق نفسه إمكانية دراسة أفضل السبل لكبح جماح التضخم من خلال اعتماد سياسات نقدية أم مالية وكذلك الحال ما هي السياسات التي يمكن من خلالها معالجة أوضاع البطالة عى أن أية سياسة مطلوب تطبيقها يجب دراستها بعمق وبيان إمكانية وصولها إلى أهدافها المحددة عن طريق تحليل آليات هذه السياسة.

## ٣- المذهب الاقتصادي

ويعني اتخاذ الباحث موقفاً معيناً بالحكم على نظام اقتصادي معين، فيقبله أو يرفضه، يدافع عنه أو يعدل عنه أو بتعبير آخر يتخذ الباحث من الفكر الاقتصادي موقفاً مذهبياً، مطلقاً من تفصيله لنظام اقتصادي على آخر، مضمناً في ذلك انحيازه السياسي، وتفضيله لقيم معينة، من دور وجود حجة علمية مجردة من مثل تفصيل النظام الرأسمالي بصورته الحرة المطلقة ومن دور تدخل الدولة، أو نقد لبعض الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فيه واقتراحهم لنظام اقتصادي بديل عنه.

وعليه فإن المذهب الاقتصادي، هو (مجموعة من الآراء تنطلق من الواقع الاقتصادي في ظل مرحلة تاريخية معينة، لتدافع عن وجهات نظر معينة تعبر عن اختيارات أيديولوجية، تستوحي كنهها من مبادئ وأحكام متعلقة بالأنظمة والبنى الاقتصادية).

ثالثاً: الفكر الاقتصادي والفلسفة :

#### ١- الفكر الاقتصادي والفلسفة الاجتماعية

تقف وراء كل الفكر الاقتصادي القديم منه والحديث فلسفة اجتماعية هي بتعبير شتارك (مجموعة الأفكار والمثل الاجتماعية التي صدر عنها في الأصل)، وهناك اختلاف بين المدارس المحتمنة حول ماهية الفلسفة المذكورة، وعدّ هذا الكاتب ممثلاً لفلسفة معينة دون غيره، على أن هذا يؤكد الصلة بين الفلسفة الاجتماعية وطبيعة التحليل الاقتصادي، طالما أن الفكر الاقتصادي يتغذى من جذرين هما الحذر الفلسفي (الصورة العالمية للحياة الاجتماعية بحسب تعبير شتافنهاكن)، والجذر العلمي أي الآراء والحلول لمشاكل الحياة الاقتصادية العملية الصادرة عن الساسة ورجال الأعمال). وخير من دافع عن ارتباط الفكر بالفلسفة الاجتماعية هو الأمريكي أوفرتر تيلر في كتابه (تاريخ الفكر الاقتصادي- المثل الاجتماعية والنظريات الاقتصادية من كيناي إلى كينر)، مؤكداً أن عالم المعرفة والفكر والبحث والمناقشة الفكرية بالرغم من اختلافاته الداخلية، يتميز بوحدة شاملة، تتيح لأحرائه المختلفة إبرة بعضها الآخر، فيما يؤكد في مكان آخر أن الفكر الاقتصادي وفلسفة الاجتماعية، ليس بينهما فرق في الطبيعة، بل مجرد فرق في الدرجة، إذ لا يمكن القول بأي حال من الأحوال، إن الفكر الاقتصادي في جميع تاريخه هو فكر علمي بشكل مطلق، يتمتع بالحياد وعدم التحيز والموضوعية وعدم التأثير بالمعتقدات الشخصية أو الأفكار السائدة في المجتمع، كما لا يمكن عد الفلسفات السياسية والأخلاقية والاجتماعية في جميع عصورها غير متمتعة بأية صفة علمية أو عقلانية أو قابلة على الأقل نسباً للتفسير العلمي.

لهذا يعد العلوم بمعناها الدقيق (وسائل) بينما تحدد الفلسفة الاجتماعية (الغايات والقيم) الأساسية للنشاط الإنساني، ومن الواضح، الارتباط الكلي والدائم بين الغايات والوسائل، لهذا يعد تيلر Tielor الفكر الاقتصادي والفلسفة الاجتماعية

كلاً مركباً، مطبقاً منهجه هذا في دراسته لتاريخ الفكر الاقتصادي، فافتتح كتابه بدراسة شاملة لمناخ الفكري العام في أوروبا إبان عصر التنوير (Enlightenment) والنهضة، ليحدد الإطار الفلسفي العام للإنجازات الاقتصادية للفيثوقراط، ومثل ذلك المنهج طبقه عندما درس أفكار آدم سميث الاقتصادية مبدئياً تعرض نظرية المشاعر الأخلاقية (Theory of Maral Sentiments) لآدم سميث لبيان الفلسفة الاجتماعية السائدة في إنكلترا آنذاك، وعند دراسته للماركسية تناول إجمالي المناخ الفكري الذي تنفس فيه ماركس، ثم عرض جميع أجزاء الماركسية (الفلسفة والتاريخ الاجتماعي والنظرية الاقتصادية)، ولم يحرج عن إطاره هذا عند دراسته لكل المدارس اللاحقة. وعنى الرغم من الجهد الفكري الذي قدمه إلا أن ما يؤاخذ عليه هو المعالجة في هذا الارتباط حتى أصبح يوحي هذا بالريجة المطلقة ما بين المفهومين أو اندماجهما، مع أن الاختلاف بينهما هو في طبيعة الموضوع فكل منهما موضوع محدد مما يعطي السبب لدراسته كل على حدة من دون إهمال الارتباط بينهما كما فعل ذلك جوريف شومبيتر في مؤلفه تأريخ التحليل الاقتصادي.

## ٢- الفكر والفلسفة العامة:

إن الفلسفة منذ القرن الخامس ق.م تطورت باتجاهين هما:

### أ- الاتجاه المثالي:

ويعود تاريخ هذا الاتجاه إلى القرن السادس ق.م بدءاً من السفسطائيين (Sophist's) لاسيما كورجياس، وأهم أفكار هذه المدرسة هي نسبية وداتية المعرفة، أي عدم موضوعيتها، ومن ثم سقراط رائد المثالية الداتية القائمة على أن العالم هو انعكاس للفكر الإنساني وأفلاطون رائد المثالية الموضوعية القائمة على أن (الفكرة المطلقة) - خارج الكون والإنسان هي التي خلقت العالم

يتضمن هذا الاتجاه قدرة العقل على تكوين الأحكام باستقلال عن الظروف المادية، بحيث عدّ الإنسان قوة مستقلة وليس اس الظروف المادية، والطابع المحافظ للنظم الاجتماعية ووجود إرادة إلهية تحكم العالم، وكأمثلة على الفكر المثالي يأتي أغلب مفكري الشرق القديم، بالإضافة إلى أفلاطون وبعض الرواقين وأوعسطين وتوماس الإكويني وبركلي وكانت وهيغل وكونت.

#### ب- الاتجاه المادي

جذور هذا الاتجاه في الفلسفة اليونانية تبدأ عند المدرسة الأيونية، التي نشأت في القرن السابع قبل الميلاد ممثلة بطاليس (Tales)، ومن ثم هيراقليدس (Heraclites) رائد المادية الديالكتيكية وأخيراً المدرسة الأبيقورية نسبة إلى أبيقور (Epicurus) (٣٤١-٢٧٠ ق م) وأهم أفكاره، حرية الكون - وفكرة العقد الاجتماعي - ومذهب السعادة (اللذة والألم)، ومما يؤكد هذا الاتجاه خضوع الإنسان دائماً لمحيطه المادي والإيمان بالفردية والنظام الطبيعي. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنه في ظل هذا المذهب أمكن (حل) نظم القرون الوسطى الدينية والسياسية والأخلاقية. من الواضح أن المثاليين يميلون إلى إنكار أهمية القوانين العلمية في الحياة الاقتصادية وأحياناً حتى إلى إنكار وجود القوانين، ويحولون علم الاقتصاد أقرب إلى (الفن - Art) منه إلى العلم بالمعنى الحقيقي.

بيد، يؤكد الماديون على خضوع الحياة الاقتصادية لمجموعة من (القوانين الطبيعية) لا يمكن الخروج عليها كما فعل الكلاسيك مثلاً فإذا أخذت الفلسفة بمعناها الاستمولوحي فقط، كنظرية عمدة للمعرفة، فهي هذه الحالة تكون الفلسفة محايدة لموضوعات العلوم الأخرى بما في ذلك علم الاقتصاد.

ولكن مشكلة العلاقة بين الفلسفة والاقتصاد، تثور عندما تؤخذ الفلسفة بمعناها كمجموعة من النظم المتتقديّة (System of Beliefs)، نعطى أحكاماً في الحقائق النهائية أو العيات النهائية، سواءً أكانت ثيولوجية (لاهوتية) أم غير ذلك وبهذا تشمل الفلسفة التيارين المادي والمثالي على السواء.



رابعاً: الفكر الاقتصادي والمنهج الاقتصادي

يرى قسم من الكتاب أن اختلاف المنهجية من أهم أسباب الخلاف في الفكر الاقتصادي، ويمكن الإشارة إلى منهجين أساسيين اتبعا بصورة عامة في تأريخ الاقتصاد وهما:

#### ١- المنهج الاستنتاجي (Deductive)

هذا المنهج يبدأ من العام إلى الخاص ومن خلال سلسلة عمليات تحليلية ذهنية، يفترض العلم المسبق بالقوى والشروط التي تمس المسألة موضوع البحث، ومن هذه (المقدمات) المفترضة، يستنتج (النتائج) المطلوبة، بطريق بعض القواعد المنطقية، ومن الطبيعي أن حسن استخدام هذا المنهج يقتضي التحقق من صحة المقدمات والنتائج المترتبة عليها عن طريق الملاحظة والاحتبار، إلا أن ما يؤاخذ على هذا المنهج هو الإساءة في استخدامه عندما توّسع مقدمات متعسفة، استنداً إلى ما يسمى الحقائق الاعتيادية من دون الاعتماد على الوقائع الملموسة أو الخبرات الواقعية، مما يؤدي إلى وضع نظريات تجريدية ومطلقة، يعم أصحابها أنها قابلة لتطبيق في كل زمن ومكان.

#### ٢- المنهج الاستقرائي (Inductive)

وهذا المنهج يبدأ من الخاص إلى العام عن طريق احتسار حقائق العالم الخارجية وجعلها الأساس لصياغة القوانين التجريبية العامة (Empirical Laws)، والمنهج الاستقرائي هو منهج ملاحظة، وقد تم ملاحظة ما يشبه الدورة (Cycles) في العصور القديمة والوسطى سادت المنهجية الاستنتاجية أو الفلسفية المطلقة ثم جاء رد الفعل على أيدي الماركسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ تطرفوا في استعمال المنهج الاستقرائي ثم مال الفيروقرات الفرنسيون والكلاسيك

الإكليز إلى استخدام المنهج الاستنتاجي، وبعدها جاء رد الفعل العنيف من التآريحيين الأملر الذين تطرفوا جداً في استخدام المنهج الاستقرائي ثم عاود أقطاب المدرسة المساوية ومارشال إلى استخدام المنهج الاستنتاجي، أما الاقصاديون المعاصرون فهم يميلون إلى استخدام المنهجين معاً.

## هوامش ومصادر الفصل الأول

تم اعتماد مجموعة المصادر الآتية في إعداد هذا الفصل:

- ١- إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، الجزء الأول، مطبعة الإرشد، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٧٠.
- ٢- محمد حامد دويدار وآخرون، أصول علم الاقتصاد السياسي، الدار الجامعية، القاهرة ١٩٨٨.
- ٣- لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٦.
- ٤- فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، دار الحدائق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.

## **الفصل الثاني**

### **النظرات الاقتصادية والتنظيم الاقتصادي في بلاد وادي الرافدين**



## الفصل الثاني

### النظرات الاقتصادية والتنظيم الاقتصادي

#### في بلاد وادي الرافدين

#### تمهيد

أعفت معظم الكتب الدراسية المهمة في تأريخ الفكر الاقتصادي الجهود الفكرية والتنظيمات الاقتصادية في بلاد وادي الرافدين، وعدت بداية الفكر الاقتصادي عند الإغريق والرومان من دون بيان حدود ذلك، ولما كان الفكر الاقتصادي العالمي سلسلة مترابطة الحقائق في مقولاته وأفكاره، فأر إهمال ما أنتهته حضارة بلاد وادي الرافدين التي امتازت بأنها أول من أدخل الكتابة لبدء التاريخ المكتوب للبشرية.

إن تحقيق تأريخ حضارة وادي الرافدين يكشف عن وعود تنظيمات وقوانين وإجراءات تم اعتمادها في حقبة تاريخية طويلة، ولا يمكن أن توحد هذه من دون توافر فكر اقتصادي يكون تعبيراً عن الواقع وانعكاساً له، لهذا فإن محاولة تجاوز جهود السالين والآشوريين الاقتصادية يعد مصادر لواقع التاريخ.

لقد كان الولوع إلى هذه المرحلة غاية في الصعوبة من أجل إثبات أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وما يترشح عنها من أماط للعلاقات القائمة، توحى بوجود فكر اقتصادي ذي مضمون أيديولوجي يسبح مع طبيعة المرحلة التي يمر فيها المجتمع العبودي آنذاك، لذلك حاولنا بجد أن نحقب بدقة ما تم الاستدلال عليه، مما تمت كتابته من قبل الاثاريين العراقيين، وبرزهم (طه باقر) والمستشرقين الذين تناولوا حضارة بابل وتاريخها وملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

## المبحث الأول المدخل التاريخي

لقد مر مجتمع بلاد وادي الرافدين بمراحل تاريخية عديدة، تقسم إلى عشرين متميزين هما<sup>(١)</sup>:

### أولاً- العصر الشبيه بالتاريخي Proto - History age

امتد هذا العصر من الألف الخامس أو السادس قبل الميلاد وإلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد<sup>(٢)</sup>، وفي هذا العصر نشأت المدن السومرية-الأكدية حول المعابد وبدأت الحضارة التي لا يعرف عنها شيئاً لعدم إكتشاف الكتابة.

### ثانياً- العصر التاريخي أو عصر فجر السلالات Historical Age

في هذا العصر تم اختراع الكتابة بشكلها الصوري (ربما في الألف الثالث قبل الميلاد أو قبله بقليل)، ثم تطورت إلى الشكل المسماري تدريجياً، والتفحص العميق لهذه الحضارة لن يسفر عن إكتشاف حدوث تعيرات مفاجئة في ميادين التنظيم الاجتماعي، بل هو في الواقع "ارتقاء حضاري" في تقويمه الأخير بعد أن تحدر في حضارة وادي الرافدين لقرون خلت، ويمكن تقسيم هذا العصر إلى خمسة عصور هي:

- ١- العصر السومري- الأكدي<sup>(٣)</sup>
- ٢- العصر البابلي القديم (الأموري)
- ٣- العصر الآشوري
- ٤- العصر البابلي الحديث (الكلداني)
- ٥- عصر الانحطاط

لقد أثرت الحضارة السومرية- الأكدية تأثيراً قوياً على جميع البلدان المحيطة بها، فمصر التي كانت من الحضارات المعروفة استعارت الأختام الاسطوانية

واستعملتها كتماثيم، كما استعملت اللغة السومرية كلغة مخاطبات رسمية بين دول المنطقة، كما أثرت الديانات السومرية التي ظلت تعدّها الأحوال التالية أكثر من ثلاثة آلاف عام، وطبقت القوانين السومرية فيها. ويقدم الأدب السومري صورة لشعب مثقف ومتماسك بقوة بديانته، فقد اعتمدوا على آلهتهم في طلب المساعدة، ومن أجل إرضائها كانت تقدم الدور وتنحر القرابين وتقدم الأعمال الصالحة، فالمرارع السومري يوصي ابنه في أقدم نص زراعي "تقويم المزارع السومري" في حوالي ١٧٠٠ ق. م، أن يأمر لاقطي السنابل بترك بعض السنابل عمداً لينتقطها الفقراء السائرون حلفهم". بيد أن المدن السومرية الأربع عشرة الرئيسة في بلاد وادي الرافدين كانت كل واحدة منها تحت حماية إله واحد فقط، وتؤول ملكيتها له.

وكان الإله يختار "الملك" لحكم المدينة، وكان الملك يلقب (أن- سي) بمعنى "الرجل العظيم" ويسمى "الكهن الأعظم" فقد كان هو المختار من الإله والمسؤول أمامه مباشرة، لذلك كانت أولى واجباته ترميم المعابد وبناءها، بالإضافة إلى كونه قائد الجيش وقاضي القضاة، مانح الأرض بيانة عن الإله سواءاً للأفراد أو للمعابد<sup>(٣)</sup>.

فيما عززت الإمبراطورية الأكديّة من الملكية الخاصة وتحولت أراضي المعبد إلى أراض حكومية، وبفعل الحروب التي حاصتها هذه الدولة أصبح سجناء الحرب قوة عمل رخيصة وتم استغلالها مما جعل الاقتصاد يعتمد على العبيد لأول مرة في التاريخ.

إم العصر الأموي (البابلي القديم) فقد تميز بالسعي الحثيث نحو مركزه السلطة والدولة والقضاء على نظم الدويلات الصغيرة (المدينة- الدولة)، التي ضيقت الفكرة القومية، ودفعت سكان المدن من أجل حماية مدينتهم إلى التحالف مع قوى أجنبية، وما يمكن بيانه حول هذه الفترة هو جعل الحكومة مركزية وربط جميع الحكام والأمراء في المدن الأخرى بالعاصمة (بسر)، إذ أدمجت خمس دويلات لتشكيل هذه الإمبراطورية، واستجابة لهذه التعيرات بحانبها السياسي



والاقتصادي والاجتماعي، فقد أصدر حمورابي أبرز حكام هذه الحقبة شريعته المعروفة المستمدة من القوانين السومرية السابقة بهيئة نصوص تساعد القضاء على تطبيق (قانون العرف) السائد في البلاد والمتناغم مع أوضاع المجتمع آنذاك<sup>(٣)</sup>.

وبعد سقوط المملكة البابلية ولمدة قرنين من الزمن ١١٨٠-٨٨٤ ق.م عاد حكم الدويلات من جديد في عصر يسمى (عصر الفوضى)، ولعل أبرز حدث يمكن تسجيله هذا هو بروز المعابد مراكز قوة نتيحة وضع الكثير من الفلاحين والحرفيين أنفسهم تحت حمايتها بوصفها أماكن مقدسة، كما حدث تحول آخر وهو سعي الحكام في أشور للحصول على أكبر كمية ممكنة من الأموال، من خلال إخبار الأقاليم والمدن الأخرى على دفع الجزية المطلوبة، إذا ما أرادت أن تتجنب التدمير أو السيطرة المباشرة. إلا أن عوامل الانحطاط ظهرت بعد موت نبوخذ نصر في ٥٦٢ ق م ومحاولة من جاء بعده في السيطرة على المعابد (التي كانت تتمتع بنسبة الاستقلال)، مما جلب السخط الشعبي عليهم، بجانب زحف القبائل الهندو-أوربية التي قطعت الطرق التجارية مع بلاد الشام وآسيا الصغرى وكذلك مع الشرق.

وبقيام الاسكندر باحتلال العراق عام ٣٣١ ق.م بدأت المرحلة الهيلينية الإغريقية حتى عام ١٢٦ ق.م، وكان أبرز ما تم خلال هذه المرحلة هو ترجمة الإغريق للكثير من المؤلفات السومرية-الأكدية إلى اللغة الإغريقية وبدأت عملية نقل الحضارة من الشرق إلى الغرب<sup>(٤)</sup>.

## المبحث الثاني

### العبودية في بلاد وادي الرافدين

#### أولاً: غط الإنتاج العبودي في الشرق

جرت محاولات من بعض المؤرخين لقصر النظام العبودي على تاريخ أوروبا فقط واستبعاد انطباقه على تاريخ الشرق القديم (الأدى والأقصى)، وهناك محاولات أخرى تستبعد بلداناً شرقية معينة من سريان النظام العبودي، إلا أن هناك دراسات أخرى تؤيد عمومية النظام العبودي في العصور القديمة، وتعد النظام الاجتماعي الذي ساد الشرق القديم شكلاً من أشكال العبودية، تميز ببعض المميزات الخاصة نتيجة بقايا المجتمعات البدائية ومخلفاتها.

إن الرؤى التي تبناها الباحثون حول تشكّل غط الإنتاج ووظائفه، واعتماد مخرجات التحليل من خلال إسقاط (Projection) تاريخ هذه المجتمعات على تاريخ مجتمعات أخرى، دفع إلى ظهور توصيفات خاصة جداً لطبيعة التشكيلة الاجتماعية - الاقتصادية وغط الإنتاج المرافق لها. هذا الأخير هو مفهوم مجرد وشكلي يتجسد ويعيد إنتاج نفسه داخل تشكيلة اجتماعية في مرحلة تدرجية محددة (كخصوصية) ناجمة عن التطور التاريخي للمجتمع، عندئذ يصعب الفصل بين الجوانب النوعية للنظام الاجتماعي (الاقتصادية، السياسية، الأيديولوجية) مما يمثل اعترافاً بجذلية العلاقة بين البنى المكونة والمغذية لنظام اجتماعي اقتصادي مهيمن وعندئذ صعوبة الفصل بين طبيعة التشكيلة الاجتماعية - الاقتصادية والنمط الإنتاجي المرافق لها.

وعليه هدرت الطروحات التي تناولت المجتمعات الشرقية دور هذه المجتمعات في درجة التطور السبي آنذاك مقارنة بالكثير من المجتمعات الأخرى، بما فيها الغربية والتي اتخذت من وحدانية النظرة المتمحورة حول الذات الأوروبية (Europeanism) كمعيار يحري قياس تطور المجتمعات وأوضاعها عليها<sup>(٩)</sup>.

لقد استند هذا التحليل على خلفية أوضاع الشرق والمعتمدة على استنتاج رئيس هو التفاوت في درجات التطور الاجتماعي والاقتصادي وتمايز أشكاله وليصبح المجتمع أشبه بالموذج الفسيفسائي (The Mosaic Model) ، إذ يتألف المجتمع من مريج من الجماعات والطوائف والفئات الاجتماعية المنعزلة والمكتفية ذاتياً في إطار ما سمي بالمشارك الفلاحي (Commune). هذا الوعاء الفضفاض يلف في جنباته خليطاً من الجماعات المتنافرة والمقسمة عمودياً، لهذا يصبح التكامل المجتمعي بين تلكم الفئات والجماعات المنقسمة والمعرلة أمراً غير ممكن إلا من خلال السلطة/الدولة، والتي اتخذت منها هذه الطروحات مجالاً لبيان اختلاف عظم العبودية الشرقية عنه في العربية، فالظهور المبكر للدولة في حضارات الشرق استلزمها ظروف هذه المجتمعات.

ففي حصار وادي الرافدين كان ظهور الدولة الهيدرولية أمراً لازماً انطلاقاً من مسوغات اقتصادية وسياسية، فأعمال الري الكبرى (شق الأقيّة والأنهار وساء السدود وبطام الري) ومواجهة الفيضانات في دجلة والفرات في الجزء الجنوبي من العراق وحالة المد الربيعي لمياه الخليج العربي، لهذا لم يكن إنجازها ومواجهتها ممكناً بالجهود الفردية بل تطلب الأمر جهود المجتمع كنه، لهذا تصبح عملية ظهور الدولة وتطورها وقوتها أمراً حتمياً، فيما لم يكن الأمر كذلك في الحصار الإغريقية على الأقل<sup>(١)</sup>.

بجانب هذا نجد في الاتكاء على غياب الملكية الخاصة مسوغاً لبعضهم في استبعاد العبودية من الشرق، وعد الدولة هي المالك الأكبر للأرض ولوسائل الإنتاج، وبيان أن النوحه الاجتماعية محصورة بين دولة مركزية ومستبدة في الأعلى وقرى مكتفية ذاتياً في السفلى، وما بينهما تنتشر محاميع ضخمة من المؤسسات الأبوية والاجتماعية والدينية على وفق ذلك تصبح مجتمعات الشرق قائمة على مزيج من الرراعة الإروائية (آدم سمث) والقدر الحفرافي (مونتسكيو) وغياب الملكية الخاصة (برنيه) والقرى المكتفية ذاتياً (هيجل)<sup>(٢)</sup>.

لذلك فإن أنماط الإنتاج الشرقية لا تختلف عن مثيلاتها الأوربيات إلا في طبيعة القوى المهمة على التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، فوجود الدولة أتاح لها إعطاء الحق باسم المجتمع للقائمين على استعمال حقوق الملكية (أشخاص، طبقة، فئة) بإصدار القرارات الخاصة بتوجيه الأصول المستحقة إلى استخدامات معينة، وهكذا أصبحت الحالة لا تقوم على القدرة في التصرف بحقوق الملكية بل بالانتزاع الفعلي لخصائص الملكية وحقوقها.

إن الاختصار على دراسة المراحل الأولى فقط من العبودية الشرقية (العبودية المشاعية، العبودية الأبوية ... الخ) وتوسيمها بالسمات الخاصة السابقة ليس من شأنه أن يغير من الجوهر العبودي لهذه المجتمعات.

عدّ هذه العبودية شكلاً خاصاً، استناداً على الفروق بين وضع العبيد في الشرق القديم ووضعهم لدى اليونان يجب أن لا يحمل على الاستنتاج بأن النظام الآسيوي القديم نظام مختلف نوعياً عن عبودية اليونان والرومان إذ أن هذا التفسير تفسير قانوني شكلي يعزل الظواهر القانونية عن محيطها الاجتماعي.

والواقع أن قوانين التطور الاجتماعي تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة وبوتائر مختلفة السرعة حسب الشروط الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية السائدة في البلدان المختلفة، إن السبب الكامن في اختلاف سمات العبودية الشرقية عن العبودية الكلاسيكية يعود لمفعول التطور غير المتساوي الذي يظهر في جميع النظم الاجتماعية التاريخية بما فيها النظام العبودي.

إن الانطلاق من مقدمة حاطنة تاريخياً بعدم سيادة غمط الإنتاج والعبودي الشرقي نتيجة تخلف قوى الإنتاج تدحضه قوانين حمورابي (حوالي عام ٢٠٨٣ ق م) التي تلقي صوءاً كاشفاً لا على علاقات الإنتاج في العبودية البابلية فحسب بل هي تساعد على فهم طبيعة العبودية الشرقية بوجه عام.

لقد كان المجتمع البابلي من حيث الجوهر مجتمعاً عبودياً تسوده طبقة مالكي العبيد، وكانت الدولة البابلية بأجهزتها وقوانينها مكرسة كلياً لخدمة مصالح هذه

الطبعة، فالص التشريعي الحموراي ينص على أن قاتل العبد يعاقب بتقديم مثله للمالك، ومن يصيبه بأذى يقدم مجرد تعويض عن ذلك الأذى<sup>(٨)</sup>، فالعبد كان مجرد (مال) من الأموال يباع ويشترى ويوهب، ويوسم بسيماة خاصة يشار فيها إلى أسماء مالكيه (وعالماً ما كان يقص الشعر عند جبينه)<sup>(٩)</sup> لبيان أنه عبد ومن يجراً على محوها يعاقب بأقصى العقوبات.

وباختصار فقد كان العبد البابلي ليس مجرداً فقط من وسائل الإنتاج وثمار العمل بل محروماً من جميع الحقوق الآدمية.

هذا المستوى من النضج في العبودية البابلية إبان دولة حموراي بلغ مستوى التملك الكامل الخاص لا لثمار عمل العبيد فحسب بل لقوة العمل المنتجة، أي لأشخاص العبيد بالذات.

#### ثانياً- التركيب الاجتماعي والطبقي في الحضارة البابلية

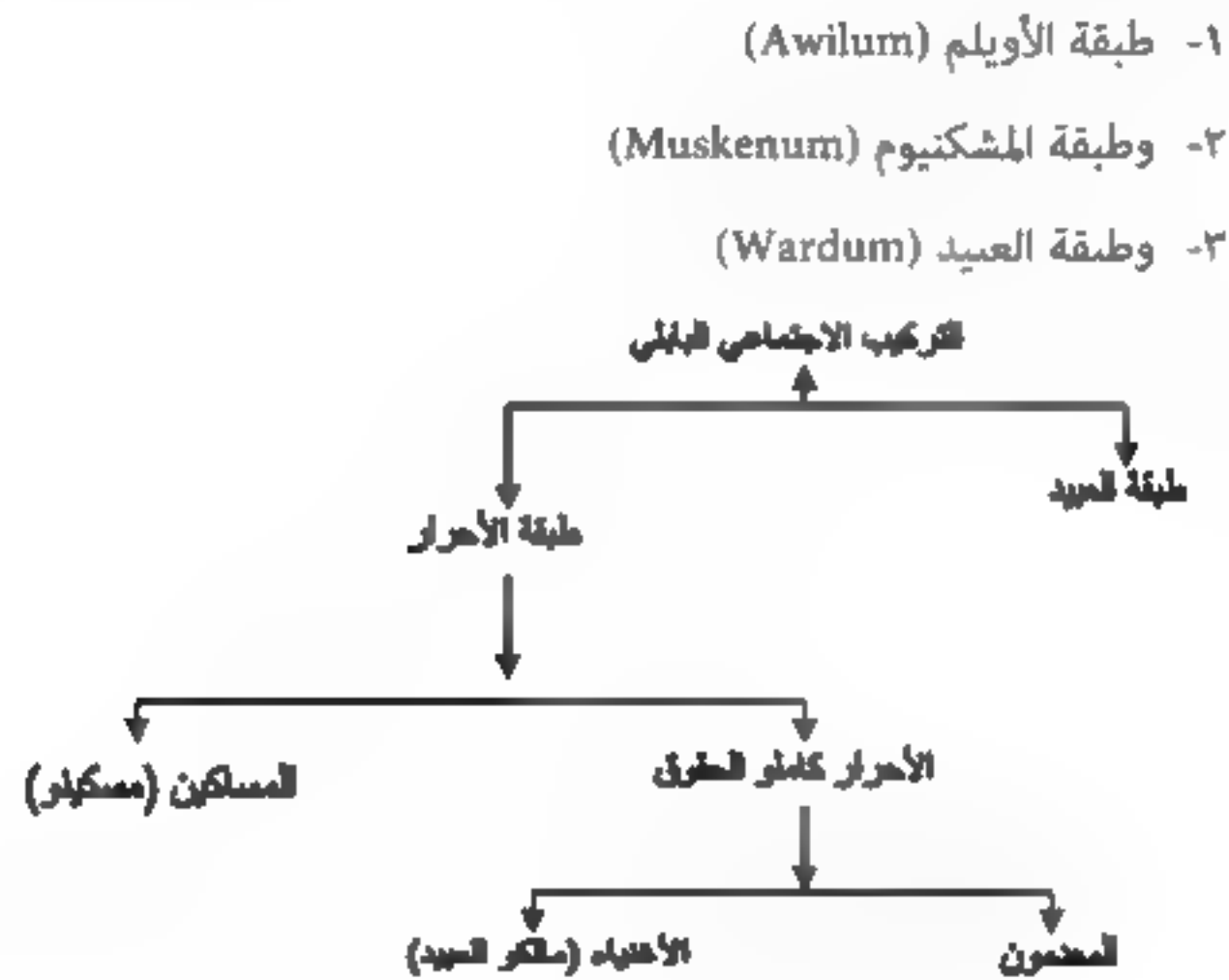
تمثل العبودية الحد الأقصى لممارسة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان والسمة المميزة في كونها نظاماً اجتماعياً، هو إقرارها تحويل فرد أو مجموعة من الأفراد ملكاً لشخص ما، وتتواجد فرصة وجود العبودية في المجتمعات الرعائية أكثر منها في المجتمعات الأخرى، كون الرعاة تحتاج إلى جهد أكبر مما تكون محتاجة نسبياً إلى رأسمال، وبعية تحديد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للعبودية فإن الأمر يتطلب إدراك الإطار لمطومة العلاقات الاجتماعية والواقع للمجتمع الذي يعتمد العبودية نظاماً أساسياً.

إن ما تشير إليه الدلائل الأثرية حول العبودية في بلاد وادي الرافدين هو عدّ عصر الوركاء الرابع (متصف الألف الرابع ق م) أقدم مرحلة حضارية معروفة ظهرت فيه بوادر العبودية، وعليه فالعبودية البابلية والآشورية تعد أقدم من العبودية في مصر القديمة ومن عبودية الإغريق والرومان.

ومن المؤكد تاريخياً أن المجتمع السومري في عصر فجر التاريخ غامض من ناحية بنائه الاجتماعي الاقتصادي، لذلك لا تتوفر أدلة مادية قبل هذا التاريخ

يمكن من خلالها الكشف عن طبيعة التركيب الاجتماعي آنذاك، ويعد المجتمع البابلي القديم في عصر حمورابي مثلاً نموذجياً لدراسة التركيبة المجتمعية، ولاسيما أن ما هو متاح من معلومات يعد وافياً عن الأسس الاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها المجتمع البابلي.

وفي العصر البابلي القديم تعد شريعة حمورابي أهم مصدر يمكن الاعتماد عليه لمعرفة الفروق الاجتماعية بين الطبقات، فنحن إذا استثنينا البلاط (الملك وحاشيته ورجال الدولة الكبار) ورجال الكهوت البارزين، نجد أن هنالك ثلاثة عناصر اجتماعية أساسية تناولتها شريعة حمورابي وهي<sup>(١٠)</sup>.



شكل-١ التركيب الطبقي للمجتمع البابلي

لقد كان المعدمون لمراتب المساكين ومعدمي الأحرار، شأن كبير في مد النظام بجمهرة العبيد، نتيجة اضطرابهم لبيع كل ما يملكون سداداً لديونهم، ومن ثم رهس أنفسهم لدى الدائن وتحولهم إلى عبيد بسبب العجز عن سداد الديون.

وقد تكونت نتيجة لهذه الأوضاع المزرية طبقة مستثمرة وخاصة في المجتمع البابلي، متفرغة لاصطياد (عبيد الديون) وتأجيرها للطبقات المستثمرة في حقول الإنتاج المختلفة.

والنصوص التي وردت في شريعة حمورابي، تدلل على أن طبقة العبيد قد أصبحت من الأهمية بحيث فرضت مشاكلها على مشرع القانون، فجاء الشيء الكثير عن طبيعة العلاقة بين السيد والعبد من ناحية، وبين العبد والمجتمع من ناحية أخرى.

وتعكس تلكم القوانين (التي هي خلاصة لمجموعة القوانين التي سبقتها كقانون أوركاغيا وأور-مو وقواين أشسون)<sup>(١١)</sup> الانحياز الأيديولوجي لطبقة مقابل طبقة أخرى، فقد جاء في المواد (٢٠٩، ٢١١، ٢١٣) من شريعة حمورابي، حالات تسبب رجل ما في إحهاض امرأة حامل، وتفاوت عقوبة مرتكب هذه الجريمة بالقياس إلى مرتبة تلك المرأة الاجتماعية، فإذا كانت سيدة (ابنة سيد) (Morat awilum)، فإن عقوبتها غرامة عشرة شقيقات من العصاة، وإذا كانت ابنة مشكينوم أو مسكينوم (Marat Muskenum)، فإن غرامة المعتدي خمسة شقيقات فضة، إم إذا كانت تلك المرأة أمة سيد (Amat awilum) فتكون فقط شقيقتين من الفضة<sup>(١٢)</sup>.

ويبدو بشكل واضح أن ابنة المشكينوم أرفع مقاماً من أمة السيد، وأن كليهما أقل مرتبة من ابنة السيد الحر. وهو ما يعبر عن اختلافاً الأحكام على أساس المراتب الاجتماعية.

ومن الفئات الأخرى التي وردت في شريعة حمورابي، فئة تدعى (ريدوم) (redum) وأخرى تدعى (بأيروم) (ba'irum)، ويعني اصطلاح الأولى حرفياً حندياً، والثانية الملاح أو السماك. ويبدو أنهم جميعاً يخدمون العرش كأصناف من الجنود العاديين.

### المبحث الثالث

#### مصادر العبودية في وادي الرافدين

تشكل مصادر الحصول على العبيد مجالاً مهماً للمقارنة مع تطور العبودية في مجتمعات أخرى، ولم كانت حضارة وادي الرافدين وظهور النمط العبودي فيها سابقاً على غيرها، فقد أثرنا تناول مصادر العبيد لبيان هل أن العبودية هي حالة طبيعية، كما يرغم أرسطو في جزء من تحليله لظروف نشأة العبودية الإغريقية، والمصادر المحددة للعبودية في العراق القديم هي:

#### أولاً: أسرى الحرب

يعد أسرى الحرب مصدراً رئيساً للعبيد في بلاد وادي الرافدين، وذلك منذ أزمان تاريخية مبكرة، إذ تميرت مجتمعاتها بإمكانيات اقتصادية ترتب عليها وجود فائض إنتاجي سمح لها باستيعاب عدد من أسرى الحرب، وهذا فيه دلالة على تحاور المجتمع لمرحلة الاقتصاد البدائي، التي كن من سماتها عجز المجتمع عن استيعاب أية إضافة بشرية جديدة، مما يؤدي بالمنتصرين إلى قتل جميع الأسرى في ساحة المعركة أو تقديمهم قرابين للآلهة في المعابد، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال صور أولئك الأسرى في رقيم طيني يعود إلى منتصف الألف الرابع ق م في الوركاء، إذ بعدهم حالسين القرفصاء وأيديهم مكبنة إلى الوراء بعد الانتصار، وهو دليل على تحويل الأسرى إلى عبيد<sup>(١٣)</sup>.

وتدل المعلومات المتاحة عن عهد أمارسن (٢٠٥٢-٢٠٤٣ ق. م) ثالث ملوك سلالة أور الثالثة، على أن هناك تموينات مخصصة للأسرى من نساء وأطفال، وهذا يمثل تحولاً في الطفرة اتجاه الأسرى، بغية استخدامهم في النشاط الاقتصادي.

فيما يحرص حمورابي على ضرورة متابعة مصير الجنود البابليين الأسرى، فيصدر جملة من المواد القانونية، يكفل بعضها اقتداء الأسير، ويعكس هذا الاهتمام توقع أسر جنود بابل وتحولهم إلى عبيد عند الأعداء، ومثل هذا الهاجس نجده عند



أرسطو فيما بعد، عندما علل العبودية بأنها نتاج عمل الطبيعة، وأن الإعريق كأمة كانت تمتاز عن غيرها بأنها أمة حاكمة وقائدة لا يجوز تحويل مواطنيها إلى عبيد.

لقد عالجت المادة (٣٢) من شريعة حمورابي تحديد مهمة التاجر في افتداء الأسير البابل، ومسؤولية توفير مبلغ الافتداء، إما من أموال التاجر أو من معبد المدينة أو من القصر<sup>(١٤)</sup>.

#### ثانياً: استيراد العبيد

كان التجار البابليون يعودون إلى البلاد بالضائع إلى جانب أعداد من العبيد والإماء، إذ تشير الدلائل إلى أن التجار في الفترة قبل الأكديّة كانوا يتعاملون بالعبيد كجزء متمم لنشاطاتهم التجارية الأساسية، وفي عصر حمورابي واجهت البلاد نقصاً بالأيدي العاملة، مما أدى هذا إلى ازدياد حركة الاتجار بالعبيد من جهة وإلى إصدار تشريع يمنع تصدير العبيد من أصل وطني إلى الخارج ولما لم تكن المصادر الداخلية والحرب كافية لسد حاجة بابل من العبيد، لهذا كان اللجوء مستمراً إلى أسواق النخاسة في الأقاليم المجاورة على نطاق واسع، ويبدو أن التجارة في هذا المجال قد رجحت كفتها على المصادر الأخرى.

استورد البابليون عبيدهم من المناطق الواقعة شمال سهل الرافدين وشرق دجلة وشمال غرب الفرات، وتفيد نصوص شراء العبيد تشخيص الهوية القومية أو الإقليمية لأولئك العبيد المستوردين، جاء فيها أيضاً ذكر أسماء أماكن أو مدن كان يشتري العبيد منها، من مثل مدينة "لودا" (Lubda) ويعتقد أنها تقع قرب دافوق الحالية.

بجانب ذلك كان هناك عبيد سوناريون، والسوناريون أقوام يسكنون جبال زاجروس ويشاركهم أقواماً أخرى من مثل الكوتيين والبوللين، ويفصل البابليون عبيد سوناري وهذا يعني تفصيل سكن منطقة جغرافية معينة من دون الالتفات إلى قوميتهم، والمرجح في إقبال البابليين على شراء العبيد السوناريين يعزى إلى ما كان يتميزون به من بياض البشرة<sup>(١٥)</sup> وكذلك الحال إلى صنف العبيد الذين ينسبون

إلى بلاد لولو (Lullu)، التي يعتقد بأنها تقع في وادي شهرزور في السليمانية، وكلمة (Lullu) وردت في قصة الطوفان<sup>(١١)</sup>.

كان العبد اللولي يعدّ مرادفاً للصحة والقوة، وهذا ما ورد في عقود البيع والشراء التي عثر عليها، وهذه الصفات وراء إقبال البابليين على شرائهم لاستخدامهم في الأعمال المرهقة، إما الإماء فيظهر أن جمالهن وصحة أجسامهن كان عاملاً مغرياً في اتخاذهن زوجات ومحظيات. وما يمكن الإشارة إليه هنا هو العثور على رقم طينية توضح جانباً من مراسلات التجار مع وكلائهم، والذين يقومون بالتجوال وتوريد العبيد المرعوبين بهم في المناطق المحددة، ويبدو أن منطقة أشنونا تعد مركزاً لتصدير العبيد.

#### ثالثاً: العبودية بسبب الديون

عمت حالة تحول الأحرار إلى عبيد بسبب الديون حالة جميع المجتمعات الشرقية منها والعربية، إذ شكلت معاملات الإقراض أحد أوجه النشاط الاقتصادي المهمة في بلاد وادي الرافدين بحاصة، لذلك كان كل فلاح أو صاحب صعة أو تاجر وحتى الفرد الاعتيادي بحاجة إلى القرص لتصرف شؤونه المختلفة، وتكون هذه القروض أما نقدية أو عينية.

لذلك استهدفت الأحكام القانونية تنظيم هذه القروض من ناحية تحديد طبيعتها وتحديد العلاقة بين الدائن والمستدين.

وما يهمنا في ذلك بيان ما يترتب على الشخص المستدين وعائلته عندما يعجز عن الإيفاء بالدين، فجاءت القوانين العراقية القديمة حاملة مواد قانونية لمعالجة الأوضاع المحتملة للدين، ليس باتجاه الشخص المتخلف (المقترض) عن تسديد الدين، بل ذهبت لتلقي القبض على عائلته وتحتجزها كرهينة، وهذا يعني أن المقترض بمنأى من الحجز.

فقد جاء في شريعة حمورابي المادة (١١٥)، (إذا كان لشخص غلة أو دراهم بذمة شخص آخر واحتجز أحداً عنده، ثم ماتت الرهينة موتاً طبيعياً في بيت محتجرها، فإن هذه القضية ليست سباً للدعوى)<sup>(١٧)</sup>.

وتكشف شريعة حمورابي كذلك أن للرجل الحق في التصرف بأفراد عائلته وعبده لحل مشكلة ديونه، التي عجز عن تسديدها، فهو يقدم على بيع زوجته أو ابنه أو ابنته أو يعطيهم رهينة عند المقرض، وأن حريتهم ستسترد في كلا الحالتين (بيعهم أو ارتهاهم) بعد ثلاث سنوات من الخدمة في بيت المقرض.

وهذا الاهتمام بأوضاع العجز عن التسديد للديون وتحول الأحرار إلى عبيد في القانون الآشوري الوسيط، إن ائنة المستدين تتحول إلى رهينة عند الدائن، فيما لم يظهر حق التصرف في أفراد عائلة المقرض في عصر أور الثالثة، بل اقتصر على عبده فقط، ومن عصر لارسا ١٧٩١-٢٠١٧ ق. م وتحديدًا في عهد ريم س، كان المواطنون يعيشون مشاكل اقتصادية دفعتهم إلى اقتراض الأموال من المعبد والتجار، وأن العجز عن تسديد الديون كان يدفعهم إلى بيع ممتلكاتهم وأطفالهم وحتى أنفسهم<sup>(١٨)</sup>.

#### رابعاً: العبودية بسبب الفقر والمجاعة

شكلت الطبقات الفقيرة من المواطنين مورداً داخلياً للعبيد في بلاد وادي الرافدين، هؤلاء الفقراء هم في الأصل أحرار ولأسباب اقتصادية صرف، اضطروا إلى الخدمة في بيوت الآخرين كعبيد بشكل أو بآخر

ويبدو أن أفراد هذه الطبقة وفي حالة تعرضهم لأية ظروف تفقدهم فرصة الحصول على الدخل اللازم لمعيشتهم، يكونون مستعدين إلى بيع أنفسهم إلى مؤسسات العرض أو المعبد أو النبلاء والأثرياء، وتشتمل هذه الطبقة على فئات الملاحين والصناع والفارين من العدالة والأرامن والمتشردين واللقطاء.

من الصعوبة تحديد نشأة بيع الفرد لنفسه أو ذويه وانضوائه تحت نير العبودية على وجه التحديد، ولكن أقدم الدلائل تعود إلى عصر فجر السلالات، فقد

جاء في عقد بيع كان الطرف المشتري آن لوكال بندا زوجة أنا تيرزي حاكم لكش، التي اشترت انميدوا اتين كانكيكو معني المعبد بسعر ثلث مَن من الفضة وكور من الحبوب ومقدار من الحبة وأرغمة من الخبز.

لقد استمرت هذه الحالة في العصر الأكدي وعصر أور الثالثة والعصور اللاحقة، إذ يبدو أن الإقبال على بيع الأطفال تشتد حدته في أثناء المجاعات التي تسببها الأزمات السياسية فقد كان الآباء لا يحدون بدءاً من ذلك.

بيد أن أفصل الصور المعبرة عن حالة الرعب التي يحيها السكان في أثناء المجاعة، جاءت في نصوص من مدينة نمر والتي عرفت "بنصوص الحصار" ففي إحدى النصوص تصوير قويمة لحالة أب يعرض ابنه على تاجر قانلاً حد صغيرتي وأبقها حية، ستكون طفلتك الصغيرة، أعطني شيقارات فضة لكي أستطيع أن أتغذى<sup>(١١)</sup>.

ومن العصر البابلي الحديث جاء في نص من زمن الملك نبوناهيد أن أما تعرض طفليتها للخدمة في المعبد كعبيد، وحاء في تصريحها أمام مسؤولي المعبد بأن زوجها قد مات وأنها تريد إبقاء أطفالها أحياء بإدخالهم عبيداً (شيركوتو - Sirkutu) لخدمة الإله عشتار.

#### خامساً: ملاحظات حول العبودية الشرقية

بقدر ما شككت فكرة الوجود الحقيقي للعبودية أو شبه العبودية هاجساً وموضع نقاش وجدل واختلاف بين الباحثين في مجال تاريخ حضارة وادي الرافدين، فإن هذا كان مرتبطاً بموضوع أنواع الملكية ودور الدولة.

ولما لم يكن هناك إقرار على تطابق أوضاع العبودية الشرقية مع أوضاع العبودية عند الإغريق والرومان، فقد سحب هذا إلى تباين وجهات النظر، فقسم يقول أن المجتمعات الشرقية ولاسيما حضارة وادي الرافدين قد شهدت نوعاً خاصاً من العبودية، وأن المشتركات القروية والوجود القوي للدولة الهيدروليكية في تنظيم

أعمال الري وتنظيمه وشق الأقيية يجعل من استخدام العبيد في الإنتاج، ولاسيما في المشروعات الزراعية ذات الحجم الكبير كان يشكل مسألة معقدة وقليلة الربحية.

وعلى الرغم من وجهة هذا الرأي، إلا أن المشترك القروي كان مرحلة قصيرة جرى تجاوزها، وأن الوزن النسبي القليل لاستخدام العبيد في الزراعة، وبخاصة العبيد من غير الأحرار، لا يمكن الارتكار عليه بصورة مطلقة لنفي صفة العبودية.

وحجتنا التي نسوقها هنا أن القوانين التي وجدت في حضارة وادي الرافدين، قد درجت جميعها على وضع فروق تشريعية ما بين الأحرار (في حالة عبوديتهم) والعبيد من مصادر خارجية. من جانب آخر أن أعمال السبيج والنحاس والحدادة وصنع الجعة (البيرة) وطحن الحبوب والخدمات المنزلية وتربية الخنازير وحمل البضائع، هذه أعمال تعد آنذاك أقل قدراً من أعمال الزراعة، وهي المجال الملائم للعمل العبودي.

إن شعور العبيد بالطعم الواقع عليهم كان موجوداً، وقد تحسد بمتمردات شعبية كبيرة، إلا أن الفرق بين صيغة الصراع الطبقي في الحضارة الإغريقية والشرقية، كان معنئ الوحدة القائمة ما بين الملك والآلهة، هذا الأخير هو الصامن للنظام الاجتماعي، وإن التمرد على الحاكم يعني تمرداً على الآلهة.

لهذا نلحظ ظهور حركات الترهذ والباحوسية والتطلع إلى منقذ منتظر ". لهذا كن تسكين الأوضاع قائماً على دور الآلهة واستغلالها من الملك وسلطته البيروقراطية، وحتى القيام بمشريع الري الكبرى من الملوك وفي إطارها الفكري تقدم "كفرايين نظامية إلى الآلهة"، مما يجعل من حفرها عملاً دينياً مقدساً.

إن عدم تبلور الاستقطاب الطبقي الحاد في مجتمع حضارة وادي الرافدين، لا يلغي صفة العبودية عنها، طالما أن الإنسان (كعبد)، يعد سلعة وله ثمن محدد، وأعمال السخرة التي تشكل سمة للأعمال في القطاع الزراعي أو في المعابد، كان

تأتي في إطار التقرب من الآلهة، فأعمال الري كان يراد بها رضا الآلهة أنليل، وهناك عيد عند السومريين يقام في مدينة "نيبور" هو (عيد الري).

لقد حمل الكتاب السوفيت بشكل خاص لواء نفي العبودية عن نمط الإنتاج القائم في العراق آنذاك، توكيداً لأطروحة ماركس في أن مجتمعات الشرق تتسم بنمط إنتاج حاص بها، هو نمط الإنتاج الآسيوي، هذا النمط وفي مناقشات ١٩٣٢/١٩٣١ في الاتحاد السوفيتي السابق، لم يحرر توكيده وانتهى الباحثون آنذاك إلى نفيه وعدم وجوده كنمط إنتاج شائع.

إن الإقرار على وجود العبودية بحواهبها المختلفة واستقرارها كنمط إنتاج مسيطر، يعد أمراً لا يقبل الحدل على الرغم من تمازج ذلك مع نمط الإنتاج المشاعي أو ظهور مبكر لنمط الإنتاج الإقطاعي، فقد ورد في مقدمة شريعة حمورابي النص الآتي:

آنذاك أسمياني (الإلهان) أنو وأنليل بأسمى

حمورابي، الأمير التقى الذي يخشى آلهته.

لأوطد العدل في البلاد

لأقصي على الخبيث والشر

لكي لا يستعبد القوي الضعيف.

## المبحث الرابع التنظيم الاقتصادي

### أولاً: السلطة/ الدولة

لقد خضع ظهور التراتب الطبقي وتحددت معالمه تبعاً للموقع الذي تحتله الطبقات الاجتماعية في عملية العمل الاجتماعي والعلاقات اللاحمة عنه وهي بطبيعة الحال علاقات إنتاج محددة تاريخياً، فصار من الممكن في ضوء الموقع الذي تحتله الطبقة تحديد وظيفتها الرئيسية في المجتمع وأشكال الدخل وطرائق الحصول عليه، ومن ثم صيغ العلاقة الباطمة بين مختلف الطبقات والشرائح المجتمعة.

والمهم في تحليل أية تشكيلة اجتماعية مشخصة هو التركيز على كيفية الاستحواذ على المنص الاقتصادية المتولد بين الأطراف الفاعلة، وأي من هذه الطبقات تستأثر بالجانب الأكبر منه. وطالما يوجد تراتب طبقي لابد من وجود سلطة/دولة، لهذا ظهرت الدولة العبودية (الرقية) لتشن الحروب الموجهة للفتوحات، فتذهب الأقوام المقهورة وتسترقها أو تلزمها بدفع الجزية وتؤكد حينئذ وظيفتها الثانية في الدفاع وتوسيع حدودها تحت تأثير هاتين الوظيفتين.

وإذا ما تتبعنا شكل الدولة بدءاً من عصر فجر السلالات أو ما يسميها (رايلي) بالثورة الحضرية في سومر حوالي (٣٥٠٠-٣٠٠٠ ق. م) منطلقين من المدينة/الدولة (City - state) مروراً بنظام دولة القطر الواحد فالنظام الإمبراطوري يكشف لنا مسارات تطور الدولة في حضارة وادي الرافدين<sup>(٣١)</sup>.

فما يمكن ملاحظته أن هذه الحضارة تفردت بكونها احتضنت أول ظهور للسلطة/أو الدولة في التاريخ وهي دولة المدينة (الوركاء - أور - نقر - بابل)، وهي أول شكل من أشكال الحكم في التاريخ البشري، فمن المرجح أيضاً أن كهنة المعابد

ومديري شؤونها كانوا أقدم الحكام، إذ كان الكاهن الأعلى (En) يجمع بين السلطة الدينية والزمنية.

وقد كان للخراج (الفائض المتولد) في مجتمعات أخرى وبخاصة في التشكيلات ما قبل الرأسمالية، دور بالغ في ظهور الدولة وتدعيم الهيمنة الطبقية، فقد تمكنت الطبقة/السلطة من استخدام الخراج بطريقة من شأنها خدمة هدفها، في فرض سيطرتها المطلقة بإعادة توزيع الخراج على الحرفيين والجند والكهنة وخدم الملك ومنتسبي البيروقراطية<sup>(١٢٧)</sup>.

إن إدخال السلع المادية والمنتجات المباشرة في نطاق الأشياء المملوكة واقعياً وشرعياً وحقوقياً، من شأنه أن يبلور التمايز الطبقي بين الرقيق والأسياد من ناحية، وليفصح عن ظاهرة الاستغلال بأكثر صورها وحشية وعمقاً من ناحية أخرى، سواء أكان إكراهاً مادياً (حسدياً) أو اقتصادياً.

هذا لم يكن له أن يستمر من دون وجود هيئة (سلطة) إكراه وإلزام بإطار تشريعي وقانوني واقعي، هذه السلطة كانت تستمد قوتها وشرعيتها من الآلهة، بوصف أن الحاكم الملك هو المختار من الآلهة.

وطبقاً للفكر السياسي القديم في بلاد وادي الرافدين، فإن الإله الأعلى الذي يمسك بكر السطوات، كأن يقوم بمهمة آلهة لكل مدينة، هذا الأخير يعين الحاكم/ الملك الذي يكون بديله في الأرض، والذي يودع له قوته ويكون مجرد منفذ لإرادته، فالسلطة السياسية وفق ذلك طابع أزي في حين يكون التمتع بها عابراً.

ومثلما يحدث هذا في بابل- آشور- أكد، فإن ملوك هذه المدن عندما يستولون على مدن أخرى، يذهبون إلى آلهة المدينة المستولى عليها لتقديم طقوس دينية خاصة، ترافقها القرابين والهدايا بغية استحصال رضاها، حتى تكتسب سلطته صفتها الشرعية وقبوله وكيلاً عن الآلهة لحكم المدينة.

هذا من شأنه أن يحمل الناس على الالتزام وطاعة الملوك خوفاً من غضب الآلهة وثورتها. هذه السلطة/الدولة كانت لها تنظيمها وأجهزتها وقوانينها، التي



- تحاول من خلالها صط الأوصاع، فهي تمارس التدحل في كل شيء اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.
- وقد تمخض دور الدولة هذا عن وظائف أساسية ظلت تصطلع بها باستمرار هي:
- ١- الوظيفة الهيدروليكية فيما يخص تنظيم مياه الري وشق الأقنية.
  - ٢- ضمان خطوط التجارة الخارجية مع الأقاليم المجاورة.
  - ٣- تحديد أسعار الفائدة.
  - ٤- وضع التشريعات والقوانين اللازمة لضمان سير عمل النظام العبودي.
  - ٥- الدور المتميز للدولة عند حصول الأزمات الاقتصادية، القحط والمحاعة إذ قام بعض الملوك بتعويض نقص المحاصيل من دول أو مدن أخرى ومن أمواله الخاصة لتوفير القوات لمواظبيه.
  - ٦- كان اقتصاد المدن هذه معتمداً في تحقيق الرخاء على حالة الإخضاع لمجتمعات أخرى، بحيث أن ما نطلق عليه الآن "مستوى الرفاه" يرتفع عند حصول الغزوات الناجحة.

#### ثانياً: الملكية

تعد فكرة الملكية من أكثر الموضوعات تعقيداً عند دراسة أوضاع المجتمعات الشرقية القديمة، ونسب من وجود المشترك القروي في المراحل الأولى من التاريخ المكتوب لهذه المجتمعات، فقد وسمت اقتصاداتها بغياب الملكية، إذ ظلت الملكية العليا للأراضي تعود بصفة آلية إلى الإله الرئيس لمجتمع المدينة آنذاك ولفترة طويلة.

وما كانت الأرض ملكاً للمعبد الرئيس للآلهة الذي يمثله رئيس أساقفة المعبد، فقد كان هذا سبباً رئيساً في ظهور المزارع الجماعية المركزية التي تضم جزءاً كبيراً من أراضي المجتمع في المرحلة الأولى لتطوره، من أمثال مزارع المعبد

التي أخذت شكل مزارع للحكام، ولكن في عصر متأخر كثيراً، وكانت مزارع المعبد تدار وتحصص لإشراف كاهن المعبد (Sanga - سانغا).

لقد تطورت الحياة تحت سيطرة المعبد في طريقين أساسيين<sup>(٣٣)</sup>:

الأول: تطورت مزرعة المعبد فتحوّلت إلى ملكية الدولة كان الحاكم يمثلها أول الأمر، ثم الملك فيما بعد.

الثاني: وحدث هذا بعيداً عن تأثير اقتصاد المعبد أو الدولة بصورة مباشرة، إذ كان لتجنيد أفراد المجتمع للعمل في مشاريع الدولة، أثر كبير على إنهاك هؤلاء في العمل في مزارعها حتى أصبحوا بمرور الوقت أكثر اعتماداً على المعبد وتحولوا في النهاية إلى أرقاء.

كانت المرحلة التالية في تطور اقتصاد الدولة هو اندماج مزارع الحكام المحليين، والتي تحولت إلى ما يشبه الفروع المدمجة في مزرعة ملكية موحدة تشمل المنطقة برمتها، في حين كانت مزرعة الحاكم المستقلة التي كان هدفها تلبية حاجيات الحاكم وحاشيته قد اختفت، ذلك لأن مصالح المزرعة الملكية قد تفوقت عليها. لقد كان الملوك باستمرار يصعون أيديهم على بعض الحقول والمراعي لأغراضهم الخاصة<sup>(٣٤)</sup>.

في عصر السلالة الثالثة في أور بلغ اقتصاد الدولة في سومر القديمة ذروة تطوره، لكن في الوقت نفسه بدأت نقاط الصعف تظهر فيه بشكل ملحوظ أكثر فأكثر، في حين كانت القوى المنتجة لا تزال ضئيلة التطور جداً. لم يعد النظام الاقتصادي الموحد في المزارع الملكية، الذي أوحده الملوك عن طريق دمج مزارع الحكام السابقة المتناثرة في كل البلاد، هذا النظام أصبح غير قادر على أداء وظيفته، إلا عن طريق الضغط على المصادر إلى أقصى حد، واستغلال العمل بطريقة أكثر وحشية، ومثل هذا النظام لا يمكن أن يدوم طويلاً.

في الوقت نفسه أبطل العمل بنظام الجراية وأستعيز بنظام التخصيص، هذا التفكك الذي أصاب الاقتصاد الملكي المركز كان يقابله توسع وتقدم ظاهران في المصادرات الفردية وفي المعاليت الخاصة.

وفي عهد سلاله ايسين ولارسا أخذ اقتصاد المركز يتدهور في حين أخذ النشاط الاقتصادي الفردي يتطور بحرية، ويصح أكثر هيمنة على الحياة الاقتصادية فيها، نتيجة النمو التدريجي ملكية الرقيق الخاصة.

مما أدى في النتيجة إلى استبدال اقتصاد الدولة والملك الذي كانت تقصه الكفية، بالعلاقات التي أوحدها الاقتصاد الخاص المتطور منذ عهد السلالة الأولى في بابل، التي شهدت حالات الملكية الفردية للأرض والرقيق قد ظهرت في وقت مبكر، ذلك أن أقدم النصوص من (شروباك) تسحر حالات بيع الأرض والرقيق.

#### ثالثاً: الضرائب

كان للملك الحق باسم الآلهة فرض الضرائب والإتاوات ومصادرة العبيد والدواب والعربات، كما كان له حق الإعفاء أو الاستثناء، مما يعني اعتماد الدولة على الصرية كان أمراً مشعاً، وكان هناك موظفون محتصون بجمع الضرائب سواء أ العيبة منها أم النقدية، كما أن هناك موظفين خاصين قد عينوا في المعابد، كانوا يأخذون حصة من واردات المعبد، وقد قدرت نسبة ما يؤول إلى الملوك بما نسبته (٢٠%)<sup>(٢٥)</sup>.

فيما كانت أنواع عديدة من الأعشار والضرائب والرسوم التي كانت تمثل حصة المعابد سواء في حالة الاستلام أو الدفع، ولم تكن حصة الملك في كل منها متساوية، وكان من بين الواردات التي تذهب بالتأكيد إلى المعابد بالدرجة الأولى، هي الأعشار على نتاج التمور وصيد السمك والأجرة (المدفوعة عيناً) على الأراضي الزراعية ورسوم الماشية والقرابين التقليدية.

كانت هناك رسوم الموتى التي كانت تجبى من المواطنين الأغنياء، في حين تذهب رسوم القنوات المائية إلى الملك، على الرغم من أن سلطات المعبد كانت

مسؤولة عن فرصها وحمايتها، وفي القرن السادس قبل الميلاد تمكن ملوك الدولة البابلية الحديثة من السيطرة على حصة كبيرة من واردات المعابد.

وأهم الضرائب التي كانت سائدة آنذاك هي ضريبة الأرض على المزارعين، فضلاً عن ضريبة الرأس، وهي الجزية التي كانت مفروضة على كل "مشارك" في القرية السومرية، وكان رئيس القرية يوزع ضريبتى الأرض والرأس على المشتركين كل ضمن مجموعته أو أسرته الصغيرة.

لقد تطورت هاتان الضريبتان حتى شملت أفراد المجتمع (وشملت أراضي المعابد أيضاً)، في العصور التالية<sup>٣١</sup>. وقد غلب الطابع العيني على دفع الضرائب إلا في أحوال نادرة، كأن يتم الدفع فيها بالفضة والنحاس،

وتفيدنا النصوص السومرية، أنه كان على كل عضو في جمعية الصيادين في لكش دفع نوعين من الضرائب هما (بان- سومر)، التي كانت تدفع شهرياً، و(أيل) التي كانت تدفع سنوياً.

وكانت حقوق الدولة على الأفراد تعد ديناً على الفرد، لحين سدادها حيث تستقطعها الدولة على أقساط، فتفرض الدولة العشر على أنواع الصيد النهري على أن يتم سدادها عينياً<sup>٣٢</sup>.

ومن المؤكد وجود جهاز كامل يحتص بالتقدير والحساب والجباية والخزن، ومقدار الالتزامات المالية وكيفية سدادها وموعدها وغير ذلك من آلية العمل المحاسبي والمالي.

كما وجدت في النصوص الواردة على إمكانية تسديد الديون بواسطة السمك، أو ما يعادله وزناً بالغرامات من الفضة أو بالحراف، وهذا يؤكد وجود ما يشبه المقاصة في السداد.

لقد استمرت السياسة الضريبية على وضعها في العهد البابلي القديم، حيث كانت تحدد الضريبة على إنتاج الأرض من خلال مسح الأرض المقدرة

بـ(الايكو= ٦/٥ من المدان)، والمساوي لمربع طول ضلعه (٥٦,٤٠ متر) ويتم الدفع بطريقتين<sup>(٢٨)</sup>.

الأولى: بالشعير وقياساً إلى مساحة الحقل والمحصول.

الثانية. بالمال الذي كان يقدر بكمية من الشعير.

والفلاح الذي يتأخر عن دفع الضريبة التي بحقه يستمر في زراعة حقله لمدة ثلاث سنوات

وفي حالة عدم قدرته ينزع منه ويعطى إلى شخص آخر<sup>(٢٩)</sup>.

تكشف وثائق ملوك آشور جوهر ضريبة الأرض عندما منح الملك أداد- نيراري ثلاثة من

أخصائه حملة أرض، ولم يشترط عليهم سوى تقديم عشرة (أيمير) من الحبوب قرباناً سموياً للإله

أشور والآلهة (بادو)، ولكن عندما أراد الملك (سرجون الآشوري) بناء مدينة (دور- شوركين)، اختار

مكناً لها في موقع يقتضي الاستيلاء على أراضي الآخرين، فأخذ هذه الأراضي وعوض أهلها بأخرى،

وقرر فوق ذلك إعفائهم من دفع ضريبة الشعير، وحق الدولة في مصادرة العلف، كما أعفاهم من

التزاماتهم نحو (أشور)، كما كان الملوك في وادي الرافدين يكافئون أتباعهم بإعفاء حقولهم من

ضريبة الشعير.

إلا أن حق الدولة ظل قائماً على الأعلاف والماشية ورسوم حق المرور والعبور، ومن هذا

يفهم أن ضريبة الشعير كان لها مدلول عام، بحيث تشمل سائر الإتاوات الزراعية العينية على

اختلاف أصنافها

ويسجل تاريخ بابل عهداً زادت فيها قسوة الضرائب على الناس، مما يعكس ظروفًا

اقتصادية صعبة، أو دخول اقتصاد المدينة في أزمة، فعندما ساءت الأوضاع الاقتصادية إبان حكم

الملوك الأخميسيين، ودب الانحلال في الحكم، كانت جباية الضرائب ناهضة على بلاد بابل، إذ سعت

(١٠٠٠) وربة من الفضة سنوياً، عدا تزويد الحكومة بالمؤن طوال أربعة أشهر من العام، هذا

بالإضافة إلى عبء إشباع الحاكم المحلي وإدارته.

فقد روى هيرودوتس أن والي بابل كان يقبض من الولاية يومياً، ما لا يقل عن الإردب الواحد من الفصة، وأن يزود العلف إلى ما لا يقل عن (٨٠٠) حصان و(١٦٠٠٠) فرس، في حين أن كلابه الهندية كان أطعمها يتطلب واردات أربع قرى.

وإجمالاً يمكن القول، إن تاريخ بلاد وادي الرافدين شهد تنظيمات وتعاملات أبرزت دور الدولة، بجانب استخدام السياسة المالية لتحقيق غايات وأهداف محددة، كما أن مرور دور (الدمقارات)\*\*\* كان دليلاً على الضج الفكري آنذاك، لأنهم دعموا سلطة الحاكم السياسية وساندوها.

#### رابعاً: القروض والربا

عرفت بلاد وادي الرافدين بمدنها العديدة (المدينة/الدولة) وبعهودها المختلفة الإقراض بنوعيه السعبي والمقدي، وتاريخ هذه المدن يعلمنا بأن فاعلية الإقراض تزداد عند حدوث المجاعات والحصار والطروف الاقتصادية غير الطبيعية، وبالمقابل عندما تكون التجارة والتبادل شديداً وبخاصة مع الأقاليم المجاورة. ولهذا يلحظ في بابل إنشاء عدة مصارف كانت تقوم على أساس رأسمال الربا، وظلت هذه المصارف موجودة لعدة قرون وكان نطاق عملها يتجاوز حدود الإقليم الواحد إلى أقاليم عدة.

فقد وجد في أوضاع المزارع الحر الصغير في بابل وازدياد اعتماده على الغني، اتجاهاً غير عنه في التطبيق سلوكيات الأثرياء البابليين من أمثال موراشو (Murasu) وأولاده، الذين كانوا يمتلكون لهم مصرفاً في "نفر" للقيام بأعمال البناء والتداول وتوسيع أنظمة الري حوالي ٤٦٠-٤٠٠ ق. م، واستحصلهم من المزارعين ربع حاصلاتهم مقابل حق استعمال الماء.

وفي مدينة أشور وعلى الرغم من أن حالات الارتهان لشخص أو أشخاص من أفراد العائلة حد بادرة، كذلك كانت المدد التي تقدم فيها القروض قصيرة جداً، والمعتاد أنها لا تزيد عن شهور قليلة.

فيما بقيت العديد من الإشارات التعهدية في تاريخ هذه المدينة، والتي تشير إلى أن القروض غير العائلية كانت جدُّ كبيرة كقاعدة، بسبب أنه لم يحدث إقراض يقل عن مقدار حمسة "شواقل". وهذا ينطبق أيضاً على القروض العينية ما عدا قروض القمح التي تكون غالباً صغيرة.

وفي العهد الفارسي الإخميني اتسعت حركة المصارف الخاصة والعامة وعمليات الإقراض، وقد استغل أصحاب الأموال تدهور الأوضاع الاقتصادية وارتفاع الأسعار، فصاروا يقرضون المحتاجين بأربح فاحشة فقد بلغت الفوائد على الأموال المقرضة من (٤٠%) إلى (٧٠%)، وكان معظم أفراد المجتمع آنذاك بحاجة مستمرة إلى الاقتراض، ولاسيما أصحاب الأراضي لاضطرارهم إلى دفع الحبايات الباهظة إلى الملك وموظفيه.

ففي مدينة بابل اشتهرت عائلة مصرفية تسمى "بيت ايكيبى (Egibi)، ومركزها في مدينة بابل، والمرجح أن تكون عائلة يهودية أيضاً اسمها محرف من يعقوب.

ولما كانت التجارة في العهد الساساني القديم من اختصاص طبقة تدعى تمكارو (tamkaru) وممردها (تمكارم Tamkarum)، وترجمة هذا المصطلح تتجاوز معنى التجارة، فهو تاجر ووسيط وصراف ومرابٍ ووكيل للحكومة، وكان معتاداً هذا على تقديم القروض إلى الوكلاء متوقعاً ربحاً لا يقل عن ١٠٠% من قيمة القرض<sup>١١</sup>، وهناك إشارات في قانون حمورابي إلى نشاطات التامكارم، مؤكدة على تقديم الضمانات القانونية للالتزام بالعقود التي تبرمها هذه الطبقة.

من الملاحظ أن الشعور الديني الموجه ضد الربا، والواضح جداً في القوانين العبرية والإسلامية والمسيحية، لم يكن له وجود في العالم السومري والبابلي، حيث كان دفع الفائدة على الدين يعد عملاً اعتيادياً ومحترماً، وقد أشير إليه في كل من القوانين والعقود نفسها.

كان ينظر إلى النسب الفاحشة من الفائدة باشمئزاز، وينص قانون حمورابي على مصادرة مبلغ دين التامكارم الذي يتقاضى أكثر من النسبة القانونية، وهذا يدل

على وعود أسعار فائدة محددة على أنواع القروض، وأن تجاوز هذه النسب المقررة يعرض المقرض (المراي) للعقوبة بحساسة أصل المال، فنشير المعلومات المتاحة أثرياً إلى أنه (إذا اقتصر ربح دياً ولم يكن لديه قصة لإعادته، وكان عنده حوياً فعلى المراي قبول الفائدة حوياً استناداً إلى المراسيم الملكية)، وتختلف نسبة الفائدة على القروض تبعاً لنوعية البضاعة، ففي العهد البابلي القديم كانت النسبة عادة ٣:١ (٣٣%) على الشعير و(٢٠%) على الفضة<sup>(٣٠)</sup>.

كما أن عقود الاقتراض كانت تكتب على رقيم طيني وتحفظ مع إثبات الشهود، وقد نصت قوانين حمورابي على أنه لا يمكن المطالبة بالقروض التي تبرم بدون عقد محرر وشهود. عدا نوع من العقود في كبدوكيا الآشورية تسمى أبوتو (Ebuttu) لم يكن إبرامه شهود ولا بسعر فائدة. إما فيما يخص الفترة الزمنية للاقتراض فإن العقود المكتشفة لم تشير إلى مدة استئصال العقد، ويعتقد أن موعد الدفع يكون حسب نوعية القرض، ففي العقود الزراعية يكون الدفع بعد الحصاد، إما العقود التجارية فيتم بعد انتهاء الرحلة التجارية.

#### خامساً: النقود

عرف العراقيون القدامى المقايضة، قبل أن يعرفوا البيع، وكانت عندهم كفاية عن مبادلة عرض بعرض آخر

وفي آشور كانت عقود المقايضة وعقد البيع واحدة، ولم يكن للبابليين دراية كافية بالعملية بمعناها الصحيح، إلا في عهود متأخرة، فقد كان الشعير يمثل الإدارة الرئيسة لتسوية المبادلات وتسهيدها كإجراء أكثر تطوراً من نظام المقايضة، ولمواجهة صعوبة المقايضة المباشرة، لهذا كان الشعير يدخل لتقويم كلا السلعتين المراد مبادلتهم.

ثم ما لبث أن أدخلت الفضة مع الشعير في تقويم السلع المتبادلة، ولأسباب كانت تعود إلى ما درج عليه المجتمع من عادات وتقاليده، فقد كانت رواتب رجال



الدولة وأجور العمال الزراعيين تؤدي لهم شعيراً أيام الملك حمورابي، في حين كانت الفضة هي العملة التي تؤدي بها أجور أصحاب الحرف وصانعي الأجر والسائين والبجارين بالإضافة إلى الأعمال الأخرى.

ومثلما كان الشعر يؤدي وظيفة العملة في ظروف المقايضة، فإن الفضة تم استخدامها للعرض نفسه، ففي رسالة عثر عليها في مدينة الوركاء ويعود تاريخها إلى (٦١٦ ق.م)، مفادها (ليبعث إخوتي عفاً مما قيمته مئاً من الفضة، وليأتي رسولكم إلي وسأرسل سمسماً أبيض مقبولاً لدى إخوتي مما قيمته مئاً من الفضة)<sup>(٣١)</sup>، هذه الرسالة تعطي صورة واضحة عن أساليب استخدام الفضة أساساً للتقويم بدون استخدام الفضة فعلاً.

هذا الأسلوب كان شائعاً في بلاد وادي الرافدين ووادي النيل والأقاليم المحاورة لهما ففي وثيقة مصرية تعود للفترة (١٣٠٠ ق.م)، تؤكد الحالة التي حدثت في الوركاء، فقد قدم تاجر يبيع أمة سورية على راحة أحد موظفي المعبد مقومة بالفضة، ولكنها دفعت فعلاً أقمشة وملايس وأدوات برونزية وقد قومت كل مادة بشكل مستقل<sup>(٣٢)</sup>.

وبسبب من تغير أسعار الشعر الذي يمثل وسيلة دفع مناسبة طوال السنة (إذ يتغير سعره بحسب السنة البالية التي تتكون من (١٢) شهراً)، وهذا ما فسح المجال تدريجياً للفضة بأن تحل محله.

والذهب هو الآخر ظل متبايناً في أسعاره من عصر إلى آخر مقارنة بالفضة، فقد كان (١٠:١) أيام الملك الثالث من سلالة أور الثالثة بور- سين (٢٠٤٧-٢٠٣٩ ق.م)، ليتدنى سعره إلى (٦:١) في السنة الخامسة والثلاثين من حكم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، ليعاود الارتفاع إبان حكم نبونائيد (٥٣٩-٥٥٥ ق.م) إلى (١٢:١) أي قبل سقوط بابل<sup>(٣٣)</sup>.

وتعزي المصادر اختراع النقود في الحضارة الشرقية إلى بلاد (ليديا) Lydia- مملكة في آسيا الوسطى- ملكها قارون الذي ذكر في القرآن الكريم)، غير

أن اللحظة الحاسمة كانت أول مصادفة تم فيها التعامل في التجارة بمقادير سبائك الفضة الصغيرة المختومة ببعض الشعارات، من مثل رأس عشتار أو رأس شمس.

وفي عام (٦٠٧-٦٨١ ق.م) يقوم سنحاريب بضرب النقود فعلاً، ومن قطع صغيرة، عندما سجل في مدونات التاريخ قانلاً (لقد أمرت بصنع قالب من الطين وأن يصب البرونز فيه لصنع قطع من فئة نصف شيقل= ٧/١ أونس)<sup>(٣٤)</sup>.

قبل الحكم الفارسي الإخميني لم يكن للعراقيين القدماء معرفة تامة بالنقود بمعناها المعروف، فقد كانت أولى النقود الواسعة الاستعمال في غرب آسيا هي (الداركات) الفارسية نسبة إلى الملك دارا، الذي جعل الديار الذهبي (الدارك) المعادل لعشرين شيقلاً من الفضة أساساً للتعامل التجاري، ومنذ هذه اللحظة التي اخترعت فيها بدت تؤدي الوظيفة التي كانت السبيكة المعدنية تؤديها في الاقتصادات العربية إلى حد قريب.

وما يمكن ملاحظته أيضاً أن كل المعاملات تتم بمقادير الفضة، أما بالورن أو بالعملية المصرية ابتداءً من تأريخ الملوك السلوقيين وما بعده، كانت فيه الفضة مقياساً لوحدة القيم، فإذا ما سدد دين ما بالذهب جزيئاً وبالفضة جزيئاً فإن نسبة مجموع ما دفع بالذهب يعبر عنه بمقادير الفضة.

غير أن هذا يظل مرتبطاً بتوافر هذه المعادن، لاسيما بلاد وادي الرافدين لا تحتضن أي من المعادن المستخدمة لأغراض نقدية (الذهب، الفضة، وأحياناً القصدين)، ودرجة توافرها تشجع على التوسع في الحوائج النقدية.

وفي الحكم الإخميني الفارسي وبسبب من شراهة نظام الجزية نقلت كميات كبيرة من الفضة مما أدى إلى حدوث نقص فيها، مما دفع الناس إلى اللجوء مرة أخرى إلى المقايضة، إذ تمت هذه باستخدام الشعير والتمر.

إن النقص في المعروض النقدي كان من شأنه إعاقة تطور المجتمع العبودي وسرعة تحوله، الطريف ذكره بهذا الصدد هو لما فتح الاسكندر الكبير بلاد فارس، وجد أكداً من الأموال المحزونة في قصور الملوك، وإن إعادة توزيعها من جانب

الاسكندر سبب أقرب ما يكون إلى أزمة عالمية في النقد، إذ تصفحت كميات النقد المتداولة وانخفضت أسعار المعادن المستخدمة انخفاضاً كبيراً فقلت قيمة النقد.

#### سادساً: التجارة

منذ أقدم العصور اضطر سكان وادي الرافدين سعياً منهم وراء المواد الأولية، التي كانت تعوز بلادهم، إلى إنشاء علاقات تجارية مردهرة شرقاً مع عيلام وبأسيا الصغرى، وحبوباً مع دلمون ومناطق الخليج، وغرباً حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ومصر.

فقد ذكر ليونرد وولي حاجة العراق القديم للحصول على الكثير من المواد، التي كان يفتقد إليها فقد أكد قائلاً (ولما كان وادي الرافدين العظيم خصيباً وتقوم ثروته العامة على رراعه ومراعيه فإنه كان بحاجة ماسة إلى الأخشاب الجيدة ومختلف أنواع المعادن وبعض المواد الكمالية كالأحجار الكريمة، بل وحتى الصخور على اختلاف أنواعها)<sup>(٣٥)</sup>.

وكان بالإمكان تأمين بعض منها عن طريق السيطرة والقوة، فالانتصارات على سوري، كان يعني السيطرة على مناجم الفضة والنحاس في جبال طوروس، وفي عيلام السيطرة على المقالع الصخرية ومناجم الفضة، إلا أن الحرب لم تكن هي الطريقة المثلى لتأمين هذه الموارد.

ويسعفنا التاريخ المكتوب منذ عهد السومريين إلى أن التجارة واحتلت مكاناً بارزاً، وترجع إلى عهد (فارة)، كما أوردته الكتابات السومرية، وتطورت وتوسعت في العهد الأكدي والبابلي، وكان عصرها الذهبي في زمن سرجون الآشوري، الذي لم يتردد عن إقامة شبكة علاقات تجارية مع جميع المناطق المجاورة

على الرغم من عدم وجود تجارة منظمة تنظيمياً جيداً في التاريخ القديم، وأن معظمها يجري لحساب المعادن والملوك لتأمين احتياجاتهم، وأقدم الأدلة الأثرية التي تشير إلى قيام علاقات تجارية منتظمة بين السومريين مع الشرق تعود حوالي (٢٨٠٠ ق.م).

وقد أشار سرجون الأكدي (حوالي عام ٢٣٧٠ ق.م) بفخر إلى المدن التي تتاجر مع ميلوغا (يعتقد أنها الهند)، وما كان دلمون (التي يعتقد أنها البحرين)، والمعلومات المفصلة عن التجارة مع دلمون، تشير إلى أن الواردات منها تركزت في قضبان السحاس والأدوات المصنوعة منه والارورد واللؤلؤ (عيون السمك) والعاج الذي يصل إليها من الهند<sup>(٣٦)</sup>.

ويصدر إليها التمر وأنواع من النبيذ، كما أن هناك تجارة نشطة مع آسيا الصغرى وأواسط آسيا قائمة على توريد العبيد والأحجار الكريمة، التي كان يصدر جزء منها مرة أخرى إلى مصر كحجر الفيروز والأخشاب التي تحتاحها المعابد والأصواف المصبوغة والرصاص والحديد والقصدير، والتي كنت تفتقر إليها بلاد وادي الرافدين.

إن أكثر السلع التي كانت تعرض مدن العراق على تأمينها هي الأخشاب من مثل خشب الأرز الثمين الضروري للمعابد، وكذلك الأحجار فقد حياء بحجر الديورايت الأسود من عمان، والذي يستخدم في نحت التماثيل في عصر سلالة أور الثالثة.

إما صادرات بلاد وادي الرافدين فقد اعتمدت على الصناعات العبودية، والتي كان يستخدم فيها العبيد بكثرة من مثل صناعات السيج وصنع السيد المعتمد على الكروم، والذي أصبح مافساً في فترات معينة للحمور المستوردة من منطقة (طور عابدين) السورية، بحيث كانت تباع بأكثر من ثمانية شقيقات للجرة الواحدة، في حين كانت الخمور المستخرجة من التمور (شكرو-SHIKARO)، تباع بما لا يقل عن الشقل الواحد. والأصواف الصقل (شباتو) بمعدل (٢) مينا بشقل واحد خلال العهد الفارسي. إما الأصواف المصبوغة لا تتجاوز (١٥) شقلاً<sup>(٣٧)</sup>.

ما يمكن ملاحظته أن التجارة كانت عملاً محترماً ولا توجد نصوص دينية تقلل من شأنه، بل على العكس تماماً مما كان عند الإغريق والرومان، فقد كان دور الدولة مسانداً للتجار، ففي الداخل كبت التشريعات لصمان مصالح التجار وتنظيم أعمالهم وفي الخارج، تأمين مصادر التجارة وحماية طرقها.

## هوامش ومصادر الفصل الثاني

١٠ C.H, Before the Bible , London , ١٩٦٢, P.٢٠٦.

\* اعتمدت معظم كتب تاريخ الفكر الاقتصادي مصطلح (قبل الميلاد، ق.م) بدلاً من المصطلح الحديث الذي أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٩٥ (قبل العصر المسيحي ق. ع. م Before Christian Era).

\*\* لقد وجدت منذ الألف السادس قبل الميلاد مجموعة سكانية هي السومريين المتكلمين لغة لا تشبه أية لغة معروفة مندثرة أو غير مندثرة وكذلك مجموعة أخرى هي الأكديّة المتكلمون لغة سامية.

- جورج رو، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٢١.

٢- طه الهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ج ١، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٣١، ص ٨٧.

٣- فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥، ص ١٠٦.

٤- M. Rostovtzofo, The social & Economic History of the Hellenistic world , Oxford press , Oxford , ١٩٤١, p.٢٢

٥. د. عبد علي كاظم المعموري، حول الدولة ومط الإنتاج في المجتمعات الشرقية، مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد (٣)، العدد (٢)، ٢٠٠٠، ص ١٣

٦- المصدر السابق، ص ١٤.

٧- بيري اندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظمي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، بلاسنة، ص ٦١.

- ٨- ملخص المواد القانونية لشريعة حمورابي، المادة ٢٣١، والمادة ٢٥٢. للمزيد ينظر: صالح حسين الرويح، العبيد في العراق القديم، مطبعة الميناء، بغداد، ١٩٧٧، ص ٢٠٧.
- ٩- (المادة ٢٣٦) إذا أزال حلاق (أبوتو) عبداً بدون موافقة سيده بحيث لا يستطيع سيده من تشحيصه، فإن يد الحلاق تقطع، المصدر السابق، المكان نفسه.
- ١٠- جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٣٢.
- ١١- يوحد تشابه كبير في المضمون بين قانون أشبونا وحمورابي، ويعتقد أن القانونين كليهما مشتق من أصول قديمة، للمزيد ينظر: هاري ساكز، عظمة بابل: موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ترجمة عامر سليمان إبراهيم، مديرية دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٧٩، ص ٢٣١.
- ١٢- صالح حسن الرويح، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
- ١٣- Siegel , Bernard , Slavery during the third dynasty of Ur , American Tnthropologist , ١٩٤٧, vol. ٤٩ , No. ١, P.٨.
- ١٤- فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثالثة، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٢٤.
- ١٥- صالح حسين الرويح، مصدر سابق، ص ٤٦.
- ١٦- علي عبد الواحد، الطوفان، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٥، ص ص ٥٠-٥١.
- ١٧- فوزي رشيد، مصدر سابق، المكان نفسه.
- ١٨- Diakonoff , I. M, Socio - Economic classes in Bobylonian and the Babylonian concept of social stratification, ١٩٧٠, R. A. I, XVIII, P. ٥٢.
- ١٩- صالح حسين الرويح، مصدر سابق، ص ٥٨.
- ٢٠- عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٠١.

- ٢١ صموئيل نوح كريم، السومريون، ترجمة فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، الكويت، (بلا تاريخ)، ص ٤١٥.
- ٢٢- جماعة من علماء الآثار السوفيت، العراق القديم، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٠١.
- ٢٣- ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١، ص ١٠٥.
- ٢٤- جماعة من علماء الآثار السوفيت، مصدر سابق، ص ١٢٧.
- ٢٥- سلام عبد الكريم سميسم، السياسة المالية في الفكر الاقتصادي الإسلامي، (أطروحة دكتوراه) مقدمة إلى معهد التاريخ العربي، بغداد، ١٩٩٩، ص ٣٤.
- ٢٦- عبد الرضا الطعان، مصدر سابق، ص ١٤٨.
- ٢٧- روز نكارتين، نظام القرابين في المجتمع السومري، ترجمة خليل سعيد عبد القادر، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩١، ص ٥٩.
- ٢٨- المصدر السابق، ص ٦٣.
- \*\*\* تعني دمقار تاحر كير والدمقارات يتولون إدارة النشاطات التجارية والصيرفة والوساطة والمشاركة برأس المال فضلاً عن الوكالة للملك لتصرف أو صناعة أو للقصر أو أحد المعابد، ويتمتع هؤلاء بامتيازات تفوق امتيازات أي فرد آخر في المجتمع.
- ٢٩- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٥٨٤.
- ٣٠- المصدر السابق، ص ٥٨٥.
- ٣١- هاري ساكرز، مصدر سابق، ص ٣٢٨.
- ٣٢- كافين رايلي، الغرب والعالم، تاريخ الحضارات من خلال موضوعات، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥، ص ٩٦.



- ٣٣ سمير أمين، التطور اللامتكافئ، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٥.
- ٣٤- هاري ساكز، مصدر سابق، ص ٣٣٥.
- ٣٥- المصدر السابق، المكان نفسه.
- ٣٦- ل. دولابورت، مصدر سابق، ص ٢٥١.
- ٣٧- جورج كونتينو، مصدر سابق، ص ١٦٥.

## **الفصل الثالث**

### **الفكر الاقتصادي للإغريق والرومان**



### الفصل الثالث

#### الفكر الاقتصادي للأغريق والرومان

##### تمهيد

دأب معظم الكتاب والباحثين في الفكر الاقتصادي على عد الإغريق والرومان بأنهم أول من بدأ التفكير الاقتصادي، وينسب إليهم حدوث الكثير من الطريقات التي ظهرت في المجتمعات اللاحقة، لمجرد وجود أشارات عابرة عثر عليها في مؤلفاتهم.

وعلى العكس من ذلك تماماً نجد أن هناك من الكتاب من ينكر وجود أية أفكار اقتصادية ذات قيمة لدى مفكري هذا العهد.

لذلك نلاحظ أن كتابات هؤلاء تبدأ من مدارس لاحقة فمثلاً (جيدو رست) يبتدي دراسة الفكر الاقتصادي من المدرسة الفيروقراتية (الطبيعية) مهملأ عمداً الفكر الاقتصادي اليوناني (الإغريقي) والروماني وكذلك الفكر الاقتصادي في العصر الوسيط الأوربي، وهذا يسحب عني جملة من المفكرين من مثل حوريف شوميتير ودوهريج الذي أبدى استخفافاً كبيراً بالفكر الإغريقي.

وعنى وفق الرؤية التي اعتمداها من أن الفكر الاقتصادي ما هو إلا حلقات مترابطة، فإن انقطاع عقد إحدى هذه الحلقات سوف يجعل حدوث أو دعائم هذا الفكر غير دقيقة ومقطوعة عن جذورها.

لهذا فإن دراسة تاريخ الأفكار الاقتصادية اليونانية والرومانية يعد أمراً لازماً، لاسيما وأن الأفكار الاقتصادية التي جاءت في ثايا كتابات مفكري هاتين المدرستين، لم تأت من فراغ، إذا ما قبلنا الأطروحة القائلة، بأن الفكر الاقتصادي ما هو إلا انعكاس للواقع

إن النظرات وطريقة تنظيم الاقتصاد عند البابليين، وما تبع ذلك من وجود أفكار اقتصادية لامست في حينه الكثير من المفردات الاقتصادية، لا يمكن تجاوزها وإهمالها طبقاً لهذه الرؤية أم تلك، لأنها تمثل البنات الأولى (الإرهاصات) لبزوغ التنظير الاقتصادي الممهيج.

## المبحث الأول

### الفكر الاقتصادي عند الأغريق (اليونانيين)

قدمت أثينا للعالم شذرات مهمة في مختلف صنوف المعرفة كالفلسفة والسياسة والأخلاق وإلى حد ما في الاقتصاد، متقدمة في ذلك على الكثير من المدن الأوربية الأخرى بحيث أضحت الثقافة اليونانية قاعدة للثقافة الأوربية.

وظلت آثار ذلك لها انعكاساتها الكبيرة والواضحة على محمل حركة المعرفة وحتى عصر التنوير والبهضة، وهذا بلغ امتداده ليطول حتى الثقافة الدينية إبان الفكر الكنسي.

#### أولاً: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أثينا

في الألف الثامن قبل الميلاد بدأت مراحل انحلال المشاعة البدائية طرداً مع التقدم البطيء في قوى الإنتاج، إذ استطاع الإنسان آنذاك من استخدام الأدوات المعدنية في الإنتاج، مما كان له الأثر البالغ على تقدم الزراعة من ناحية، وتطور الحالة الاجتماعية من ناحية أخرى.

وبهذا فقد برز التقسيم الثاني للعمل وزيادة الإنتاج المتأني بسسه عما تحتاجه المشاعة، ظهرت الفرصة السابحة لحدوث التبادل التجاري ما بين مختلف المناطق المتجاورة آنذاك، وهو يمثل البدايات الأولى للتبادل التجاري.

هذا من شأنه أن عجل في انحلال المشاعة، ساند هذه العملية تبلور الملكية الخاصة بشكلها الحيني ودفع ناتجها تبلور السلطة/الدولة، وتحت هذا صار مقدور مالكي وسائل العمل وأدواته أن يرغموا المحرومين منها على العمل لحسابهم، ليستولوا بفضل الملكية على فائض الإنتاج، وكان أول صحايا الاستغلال الاقتصادي المبكر هم أسرى الحرب الذين تحولوا لأسباب اقتصادية إلى أرقاء، ثم أعقبهم في تبلور وتكون طبقة العبيد، تحول الأحرار إلى عبيد بسبب الدين.

بهذا دشنت أثينا كما في مناطق أخرى عهداً جديداً هو عهد استغلال الإنسان لأخيه الإنسان<sup>(١)</sup> مما حمل معه ظهور تقسيم المجتمع إلى طبقات لأول مرة، ومع تضاعف عدد الأرقاء اشتد التناحر بين طبقتي المجتمع الرئيسيتين الأرقاء والسادة.

يبد أن استغلال الأرقاء لم يكن أول شكل من أشكال الاستغلال المعروفة في التاريخ، بل إن هذا الاستغلال يمثل أدهاها وأشدّها وحشية.

وتقدم أثينا أمودحا كلاسيكيا للعبودية، وعلى أساس من استغلال الأرقاء وزيادة تعدادهم بفضل الحرب والنخاسة، شهدت أثينا نهضة للصناعة اليدوية والملاحة والتجارة والفن.

ومع تقدم أوضاع العبودية وتفاقم النزاعات فيها كانت الفلسفة اليونانية انعكاساً لهذه النزاعات الاجتماعية بين فئات المجتمع اليوناني، ولاسيما بين الطبقتين المتنازعتين على الحكم، الطبقة التجارية والطبقة الأرستقراطية، يقوي هذا ظهور أكبر فلاسفة اليونانيين في تلك الفترة المتأخرة من التطور التاريخي والتبدل الاجتماعي.

أن استقرار دعائم الملكية الخاصة التي شملت العبيد ووسائل الإنتاج بما فيها الأرض، وأصبح العبد القوة الإنتاجية الرئيسة في المجتمع العبودي، وأداة من أدوات الإنتاج التي تدحر ضمن ملكية الطبقة الحاكمة، مما شكل عامل دفع باتجاه ظهور تقسيم العمل بين أفراد المجتمع وتطور عناصر الاقتصاد البضائعي وولادة العلاقات البضائية - النقدية بشكلها الأولي.

في ظل ذلك خطا المجتمع العبودي القديم خطوة أكثر نضجاً وتطوراً من المجتمع العبودي الشرقي<sup>(٢)</sup>. ويظل الأساس الاقتصادي للدولة العبودية واحداً مهما اختلفت أشكالها القانونية، هذا الأساس يتمثل باستثمار العمل العبودي مهما اختلفت مصادره (حروب - تجارة العبيد - الدين) وفي جميع القطاعات الاقتصادية (زراعية، ملاحية، تجارة، صناعة)، وعلى الرغم مما حققه هذا النمط من الإنتاج ومن تطور وازدهار ولاسيما في أثينا<sup>(٣)</sup>.

إلا أنه كأي غمط إنتاج بدت تظهر عليه علائم أزمتة (تناقضاته الداخلية) بسبب الوضع المرري لقوة العمل الأساسية في النظام وهي العبيد، وظروفهم غير الإنسانية وتعرضت للموت السريع وبصوب مصادرههم أو بتعبير آخر إن النظام العبودي مع تطوره قصى على قوته الإنتاجية الأساسية(العبيد)، ومما يزيد هذه المشكلة تعقيدا هو صعوبة تعويض هذه القوة الإنتاجية الممددة نظرا لعروف الأحرار عن العمل اليدوي(بسبب احتقاره)، فحرى اعتماد طابع الإكراه الوحشي والذي أدى الى ظهور جملة تناقضات هي:

- التناقض بين العبيد وملاك العبيد.
  - التناقض بين مصالح الطبقة التجارية والطبقة الأرستقراطية.
  - التناقض بين مراتب ملاك العبيد أنفسهم.
  - التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.
  - التناقض بين العزاة والشعوب المملوكة.
- التناقض بين الإطار المتسع باستمرار للقاعدة الاقتصادية للنظام (امتداده الجغرافي) وصيق أطره السياسية (دور المدن).

هذه الأوضاع مثلما وجدت انعكاسها في المجتمع الأثيني عملياً، فإن أثارها امتدت الى أذهان الناس، فتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية نتيجة الحروب الضارية التي شنتها إسبارطة على حيرانها وعجز أثينا عن الدفاع عن نفسها.

وجدت تعبيراتها عند أرستوفان Aristophane (440-386 ق. م)، الذي وضع نصاً لمسرحية كوميدية قدمت أوائل القرن الرابع قبل الميلاد سماها مجلس السوسة<sup>٤١</sup> طال صداها أوساط المثقفين الأثينيين، يصور فيها أن نساء أثينا يقررن اخذ الأمور على عاتقهن، فاحتعلن وأعطين السلطة لإحداهن وهي براكسفورا (Praxagora) لتقيم نظاما عادلا تكون فيه الأموال والأموال مكا للجميع، ليتمتع بها كل الشعب الأثيني.

من خلال المسرحية نتلمس طبيعة الأوصاع في أثينا أمذاك، والتي تشكل تحدياً مجتمعياً، ويمكن أن نستنتج الآتي:

١- أن اختيار الموضوع وطرحه علانية على هذا النسق، يدلل تأثير مشكلة التفاوت الطبقي ما بين الفقراء والأغنياء، بحيث أضحت الشغل الشاغل الاثنين.

٢- أن الرغبة في الإصلاح الاجتماعي الجذري هو الشكل الذي جرى إقراره في أوساط المثقفين، كما ورد بالنص الخاص بدور براكسفورا (يجب على الجميع أن يضعوا أموالهم مشاعة فيما بينهم لتوزيعها بالتساوي حتى لا يكون قسم منا أغنياء والقسم الآخر تعساء، قسم يملك أراضٍ شاسعة يستغلها لحسابه، والآخر لا يجد ولو مكاناً يقبر فيه).

٣- تتضح العلاقة بين الأزمة الاجتماعية العمادة التي ضعفت المجتمع اليوناني، وبين المذاهب التي تنادي بالمساواة كحل جذري لهذه الأزمة.

٤ على الرغم من الحلول التي كان يتطلع إليها الأثينيون، فإن العبيد هم طبعاً الذين يخدمون الأرض، من أجل أطعام المحاربين والطبقة الحاكمة.

ثانياً: المعالم الرئيسة لأفكار فلاسفة الإغريق

تنطلق أفكار فلاسفة اليونان (أفلاطون واكسينافون وأرسطو) من واقع المجتمع اليوباني، ومن مجتمع العبودية، لهذا فهي تتطابق مع الايدولوجيا السائدة في تكريس نظام العبودية، في أي بناء اجتماعي واقعي أو يوتوبي (خيالي)، فهي تنظر إلى العبد (الرق) نظرتها إلى أي من أدوات الإنتاج الأخرى كالحيوان مثلاً، هذه الأداة يمكن إحبارها على العمل بأسلوب العقاب أو بأسلوب المعاملة الثواب.

هذا الاهتمام الفكري بأوضاع المجتمع العبودي الأثيني لم يأت من فراغ، بل جاء لحل التناقضات التي ضربت في بنية المجتمع حينذاك، وتعبيراً عن أزمة غمط الإنتاج العبودي، والتي بدت ملامحها بالظهور عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد



بعد الاضطرابات التي اجتاحت أثينا، بعد ما شاعت نزعة الإثراء الفردي وحب الدات، هذا النزوع ساند السفسطائيون (اعلهم من غير اليونانيين).

وبدت اثر هذه الدعوة الى الحرية الفردية ومحاربة العبودية وأسلوب إنتاجها ونمط التجارة الساند فيها، والذي لا تراعى فيه إلا مصلحة الأحرار من مواطني أثينا، هكذا بدا الصراع يحتدم بين الفقراء والأغنياء.

ولما كانت هذه الأوضاع تعصف بالمجتمع العبودي اليوناني، فقد دخلت الدولة بوصفها راعية لمصالح طبقة ملاك العبيد والأرستقراطية (دولة طبقية) بكل وسائل القهر والعنف مصدرة التشريعات لإطالة حياة العبودية، مسوغة ذلك كله في إطار فلسفي وفكري وسياسي، لهذا جاءت أفكار فلاسفة اليونان والرومان معبرة عن هذه الحاجة، وهي تسويغات ذرائعية أهملت عن قصد حركة التاريخ وطبيعة الصراع.

فمن الملاحظ وجود مشتركات مابين المفكرين اليونانيين صرحوا جميعا في المحافظة عليها، إلا وهي تمجيد النظام العبودي، وعدوا المجتمع الأثيني وبخاصة (اليونانيين الأحرار) من أنهم خنقوا رجالاً للحكم (سياسيين وفلاسفة)، وعلى وفق ذلك لا يتناسب مع طبيعتهم البشرية أن يكونوا عبيداً، كما إن جميع المفكرين الإغريق ارتضوا بالتراتب الطبقي، لكنهم لم يسوعوا مسببات التراتب بصورة علمية.

لقد كانت النشاطات الاقتصادية تعد عند اليونانيين من مشاغل الحياة الدنيا، فهي لا تستحق منهم التفاتة متخصصة، لأنهم يفضلون المصاربة الفكرية، في المشكلات العقلية والأخلاقية على الاهتمام بالشؤون المادية الدنيوية.

ولما كان النشاط الاقتصادي في عهد الإغريق محدودا جدا، وكانت المشكلات التي يثيرها هذا النشاط قليلة الأهمية، بحيث لم يتناولها الفلاسفة والمفكرون الإغريق، ألا بصورة عرصية وفي ضوء اعتبارات غير اقتصادية.

لذلك تعرض فلاسفة اليونان الى المشكلات الاقتصادية لا كفرع مستقل من فروع المعرفة، بل كأبحاث مرتبطة ارتباطا عضويا بالفلسفة والسياسة والأخلاق،

وإدراك كنه الأشياء، وتفهم علل الطبيعة، وماهية الكون، وتسبب هذا يعود الى عاملين هما:  
الأول: أن هدف المفكرين الإغريق هو إرساء دعائم حكم سياسي يضمن للمجتمع الإغريقي  
القوة والمصلحة إمام العدو الخارجي والمتمثل بالإمبراطورية الفارسية ودولة  
إسارطة.

الثاني: تعرض فلاسفة اليونان للمشكلات الاقتصادية التي كانت قائمة لا كمرع مستقل من  
فروع المعرفة جاء (نتيجة لاحتقار اليونانيين للنشاطات الاقتصادية التي كانت قائمة  
على جهد العبيد)، والشعور بأن المواطن الأثيني يجب إن يشغل نفسه بما هو  
أسمى من السعي المادي، كالتأملات الفلسفية أو الاهتمامات السياسية<sup>(6)</sup>.

من المعروف حتى يومنا هذا أن أول بؤادر الحديث عن (الشيء الاقتصادي) قد بدأ عند  
الإغريق، وذلك اثر نمو الفكر اليوناني في أثينا الطاهرة الثرية في القرن الخامس ق. م، حتى أن كلمة  
(اقتصادي) هي كلمة يونانية استخدمها كسينافون (Xenophon) لأول مرة عبوانا لكتابه الذي  
خصه لدراسة أسس الإدارة المالية العامة<sup>(7)</sup>.

أن الفكر الاقتصادي عند اليونانيين تميز بصفتين أساسيتين. المذهبية والتعنية، إذ كان فكرا  
مذهبي لان الفلاسفة والمفكرين الإغريق لم يتعرضوا لبحث الشؤون الاقتصادية، ألا في إطار  
معالحتهم للأوضاع القائمة في الدول المدينية (Polis) نسبة الى المدينة، فعمدوا الى تبريرها  
وتمحيدها، وتعلسفوا في إقامة مجتمع مثالي يسوده الاستقرار والأمن، وتؤمن فيه مصلحة الجماعة  
من احل هذه الأهداف.

فما كان الفكر الاقتصادي تابعا لسواه من ضروب التفكير الأخرى، فوردت هنا وهناك آراء  
ذات صبغة اقتصادية، وهي منشورة في مؤلفات الأخلاق والفلسفة السياسية والقانون.

## المبحث الثاني أعلام الفكر اليوناني

قدمت الفلسفة اليونانية إسهاما رئيسا في الفكر الاجتماعي والسياسي، وكانت وليدة صراع اجتماعي شبيه بالصراع الذي سبق أن دفع الفلاسفة العبرانيين الى الاحتجاج. احتضنت أثينا مدارس فكرية وفلسفات متعارضة الى يومنا هذا، توزعت ما بين الفلسفة المادية (المدرسة الأيونية الأبيقورية- نسبة الى أبيقور Epicurus (٣٤١- ٢٧٠ ق.م) والفلسفة المثالية (السفسطائيون والانتقالية أو الوسيطة)، كما أن فلاسفتها الذين عوا بالمسائل الاقتصادية كانوا موزعين أيضا على هذه الفلسفات. وسوف نتعرض على أفكار أبرز المفكرين الإغريق والذين كانت لأرائهم أهمية كبيرة في تاريخ الفكر الاقتصادي.

أولاً: أفلاطون Platon (٤٢٨-٣٤٨ ق. م)

من أشهر فلاسفة الإغريق، وهو رائد المثالية الموضوعية القائمة على أن الفكرة المطلقة خارج الكون والإنسان - هي التي خلقت العالم، وهو تلميذ سقراط (Socrates ٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م) ومعلم أرسطو، ينحدر من عائلة أثينية أرستقراطية، عاش أزمة البطام العبودي في أثينا، صاحب كتاب الجمهورية الذي اشتهر به أكثر من غيره<sup>(٧)</sup>.

كان لديه اهتمام شديد بشؤون الدولة التي لم يكن يميز بينها وبين الشعب، وعارض الدولة القائمة في عصره، وصاغ رؤيته في إقامة صرح اجتماعي مثالي في كتابه (الجمهورية)، أن السروع الأفلاطوني هذا كان بدوافع ثلاثة هي<sup>(٨)</sup>:

١- كان أفلاطون أرستقراطيا ولذا نراه يدافع بكل ما أوتي من أسلوب أدبي وذكاء حاد عن مصالح الطبقة الأرستقراطية وأهدافها في تعزيز ظاهرة

- السوق وبناء دولة مستقرة تمهد الطريق لتقسيم العمل الذي باتت علامته بالتلور.
- ٢- صاغ أفلاطون آراءه الفلسفية متأثراً بالفوضى السياسية والاجتماعية التي عمت أثينا إبان اندحارها أمام اسبرطة.
- ٣- تأثر بالتطور الاجتماعي والاقتصادي الذي أخذ يدب في جسم المجتمع الإغريقي وما صاحبه من ظهور التنافس والتناقض بين طبقات المجتمع.
- أراد أفلاطون إرساء دعائم مجتمع قوي، ورأى في تقسيم العمل خير سبيل لتحقيق ذلك، إذ يؤمن بشدة بالتقسيم الطبقي، وأمینا عليه.
- وتبعاً لذلك لم ير في حل مشكلات الطبقات الاجتماعية المتناحرة السبيل لإرساء قواعد الجمهورية المثالية، وإنما في تشديد وتعزيز التقسيم الطبقي، لذلك وضع تصميمًا مثاليًا لمجتمع المدينة، قسم فيه المجتمع إلى طبقات ثلاث: الحكام- المحاربين (الحند)- والفلاحين والصناع.
- وفي هذا يظهر تأثيره الشديد بالفلسفة الكايبية وبآراء ابرز مفكريها هيبوداموس (Hippodames) الذي قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات، هذه الفلسفة تتجه نحو الشيوعية (Communisante) مع طابع فوضوي عن مدى استعداد الأفراد الطبيعية، ويحدد طبقة كل واحد منهم، أما (الفلاحون والصناع) فلا يشتركون إلا في مراحل التعليم الأولي ويتلقى المحاربون تربية رياضية وموسيقية حتى الثامنة عشرة من العمر، ثم يدربون على الجندية ويختص الحكام دلثقافة العالية فيدرسون جميع العلوم وما بعد الطبيعة.
- ومن الجدير بالذكر إن هذه الطبقة تنقسم إلى أوصياء ومعاونين، وهذا يتم عندما يبلغ أفراد هذه الطبقة سن الثلاثين فيخضعون إلى امتحان، يتعين بموجبه الحكام الفلاسفة، من الذين اجتازوا الامتحان، بينما يعين الذين لم يجتازوا الامتحان معاونين يضطلعون بالأمر الإدارية

من الواضح أن تقسيم أفلاطون للمجتمع الى طبقات منفصلة واحدة عن الأخرى بشكل تام، هو تقسيم خيالي يرتكز على أسس اجتماعية صرف، وبعيدة كل البعد عن أي اعتبار اقتصادي إنتاجي، فهو يهدف الى تكريس الطبقية ومنع الحركية الاجتماعية (الحراك الاجتماعي) مستهدفا الحفاظ على مصالح الأقلية وتوطيد الاستقرار في الدولة.

بيد إن تقسيم أفلاطون للطبقات كان مستنداً على توصيف لميزات وخصائص كل طبقة، فالحكام يمتازون بالحكمة والمحاربون بالشجاعة والمرارعون والصناع بالاعتدال، ولكل منها صفة (معدنية حادة)، لا تحتل إلا من باب الشدود والاستثناء، فطبقة الحكام هي من قلب فكري (ذهبي) وهي مرشحة للسلطة السياسية والحكم، وطبقة الحمد هي خليط من الفضة وتتحمل أعباء الحرب وإعمال الأمن في الدولة، طائفة راضية<sup>(٩)</sup>.

هذا النظام يمثل فيه الحكام (الرأس) والحمد (القلب)، أما المرارعون والصناع فهم (السواعد)، من الواضح في هذا أن الرأس (الدكاء) والقلب (القوة)، يأخذان من هذا النظام الطبقي حصة الأسد بالقياس الى السواعد (قوى العمل).

أن هذا التصنيف للطبقات الاجتماعية من شأنه تكريس ألا مساواة، كما انه يجمد الصعود الطبقي (الحراك ما بين الطبقات)، هذا التصنيف الطبقي ليس بدعة في التفكير الأفلاطوني، بل هو سمة للحضارات القديمة (حضارة وادي الرافدين- الفرعونية- اليونانية- الهندية- الفارسية). عليه لا غرابة أن تتحرك هذه الحضارات رواسبها في الفكر الأفلاطوني، لقد حاول أفلاطون تسويغ هذا التقسيم الطبقي وفقاً لاعتبارات هي<sup>(١٠)</sup>:

١- مع كل تطور حادث في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية يصح من المتعذر على الفرد أن يلبي حاجاته البشرية المتعددة والمتجمدة.

٢- التفاوت في المواهب والقدرات البشرية وإمكاناتها الطبيعية.

٣- انعماس المسؤولين في الحكم بملاذات الحياة ووسائل الترفيه حمل معه إهمال شؤون الدولة والمجتمع وساعد على انتشار الفوضى والتناحر، هذا دفع أفلاطون للدعوة الى ابتعاد الحكام عن حياة البذخ والعيش المترف، وتجريدهم من روابط الأسرة وشواغل الثروة عن طريق إخضاعهم الى حياة مشاعية تسودها الصرامة الاسبرطية، وتنعدم فيها الملكية الخاصة، مما سيجررهم من أية دوافع للاستغلال الاقتصادي وسيدفعهم الى مستوى المسؤولية التي تقتضيها شؤون الحكم وتصريف أمور المجتمع.

لكن مفهوم أفلاطون عن الحكام كان مثالي الصيغة الى درجة كبيرة، إذ تجاهل ما للسلطة المطلقة من اثار مفسدة، وهي مسوغ لقيام اوليغارشية فعلية. إد أن الواقع الفعلي بعيداً جداً عن الدلالة المثالية الأفلاطونية، فطبقة الحكام لا تستطيع الادعاء بأنها مرت بتلك العملية الدقيقة من التربية والانتقاء التي فرضها أفلاطون. هذه الطبقة قليلة الاهتمام برفاهية رعاياها الذين لم تحكمهم بالعقل والإحسان ولا بالرعاية القائمة على الأكاذيب والتي عدها أفلاطون سلاحاً (له ما تسوغه) تستخدمه الطبقة الحاكمة المثالية، وإنما دأبت هذه الطبقة على أن تحكم الناس بالطغيان الوحشي<sup>(١١)</sup>.

#### نظرات أفلاطون في المسائل الاقتصادية

في كتابه الشهير (الشرائع) أو (القوانين) يعالج أفلاطون بأسلوب يقرنه من دائرة التخصص في تناول الإحداث الاقتصادية والاجتماعية والطروف الجغرافية والسكان وأمور أخرى تتعلق بالدولة، ويفرد مساحة مهمة لسيادة القانون، معتقداً إن كتابه الرئيس (الجمهورية) كتبه يأمل من خلاله الخطوة لدى ملك (سيراكوره).

## ١- الملكية الخاصة:

يرى أفلاطون أن الملكية الفردية يجب أن تقتصر على الطبقة العاملة أي العبيد المحكومين الذين لا يستطيعون الارتقاء الى مصاف الصفوة الحاكمة (Elite) والتي بعث الحياة فيها باريتو (Pareto) رائد المدرسة الرياضية في الاقتصاد، وكذلك ويلر (Wells) في بعض مؤلفاته ورواياته في ترفعها وتفانيها لخدمة المصلحة العامة.

لذلك على النخبة أن ترفع عن كل ما يحط من منزلتها العالية، وذلك بأن تحرم من الملكية الفردية ومر الأسرة، على أن تكون الأموال والنساء والأولاد ملكاً مشاعاً فيما بينهم، أن هذه الشيوعية المادية والجنسية لا تخرج عن نطاق المواطنين الأحرار من قصة وفلاسفة ومحاربين. وأفلاطون يبدى إعجابه بجمهوريته التي لن يوجد أجمل وأبدع منه على الإطلاق "، على الرغم من أنه كتب (الجمهورية) بعرض التقرب من ديونيسيوس الثاني.

## ٢- تدخل الدولة.

يولي أفلاطون اهتماماً كبيراً لتدخل الدولة في شؤون الحياة العامة بكل جوانبها تدخلاً واسعاً وشاملاً، حتى وإن حدثت من الحريات الفردية، ومرد ذلك هو المصلحة العامة وتوطيد الاستقرار والأمن في الدولة المثالية.

أن تشديد أفلاطون على الدولة ودورها ليس بقصد نشر العدالة والمساواة، فهي أصلاً مستندة على طبقات معلقة، تقييداً لحرية الفكر.

لهذا يرى حوريف شوميتز أن جمهورية أفلاطون لم تكن رائدة للاشتراكية أو الشيوعية الحديثة، وإذا كان لابد من تصنيفها فهي أقرب الى (التعاونية) العاشية Corporative، ويمثل كتاب الجمهورية يونوبيا رائدة تعبر عن الرغبة في إيجاد مجتمع أمثل يسوده العدل والمساواة وتختفي فيه أشكال الظلم والفقر ومظاهره كافة، هذه الرؤيا كونت تياراً فكرياً امتد رماً طويلاً فمن مدينة القاصلة لبفاري، ونظام

جمهورية تعد يوتوبيات جديدة لتوماس مور ومدينة الشمس كامبانيا، وصولاً إلى سمر أيكاري...الخ.

٣- السكان:

يعالج أفلاطون المشكلة السكانية من خلال تأسيسه لهذا الموضوع بالأساس من خلال خصائص الدولة المثالية بتواجد سكان محدودين، ثروة محدودة لهذا يلزم أفلاطون الحكم على أن يسهر على تواجد عدد امثل من السكان حتى لا يتجاوز أمكانية الجماعة الاقتصادية، فيحتل أحيراً التوازن الاجتماعي وتقوم الاضطرابات والقلق في الدولة.

وللوصول إلى هذا العاية الحد من التضخم السكاني، لم يتورع عن القول بإباحة نفي السكان إلى أماكن بعيدة وإحصاص الحوامل، إلى ما هنالك من التدابير الفعالة (إيجابية والسلبية) كالحكم من الزواج. هذه الرؤيا أسست فيما بعد لنظريات السكان وأبرزها نظرية مائثس للسكان ونظرية الحجم الأمثل للسكان.

- تقسيم السكان:

يرتكز تقسيم العمل عند أفلاطون على رأيه الذي يقول فيه (يختلف الناس عن بعضهم كثيراً حسب قدراتهم) أي إن الناس عندما يولدون، تولد معهم مؤهلاتهم.

بيد أن أفلاطون الذي لم يتمتع بقوة تحليلية كافية متحذاً من آرائه في تقسيم العمر أداة لتحقيق عرض رجعي في جوهره محولاً إليها لتجميد نظام الطوائف، تأييداً للتقليد الأرستقراطي الذي يقف موقف الدفاع عن المجتمع العبودي، لهذا فإن تقسيم العمل مصدره (الطبقات المعلقة) والمتأني من الاختلاف الطبيعي في الكفاءات طبقاً لذلك فقد انتقد ظاهرة جمع عدة أعمال في حرفة واحدة.

وقرر إن السكان في الأصل الهليني يجب أن يمارسوا الأعمال الحرفية وأن يتركوا للأجانب، وإذا حاول الأجانب ممارسة حرفتين معاً وجب على السلطة



الحكومية أن تحبره على ترك أحدهما، ويرى أفلاطون إن على العامل التكيف مع طبيعة العمر وليس العكس.

#### ٤- النقد والقيمة والتجارة:

يعد أفلاطون النقود مجرد (رمز) لتسهيل التبادل، وقيمتها غير مستمدة من مادتها (stuff)، ولهذا فانه وقف ضد المسكوكات الذهبية والفضية، وفرق بين النقود المحلية المقبولة فقط داخل الدولة، وبين النقود العامة التي تحتفظ بها الدولة لتغطية الحملات العسكرية والأسعار وغيرها إذ يحب على الأفراد الذين يخرجون من البلاد بموافقة السلطات أن يسلموا عند عودتهم ما لديهم من نقود أحبية الى الدولة ويحصلون مقابلها على نقود محلية، وألا فإن النقود الأحبية تصبح عرضة للمصادرة<sup>(١٣)</sup>.

هذا التمييز بين النقود المحلية والنقود العامة يدل على أن أفلاطون كان يميز بين النقود كملة القيمة والنقود ناقصة القيمة، فصلاً عن أن أفلاطون لم يميز بين الوظائف الأخرى للنقود، إذ كن يقف صد تراكم النقود، ويعدها نظرة سلبية الى وظيفة النقود بوصفها وسيلة للاكتناز. كما انه يرفض إجراء الصفات التجارية بالآجل ويدعو انه يجب إجراء الصفات التجارية نقداً، وفي هذا تأكيد على غياب وظائف النقود (الأساسية والمشتقة) عن ذهنية أفلاطون، إذ انه لم يستطع الوصول الى إن النقد وسيلة للدفع الآجل.

أما في ما يخص مفهوم القيمة، فأن غياب مفهومها عند أفلاطون جعله غير قادر على تفسير سبب تعادل البضائع، إذ ارجع ذلك الى النقود، ولم يستطع تفسير قابلية البضائع للقياس، إلا أنها بفضل عمية التبادل تصبح قابلة للقياس، عدم الوضوح هذا في دعوة أفلاطون دفعه الى عد فاعر خير كل من يقوم بقياس وتصنيف أية ملكية غير قابلة للقياس.

أما التجارة فعلى الرغم من احتقار أفلاطون لها بحيث عدها أدنى الأعمال ويحصرها بالأحباب فقط، إلا أنه يوليها اهتماما كبيرا إلى جانب الحرفة في الحياة الاقتصادية للدولة، ويمتدح كثيراً التجارة الصغيرة، ويعدد وظائفها النافعة، على الرغم من هذا الاهتمام إلا أنه لم يستطع الربط ما بين التخصص ودرجة تقسيم العمل، وما بين اتساع حجم السوق وما يشأ عن ذلك من خفض لائتمان المنتجات، إذ أن أفلاطون لم يتابع هذه الحجة وعدها ظاهرة طبيعية.

ثانياً: كسينافون (Xenophon - ٤٨٤ - ٣٥٤ ق. م)

يحدث كسينافون من الوسط الأرستقراطي الغني في اليونان القديمة، من طبقة أسياد العبيد، فهو مؤرخ وقائد، إذ أن المنزل (Household) كان الوحدة الاقتصادية بدل المشروع (Firm) في الاقتصاد المعاصر، كذلك بحثه الشهير (وسائل زيادة موارد أثينا)، ويبدو من أرائه بوجه عام أنه أقرب ما يكون إلى المدرسة التجارية (الماركنتيلية).

#### ١- إدارة الاقتصاد:

يأدي كسينافون بالإدارة العقلانية للاقتصاد، ومن هنا منشأ اهتمامه بالاقتصاد المنزلي، إذ يعرف إدارة الاقتصاد المنزلي بالكلمات الآتية: هي العلم الذي يستطيع الناس بمساعدته أعباء اقتصادهم وحيارة كل شخص على ما هو نافع في الحياة، والنافع هو كل ما يستطيع الإنسان الاستفادة منه<sup>١</sup>. انطلق تحليل كسينافون من حالة الاقتصاد العبودي الذي هو اقتصاد طبيعي بشكل رئيس، ومن مفهوم القيمة الاستعمالية مع بعض التلميحات من خلال تأكيد ضرورة إدارة الاقتصاد بربحية، أي بما يحقق تراكم نقدي، وفي هذا يرى إن الطريق الوحيد للعنى هو (العيش عند المستوى الذي يترك فائضاً)، أن نظرات كسينافون هذه تعكس تطور التبادل في قلب النظام العبودي.

## ٢ - الموقف من الزراعة والحرفة:

يعد الزراعة المهنة الرئيسة في النشاط الاقتصادي، ومصدر عيش الشعب، مؤكداً الطابع الشامل للأثر النافع من الزراعة، فهي تنقي للإنسان الحر (كثيراً من وقت الفراغ للاهتمام بالأصدقاء والوطن) كما (تعلم الناس أيضاً مساعدة بعضهم بعضاً) فيما يعهد كسيافون للمواطنين الأحرار بواجبات الأشراف والإدارة في الزراعة بينما يحصر العمل البدني والعبيد.

وبينما يحدد كسيافون الزراعة فإنه يحط من قدر الحرفة (الصنائع) على أساس أنها تبقى أقل ما يمكن من أوقات الفراغ، وهذا تعليل درائعي، والحقيقة أنه يعكس في ذلك نظرة الاحتقار التي تحملها الطبقة الأرستقراطية إلى العمل المنتج.

## ٣- النظرة إلى الصناعة والقيمة:

يمكن أن تكون نظرة كسيافون إلى الأشياء أكثر تقدماً من أفلاطون عندما يشير إلى أن الشيء يمكن أن يستعمل في وجهتين، فقد أطلق صفة الكسب على كل شيء نافع للإنسان، لكنه ربط بين طريقة استعمال الأشياء وبين عدها قيماً.

إذ يشير إلى أن الأرض والأعنام والبقود لا يمكن عدها قيماً إذا أسيء استعمالها، وهو في هذا يشدد على القيمة الاستعمالية ومحاولة الربط بين هذه القيمة وبين المنفعة التي تحمها، وهو في هذا أكثر وضوحاً من أفلاطون على الرغم من أنهما تأثرا بفلسفة المدرسة الأبيقورية (مذهب السعادة) Hedonism أو اللذة والألم<sup>(١٥)</sup>.

ونجد لدى كسيافون أول تحديد للقيمة التبادلية، عندما يشير إلى أن الشيء قد لا تكون له قيمة في يد من لا يحسن استعماله ولكنه إذا جرى مبادلته يصبح ذا قيمة<sup>(١٦)</sup>. طبقاً لذلك يستكمل كسيافون مفهومي القيمة (الاستعمالية والتبادلية) لأول مرة في الفكر الاقتصادي.

#### ٤- النظرة الى النقود:

على الرغم من إن كسينافون من أنصار المذهب الطبيعي، ونظرته سلبية الى النقود، فهو يؤكد رؤيته الاقتصادية المساعدة لاستخدام انتشار العلاقات المضاعفة- النقدية، لخدمة مصلحة طبقته الأرستقراطية لذلك جاء فهمه للمسائل الاقتصادية متناعماً معها وليعكس جدور(عيرته البرحوارية)<sup>(١٧)</sup>.

أما فيما يخص شكل النقود فهو يؤكد أن تزايد استخدام الذهب والفضة لأغراض غير اقتصادية بحانب تزايد الثروة، تحعله راعياً في زيادتها باستمرار الى أن تصبح فائضة عن حاجته، لهذا سيعمل على تكديسها لتمنحه من السرور أكثر مما تمنحه من استعمالها، وفي هذا تأكيد للطابع الأكتنازي(شكل) للنقود، عندها أكد تعير قيمة الذهب عند زيادة كميته إلا انه لم يمد هذه الفكرة على استقامتها لتشمل الفضة متحصلاً بان الطلب عليها غير محدود<sup>(١٨)</sup>.

#### ثالثاً- أرسطو Aristotle's (٣٨٤-٣٢٢ ق. م)

هو اكبر ممثلي الفكر الاقتصادي في المجتمع القديم، وهو الفيلسوف العظيم لليونان القديمة، ولد في مدينة (ستاغريت) في مقدونيا، كان والده طبيب القيصر المقدوني (أمينتي الثالث)، دخر وهو في سن السابعة عشرة أكاديمية أفلاطون في أثينا، وتعلم على يديه، وليصبح صديقاً للأسكندر الأكبر الذي اختاره في عام ٣٤٣ ق.م معلماً ومربياً لوريث العرش المقدوني مدة ثماني سنوات.

عند عودته الى أثينا انشأ مدرسته الفلسفية الخاصة وتفرغ للنشاط العلمي والتعليمي، وبعد موت الاسكندر، انتقل الى جزيرة إيغوى، فقد توفي بعد ذلك بوقت قصير.

#### ١- فلسفة أرسطو

ينتمي أرسطو الى الفلسفة الانتقائية أو الوسطية، إذ جمع في فلسفته الاتحادي المثالي والمادي بأشكال مختلفة حسب ميادين المعرفة التي ارتادها، فقد

كان ماديا" في نظريته للوجود (Anthology) (موضوعة العالم) ومثالياً في نظرية المعرفة (البيستمولوجيا) (الفس هي مصدر المعرفة)<sup>(١٩)</sup>.

والجانب المادي عنده ما هو إلا انعكاس لواقعه فعلى الرغم من أن أرسطو أو (ارسطوطليس) لا ينتمي الى الطبقة الأرستقراطية، إلا انه اقرب من أستاذه الى الواقع، وهذا طبيعي لأنه كان مقلداً على الحياة المادية أحياناً بأسبابها، إذ تزوج وأنجب أولاداً وتولى المناصب. هذه العوامل جعلته ينحى طريقاً آخر في التفكير، خالف سلوك أفلاطون، الذي ظل زاهداً في الدنيا منزوياً عن الناس، ومثالياً في سلوكه.

في كتابه (السياسة) تعلبت عليه روح الإجمال الفلسفي على الروح العلمية، فكانت نظره الى الدولة والمجتمع نظرة ميتافيزيقية، لكنه حلل بعض المسائل التي لها علاقة بالحياة الاقتصادية، وبإتباعه الطريقة الاستقرائية يعد أول من قدم للمعرفة الإنسانية نواة لنظريات اقتصادية تستند الى تحليل ووصف دقيقين، وذلك في حدود معطيات عصره الاقتصادية.

فهو يطبق في نظراته الاقتصادية- الاجتماعية من فرصة ثبات الطبيعة الشرية (الإنسان بطبيعته مخلوق سياسي)، وهذا ما يدفع حتى الناس غير المحتاجين الى المساعدة وبشكل غريزي في محاولة لإنشاء حياة مشتركة. هذا الدافع الطبيعي للناس نحو التقارب يؤدي الى تشكك العائلة والتجمعات السكانية. ومن ثم تكون الدولة التي يريد لها أرسطو أن تكون جامعة لثلاثة عناصر أساسية هي (الملكية- الأرستقراطية- الديمقراطية).

## ٢- أرسطو وأيديولوجية المجتمع العبودي:

يرى أرسطو أن السيادة والخضوع هما قانون عام من قوانين الطبيعة، وهو ينطبق على المجتمع، فبعض المخلوقات منذ ولادتها مهياة للخضوع والأخرى للسيادة، وما بين العبيد والسادة توحد مصالح مشتركة، فالعبد (جزء من سيده، جزء من روحه وجسده منفصل عنه)، وما هو مفيد للجزء مفيد للكل.

إن أساس الرق يكمن في الطبيعة البشرية، فالرق ما هو إلا أداة (حية) لا تختلف عن أدوات العمل الأخرى الجامدة، وإن مهمته الوحيدة التي ولد لها هي التفرغ لخدمة السادة. وهذا المهم لموضوع العبودية يشكل نقطة افتراق مابين أرسطو وأفلاطون، فأرسطو في تسويغه للعبودية على أساس طبيعي هو في واقع الحال أكثر رحمة من تعليل أفلاطون القائم على تقسيم العمل تبعاً لدرجة التطور الاجتماعي-الاقتصادي في حقبة زمنية معينة. في حين يذهب أرسطو إلى أن العبودية هي مظهر طبيعي يلزم الحياة الإنسانية، وأن بعض الأفراد الذين ليسوا من أصل هيليني هم عبيد بالطبيعة، أي أنهم يولدون وهم عبيد، وهو بهذا يعمم ظاهرة الرق ولا يقيد بها بظرف أو مكان معين وإنما يعدها ظاهرة طبيعية مما تقدم نلاحظ أن جميع المفكرين اليونانيين القدماء، من مثل (هيوداموس وفاليس وارسطوفان وأفلاطون) جعلوا دائماً في مقابل المساواة والشيوعية العبودية، العبيد الذين يخدمون الأرض الشيوعية المهيأة لإطعام المحاربين والطبقة الحاكمة، وفي الوقت نفسه هؤلاء محرومون من حقوق المواطن اليوناني الحر. إن تكريس نظام العبودية في أي بناء اجتماعي واقعي أو يوتوبي هو القاسم المشترك بين جميع المفكرين والفلاسفة والشعراء اليونانيين بما فيهم أرسطو. وحتى انتقادات هذا الأخير للبناء النظري لهؤلاء، لم يكن من أجل العبودية بل من أجل مناهضته للملكية الجماعية، بل وقف موقفاً متطرفاً من العبودية عندما قال في كتابه (السياسة) (أن الناس ليسوا متساوين بحكم الطبيعة، وإنما يولد بعضهم للعبودية ويولد الآخرون للسيطرة والحكم)\*\*.

### ٣- الموقف من الملكية

أرسطو الذي تتلمذ على يد أفلاطون، يبدو من خلال كتابه (السياسة) متهجماً على تصورات أستاذه الشيوعية ومنتقداً الملكية الجماعية، إن إيمانه بجدوى الملكية

هو اعتقاده بأن الملكية العامة غير عملية لأنها لا تحصى بالعناية التي تلقاها الملكية الخاصة بمسها ولأنها تتعارض مع ميول النفس البشرية وطبيعتها بحسب الظهور والتميز عن طريق الملكية الخاصة، فضلاً عن المشاحبات التي لا بد أن تنشأ حتى لا يجري التمييز بين الناس الذين يتفاوتون بحكم الطبيعة في الخدمة والنشاط.

لهذا يجب تقسيم كامل مساحة البلاد الى قسمين:

الأول: تكون ملكية الدولة (ملكية عامة).

الثاني: ملكية الأفراد (ملكية خاصة).

ويلزم أرسطو الدولة بحصول كل مواطن على غذائه، وهو يرى أن حق الملكية يجب أن يتركز في أيدي القسم المتميز من الدولة.

إن تعليل أرسطو للحاجة الى الملكية الخاصة جاء في إطار نقده للبناء النظري الذي استند إليه كل من هبوداموس (Hippodamos) وفالياس (Phaleas) مقسمين المجتمع الى ثلاث طبقات (الحرفيين - الفلاحين - المحاربين)، بحيث تكون ملكية الخاصة للمزارعين والملكية العامة للمحاربين.

وهنا تساءل أرسطو من سيطعم المحاربين؟ وكيف يمكن ضبط تعايش المكيثين في الوقت نفسه؟ في رأي أرسطو أن هذا أقوى حجة على ضعف سياسة هبوداموس الخيالية، ومن اللازم الإشارة الى أن الهاجس الفكري المعبر عن أوضاع المجتمع الأثيني السياسية والاجتماعية المتدهورة نتيجة للحروب الصارية التي شنتها اسبرطة على جيرانها، ونتيجة لعجز الحاكمين.

ومن أجل الوصول الى إصلاح اجتماعي فاعل يعيد للمجتمع وحدته، ظلت مسألة إقامة نظام شيوعي كامل حيث تكون فيه الأموال والأموال ملكاً للجميع لينتمتع بها كل أفراد المجتمع، انشغل الأثينيون ولاسيما المثقفون والمفكرون ليصح الشغل الشاغل لهم، لهذا نلاحظ أن الإرث الفكري في هذا عند اليونانيين كان كبيراً وممتداً في السياسة الى الفن.

#### ٤- أفكار أرسطو حول البضاعة

يلاحظ أرسطو في تحليله لطبيعة البضاعة إن الحصول على أي شيء أو استعماله يحمل طابعاً مردوجاً، فأي شيء (منتج أو سلعة) هي إما للاستهلاك الذي يحقق الهدف المباشر منها، أو يمكن استخدامه من أجل المبادلة، فالاستهلاك (أو الاستعمال) هي الحالة الطبيعية.

إما المبادلة فهي حالة غير طبيعية، لأن البضاعة لم توجد إطلاقاً من أجل المبادلة، ويكون أرسطو بهذا قد كشف في الحقيقة عن القيمة الاستعملية والقيمة التبادلية في البضاعة، فالخذاء مثلاً، تكون له قيمة استعمال تنتج عن عملية لبسه واستخدامه، وهذه القيمة تأتي من الإشباع الذي يعطيه الخداء لمن يلبسه وتكون للخداء أيضاً قيمة مبادلة، وهو ما نحصل عليه من سلع السوق نتيجة لمبادلة الخداء بغيره من السلع

هذه التفرقة لها قيمتها في الفكر الاقتصادي الحديث، لأنها نقطة البدء في بحث نظرية القيمة التي تحتل مكانة جوهرية في الاقتصاد السياسي.

وعلى الرغم مما جاء به أرسطو في التفريق بين القيمة التبادلية- الاستعملية، وأن التبادل شأ قبل ظهور النقود، إلا أنه لم يكن يتصور القيمة التبادلية بدون السعر، وتوصل إلى نتيجة هي أن الصانع تصبح قابلة للقياس فقط بمساعدة النقود، وأن النقود هي التي تجعل الصانع قابلة للقياس والمقارنة.

ويرجع عدم نضج تحليل البضاعة عند أرسطو إلى غياب مفهوم القيمة لدية بسبب خصائص مرحلة التطور الاجتماعي- الاقتصادي التي عاشها، فقد كان الأساس الطبيعي للمجتمع اليوناني هو عدم تساوي الناس فيما بينهم، في حين كان يفترض في عملية التبادل أن تحري معادلة الأشياء فيما بينها، وكذلك معادلة الناس مع بعضهم، وبين تعادل الأشياء والناس توجد علاقة وثيقة.



ويقول ماركس في ذلك (تظهر عبقرية أرسطو بالضبط في كونه كشف عن علاقة التعادل في قيمة الصانع، ولكن الحدود التاريخية للمجتمع الذي عاش فيه معنته من اكتشاف سر ومصمون علاقة التعادل الحقيقية<sup>(٢١)</sup>).

#### ٥- الموقف من الدولة

بجانب الأساس الاقتصادي الذي اعتمده أفلاطون لتفسير الدولة، أشار أرسطو الى أن الدولة ظهرت نتيجة للتطور التاريخي ولتحقق غايات أكبر من غاية إشباع الحاجات المادية، فمن الذخيرة التطورية، ظهرت الأسرة أولاً وكانت تقوم على علاقة الرجل بامرأة وعلاقة السيد بالعبد، لهذا فإن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى التي استندت عليها كل التشكيلات الاقتصادية- الاجتماعية اللاحقة، ثم تجمعت الأسر المحتملة لتكون القرية، ثم تجمعت القرى لتكون المدينة/ الدولة. عنيه فالدولة ليست مجرد أجماع يقدم التبادل وإشباع الحاجات المادية كما بين أفلاطون، ولكنها (اجتماع الأسر والقرى في جماعة كاملة تكفي نفسها بنفسها لغرض الوصول الى حياة سعيدة ومستقلة)<sup>(٢٢)</sup>.

وعلى الرغم من هذا فقد ظلت مدينة أرسطو الفاصلة على شبه كبير بجمهورية أفلاطون من حيث انقسامها الى طبقة عليا تدير شؤون الدولة وتمارس الوظائف الأساسية الأربع (الدفاع والسياسة والقضاء والرهينة).

كما يؤكد أن الفرد في هذه الطبقة يجب أن يمارس جميع هذه الوظائف على التعاقب وحسب السن، وطبقة دينا مستعدة بحكم القانون، لتقوم بالفعاليات الإنتاجية وسد حاجات الطبقة العليا.

#### ٦- أرسطو والفعالية الاقتصادية

يوضح أرسطو طبيعة الفعالية الاقتصادية التي كانت تسود أثينا في عصره ومشخصاً نوعين من الفعاليات الاقتصادية<sup>(٢٣)</sup>:

النوع الأول: وتشمل الفعاليات التي تقوم بها الوحدة الاقتصادية (الأسرة) في إنتاج السلع والخدمات لإشباع حاجاتها الذاتية، وقد أطلق عليها اسم علم إدارة البيت

(Oikonomik) أو الاقتصاد المنزلي المغلق الذي لم يعرف التبادل، ولا يعني هذا حصراً الكفاية الذاتية الكلية للوحدة الاقتصادية، إذ لربما وجدت عندها وفرة من بعض السلع في الوقت الذي يمكن أن يكون هناك حاجة عند قسم آخر.

وفي هذه الحالة لم ير أرسطو حرجاً في تبادل الفائض من السلع لأنه نتيجة حتمية لتقسيم العمل، ومادام القصد منه ليس الحصول على الربح والثراء.

السوع الثاني: علم العرض أي فن الاكتساب (Crysmatistik) ويقدر به الاقتصاد التبادلي أو الاقتصاد التجاري أو اقتصاد الثراء، أي القائم على أساس الإنتاج من أجل التبادل للحصول على الربح، وما أن أرسطو كان يعتقد بأن العمل الإنتاجي لا يتحسد ألا من خلال إنتاج السلع، فإنه يرى أن التبادل التجاري فعالية غير إنتاجية ومن ثم غير طبيعية.

ومن هنا يستنتج أن الربح الذي يحصل عليه التجار هو في الحقيقة خداع وسرقة، وساءاً على ذلك يعلل معارضته لكل أنواع المعاملات التجارية التي يراود منها الكسب والثراء على أساس أنها غير طيبة وغير أخلاقية أيضاً.

#### ٧- الموقف من الربا والفائدة

عارض أرسطو بشدة إقراض النقود من أجل الحصول على الفائدة فالتقود باعتقاده ما هي إلا وسيلة لتبادل السلع، ولذا فإن الحصول على فائدة عن طريق إقراض النقود يعني تحريف العاية المقصودة من أيحاد التقود، وهي فعالية غير إنتاجية، لأن التقود بحد ذاتها عقيمة وغير منتجة. وهي ليست ذات أصل طبيعي، بل وتستمد قوتها ليس من طبيعتها (نوع المعدن المستخدم فيها) بل من الأنظمة القانونية.

وعندئذ والفائدة تخلق من التقود نقوداً جديدة، ولأن الربا هو بحق مكروه من قبل الجميع، فعليه يصح الربا والفائدة من بين جميع أنواع الكسب، الأكثر مافضة للطبيعة (فالتقود لا تلد نقوداً).

#### ٨- النظرة الى النقود

من الموضوعات الرئيسة التي بحثها أرسطو موضوع النقود من حيث دساتها ووظائفها والأساس الذي تستمد منه قبولها بين الناس، ففي المراحل الأولى من التطور، كان الناس يلجأون الى المقايضة، أي الى مبادلة سلعة في مقابل السلع الأخرى مباشرة، من مثل مبادلة القمح في مقابل القماش، ليحصل كل منهم على ما يحتاجه من الآخرين، عن طريق مبادلة الجزء الفائض من إنتاجه.

ومرور الزمن ظهرت صعوبات عملية كثيرة لأسلوب المقايضة، فظهرت الحاجة الى اختيار سلعة ما وجعلها وسيطاً للمبادلة، فشأت بذلك النقود، بعد ذلك جرى اعتماد المعادن لتكون وسيطاً وفي كل عملية مبادلة كان يجري تحديد وزن المعدن الى أن جرى الاستدلال على وضع أوران على هذه المعادن.

كما أن أرسطو قد أدرك أن النقود أداة لقياس قيم السلع المحتملة (Measure of value) أي بقياس بها قيمة السلع المتبادلة، أي أن هذه السلعة تساوي كذا من وحدات النقد استناداً على الطلب المشترك للسلع المتبادلة، وقد تضمنت آراؤه أشارته الى كون النقود أداة لحفظ مدخراتنا، وهي الوظيفة التي نطلق عليها في الأدب الاقتصادي المعاصر (محرناً للقيمة) (Store of value).  
إن آراء أرسطو كانت متقدمة في هذا المجال على أستاذه أفلاطون، فيحانب قبول النقود قبولاً عاماً ليس لخصائصها، بل تبعاً للعرف والعادة، لأنها تقلل سبب قيمتها الذاتية، أي سبب القيمة التي تكون للمادة التي تصنع منها، من مثل أقيام الذهب والفضة التي تصنع منها النقود.

### المبحث الثالث

#### الفكر الاقتصادي عند الرومان

أولاً: الملامح الأساسية للفكر الروماني

لم تحلف روما تراثاً متميزاً في البحث والتحليل الاقتصادي، فالإمبراطورية الرومانية الكبيرة التي تبدو على جانبها الدولة/ المدينة اليونانية وحدة صغيرة، وتوافر الظروف المناسبة في روما للقيام بمثل هذا العمل أكثر منها في أثينا، إلا أنها ظلت عاجزة عن إخراج مفكرين اجتماعيين عظم ويرجع أريك رول هذه الظاهرة إلى (أن الصراع بين المجتمعين القديم والحديث في نواحيه الاقتصادية المميزة، والذي كان واضحاً أمام الفلاسفة اليونانيين هو الذي ألهمهم أفكارهم، ويظهر أنه لم يكن يمثل هذا الوضع في روما)<sup>(٣٧)</sup>.

بجانب ذلك يبدو أن ما ساعد على الحمود الفكري في التحليل الاقتصادي هو حالة اقتباس الرومان للعلوم والآداب والفلسفة الإغريقية كترجمين وشارحين لها من دون تطويرها، وكذلك ركون الرومان على تصور، الاهتمام بالأمور الاقتصادية هو عمل غير خلاق وغير لائق بالمفكر والفيلسوف<sup>(٣٨)</sup>.

إن الإمبراطورية الرومانية التي تنشأه بداياتها مع شكل الدولة/المدينة (City -state) في وعود مجتمع راعي صغير وتجارة محدودة، وتقسيم للطبقات الاجتماعية متسم بالصرامة، إلا أن الأحوال الجغرافية المؤاتية، ووفرة الموارد الطبيعية، وتحقيق شيء يقرب من التماسك القومي، وظاهرة غزو المستعمرات قد حل لمدة من الوقت مشكلات الفلاحين المعدمين التي هي تعبير عن حالة الصراع الطبقي.

وبينت المشكلات تأخذ منحى آخر بسبب الانتقال السريع لبنيان اجتماعي أكثر تعقيداً واشد، رافقه صراع بين مصالح الفقراء والأغنياء، إذ أدت زيادة الضرائب لتمويل إخضاع المجتمعات الأخرى لروما إلى إفقار الفلاحين، من جهة

وريدة ثروة التجار وحلق طبقة ثرية جديدة مستفيدة من هذه الأوضاع إلا أن تدعيم أوصاع الإمبراطورية خلقت فترات من الرخاء أدت الى تخفيف عبء الضرائب وتهدئة الصراع الاجتماعي والسخط من خلال توفير الخبز وملاعب الحيوان.

من هذا نستنتج أن الرومان لم يهتموا بالمسائل الاقتصادية، إلا بعد انحطاط إمبراطوريتهم، في حين جرى الاهتمام بأحوال القانون نتيحة لصم روما لمجتمعات أخرى، مما أصبح معه ضرورة وضع قوانين تنظم علاقة المواطنين الرومانيين بسكان المجتمعات الأخرى، هذا يظهر بشكل واضح ضالة الفكر الاقتصادي، ونبوعهم في السياسة والتشريع وحتى الكتابات المتناثرة في شؤون الاقتصاد ليس فيها إلا القليل المبتكر.

لقد ميز الفقهاء الرومان بين ثلاثة أنواع من القوانين هي:

الأول: القانون المدني Civil law وهو بمثابة الشريعة التي تطبق على الرومان دون غيرهم من أجل تنظيم حياتهم العامة.

الثاني: قانون الشعوب Judge Entomb وهو القانون المشترك بين جميع الشعوب ومنه استمد الرومانيون الأحكام التي طبقوها على الأجانب والشعوب التابعة لهم.

الثالث: القانون الطبيعي Natural law وهو بمثابة الشريعة التي تحصص لها الكائنات الحية كافة، ولنشوء هذا القانون تأثير بالغ على تطور الفكر الاقتصادي.

إذ ساد هذا الاعتقاد على وجه الخصوص لدى مدرسة الطبيعيين (الفيزوقراط Phgysiocrates)، ولدى المدرسة الكلاسيكية (Classical school)، على وفق ذلك خففت المؤسسات الحقوقية الرومانية للنظام الرأسمالي إطاراً حقوقياً يتمثل بالآتي<sup>(٢٥)</sup>:

١- مؤسسة العقد، والتي تبني العقد على حرية وتراضي الطرفين وتعدده وسيلة المبادلة والأساس الحقيقي للسوق.

٢- الملكية الفردية التي عدت مطلقة ومشروعة مهما كانت حدودها بمجرد كونها مكتسبة بصورة قانونية.

من المناسب الإشارة إلى أن اهتمام الرومان بالجوانب الاقتصادية لم يأت إلا بعد أن بدا انحطاط عظمة الإمبراطورية، ولم يرد عن كونه وسائل تخفيف وتهذبة لدولة تسير في طريق الانهيار. والرومان وأن لم يقدموا فكراً اقتصادياً يستحق الذكر، إلا أنهم قد اثروا في الفكر الاقتصادي اللاحق، وبرز ما قدموه في هذا المجال هو الملكية الفردية بصفاتها المطلقة، وبالحرية التي منحت لأي مالك في أن يفعل ما يشاء ملكه، تصرفاً مادياً أو قانونياً، وأن يجمع الآخرين منه كما شاء وكلما أراد، وهذا كان له مقدراً أن يخدم المذهب الفردي، الذي يقرر أن النشاط الاقتصادي يجب أن يترك للأفراد في ظل حرية كاملة، لا تتدخل فيها الدولة ولا تحدّها إلا الضرورة القصوى.

وعلى أساس هذا المذهب قام النظام الرأسمالي، ساند ذلك حاسب حقوقه وفترته مطومة القوانين الرومانية، وهو ما عرّعه ماركس من أن تاريخ الجمهورية الرومانية يكمن في تاريخ الملكية على الأرض، وهو ما انعكس على كتابات كاتون وفارون وكالوميل وأفكارهم.

ثانياً: إعلام الفكر اليوناني

١- كاتون caton (٢٣٤-١٤٩ ق.م)

بعد من رحال الدولة البارزين والكتاب في روما القديمة، وله مؤلف في الاقتصاد الزراعي عنوانه (الزراعة)، وكاتون شأنه شأن الفلاسفة الرومان عامة، محدودوا الزراعة دور المهن الأخرى، فهي خير المهن، وأكثرها إنتاجية وأشدّها متعة، وهاجموا نظام الإقطاعيات الكثيرة القائمة على الرق، وامتدحوا نظام الإنتاج الزراعي الصغير القائم على الملكية الصغيرة، وهو في هذا لم يكن معادياً للتجارة بصورة تامة.

- بل إن ما يزعمه منها فقط كونها عرضة لكثير من الكوارث كما أنه عارض البذخ في الحياة الرومانية، وهو صاحب المقولة المشهورة (لا بد من تدمير قرطاجة).
- إلا أن الملاحظ على كاتون وفلاسفة الرومان الآخرين، أنهم لم يهتموا بالاقتصاد الزراعي بالمعنى الذي نعرفه اليوم، ولكن كتابتهم تتعلق أساساً بالفن الزراعي، وأهم أفكار كاتون هي.
- أ- أنه يؤيد الأعمال التي تؤمن تصريف جزء من المنتجات.
- ب- كان يرى أن على المستثمر أن يقيم مزرعته بجوار المدن للحصول على أعلى إرباح ممكنة، هذا الأخير يتوقف على عدة عوامل تقف في مقدمتها المسافة بين المزرعة وبين السوق.
- ج- لا تؤدي وسائل الإنتاج دوراً مهماً في إنشاء مزارع نموذجية.
- د- اهتم بتنظيم عمل العبيد (قوة العمل) من أجل تحقيق أكبر كمية من العمل الإضافي، وأعطى للناظر الحق في إقامة نظام صارم للعمل، يعاقب المذنب بقسوة وحسب ما يستحق، ويلحظ عدم التفرقة بين الناظر والعبد عند كاتون.
- هـ- تشكل أراء كاتون فيما يخص المزارعين بالمحاصة (المستأجرون) أول إشارة إلى مفهوم الريع (RENT).
- و- يفضل كاتون الزراعة الكثيفة والتي يبدو أنها كانت الشكل الأكثر انتشاراً في روما.

٢- فارون Varron (١١٦- ٢٧ ق . م)

هو كاتب وعالم في مختلف جوانب المعرفة، وفي كتابة (الاقتصاد الزراعي)، يوضح فارون وسين ضرورة تزايد الاهتمام بتكثيف الزراعة وانتشار العلاقات البضاعية- النقدية، ويدعو إلى إقامة الزراعة على أسس عملية، ويتفق مع كاتون حول قرب الأسواق، إلا أنه يدعو الفلاحين للاهتمام بتقلبات أسعار السوق من أجل

ضمان اكبر ربح ممكن، كما يرى أن النشاط الزراعي يتكون من شقين نباتي وحيواني، ولهذا يعد الرعي وتربية المواشي مصدراً للدخل وأدوات للإنتاج. وبخلاف كاتون الذي لم يميز بين الناظر والعبد، فإنه يرى في مهنة الناظر مهنة ليست عادية، ويجب أن يشغلها أشخاص مثقفون، حتى يكونوا قادرين على زيادة إنتاجية عمل العبيد، من خلال الاهتمام بالحافر المادي بجانب الحافر المعنوي، ويتضح من أرائه هذه أنه قد تأثر بأوضاع روما إبان ثورة العبيد.

### ٣- كالوميل (columella) (القرن الأول ق.م)

- كاتب وعالم زراعي تضمن كتابه (في الاقتصاد الزراعي) حالة الزراعة في روما في مرحلة أزمة نظم الاستغلال العبودي، ويمكن إجمال أرائه كما يأتي:
- أ- لاحظ إن تدهور الإنتاج الزراعي يعود إلى تناقص خصوبة الأرض المستثمرة.
  - ب- يؤكد على الاستثمار العقلاني في الزراعة وعدم السعي لشراء أراض ذات مساحات كبيرة، لأن الأرض الصغيرة المحروثة بعناية تعطي دخلاً أكثر، وهو في هذا يتابع آراء كاتون وفارون.
  - ت - يدعو كالوميل إلى إنتاج البضائع من أجل السوق وعدم الاكتفاء باستهلاك المنتجات الزراعية في المزارع وفي هذا يهتم بالعلاقات البضاعية- النقدية.
  - ث- طالب بتقسيم العمل بهدف تحسين إنتاجية عمل العبيد، وبشكل متناسب بين مختلف الأعمال، بحيث لا تزيد مجموعة العمل عن عشرة عبيد.
  - ج- يولي العامل المعنوي أهمية كبيرة، مما يوليه فارون في العلاقة بين السيد والعبد وصولاً إلى رفع إنتاجية عملهم، وهذا يتجسد من خلال دعوته للتشاور مع العبيد (بوصفهم أناساً أكثر خبرة).
  - ح- لا يختلف كالوميل عن سابقه بالاهتمام بالإكراه والعنف الاقتصادي من أجل رفع إنتاجية العمل.



خ- لا يشجع على توسيع ظاهرة أبحار الأرض من أجل الحصول على الربح، ويشير إلى أن الدخل المتحصل من الاستثمار المباشر للأرض أكبر من الربح.

مما سبق نلاحظ أن اهتمام جميع مفكري المرحلة العبودية كان منصّباً على زيادة الإنتاج (العرض)، الذي كان يشهد تدهوراً مستمراً، بسبب أن هذا النمط قد استهلك أسباب وجوده تاريخياً.

وما يمكن قوله في التراث الإغريقي والروماني أنه يسهم في تكوين مذهب لا يزال حتى اليوم يشكلان اللوحة الفكرية للاقتصاد الحديث، ويمثلان القطبين الرئيسيين للجدل القائم:

- مذهب الاشتراكية والملكية العمامية (الإغريق)

- ومذهب الملكية الفردية وحرية المبادلة (الرومان).

بجانب ذلك وعلى الرغم من عدم تقديم الرومان تراثاً نظرياً كبيراً كما هو الحال عند الإغريق، إلا أن القانون الروماني له أثره في شأه المذهب الطبيعي، فمكرة القانون الطبيعي قد احتلت مكانة هامة في الفكر الاقتصادي منذ القرن الثامن عشر، ومبادئ القانون الطبيعي مهدت لنشوء المذهب الفردي كحرية التعاقد والملكية الفردية وحرية التبادل... الخ.

### هوامش ومصادر الفصل الثالث

- ١- عازي دليلة وإسماعيل سفر، تاريخ الأفكار الاقتصادية، مشورات جامعة حلب، الطبعة الاولى، ١٩٧٧، ص١٤.
- ٢- محمد احمد الفكاك، أصول علم الاقتصاد، مكتبة الوحدة العربية المغرب، (بدون سنة)، ص٢٣.
- ٣- ابراهيم كبة، مصدر سابق، ص٢٠١.
- ٤- محمد عبد المولى، مصدر سابق، ص٨٧.
- ٥- اريك رول، مصدر سابق، ص٢٤.
- ٦- كسينافون الأثيني، النظام المنزلي بالروسية، ١٩٢٥، ص٢٧٠.
- ٧- للمزيد حول ذلك ينظر: أفلاطون، الجمهورية، ترجمة نزيهه الحكيم، دمشق، ١٩٦٥.
- ٨- اريك رول، مصدر سابق، ص٢٤.
- ٩- محمد عبد المولى، مصدر سابق، ص٧٧.
- ١٠- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص١٧.
- ١١- اريك رول، مصدر سابق، ص٢٥.
- ١٢- Adolph Blanqui , History of Economies political, Chapter-٣.
- ١٣- عازف دليلة، مصدر سابق، ص٢٧.
- ١٤- كسينافون الأثيني، مصدر سابق، ص٢٧١.
- ١٥- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص٣٦٣.
- ١٦- عازف دليلة، مصدر سابق، ص٢٠.
- ١٧- ماركس-أنجلز، المؤلفات الكاملة بالروسية، ج٣، ص٣٧٩.
- ١٨- كسينافون، وسائل زيادة موارد أثينا، بالروسية، ص٨.
- \*- عرفت بالأكاديمية نسبة إلماكاديموس اسم البستان الذي أنشئت فيه.

١٩- للمزيد حول نظرية المعرفة ينظر: رودك م. تشيز هولم، نظرية المعرفة، ترجمة نقيب  
الحصادي، الدار

الدولية لنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر - كندا ١٩٩٥.

\*\* يعلق جان جاك روسو على المطلق الارسطو طاليس في العبودية قائلا. إن أرسطو على حق لو لم  
يتخذ المعلول محل العلة فلا شيء أكثر صحة من كون الإنسان الذي يولد للعبودية ويخسر  
العبيد كل شيء بإيقافهم حتى الرغبة في الخروج من العبودية، وقبل روسو بأكثر من عشرة  
قرون قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) قولته المشهور (متى استعبدتم الناس وقد  
ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

٢٠- ماركس - أنجلز، مصدر سابق، ص ٧٠.

٢١- لبيب شقير، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

٢٢- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٣٦.

\*\*\* يعتقد بعض الكتاب إن إشارة أرسطو إلى السعر غير العادل تحمل معها الاعتقاد بوجود سعر  
عادل، ولما كانت الأفكار الكنيسة قد أنهلت من معين الفكر الإغريقي، فهذا يعد جذرا  
تاريخيا " لفكرة السعر العادل والأجر العادل عند السكولانيين عموما " وتوما الإكويني  
بخاصة.

٢٣- أريك رول، مصدر سابق، ص ٣١.

٢٤- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٢٣.

٢٥- عارف دليبة، مصدر سابق، ص ٣٧.

## **الفصل الرابع**

### **الفكر الاقتصادي الأوربي الوسيط**



## الفصل الرابع

### الفكر الاقتصادي الأوربي الوسيط

تمهيد

ثمة اتفاق عام إلى حد ما على أن الألف سنة الممتدة بين سقوط روما وسقوط القسطنطينية، تمثل العصر الأوربي الوسيط،، مثله مثل أية مرحلة تاريخية، يبدأ بأحداث لها تأثير على تشكيل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ففي سنة ٤٧٦م سقطت روما بأيدي الحرمان، وانتهى هذا العصر بأحداث مماثلة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر<sup>(١)</sup>، لتفسح المجال لدخول عصر جديد. يصف الباحثون الأوروبيون أن هذه الحقبة تعد أظلم حقبة في تاريخ أوروبا، ليل طوير تلا العزوات الحرمانية التي قصت على الحصار الرومانية، حيث انتقل فيه القسم الأوربي من نعيم الحياة الباعمة بسلم الرومان إلى حياة اقتصادية معلقة، وأقيم نظام إقطاعي علماني وإكليزي، بينما كانت المناطق مسرحاً للنزاع وتسلط.

إن العصر الوسيط كان امتداداً طبعياً للعصر القديم، وتمهيداً طبعياً للعصور الحديثة، وأن عناصره الأساسية (خاصة توزيع الملكية وعلائق الاستثمار والتوزيع)، بدأت في الفترة الأخيرة من عهد الإمبراطورية الرومانية، إن حالة التداخل بين النظم الاقتصادية حالة حقيقية، فكل نظام ينشأ في أحشاء النظام السابق له لهذا فإن العصر الوسيط يمثل حلقة ضرورية في تطور النظام الاجتماعي المعاصر، ولا يمثل كما يزعم بعض الباحثين (الليبراليين) فراغاً في تاريخ الإنسانية<sup>(٢)</sup>.

حالة النشأة والولادة لنظام اقتصادي ما، لا تتم بتحديد زمني قاطع وبدفعة واحدة، بل يمكن بيان سيادة هذا النظام عندما يهيمن غمط إنتاجه على مجمل التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية، وعليه فإن بدايات تبلور هذا النظام كانت عميقة في النظام العبودي، ولكن ظهورها بوضوح جاء في ظل أزمة المجتمع العبودي

(أرمة الإمبراطورية الرومانية)، التي تمثلت بالعامل الموضوعي، التناقض الأساس بين علاقات الإنتاج العبودية التي استنهدت أعراصها التاريخية، وبين مستوى تطور القوى المنتجة وخاصة قوة العمل، بحانب تضافر عوامل اقتصادية أخرى منها، فتور حيوية البرجوازية الصغيرة (المنتحور المستقلون في الزراعة والصناعة)، نتيجة نظام الضرائب القاسي وتحولهم إلى عبيد، بحانب بضوب ينبوع المستعبد من أمم العالم الأخرى وشعوبه، مما أدى إلى ندرة العبيد، بحانب ذلك فأل حزة ضئيلاً فقط من عمل العبيد ونتاجهم، كان يخصص لتجديد الإنتاج، مما جعل تطوره من حراء ذلك بطيئاً جداً.

هذا يتصح في القرون الثلاثة الأخيرة من عهد الإمبراطورية الرومانية، إذ اتسمت الحالة الاقتصادية بهبوط عام في الإنتاج، اختلال في التجارة، خراب الأقاليم، انخفاض عدد السكان، انقراض الحرف، الهجرة الواسعة من المدن إلى الريف نتيجة الطابع الاستغلالي الوحشي.

في ظل أوضاع كهذه بدأت حركة واسعة لتحرير العبيد في النظام، مع توزيع الأملاك العبودية الكبيرة بعد تحزنتها إلى قطع صغيرة على فقراء الأحرار والمستعبدين، بعد ربطهم بالأرض بصورة عضوية وإلزامهم بعدد من الالتزامات الواجب تأديتها للمالك العقاري.

هكذا انبثق نظام إنتاجي جديد قائم على استثمار فئة جديدة من صغار المنتجين، كانت تحتل مركزاً وسطاً بين العبودية والحرية، ولم تعد علاقتها بالطبقة المستثمرة علاقة مباشرة قائمة على الإكراه الشخصي السافر، بل علاقة غير مباشرة جوهرها الارتباط الكامل بالأرض (بحيث يتم بيعهم معها)، ومن سماتها الجمع بين الإكراه المادي والإكراه الاقتصادي، تلكم هي فئات (الكولور) التي كانت السلف الحقيقي لأقنان القرون الوسطى الإقطاعية.

هكذا تمت في أحضان المجتمع العبودي علانم تشكل لعناصر نمط إنتاجي جديد بشكر بطيء، لم تتحدد ملامحه تماماً، لذلك يمكن القول أن هناك مرحلة انتقالية بين أقول نمط إنتاج واكتمال نظام إنتاج آخر.

## المبحث الأول

### طبيعة وبنية المجتمع الإقطاعي

أولاً: الأساس المادي للفكر الاقتصادي الوسيط

إن الأساس المادي لهذا الفكر يتمثل (من حيث جوهره) في الانقسام الكبير بين ملاك الأرض (Landlords) والأقنان (Serfs) في الزراعة ونظام الطوائف والمهن الإقطاعي في الصناعة والتجارة، فمن الثبت تاريخياً أن النظامين (نظام الأرض الإقطاعية، نظام الطوائف)، نشأ بشكل جنيني في رحم النظام الإنتاجي السابق، وتبلورا في أواخر العهد الروماني.

فقطم الأرض الإقطاعية يعد امتداداً لنظام الزراعة الروماني (Coloni) (إيحر الأرض للرقيق أو الأحرار لقاء ريع عيني أو نقدي، وبالتزامات محددة أخرى تجاه الملاكين)، وعلى وفق ذلك يظهر جوهر مجتمع العصور الوسطى في الانقسام الطبقي بين السادة والأقنان، ذلك الانقسام المستمد من صرح الضيعة الكبيرة في روما على أواخر أيامها.

وما يمكن التأكيد عليه أن ضرورات هذا التنظيم كان بعضها اقتصادياً، أملت له ندرة العبيد والآخر عسكرياً وسياسياً فرصته ظروف الدفاع عن حدود البلدان، إذ بدلاً من استغلال هذه المقاطعات الكبيرة عن طريق استخدام أعداد كبيرة من العبيد (على الرغم من جاذبية الملكية الخاصة)، فقد عمد الملاك إلى تأخير جزء من أراضيهم إلى المستأجرين الأحرار أو العبيد، بحانب الرغبة في توطين المحاربين.

لهذا أصبح المستفيدون من العمل في الأرض كمالكين أو كعاملين مقيدين إلى الأرض، وهمزور الوقت بدأ تبلور نظام حديد من الاستعداد ليحل بصورة فعالة محل الرق القديم، ساند هذا بقوة اضمحلال سلطة الملك أو الإمبراطور، مما منح مالك الأرض المزيد من السلطة في مقاطعته لتتحول إلى وحدة اقتصادية وسياسية وحتى عسكرية.



إما نظام الطوائف سواءً أكانت طوائف التجارة التي تمتد جذورها إلى التجارة الرومانية القديمة، مع بلدان الشرق أم الحارة الجديدة بين أوروبا والإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو طوائف الصناعات التي هي الأخرى لها حدود ممتدة من المؤسسات المهنية الاحتيارية (Collegia)، التي نشأت في مختلف المهن أواخر العهد الروماني.

ثانياً: طبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

يتسم النظام الاقتصادي الإقطاعي أساساً في الانقسام الطبقي الحاد، بحيث ظلت لكر طبقة اجتماعية حقوق وامتيازات وواجبات حددت بعناية فائقة.

إم الواقع التنظيمي السياسي فكان مستنداً على سلطة الأمراء والبلاء المطلقة ضمن حدود الضيقة الإقطاعية (التي تشكل صفة أخرى للنظام الإقطاعي)، وتحولها إلى إمارات ومقطعات صغيرة يقوم النبلاء بإدارة دفة الحكم فيها، هذه المقاطعات جرى تحويلها إلى وحدات اقتصادية وسياسية تدين بولائها إلى الملاك، في حين طلت سلطة الملك شكلية وترتكز على نمط العلاقة القائمة بينه وبين المالك الإقطاعي، ففي أحيان كثيرة لا يستحيب الإقطاعي لرغبات الملك أو الإمبراطور إلا في حدود مصالحه الخاصة.

ولما كانت الرعاة هي النشاط الاقتصادي السائد آنذاك، فقد كان الإنتاج الزراعي هو المهيمن على مجمل الحياة الاقتصادية، ويؤرخ الباحثون ذلك بدءاً من القرن العاشر الميلادي الذي اكتملت فيه صيرورة هذا النظام<sup>(١)</sup>.

هذا النظام هو حاصل جمعي للمقاطعات الكبيرة والعديدة المنتشرة في عموم أوروبا، فكل مقاطعة هي تركيبة مستقلة وقائمة على الاكتفاء الذاتي، ويحكمها سيد يسمى (اللورد) في بريطانيا و(المركيز) في فرنسا، وهو يرتبط بالملك وهذا الملك يرتبط بالكنيسة، هذه كانت الحامع الموحد اقتصادياً ودينياً لجميع المقاطعات<sup>(٢)</sup>، وعلى نطاق المقاطعة الواحدة فإن اللورد هو القوة والسلطة ويعمل فيها عبيد وأرقاء، إما الأحرار من صناع وحدادين وطحابين، فهم يعملون طوراً في الرعاة،

وطوراً آخر بأعمال حرفية وعسكرية، وهم جميعاً تابعون كخدم إلى اللورد، يتسلم منهم جزءاً صحماً من إنتاجهم ومحاصيلهم، وهو في مقابل كل ذلك يقوم بحمايتهم، فيؤدي دور القاضي أو الحكم في منازعاتهم، بالإضافة إلى ذلك فقد احتكر اللوردات طويلاً سلخ الاستهلاك (عدا الملح وامعادن).

هذا الاحتكار كان قائماً في ظل نظام المقاطعة المتعلقة، إلا أنه تلاشى عندما تطورت المبادلات الاقتصادية بين المقاطعات وبين المدن، لهذا حمل اردهار التجارة واستعمال النقود، بداية تحرر الأرقاء والعبيد وهروبهم نحو المدن<sup>(٣)</sup> في نهايات مرحلة الإقطاع.

إن العودة إلى أسلوب المقايضة والتراجع الكبير في دور المعاملات النقدية، لم يؤد إلى دفع النشاط الاقتصادي إلى أمام، ومن ثم يعمل على تحفيز الفكر نحو التطور. بجانب ذلك فإن التراجع طهر في مركزية السلطة الذي أسست له القنائل الحرمانية، ومن خلال التشريعات التي أصدرتها لإطالة عمر النظام العبودي بالقوة، من ثم (السماح بقتل العبيد، السماح للفقراء ببيع أولادهم كعبيد)، لأن هذه جميعاً لم تمنع من انهيار النظام وبدء التحولات باتجاه النظام الإقطاعي إما في الحوائب الاجتماعية فقد اندمجت الشرائح والطبقات المستغلة لتكون الطبقة المالكة، فيما تشكلت الطبقة المستغلة (بكسر العين) من الأرقاء السابقين والجدد، وأصبح الحصول على الأراضي واستخدامها، يخضع لثنى الالتزامات المترتبة عليه، سواء أكانت عسكرية (إقطاع الممنعة) أم عينية لدفع الربيع فيما بعد، بجانب ذلك فإن بعض المالكين للأرض ومن أجل ضمان حمايتهم، سعوا إلى البحث عن (مولى) يقر بتبعته أو لعاهل أقوى منه ويضع نفسه في خدمته.

وفقاً لذلك توصلت معالم السلم الهرمي التراتبي المميز للتنظيم السياسي للإقطاع، وفق قاعدته الاجتماعية، ففي أعلى السلم يقف كبار ملاك الأرض (Landlords)، الذين لا يعترفون بمولى آخر عيهم سوى الملك. ثم يأتي بعدهم سادة أقل أهمية، إلى أن نصل إلى أقبان الأرض (Serfs)، في ظل هذه التشكيلة

الاقتصادية الاجتماعية يمثل الإنتاج الفلاحي الصغير وإنتاج صغار الحرفيين الأحرار، الأساس الاقتصادي لمط الإنتاج الإقطاعي، هذا الإنتاج ليس معداً للتبادل، بل أنه معد لأغراض الاستهلاك داخل الإقطاعية، ويتم الحصول عليه من الفلاحين بالشكل الآتي<sup>(٤)</sup>:

١- إجبار الفلاح على العمل مجاناً أياماً معينة من الأسبوع في حقول سيده (السخرة).

٢- يحبر الفلاح على تسليم جزء من إنتاجه (محصول) بشكل إتاوة (Redevance).

من ذلك يمكن القول أن التبادل ما كان قائماً، إلا في إطار الصيغة الإقطاعية أول الأمر ثم المدينة ومن ثم الإقطاعات المحاورة، وطبقاً لذلك اتخذ الربح (Rent) شكلين هما السخرة ولربح العبي، هذه العملية استغرقت وقتاً طويلاً، وتطلب إعادة ترتيب العلاقات داخل المجتمعات الإقطاعية، ففي مواجهة الحالة الاقتصادية المشار إليها أعلاه.

تركزت السلطة السياسية الاقتصادية بيد الطبقة الإقطاعية، في حين تراجعت سلطة الملك (رمز الدولة) إلى مستوى ثانوي، وهذا أمر لم يحدث في المرحلة السابقة، التي شهدت تركيزاً متزايداً لدور الدولة (الملك أو الإمبراطور)، على قاعدة الدور الذي حسده ظهور فائض المنتج وتزايد، والذي كانت تجري بسببه العلاقات التجارية ما بين الإمبراطورية الرومانية سابقاً والشرق، هذه العلاقات شهدت حقولاً حاداً أبان المراحل الإقطاعية الأولى، في حين شطت في أواخرها.

إذ لم تكن أوروبا تمتلك ما تحتاج به عدا بعض السلع الصناعية الخفيفة، ولما كانت هذه الأخيرة مقتصرة على سد حاجات سوق محلية صغيرة، فإن لها بضع منتجات ذات أهمية بارزة في التجارة مع الأقطار البعيدة<sup>(٥)</sup>، لذلك فإن ما يمكن تأكيده، إن العصور الوسطى وبسبب من التنظيم الاقتصادي المغلق في الإقطاعات

وعدم تيسر فائض في الإنتاج، فقد أهملت التجارة ولم تعد تشكل أهمية كبيرة لدى الإقطاعيين.

### ثالثاً: خصائص النظام الإقطاعي

يتسم النظام الإقطاعي بخصائص أساسية هي<sup>(١)</sup>:

- ١- يقوم الأساس الاقتصادي للإقطاع على استثمار الأبقان (عبد الأرض) من الفالحين والحرفيين المستقلين بأدوات إنتاجهم، هذه تحدد جوهر الإقطاعية لدى جميع الشعوب.
- ٢- تعايش الملكية الإقطاعية الكبيرة مع الاستثمارات الفردية الصغيرة الخاصة بالفلاحين والحرفيين.
- ٣- يتميز بالرابطة الشخصية (أي الإكراه المادي) بين السيد والقن.
- ٤- اتخاذ (فائض المنتج) الذي ينتجه القن ويملكه السيد، أشكالاً مختلفة من الربح (ربح العمل أو السخرة، الربح العيني، الربح النقدي أو جميعها على السواء).
- ٥- سيادة الاقتصاد الطبيعي في الريف والاقتصادي السلعي في المدن (بخاصة في المراحل الأخيرة من الإقطاع أو كما يسمى العصر الأسفل للإقطاع).
- ٦- تبعية القطاع الصناعي (المبرلي) للقطاع الزراعي الإقطاعي والتنظيم الإقطاعي الدقيق لبحرف والتجارة (طوائف الصناعات والتجار).
- ٧- إن القانون الاقتصادي الأساس للإقطاع، يكمن في إنتاج مقدار من فائض المنتج، لسد حاجات السادة الإقطاعيين عن طريق استثمار الفلاحين التابعين، وعلى أساس الملكية الإقطاعية للأرض، والملكية المحدودة على الأشخاص المنتجين وهم الفلاحون الأبقان.
- ٨- يتسم التركيب الطبقي لهذا النظام بالسماة الآتية:

أ- الفصل الطبقي في المجتمع الإقطاعي يكون حاداً، مقسماً إياه إلى طبقتين رئيسيتين، هما الإقطاعيون والأقنان، والعلاقة الاستثنائية بينهما تكون جوهر النظام الإقطاعي.

ب- تتسم الطبقة الإقطاعية نفسها بتمایز كبير، إذ تترتب في سلم التبعة بين كبار الإقطاعيين وصغارهم، ففي أعلى السلم تقف طبقة النبلاء الحاكمة وطبقة كبار رجال الكنيسة، التي تمثل أكبر إقطاعي العصور الوسطى. إما في أسفل السلم فكانت تستند على جماهير الفلاحين.

ج- في أواخر المرحلة الإقطاعية، أصبح واضحاً امتداد التمايز الطبقي حتى في المدن الخارجة عن سلطة الإقطاع، فالقنات الحاكمة تتكون من أثرياء التجارة والمرابين والملاكين ومعلمي الحرف)، وبين جماهير الحرفيين.

٩ كدت قوى الإنتاج في القطاعين الريفي والحرفي بدائية وضعيفة جداً، ولكنها بدأت تتطور بسرعة في أواخر العهد الإقطاعي، وتضطرم بشدة متزايدة بعلاقات الإنتاج الإقطاعية.

هذه الخصائص التي حكمت المجتمع الإقطاعي ووسمته، وعليه فإن هذا النظام كان مرحلة ضرورية في تاريخ المجتمع الأوربي، بعدما استنفدت المرحلة العبودية (الرق) جميع إمكانياتها التاريخية، وليؤسس في أحشائه نظاماً أرقى منه في سلم تطور قوى الإنتاج وعلاقاته.

## المبحث الثاني

### المدرسة السكولائية (الكنسية)

#### أولاً: مفهوم المدرسة

إن تعبير السكولائيين (المدرسية) يعني ببساطة أسانذة الجامعات في العصور الوسطى، وتعد الأفكار المبثوثة من هذه المدرسة أبرز المسجرات الفكرية للقرون الوسطى الأوربية، وإذا ما كان الفكر انعكاساً لواقع، فإن هذا لا يؤهل هذه المرحلة على إنتاج فكر متقدم على ما سبقه، بل يحد أن الكثير من الأفكار المهمة التي جاء بها الإغريق، قد جرى الرجوع عنها إلى الحصف في مرحلة الإقطاع.

كما أن آليات عمل الاقتصاد والسلطة كان لها دور فاعل في هذا، إذ أن غط السلوك الاقتصادي للإقطاعي (المركيز أو اللورد) في عيده المزارعين، يقوم على التصرف فيهم كما يشاء، ومستعلاً إياهم ابشع استغلال، وفارصاً عليهم السخرة، وتمتعه كصف إله بحق التصرف فيهم، وكأنهم بضاعة أو أشياء تباع إلى مركيز أو لورد آخر، حتى وأن أدى إلى التفريق بين أفراد العائلة الواحدة، له وقعه الحاص على الحياة الاقتصادية وكأنها أية إمكانية لتطور قوى الإنتاج، ومستبدلاً الشط الفكرى والثقافى الذى ساد عند الإغريق بالجهل والخمول الفكرى وشيوع الميتافيزيقيا<sup>١</sup>.

ومما لاشك فيه أن للكنيسة الكاثوليكية دوراً محورياً مهماً في تطوير الفكر الاقتصادي والاجتماعي إبان تلك المرحلة، على الرغم من الطغيان والسيطرة التي مارسها هذه الكنيسة على محمل مفصل الحياة، إلا أنها استطاعت أن تنجب جيلاً من المفكرين وعلماء اللاهوت، الذين انكبوا على دراسة مختلف القضايا والمسائل الدينية والفلسفية والأخلاقية.

فمن خلال مصادر أساسية مختلفة في اتجاهاتها ومعطياتها، تشكلت مدرسة فكرية (السكولائية)، التي حاولت المزاجية ما بين هذه المصادر لبناء جهاز مفاهيمي يطال تفسيره لأغلب مفردات الحياة الاقتصادية آنذاك.

فلا غرابة أذن في أن يكون للكنيسة نفوذ سياسي وروحي واقتصادي لا يصابى، فهي تستمد سلطانها الديني والديوي من خلال الهيمنة الروحية، وامتداد سلطانها وملكيته على أراضٍ شاسعة في القارة الأوروبية من جهة، بحيث عدت الكنيسة أكبر الإقطاعيين آنذاك، واحتكارها شبه المطبق للتعليم والإشراف عليه، سواء في الأديرة أم في المدارس العليا والجامعات من جهة أخرى، لهذا نلاحظ أن هذا المكر قد أبدى عناية فائقة بالقضايا الدينية (الصرف) (التيولوجية)، وعلى القضايا المتصلة بنظرية المعرفة.

إذ لا نجد في مؤلفات كبار سكولائي هذه المدرسة من مثل أريجينيا Erigena وأبلارد Ablard والقديس أنسلم St. Anselm وحما السالسيري، أية إضافة للاقتصاد التحليلي تستحق التسجيل، إلا فيما يخص ملاحظتين مهمتين هم<sup>(٨)</sup>؛

الأولى : ما يسمى بالاتجاه أو الخيط الأفلاطوني Platonic streak

الثانية: الاتجاه أو الخيط الفردي.

فالمكر السكولائي انصرف كلية في هذه الحقبة تحت طغيان النفوذ الأفلاطوني المباشر أو غير المباشر (عن طريق فلسفة القديس أوغسطين)، إلى معالجة مسألة الكليات والحزنيات، أي طبيعة المفاهيم أو الأفكار المجردة Univernaliea.

وقد تعاقبت مدرستان فلسفيتين في إطار هذا الفكر، هما المدرسة الواقعية Realist والتي تعتقد بوحود المفاهيم العامة فقط دون أفرادها، إما المدرسة الاسمية Nominalist فأنها تنكر واقعية الأفكار العامة والمجردة ولا تعترف إلا بوحود الأفراد<sup>(٩)</sup>.

مما حدا هذا بالسكولائي الكبير أبلار (١٠٧٩-١١٤٢) إلى محاولة التوفيق بين الرأيين، من خلال التمييز بين الوجود الحقيقي للكليات في الدهن الإلهي، والوجود التجريدي في الدهن الشري، إن الجدل الاسمي- الواقعي في العصر الوسيط، كان التعبير الوعي الخاص للحدل المادي - المثالي، الذي ظل يوشح تاريخ الفلسفة ككل.

وبدءاً من القرن الثالث عشر ظهر اتجاه قوي في الإطار الفكري، فيما يتعلق بالثيولوجيا والفلسفة، وأكبر من أسهم في هذا هم اكروستست Grosseteste واسكندر الهيلسي والقديس يوافستورا وحنا السكوتلندي، هؤلاء جميعاً هم من المدرسة الفوسيسكانية، فيما مثل المدرسة الدومينيكانية ألبرت الكبير وتلميذه اللامع توما الإكويني.

إلا أن ما يميز هذه المرحلة الفكرية من ناحية التحليل الاجتماعي والاقتصادي، هو بحث الفكر الأرسطوطاليسي، من خلال إسهام الفكر العربي واليهودي في تسريب الأفكار الأرسطوطاليسية بالتدريج إلى الفكر المسيحي العربي، فقد أسهمت كتابات الفيلسوف الطيب ابن سينا (٩٨٠-٣٧٠) ولعقيه الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨)، واللاهوتي الفيلسوف ابن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤) إسهاماً بارزاً في هذا المجال<sup>(١)</sup>.

على الرغم من أن بعض الشروح العربية لأرسطو رفضها السكولائيون، خاصة المتعلقة باللاهوت وبطرية المعرفة، إلا أن الفكر الأرسطوطاليسي قد فتح أفقاً جديدة وواسعة أزاء السكولائيين، مما سهل لهم عملية شق دروب جديدة لا في ميدان الميتافيزيقا وحدها، بل على الأخص في ميادين أخرى، تعد بكرة تماماً في العلوم الطبيعية والاجتماعية.

على أن الربط بين إرث أرسطو والفكر السكولائي له ثمنه الباهظ فيما بعد، إذ وجه العلمانيون الدين يكتون العداء للكنيسة الكاثوليكية النقد ليس للفكر السكولائي، بل إلى وعائه الخاص (فكر أرسطو).



وهذا يتضح من أعمال الفيلسوف والرياضي الكبير بيير كاسندي Gassendi (١٥٩٢-١٦٥٥)، مستبدلاً فكر أرسطو بفكر أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق.م)، فعدوا أرسطو نموذجاً للعقم الفكري وتحسيداً للفكر القديم السالي، حتى أن الطبيب والكيميائي الألماني باراسلس Paracollus (١٤٩٠-١٥٤١)، أحرق كتب أرسطو قبل البدء بمحاضراته الطبية<sup>(١١)</sup>، كما أن غاليليو في محاورته الشهيرة مع أرسطو حول النظام الشمسي جعل من خصمه شخصاً هزلياً لا أكثر.

فيما أفصحت المراحل الأخيرة من المرحلة الإقطاعية إبان القرن الرابع عشر، عن استيعاب الفكر السكولاني جميع بؤادر الرأسمالية الناشئة حينذاك، ومن ثم فإن السكولانيين المتأخرين، كان جل اهتمامهم منصاً على تحليل فكرة (الصالح العام) وتفسيرها بروح فردية صرف، أي بمعنى إشباع الحاجات الاقتصادية للأفراد (كما يرى ذلك شومبيتر).

بحانب استعادة الباحثين والمفكرين الأوروبيين من قراءة فلسفة ابن رشد، التي كان يطلق عليها بالفلسفة الرشدية، وهي فلسفة أقامت لسلطان العقل مكاناً متميراً، وتطالب بتفلسف العقول دور سواه، وهذه هي حجر الراوية في عصر التنوير والبهضة، التي أسست فيما بعد لتقويض سلطتي الإقطاع والكنيسة.

ثانياً: المصادر الرئيسة للفكر الاقتصادي المدرسي (السكولاني)

من المعروف جيداً أن الفكر المدرسي (السكولاني)، كان يستند على دعائم فكرية أساسية، حاول هذا الفكر إقامة قواعد توفيقية (Conapromises) فيما بينها، وفي ظل مبادئ أطلق عليها المدرسية<sup>(١٢)</sup> هي:

- كل ما جاء بالكتاب المقدس وأقوال رجال الكنيسة فهو حق.
- كل ما قال به أرسطو مما لا يناقض ذلك فهو حق.
- كل ما أفضى إليه العلم مما لا يناقض هذا أو ذاك فهو حق.

مما يؤكد أن المتابع الرئيسة لهذا الفكر الذي حمل لواءه توما الإكويني على وجه التحديد يتكون من:

#### ١- الكتاب المقدس والتعاليم الدينية

يقصد بذلك تعاليم السيد المسيح (ع) وأقوال الحواريين الأوائل وكتاباتهم، وقد كانت هذه التعاليم من دون شك الأساس النظري للسكولانية، والمصدر الرسمي الوحيد لأفكار الأخوة والمساواة والرهف... الخ التي وضعت - انطلاقاً منها - النظريات في ذلك العهد. إلا أن مقتضيات تكييفها مع واقع المؤسسات الإقطاعية، هو الذي دفع السكولانيين إلى الرجوع للفكر اليوناني من جهة، وعلى وضع تفسيرات جديدة للتعاليم المسيحية، خرجت بها عن معانيها الأولى، ومن هنا نشأ المصدر الثالث للفكر الوسيط وهو تعاليم آباء الكنيسة.

#### أ- العهد القديم

ومنها ما جاء بسفر الخروج، الإصحاح ٢٢ (أن أقرضت قصة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمراي، لا تصعوا عليه ربنا، إن ارتهت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له، لأنه وحده غطاؤه، هو ثوبه لجلده، في ماذا ينام)<sup>(١٧)</sup>.

#### ب- العهد الجديد

وهنا تشمل تعاليم السيد المسيح (ع)، حيث يقول (ع) للأغنياء (بع كل مالك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني)<sup>(١٨)</sup>.

#### ت- التعاليم الدينية

والمقصود بذلك أقوال الحواريين الأوائل وكتاباتهم، ففي القرن الرابع الميلادي نجد أن (القديس امبرواز) يعلن أن (حق الملكية العامة قد أوجده الطبيعة، إما حق الملكية الخاصة فقد أوجده التعسف)، وجاء بعده أوغسطين أكبر مشرعي

المسيحية في عصورها الأولى، ومن أقواله (إلا فليعلم الدين حالفهم الدهر فحفهم مطاهر الثروة والجاه، إن إرادة الله هي أن يتمتع الجميع بخيراته، فالله يوزع أشعة الشمس على جميع الناس، وينزل الغيث على جميع الحقول بدون تمييز.. لو علم الأغنياء ذلك ونفذوا إرادة الله بإشاعة السعادة واليسر بين أفراد الشعب، لكانوا أغنياء في الدنيا وأغنياء في الآخرة)<sup>(١٥)</sup>.

يلخص الباحث Lewis H. Haney مبادئ العقيدة المسيحية، والتي أثرت تأثيراً مباشراً في الأفكار الاقتصادية للقرون الوسطى<sup>(١٦)</sup>، بما يأتي:

(أولاً) تقوم المسيحية بأعمام الأخوة التي تتجاوز المجتمع والدولة ويعتبقها كل الناس بغض النظر عن طبقاتهم.

(ثانياً) ترى المسيحية واستناداً إلى مبادئها الأساسية، إن الرجال هم إخوان، حتى وأن كانوا غير متساوين طبقياً.

(ثالثاً) اعتماداً على ذلك فقد تمت إدانة العبودية بشكل كامل أو جزئي، إذ عد انتساب العبيد إلى المسيحية إيذاناً بأنهم أصبحوا أحراراً.

(رابعاً) إن العلاقة الوثيقة مع مبدأ الأخوة والحقوق المتساوية هي فكرة المجتمع الطبيعي للملكية.

(خامساً) إن إحدى التعاليم المسيحية تهتم، وبشكل ملفت للنظر بكرامة العامل كما أصبحت القيم المثالية قوة تعمل على الاعتراف بهؤلاء الذين يأكلون الخبز من عرق جبينهم.

(سادساً) إن الفضيلة والصدقات هي من بين الفصائل الدينية، وبهذا عدت الفضيلة واجباً، كما يمثل اعترافاً بالتفاوت الاجتماعي.

(سابعاً) إن المسيحية هي قوة للتطهير، وتدعو إلى التماسك الاجتماعي بدءاً من العائلة.

## ٢- التعاليم الكنسية

يجمع الباحثون في تاريخ الأفكار الاقتصادية على أن الكنيسة أدت دوراً محورياً في صياغة الفكر الاقتصادي الوسيط، وإن رجالها هم الدين قاموا بمهمة تكييف التعاليم المسيحية، لتكون متوافقة مع مستلزمات النظام الإقطاعي، وإن الكنيسة قد نحتت إلى حد كبير في القيام بهذه المهمة التاريخية حتى أواخر العهد الإقطاعي.

وفي العهد القديم نجد التأكيد المسيحي يركز على دفع الأجر المستحق للعامل قبل غروب الشمس (لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إحتوتك أو من العرباء الذين في أرضك.. ففي يومه تعطيه أجرته ولا تعرب عليها الشمس لأنه فقير وإليها حامل نفسه لنأى يصرح عليك إلى الرب فتكون عليك خطيئة)<sup>(١٧)</sup>، وما نجده في العهد الجديد هو تأكيد على ذلك مع الأخذ بالعدالة (كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبته)<sup>(١٨)</sup>.

من ناحية أخرى أكدت التعاليم المنشوثة في العهد الجديد، إن العامل يجب أن يُدفع له المبيع الذي يصمم له مستوى العيش (ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس، وملائكته لأي حجت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تأوونني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحسوساً فلم تزوروني..)<sup>(١٩)</sup>.

ومع تنوع المتطلبات الأساسية المعيشية لإنسان العصور الوسطى، فقد قفزت مسألة أجور العمال إلى الواجهة، الأمر الذي أدى للبحث عن نظرية توفيقية للوصول إلى نظرية للأجور، فكانت جهود توما الإكويني واضحة في بلورة نظرية الأجر العادل.

## ٣- الفلسفة اليونانية

ظلت الفلسفة اليونانية تمتلك بريقاً خاصاً في أوروبا العصر الوسيط، ولتؤدي دوراً هاماً في صياغة أفكار المدرستين الاقتصادية، إذ قبل السكولائيون الأفكار

التي جاء بها أرسطو كافة من مثل الملكية الخاصة والتجارة والفائدة والنقود ومفهوم لاقتصاد بجانب أقوال السيد المسيح (ع)، وما جاء به الكتاب المقدس من المقدمات المزهة عن الأغراض الدنيوية، لذلك فإن آراء أرسطو وأقواله صادقة فقط في اللحظة التي تتوافق فيها مع الصوص الدينية وأفكار السيد المسيح (ع)، وهي ليست كذلك في اللحظة التي لا تحد لها انطباعاً كلاً أو جزءاً.

لهذا فإن منهج البحث لدى المدرسين (وفي مقدمتهم توما الإكويني)، هو عبارة عن حدل منطقي من بديهيات ويتدرج إلى نتائج محددة.

إد قمل توما الإكويني الإيحاءات ذات الطابع الديني من المسفة بقدر توافقها مع التعاليم المسيحية، ونهذ الإيحاءات التي تعطي للعقل سلطاناً أكبر من النص، وتبعاً لذلك توصف (الاكوينية)، بأنها نظرة توفيقية لكونها حاولت إرضاء نزعات المتشدددين من رجال اللاهوت من جانب، ونزعات العقلين من جانب آخر)، إن جاز التعبير من جانب آخر، غير أن هذه النظرة رفضها وحاربها النهضويون كونها نظرة غير علمية، ولا متماسكة كما يقتضي المطلق.

### المبحث الثالث أبرز أعلام المدرسة (السكولائية)

توماس الإكويني Thomas Aquini (١٢٢٥ - ١٢٧٤)

أولاً: حياته<sup>(٢٠)</sup>:

ولد توماس الإكويني في نهاي عام ١٢٢٤ وبداية عام ١٢٢٥ في منطقة Roccasecca، وكان الأح الأصغر من أحد عشر فرداً تتكون منهم عائلة Landulfo، وهي إحدى العوائل المعروفة في جنوب إيطاليا. أمه الكونتيسة Teodora، وكان الأب والأولاد متورطين في الصراع مع فردريك الثاني والبابا سوفي عام ١٢٢٩م، وبعد الاستقرار السياسي الذي تلا هذه الحقبة، كان توما الإكويني في سر الخامسة، فأرسله والده إلى إحدى المدارس الدينية، أملاً في أن يصبح قساً، فدام بقاؤه فيها تسع سنوات.

وفي عام ١٢٣٩م هاجم الإمبراطور مرة ثانية مونت كازينو، رجع على أثر ذلك توما الإكويني إلى عائلته، وبغية إكمال دراسته التحق بالجامعة في نابولي ما بين ١٢٣٩-١٢٤٣م، بعدها (١٢٤٤م) انضم لطائفة الدومنيكان، مما لاقى معارضة شديدة من إحوته وصلت إلى حسه لمدة عام، ثم أطلق سراحه بعد مشاهدة من الدومنيكان، ذهب بعدها إلى باريس عام ١٢٤٥م كيما يدرس علم اللاهوت، وكان أستاذه ألبرت الكبير الذي كان يُعرف بأنه من أكثر المتأثرين بأرسطو، لاسيما وأن جميع أعمال هذا الأخير، قد حصلت عليها جامعة باريس من المصادر العربية، في عام ١٢٥٢م أدخلت الجامعة توما الإكويني في التدريس لإلقاء المحاضرات في علم اللاهوت.

تمتع توما الإكويني في الجامعة بشعبية كبيرة كمدرس، إذ يسجل أحد طلبته ((إن توما الإكويني أوجد طريقة واضحة وجديدة في التحقيق العلمي، ولإطلاعه الواسع فقد طور الحقائق المعروفة، وفي عام ١٢٥٩م عاد توما الإكويني إلى إيطاليا

ليتمرغ إلى ترجمة أعمال أرسطو)، ونظراً لاشتداد حدة الصراع حول أفكار أرسطو في جامعة باريس، استدعى توما الإكويني، فاستطاع أن يوفق بين الآراء المتصارعة، وأن يعود إلى التدريس مرة أخرى عاد إلى إيطاليا عام ١٢٧٢م، ليعمل على تنظيم المناهج الخاصة بعلم اللاهوت، بعد ذلك بعام توقف بشكل مفاجئ عن الكتابة معللاً ذلك (بأن هناك شيئاً قد سيطر عليه وتأثر به) وأزاء ضغط المباحثات له بالعودة إلى الكتابة، قال (أنا الآن لا أستطيع أن أقدم شيئاً آخر، لأنني اكتشفت بأن كل ما كتبت، هو عبارة عن قشة وأنا الآن انتظر نهاية حياتي)، في آذار من عام ١٢٧٤م توفي توما الإكويني، تاركاً مؤلفات عديدة كان أبرزها، الخلاصة اللاهوتية والخلاصة ضد الأمم.

#### ثانياً: النظرات الاقتصادية

##### ١- علم الاقتصاد

على الرغم من أن الاقتصاد اكتسب صفة العلم في مرحلة لاحقة، طبقاً للطريقة (الأسلوب-Method) المنظمة للبحث، والتحرير في تفسير ما هو حادث واستكشاف ما يحث مستقبلاً، من ثم وضع قواعد محددة تكسبه صفة العلم، وهو ما بدأه وليم بتي (W. Petty) (١٦٣٢-١٧٠٤م) في أول دراسة منظمة للقوانين الاقتصادية.

إلا أن الاقتصاد يعد علماً في نظر معظم المتأثرين بالفكر المسيحي، وهو عبارة عن مجموعة قوانين ليس بمعنى القوانين العلمية التي نعرفها الآن، وإنما بمعنى القواعد الأخلاقية التي تستهدف إدارة النشاط إدارة صالحة، هكذا تصبح القواعد الأخلاقية معتمدة على أساس من اللاهوت المسيحي من جهة، وعلى قبول أفكار أرسطو التي ترفض جميع الأساليب الاقتصادية المؤدية إلى عدم المساواة أو مجافاة العدالة، وتستنكر الجشع والطمع في المعاملات الدنيوية.

يعتقد توما الإكويني أن كل عمل أو حركة للكائنات الناطقة كافة وغير الناطقة على السواء، موجهة نحو غاية أو خير ما، ويتمثل هذا الخير عند الكائنات

السطقة، في التفكير الذي يمكن الانتباه له وتقصد إليه الإرادة تحت تأثير العقل العلمي، فثمة غايات كثيرة يلتبسها الناس (كالثراء، الشرف، السلطان، اللذة)، ولكن ليس من بينها جميعاً واحدة ترصي الإنسان وتهبه القناعة، وتوفر له أسباب السعادة، هذه هبة الله تعالى للبشر، والعنة الأولى لكل موحود والمبدأ الثالث لكل حركة، وعلى هذا فإن الخير الأسمى للإنسان هو الله نظرياً، ومر حيث الشعور الذاتي هو السعادة التي تستمد من حب الإنسان لرؤية كماله تعالى.

ولئن كان هناك نوع أدنى من السعادة يتحقق في هذه الدنيا في وعود إنساني، فإنه يتمثل في الفضيلة والصدقة، في حين تظل السعادة العليا للإنسان مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، لا يهبها إلا من أوتي قلباً سليماً وأهله لها أعماله الصالحة<sup>(٢١)</sup>.

## ٢- الملكية الخاصة

استندت نظرة توما الإكويني إلى الملكية الخاصة على الرفض الأوغسطيني ومسيحي لصب التملك، فيصف تملك الأحوال، بأنه غير عادل وهو ناعم عن عدم المساواة، فهناك من هو بحاجة لها، وآخر لديه الكثير، أنها تستحوذ على عواطفنا من خلال حذب الثروة المتنوع. إلا أن هذه الأفكار عن الملكية في أواخر العصور الوسطى، تتعارض بشدة مع نظام اقتصادي يقوم على الملكية الخاصة، وهنا حاول توما الإكويني إيجاد حل توفيقي، فهو لم يرجع إلى الحقوق غير المعتمدة، التي سلم بها القانون الروماني، الذي بدأ يسترد مكانته من جديد، ووجد في تفرقة أرسطو بين قوة الاقتناء وقوة الاستعمال فصلاً هاماً بين وجهين من وعود الملكية<sup>(٢٢)</sup>، فلول أضفى حقوقاً على الفرد، والصحح التي أدلى بها توما الإكويني دفاعاً عنه، هي الصحح التي لقيناها في هجوم أرسطو على أفلاطون، وقرص الآخر التزامات على الفرد من أجل مصالح الجماعة، وهكذا فالذي يقرر ما إذا كان نظام الملكية صالحاً أم شريراً، هو طريقة استخدامها وليس النظام ذاته.



يرى توما الإكويني أن المهم ما يحدث بعد الحياة الدنيا، فأى سلوك فيها إنما يظل محكوماً عليه بمدى قدرته على الخلاص في الآخرة (لأن هذه الحياة تقود إلى حياة أخرى مباركة في السماء كهدف نهائي... والثروة جيدة إذا ما كانت وسيلة بلوغ نهاية جيدة، والفقير غير جيد عموماً، إلا عندما يحرر الفرد وعن طريق الفصيلة والترفع عن كل ما يعيق الحياة الروحية)<sup>(٣٢)</sup>.

لم يكن توما الإكويني على استعداد للسير بعيداً بتقييد حقوق الملكية، لنأى يصطدم بضغوط الواقع، الذي بدأ يتلور باتجاه قبول الملكية من ناحية وفقدان الحانب التوفيقي في فسفته الاقتصادية من جهة أخرى، فالملكية عنده طلت مهمة وضرورة وطبيعية في حياة الإنسان، وهي لا تتناقص مع القانون الطبيعي، لأنها من صنع الإنسان، لذلك نراه يدعو غير المالكين إلى عدم التذمر من واقعهم، الذي لا يملكون فيه شيئاً، فالملكية من صنع الإنسان واختراعه، فهي مسألة ترتبط بالحياة الدنيا التي هي حياة قصيرة مقارنة بالحياة الأبدية.

لهذا يركز توما الإكويني جل اهتمامه على الحياة الآخرة، ويعدّها الهدف الذي يسعى إليه لأنها تمثل خلاصه الروحي، وعلى الرغم من إشارته إلى أن الدفاع عن الملكية الخاصة من أي إنسان تعني التراجع عن بعض ما جاء به الكتاب المقدس حول الثروة والفقير، إلا أن هذا لا يعني إطلاقاً الانتعاد عن الثروة ورفضه للملكية الخاصة، إذ أنه يحدد السلوك الإنساني في ظل الملكية، بحيث تكون تصرفات الإنسان عادلة حتى ولو صم هذا الأخير جزءاً من الثروة العامة إلى ثروته الخاصة، فما عليه إلا أن يقدم جزءاً من هذه الثروة إلى الأفراد.

عنى هذا الأساس أباح توما الإكويني الدفاع عن الملكية الخاصة وطلب من الدولة توفير الحماية لها، حتى ولو أدى ذلك إلى القتل، عندما يحاول قسم الاستحواد على ما في أيدي جيرانه<sup>(٣٣)</sup>. في هذا يحاول توما الإكويني إحداث تمازج قوي بين الرؤية الدينية والفلسفة الأرسطوية الأخلاقية. فهو لم يخرج عن عالمه الديني اللاهوتي، ويحلل موضوع

الملكية في ضوء طريقة الإنتاج، وما يترشح عنها من علاقات تربط الناس بعضهم ببعض، من خلال عملية إنتاج الحيرات المادية، بل يظل أمياً على أن الملكية ما هي إلا عقوبة على الخطيئة الأولى التي اقترفها الإنسان.

### ٣- العمل

يركز توما الإكويني ابتداءً على العمل ويعظم منزلته فيعرفه (بأنه النشاط البشري الذي يحصر من خلاله الإنسان على سبل المعيشة بشكل قانوني سواء باستخدام يديه أو قدميه أو لسانه، ولعاقراً مثلاً يستخدم يديه في العمل)<sup>(٢٤)</sup>، ويحصر توما الإكويني العمل اليدوي إلى أهداف عدة هي<sup>(٢٥)</sup>:

- أ- الحصول على الغذاء وبذا يصبح وسيلة أساسية لا يوجد بديل عنها لتحقيق ذلك.
- ب- يهدف العمل إلى إزالة الخمول الذي هو أساس الشر، ووفقاً لهذا يعد العمل امتحاناً للجسد الذي ينهكه الصوم، وبجانب العمل يرى الإكويني أن قراءة الكتب المقدسة والتفكير في كيفية الخلق والحرب عوامل أخرى لإزالة الخمول.
- ج- أنه يهدف إلى كبح الشبق لأنه يتعب الجسد.
- د- يعطي العمل الفرصة للقيام بالتصدق، هذه تعد فكرة مركزية لدى الإكويني والسكولانيين وسمة أساسية لبلوغ الحياة الآخرة وبسعادة.

ثم تتبدى نظرة الإكويني نحو توجه الرسل إلى العمل اليدوي، فيرى فيها أنها أما من أجل الضرورة إذا لم تكن لديهم وسيلة أخرى للحصول على المعيشة، أو عمل زائد يقوم به الرسول لثلاثة أسباب هي<sup>(٢٦)</sup>:

أولاً: حرمان الرسل الدجالين من ذريعة الوعظ لأنهم يمارسون ذلك للحصول على الفائدة الدينية.

ثانياً: لتجنب أثقال كاهل أولئك الذين كان بعضهم الرسول.

ثالثاً: لعرض إعطاء الواهتين درساً في العمل.

على أن سلوك الرسول هذا لم يكن ملزماً حتى للمتدينين، طالما أنهم ليس ملزمين بالعمل الرائد، فالنظام هو نظام طبيعي يحدد طبيعة الأعمال والوظائف المنوط بالأشخاص، فالمؤهلون منهم بالمعارف يقرر لهم النظام الطبيعي أعمالاً تتفق مع مؤهلاتهم الطبيعية، فيما يقرر لغيرهم أعمال أخرى (هذه الأفكار مستوحاة من الفكر الأرسطوي)، لذلك يعتقد ثوما الإكويني بأن تقسيم العمل (Division of labure) يعد ظاهرة طبيعية خالدة.

#### ٤- الأجر العادل

هناك رأيان في تفسير نظرية المدرسين لهذا الموضوع، الرأي الأول يذهب إلى أن نظرية السعر العادل للأسباب الآتية:

أ- إن الأحرار كانت في العصور الوسطى أهم عنصر في نفقة الإنتاج، لذلك فهي تحدد القيمة ومن ثم السعر العادل.

ب- إن السعر العادل في جوهره هو تطبيق للأجر العادل (نظرية الأجر العادل)، وهي نتيجة حتمية أو تطبيق حزني لنظرية السعر العادل.

والأجر العادل يعني في نظر المدرسين (هو الأجر الذي يمكن العامل وعائلته من العيش بكرامة معقولة في المستوى الحياتي المناسب لمركزه الاجتماعي الخاص)<sup>(٣٧)</sup>، أي المستوى الذي وجد نفسه فيه أو بعبارة أخرى أن نظرية الأجر العادل، هي - كنظرية السعر العادل - محاولة لتسوية لاهوتي للوضع الحقيقي للعمال في القرون الوسطى.

فيما يرى الكثير من الباحثين في موضوع الفكر الاقتصادي، إن نظرية السعر العادل هي حجر الزاوية في الفكر الاقتصادي الوسيط، وأن جميع المتغيرات الاقتصادية (الأسعار، الأجور، الفائدة، الملكية)، كانت تناقش ضمن نطاق مفهوم

(العدالة) المستند بدوره على فكرة (المساواة) في المسيحية الأولى. ويمكن تلخيص بيان أوجه نظرية السعر العادل لدى توما الإكويني بالآتي:

الوجه الأول: إن (العدالة) الضرورية في تحديد السعر هي العدالة التبادلية دون التوزيعية، أي العدالة التي تحدد بين الجزء والجزء (وهذه إشارة إلى شيوع نظام المقايضة)، وليست تلك التي تحدد العلاقة بين الجزء والكل، وهذا التمييز بين وجهي العدالة هو تمييز أرسطو طاليسي.

الوجه الثاني: العدالة التبادلية تعني (المساواة) بين المقياس هو النقود، وبتعبير آخر أن المساواة في التبادل تعني المساواة في القيم المتبادلة. هكذا فإن نظرية السعر العادل لدى الإكويني تستند إلى نظرية القيمة، وبحسب وجهة نظر Alexander Gray، فإن السعر العادل لدى الإكويني هو السعر الذي يتفق مع مفهوم القيمة، وأن السعر غير العادل هو الذي ينحرف ارتفاعاً أو هبوطاً عن تلك القيمة<sup>(٢٨)</sup>.

#### ٥- نظرية القيمة

لم يبحث توما الإكويني مفهوم (القيمة) بتفصيل ووضوح تام، على الرغم من تضمينها إليها في نظريته للسعر العادل، مما ترك المجال مفتوحاً لجميع التفسيرات، إذ أن غياب مفهوم محدد لقيمة في الفكر الإكويني دفع الباحثين إلى بيان وجهات نظر مختلفة إزاء ذلك وهي<sup>(٢٩)</sup>:

أ- يرى قسم أن توما الإكويني عد (العرف) هو المقياس، وأن عبارته المشهورة بشأن القيمة (التقدير العام للسلعة)، ما هي إلا محاولة منه لوضع أساس لاهوتي وأخلاقي لتحديد الرسمي للأسعار من السلطات الإقطاعية آنذاك، أي أنه كان مدفوعاً في نظريته باعتبارات عملية صرف تنسجم مع آرائه التوفيقية بوجه عام.

ب - في حين يرى قسم آخر بأن توما الإكويني، كان رائداً للنظريات الموضوعية في القيمة، أي تلك التي تفرق بين مفهوم السعر (وهو مفهوم نسبي

ذاتي)، وبين مفهوم القيمة التي هي شيء داخلي يقع في صلب السلعة، ولا يتوقف على التقديرات الذاتية للمتبادلين، ويمكن الإشارة إلى أهم هذه التفسيرات:

- نظرية العمل في القيمة: وتعتقد أن توما الإكويني كان يرى أن قيمة الشيء يحددها مقدار العمل الضروري لإنتاجه.

- نظرية نفقة الإنتاج: فالسعر العادل لدى الإكويني هو السعر المتفق مع نفقة الإنتاج، ولما كانت هذه في العصر الإقطاعي قاصرة على نفقة العمل، لأن مكون العمل في السلعة كان كبيراً طبقاً لنظام الإنتاج البضاعي البسيط وغير رأسمالي.

جـ - يرى فريق ثالث من الباحثين أن توما الإكويني هو رائد للنظريات الشخصية (الذاتية) في محاولة لإيجاد الحذور التاريخية للنظريات الحديثة في القيمة (المدرسة النفعية والمدرسة النمساوية) وهي على النحو الآتي:

- نظرية المنفعة: أي أن القيمة لدى الإكويني لم تهمل عنصر المنفعة، ولكن من فسر نظريته في القيمة خلط بين عبارة (التقدير العام) وبين (المنفعة)، والمفترض أن تكون فردية ومتغيرة لدى البشر، لأن أي تحليل غير متحيز لعبارة توما الإكويني، تستبعد أي تفسير ذاتي لمفهوم القيمة لديه<sup>(٣٩)</sup>.

- فسرت نظريته بأنها تسند القيمة إلى (المنفعة المجتمعية) وليس لتقدير الفرد، منطقيين من تقليل الإكويني للأسعار الفعلية السائدة في زمنه، بوصفها من تحديد المجتمع أو السلطة الإقطاعية.

- فيما ذهب آخرون إلى أن توما الإكويني ترك تقدير القيمة (لصير المنتج نفسه)، أي أن المقياس ذاتي لها، ولا يرتبط بالجمهور أو المستهلكين بقدر ما يرتبط بشخص المنتج.

د - أخيراً يرى قسم من الباحثين، إن توما الإكويني هو رائد لنظرية العرض والطلب الكلاسيكية في تفسير القيمة<sup>(٤٠)</sup>، (فالاستحقاق والمكافأة وجهان لعملة واحدة، لأن المكافأة تعني شيئاً ما يمنح لأي شخص جزاءً أو ثمناً لعمل ما،

لذلك وكما تقتضي العدالة إعطاء السعر العادل لكل شيء نحصل عليه من الآخرين، فإن ذات العدالة تقتضي كل فئات العمل<sup>(٢٠)</sup>

والخلاصة أن نظرية القيمة تتسم بالعموض لدى توما الإكويني، كما يشير إلى ذلك (أريك رول)<sup>(٢١)</sup>، فقد اعتنق بطريقة عامصة في القيمة التبادلية تقوم على فكرة بعقة الإنتاج (Cost of production) مرة، ثم ينتقل لصوع هذه النظرية في صورة أخلاقية، إذ تتحدد تكلفة الإنتاج وفقاً لمبدأ العدل، أي على ما هو ضروري للإبقاء على المنتج، فكلا الطرفين (البائع والمشتري) يجب أن يحققا ربهما من مبادلة القيم الاستعمالية.

وبذلك غاب عن ذهن الإكويني الخاصية الاجتماعية للعمل الإنساني كجانب موضوعي لعملية التبادل، مما وسمه (لا موضوعياً) في تقدير لقيمة السلعة، وأكثر اقتراباً من (لذاتية) في تحديدها وتقديرها، وأرجع كل شيء إلى فكرة (الاعتدال) كمقياس تتجسد في صوته الطاهرات الاقتصادية.

إن التوفيقية العالية بجانب التعليقية، تعد معلماً بارزاً ظل يحكم أفكار توما الإكويني، بجانب سعيه المستمر إلى وضع أسس لاهوتية لتسوية الأوضاع في العصر الإقطاعي، وهي ضرورات اقتضتها طبيعة الاقتصاد المعلق، ومحلية الأسواق وضيق نطاق التجارة وقلة الإنتاج، وحماية السكان من المجاعة التي قد تنشأ عن الاحتكار.

## ٦- التجارة والأرباح

كان المسيح (ع) يستنكر السعي وراء الثراء، وقال القديس جيروم أن (الغني ظالم أو وارث لظالم)، وهو في هذا يتعرض بالشك على الأساس الذي تقوم عليه التجارة، في حين يقرر ترتوليان (أن القضاء على الجشع معناه القضاء على السبب الذي يدعو إلى الكسب، من ثم على الحاجة إلى التجارة)، وخشي أوغسطين أن

تصرف التجارة الناس عن السعي إلى الله، وكان المذهب القائل (لا يحب أن يكون المسيحي تاجراً)، مذهباً شائعاً في الكنيسة في أوائل العصور الوسطى.

إلا أن هذه النظرة إلى التجارة وجدت نفسها في أواخر العصور الوسطى، تتعارض بشدة مع ازدياد النشاط التجاري بسبب نمو المدن وتوسع الأسواق، وإزاء هذا التطور الاقتصادي لم يكن الإبقاء على عباد الكنيسة في أوائل عهدها، وهذا ما بحده في فكر توما الإكويني من ميل واضح إلى التوفيق بين العقيدة اللاهوتية، والأحوال السائدة في الحياة الاقتصادية، وهي أي التجارة حالها حال الملكية الخاصة، لا يعدها طيبة أو طيعة، بل تنطوي على معنى الحرمان من فضل الله، فهو لا يعدها بحده ذاتها خطيئة، ولكنها (أي التجارة) توفر مجالات للخطيئة، إذ يقول الإكويني (أن الإنسان الواعي لروحه الخالدة بتجنب التجارة) <sup>(١٣١)</sup>، وهي على حد قوله شر لا مفر منه في عالم ناقص، ولا يمكن تعليلها، إلا إذا كان التاجر يسعى أن يكون التبادل عادلاً، وهو يستند في ذلك على الآباء الأوائل، الذين اشترطوا الثمن العادل وعن الانحراف عنه يعد عدواناً على القانون الأخلاقي.

على أن التجارة إذا ما كانت تدر نفعاً على البلد، فإن الربح المحقق عنها يكون جزاءً عن عمل، وبذلك تضيف المدرسة السكولائية المشروعية على العمل التجاري الخارجي بمقدار تحقيقه المنفعة لبلد، لأن توفير الضروريات للمعيشة لطبقات المجتمع وبالكميات المقبولة من قس المجتمع، يعد عملاً لازماً وضرورياً، والربح المتولد عن ذلك لم يكن هدفاً للتاجر بحده ذاته، وإنما تعويضاً عن هذا العمل، إن هذا التسامح والتراخي الذي أبداه الفكر المدرسي إزاء التجارة كان ضرورياً ونشأ على ضغط الواقع، إلا أن يحمل في الوقت نفسه بدور إضعاف الهيمنة الكنسية في تنظيم النشاط الاقتصادي، وبداية تمكك النظام الإقطاعي وهو ما كان واضحاً عند نهاية القرن الرابع عشر الميلادي <sup>(١٣٢)</sup>.

## ٧- الفائدة (الربا)

الربا أحد المعاملات التجارية التي شهدت رفضاً إنجيلياً وأرسطوياً واضحاً، ففي العهد الجديد وردت عند لوقا (وأقرصوا وانتم لا ترحون شيئاً فيكون أجركم عظيماً)<sup>٢٤</sup>، وعلى الرغم من اختلاف التفسيرات الكنسية لهذه القاعدة، فإن الاتجاه العام لرجال الدين المسيحي كان يستنكر الإثراء عن طريق إقراض المال مقابل أخذ فائدة (ربا)، وطلت قاعدة تحريم الربا سائدة من دون مناقشة معظم العصور الوسطى.

ومع نمو التجارة والتعامل النقدي في الأسواق في أواخر العصور الوسطى بدأت اتجاهات جديدة في الطهور، فمن ناحية كان الأسلوب العلماني في التفكير يأخذ قوة متزايدة، وكان أصحاب هذا الأسلوب يرون التوسع في إقراض المال مقابل فائدة، معللين رأيهم بالاستناد إلى القانون الروماني، الذي لم يحرم هذا العمل، وبالطبع فإن انزعاج رجال الكنيسة، من مثل هذا الاتجاه الجديد، جعلهم يصدرن سلسلة من القرارات الصارمة بتحريم الربا عند أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

استند توما الإكويني إلى التعاليم المسيحية في مهاجمة الربا، إلا أنه يؤكد رأيه ويدعمه بحجج منطقية مشتقة أساساً من المناقشة الأرسطوية ضد الربا، وتتبع معارضة أرسطو في نظريته إلى النقود، التي كان يرى فيها وظيفة أساسية هي واسطة للتبادل الذي يستهدف إشباع حاجات المستهلكين.

إما النقود في حد ذاتها فهي (عقيمة)، (النقود لا تلد نقوداً)، وعمليات تداولها التي تتم عن طريق الإقراض ينبغي أن لا تتم لقاء ثمن.

والنقود عند أرسطو ذات قيمة سلعية، وهذا مهم لأداء دورها في تسهيل التبادل، وليس لأي غرض آخر، ولكن توما الإكويني طور الفكرة الأرسطوية عندما قام بالفرقة بين السلع التي تستهلك في أثناء استعمالها، وتلك التي لا تستهلك (وهي فكرة اشتقت من الرومان)، وهو في هذا يريد القول أن النقود تنتمي إلى الفئة



الأولى، واستنتج بعد ذلك أن المطالبة بمائدة على القرض القدي إلى جانب المطالبة بسداده، معناه الحصول على كسب غير طبيعي وغير عادل<sup>(٢٥)</sup>.

وفي مرحلة معينة ونتيجة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية يشدد توما الإكويني على الربا، بحيث عد فيها من يذهب ويقترض المال من المرابي، يرتكب خطيئة فهو يقول (أن الشخص الذي يقوم بقتراض مال بالربا، يعطي فرصة للمرابي من أحد الربا)<sup>(٢٦)</sup>، وعد هذا جانياً سلبياً يحب على الأشخاص أن يتجنبوا الفضيحة التي تفودهم إلى الاقتراض، حتى ولو كانوا محتاجين، لأن الاقتراض بالربا يمثل انحرافاً.

وبعد عند توما الإكويني موقفاً آخر تجاه الفائدة، إذ يرى فيها تعويض عن المحطرة، فأى مبيع تكون قيمته الحالية أعلى من قيمته المستقبلية، يتحتم أن يكون المبلغ المستعاد أكثر من المبيع المقدم في البداية، ويشير أريك رول إلى القبول العام الذي لقيته فكرة توما الإكويني هذه عند أوساط الرأي العام، لاسيما أن استنكار الربا جزء من الاستنكار العام للتبادل غير العادل، ففي أوائل القرون الوسطى لم يطبق التحريم الذي وضعته الكنيسة إلا على رجال الدين، غير أن الأمر قد تغير فيما بعد.

فتطور التجارة وتكثر فرص ممارسة العمليات النقدية، بجانب اضطراب الملوك والأمراء إلى الاقتراض، أصبح الالتجاء إلى المرابين اليهود أمراً لا بد منه، لذلك نشأ اتجاهان<sup>(٢٧)</sup>؛ الاتحده الأول: اعتماد النظرة العلمانية باتجاه الإقراض بالفائدة، وتسويغ ذلك وفق حيثيات القانون الروماني.

الاتجاه الثاني: إراء ذلك أبدت الكنيسة انزعاجها من هذا التطور، مؤكدة التحريم الأصلي.

#### ٨- البقود

لم يجد الباحثون اهتماماً لدى توما الإكويني بموضوع النقود، ولا المدرسين المتأخرين باستثناء نيكولاس أوريزم (١٣٢٠-١٣٣٠م)<sup>(٢٨)</sup>، الذي قدم وصف لأصل

المال (النقود)، متتبعاً أسلوب أرسطو في البحث، مبنياً كيفية تبادل الناس للبضائع بدون نقود (المقايضة)، ثم أوجد الناس الأذكاء طريقة سهلة (النقود) كوسيلة للقياس والتبادل بينهم، ثم اتبع ذلك بقش حذر حول المواد التي يجب أن تصنع منها النقود خاصة الذهب والفضة، وامتياز سك العملة في يد الملك.

وفي الوقت نفسه يؤكد أن امتياز سك العملة، ينبغي أن لا يمنح الملك حقاً في أن يكون (سيد النقود) المتداولة في المجتمع، لأن النقود أداة قانونية لتبادل الثروات بين الناس، من ثم فهي الحقيقة تعود للدين يملكون أمثال هذه الثروات، وبهذا يصع مفهوماً محدداً للسلطة التقديرية في المجتمع، أنها السلطة التي تملك حق إصدار النقود وإدارتها، ولكنها لا تملك حق التلاعب في قيمها من خلال التسمية والوزن أو المادة

إذ أن الكسب المتأني من ذلك أشبه ما يكون ربا، وهي طرق غير طبيعية بحسب المعنى الأرسطوي والأكويني لجني الفوائد، والتي يصفها أوريزوم بالكلفة الصاعدة للفساد.

#### ٩- الربيع

في العصور الوسطى كانت الكنيسة تحصل على قسم كبير من دخلها بشكل ريع (Rent)، فتوما الإكويني لم يتطرق إلى الربيع كمفكرة مستقلة، وإنما قدم تسويماً للعوائد التي تحصل عليها الكنيسة، مبيهاً أن هذا الربيع ما هو إلا تعويض عن عمل الملاك العقاريين في إدارة الفلاحين التابعين له<sup>٢٨</sup>. ولكن هذا المفهوم للعوائد (وبضمنة الربيع) مرتبط بضرورة التصديق به على القراء والمساكين، لذلك يحدد اتجاهات التصرف بموارد الكنيسة وفق الاتجاهات الآتية:

- أ- يمكن للرهبان التصديق بأموال الأديرة إذا حصل الأذن بذلك من الأسقف.
- ب- يمنع الرهبان من الانغماس بالأعمال الدنيوية لأجل الحشع ويمكهم القيام بهذه الأعمال لأجل أعمال المعروف.

- ج- يمكن للمتدينين أن يعيشوا على الصدقات والمساعدات والموارد التي تحصل عليها الكنيسة أو الدير ويضع توما الإكويني أربعة شروط لذلك هي<sup>(٩٩)</sup>:
- إذا وعظوا بأمره الأسقف.
  - إذا كانوا القائمين على المذبح.
  - إذا كرسوا حياتهم لدراسة الكتاب المقدس لمصلحة الجميع.
  - إذا كانوا قد تبرعوا للدير الذي يعيشون فيه بكل ما يملكون، فيمكنهم أن يعيشوا على الصدقات والمساعدات وأية موارد أخرى تقدم للدير.

#### هوامش ومصادر الفصل الرابع

- ١- أدوار بروي وآخرون، تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، ترجمة فريدم داغر ويوسف أسعد داغر، ط٢، (باريس، ١٩٨٦، ص١٩).
- ٢- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٢٨٩.
- ٣- Tawney , R. H. Religion and The Rise of Capitalism , London , ١٩٦٤, p. ٣٧.
- ٤- محمد عيال مطر، الفكر الاقتصادي العربي – الأوربي في العصر الوسيط، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى معهد التاريخ العربي، بغداد، ١٩٩٨، ص٣٦١.
- ٥- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٢٠٨.
- ٦- ل. سيعال، لحظة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، دار دمشق، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤، ص٢٦.
- ٧- أريك رول، مصدر سابق، ص ٣٨.
- ٨- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٢٩١.
- ٩- محمود عبد المولى، مصدر سابق، ص ٩٣.
- ١٠- Schumpeter , Joseph , (History of Economic Analysis , Oxford University , ١٩٦١, p. ٨٤.
- ١١- للمزيد حول آراء المدرستين ينظر:
- عمر فرخ، تاريخ الفكر العربي، بيروت، ١٩٦٦ وما بعدها.
- فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية، (القاهرة – ١٩٦٦)، ص٤٤.
- ١٢- الطيب تيريب، في الفكر الفلسفي العربي، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دمشق، (د.ت) صفحات متفرقة.
- ١٣- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص٤٣٨.
- ١٤- أحمد سليم سعيدان، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، مطابع الكويت، ١٩٨٨، ص٨٨.
- ١٥- الكتاب المقدس، العهد القديم، بيروت، ١٩٩٠، ص١٢٣.

- ١٦- المصدر السابق، العهد الجديد، ص ١٣٩.
- ١٧- محمد يدوي، علم الاجتماع والنظم الاقتصادية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٨٨.
- ١٨- Haney , Lewis H. History of Economic Thought, New York , ١٩٦٠ , pp. ٩٤-٩٥.
- ١٩- الكتاب المقدس، العهد القديم، ص ٣١٧.
- ٢٠- المصدر نفسه، العهد الجديد، ص ٢٧٠.
- ٢١- المصدر نفسه، ص ٤٨.
- ٢٢- زينب حمود الخضيرى، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٣، ص ص ١٦٠ - ١٦٥.
- ٢٣- تم الاعتماد على المصادر الآتية:
- ميخائيل ضومط، توما الإكويني، دراسة ومختارات، دار ابن خلدون، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٤٢.
- Thomas Aquinas , The summa Theologica , Chicago University press , ١٩٥٢ , volume ١ , Biographical note,
- ٢٤- هـ سد جويك، المجلد في تاريخ علم الأخلاق، ترجمة توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي، (ج ١)، الإسكندرية، ١٩٤٩، ص ٢٤٥.
- ٢٥- Gray , Alexander , The Development of Economic Doctrine an Introductory survey London , ١٩٥٦, p. ٤٩.
- ٢٦- Ibid , p. ٥٠.
- ٢٧- عارف دليّة، مصدر سابق، ص ٩٤.
- ٢٨- tomas Aquinas , op. Cit , volume ٢ , p.٦٦٧.
- ٢٩- Ibid
- ٣٠- Ibid, p. ٦٦٩.
- ٣١- محمد عزيز، مذكرات في تاريخ المذاهب الاقتصادية، (محاضرات مطبوعة بالرونيو) جامعة بغداد، ١٩٥١، ص ٢٩.
- ٣٢- Gray , op. Cit , p. ٥١.
- ٣٣- Kapp K. William , History of Economic thought , New York , ١٩٦٠, pp. ٨-٩.
- ٣٤- أريك رول، مصدر سابق، ص ٤٢.

- ٣٥- عارف دليلة، مصدر سابق، ص ٩٥.
- ٣٦ Aquinas , op. Cit , volum-٢ , p. ٢٧١.
- ٣٧- أريك رول، ص ٤٢.
- ٣٨- المصدر السابق، ص ٤٠.
- ٣٩- Gray , op. Cit , p. ٦٠.
- ٤٠- عارف دليلة، ص ٩٦.
- ٤١- الكتاب المقدس، العهد الجديد، ص ١٠٢.
- ٤٢- Haney , op. Cit , p. ١٠١.
- ٤٣- Kapp , op. Cit , p. ٢٤.
- ٤٤- أريك رول، مصدر سابق، ص ٤٤.
- ٤٥ Edwards , Paul , The Encyclopedia of Philosophy, New York , ١٩٧٢, vol-٥ , pp. ٥٤٧-٥٤٨.
- ٤٦- عارف دليلة، مصدر سابق، ص ٩٦.
- ٤٧- Aquinas , op. Cit , volume -٢ , pp ٥٤٨-٦٧٠.



## **الفصل الخامس**

### **الفكر الاقتصادي الإسلامي**





## الفصل الخامس

### الفكر الاقتصادي الإسلامي

تمهيد

لم يكن الإسلام يوماً مجرد عقيدة دينية، بل أنه نظام حياة متكامل، جاء ليغير وجه الدنيا، ولينظم كل شيء فيها، فهل يحلو مثل هذا الدين من قصور نظري لمعالجة الجوانب الاقتصادية (التي هي من الجوانب الرئيسة في الحياة الاجتماعية)، وهذا ليس فرصاً تعسفياً أو نتيجة لعاطفة دينية خالصة، بل فرضاً موضوعياً.

إذ أن عشرات الآيات وآلاف الأحاديث بجانب أكثر من نصف الفقه والتشريع الإسلامي، تناولت المعاملات الاقتصادية والتجارية والربحية والصناعية في أحكام البيع والشراء والإجارة والربا والسلف والمزارعة والمساقاة والشركات وصلات الناس بعضهم ببعض.

إن ما يدعو إلى الاهتمام بالفكر الاقتصادي الإسلامي، هو أن الفكر الاقتصادي الأنساني وحدة مترابطة الحقائق من حيث التواصل المعرفي، وهذا الفكر يشكل حلقة مهمة فيه، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الفكر يعد مصدراً من مصادر الفكر الاقتصادي الأوربي الحديث.

فالدين الإسلامي يحتوي على مبادئ إسلامية تشمل جوانب الحياة الإنسانية وليس الجوانب المادية فقط، لقد وضع الإسلام إطاراً من المبادئ العامة، التي يمكن أن يسترشد بها المسلمون في حياتهم اليومية.

فقد جاء في سورة الأنعام بسم الله الرحمن الرحيم (قل تعالوا أتْلُ ما حرمَ ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون)<sup>١</sup> (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بآتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها

وإذا قُلتُم فاعدِلوا ولو كان ذا قُربى وبعد الله أوفوا ذلُكُم وصاكنم به لعلُكُم تذكرون<sup>(١)</sup>.

لقد عرفت هذه المبادئ بالوصايا العشر وهي:

- ١- النهي عن الإِشراك بالله.
- ٢- الإحسان إلى الوالدين.
- ٣- النهي عن قتل الأولاد.
- ٤- النهي عن التقرب من الفواحش.
- ٥- النهي عن قتل النفس إلاً بالحق.
- ٦- المحافظة على مال اليتيم وتنميته وتثمينه.
- ٧- إيفاء الكيل والميزان.
- ٨- العدل في الأقوال والأفعال والأحكام.
- ٩- الوفاء بالعهد.
- ١٠- اتباع الصراط المستقيم.

مما لاشك فيه أن هذه الوصايا تشكل الأسس الأخلاقية للسلوك القويم في المجتمع الإسلامي، كما أن محاولة التوصل إلى نسيج نظري يشتمل على المبادئ الاقتصادية، التي يمكن الارتكاز عليها لتوجيه النشاط الاقتصادي الفردي من منظور إسلامي، يتطلب الاسترشاد بالمبادئ العشرة السابق ذكرها، مع فهم متعمق للفقه الإسلامي، بالإضافة إلى معرفة الفلسفات الاقتصادية المختلفة التي تحكم سير المجتمعات المعاصرة.

بيد أن هذا الأمر ليس سهلاً ارتياده، فثمة مصاعب كبيرة تكتنف الباحث في هذا المجال، والفكر الاقتصادي الإسلامي يمتاز عن الأفكار الاقتصادية الوضعية بخصوصية فريدة، لأنه جرم من كرم ارتكازه على الدين الإسلامي الذي يتسم بالشمول والتكامل، ويهدف إلى المرح بين القيم المادية والقيم الروحية.

لهذا لابد من الرجوع إلى مصادر الشريعة الإسلامية لتتعرف على أسس الفكر الاقتصادي الإسلامي، حتى يمكن في ضوئها تلمس طبيعة النشاط الاقتصادي وأحكام الشريعة. لذلك أثرنّا أن نفرد مساحة معينة لبيان مكانة الفكر الاقتصادي الإسلامي في الفكر الاقتصادي العالمي، ثم نتناول جوانب مهمة من هذا الفكر، مع الوعي التام بأن القرآن الكريم (المصدر الأساسي للشريعة الإسلامية)، لم يضع نظاماً اقتصادياً مفصلاً، كما أن السنة النبوية الشريعة لم ترسم هي الأخرى الخطوط والمعالم الدقيقة لهذا النظام، إنما اكتفيا أن قدما للناس مبادئ عظيمة وترك المجال مفتوحاً لإراء الصياغات المناسبة في الزمان والمكان، ضمن الإطار الروحي والمبادئ الأخلاقية التي دعا إليها الدين الإسلامي لتحكم سلوك الجماعات.

## المبحث الأول الأسس المادية والفكرية

أولاً: الحالة الاقتصادية والاجتماعية

### ١- طبيعة النشاط الاقتصادي

إن شبه الجزيرة العربية (التي ولد الإسلام فيها)، هي صحراء شاسعة في الوسط، عديمة الأنهار وشحيحة المياه وهذا الأمر لم يشجع على الاستقرار، فعلمت حالة البداوة وعدم الاستقرار وكان طابع الرعي سائداً<sup>١</sup>، إما الوديان والسهول التي كانت شمالها، وفي الهلال الخصيب بالذات، فقد شجعت على حياة الاستقرار والزراعة، على حين كانت الجبال موحودة في العرب والجنوب، والتي أتاحت لبعض مناطق الحجاز الفرصة لأن تكون واحات، فأتسم طابع الحياة فيها بالاستقرار ولاسيما المدينة والطائف والمستوطنات اليهودية، ومكنت الجبال ووفرة المياه في اليمن من أن تكون محتمعت متحضرة تسودها الزراعة.

وقد ارتبط مصير البداوة القائمة اقتصادياً على الإبل في الجزيرة العربية، ارتباطاً وثيقاً بمصير تجارة القوافل، ومن ثم كان لتدهور هذه التجارة شأن كبير ولاشك في حياة البدوي.

يبدو أن العرب قبل الإسلام قد عرفوا الإقطاع، غير أن معرفته لم تجعل منه نظاماً خاصاً، كما أن الإقطاع عند عرب اليمن كان غيره عند عرب الأماكن الأخرى في الجزيرة ولاسيما الحجاز.

وإذا عرفنا أن العبيد كانوا يستخدمون في الرراعة وفي إحياء الأراضي الموات، حرز لنا أن نرجح وجود جدور أولية للإقطاع البسيط القائم على الاستثمار غير الواسع للأراضي، وأن كان استثماراً يستهدف الربح وتحقيق فائض للتبادل المحلي، مع ملاحظة أن هذا الاستثمار لا يقوم على عبودية الفلاح، وإنما الاستفادة من عمل الأحرار والعبيد في حدود الإمكان وطاقة الأرض الزراعية<sup>٢</sup>

وكانت الطائف ويثرب أكثر مناطق الجزيرة من حيث الاستقرار الزراعي وتنظيم الزراعة، بحيث وجدت الساتين والنخيل والمياه وعرفت الأسواق الموسمية، ولطائف كانت تزود مكة (لأنها تقع في وادٍ غير ذي زرع وجل اعتمادها على التجارة) بالحنطة والفواكه والزبيب.

كما أن الطائف كانت تحتضن صناعات حرفية، ووجدت مدافع الجلود والمنتجات الجلدية وصناعة الحمور بسبب كثرة الأغنام، وموقعها الذي يتوسط طرق التجارة جعلها تقيم علاقات تجارية مع العراق ومع الشام، كما أن سوق عكاظ (دائع الصيت) يقام في أرض هذا الإقليم.

وكان المكيون يحصلون على مردودات مالية من خلال الضرائب المفروضة على التحار، كما أنهم استفادوا من الهدايا التي يقدمها العرب إلى الكعبة من حلي وذهب وفضة أو غير ذلك، وكانت قريش أقوى القبائل في مكة تقيم أحلافاً عديدة مع الكثير من القبائل العربية، وكانت تستهدف من ورائها ضمان سير العملية التجارية.

لهذا يمكن القول أن مكة استفادت من وجود الكعبة فيها وموقعها الجعري، ولعبر نظرة العرب إلى قريش إردادت بعد فشل حملة أبرهة الحبشي، إذ بدت محمية من الله، فقد امتدت تجارتها إلى اليمن والشام والحيرة والعراق، وامتلك بعض أسياذ مكة أراضي في الطائف.

ارتبطت بالتجارة الكثير من الفعاليات الاقتصادية، التي كانت مؤشراً واضحاً على حيوية التجارة، فقد عرفوا الاحتكار والقروض والشركة والعلاقات الائتمانية من خلال السفحة- وهي كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قراضاً يأمن به من خطر الطريق، إضافة إلى الوكالة والوساطة وتعلموا المضاربة.

والظاهرة التي تستحق التوضيح أن التجارة قد رافقتها الكثير من الفعاليات، يعد أبرزها الربا الذي قد تسرب إلى الحياة العربية عن طريق اليهود<sup>(٥)</sup> وقد انتشر في مكة والطائف والمدينة، ويرجح بعض التاريخيين هذا الانتشار بسبب ضعف

المدفد الاقتصادية (محالات الاستثمار) لتشغيل رأس المال في الزراعة والصناعة، فحماً أصحاب الأموال إلى إقراضها وتميمتها عن طريق الربا.

## ٢- الفئات الاجتماعية

طل التفاوت في الثروة والانبسام الاجتماعي في حواضر الحجار أيضاً، فمكة النى كانت مدينة تجارية كانت تصم فئة التجار الدين كان مهم التاجر الكبير والتاجر الصغير وما يقع بينهما، كما وحدت فئة العبيد وكانت تصرع عليهم أجوراً يومية. وهذا يطبق على مختلف المناطق، مع خصوصية المناطق الزراعية من مثل الطائف ويثرب لوجود المزارعين بعدد كبير، عابيتهم يعيشون عيشة "كفاية"، إلا أن ما يمكن قوله أن حدة التفاوت في مكة كان كبيراً مقارنة بالمناطق الأخرى، إذ أن التجارة من شأنها أن تخلق متفاوتاً حاداً في الثروات. ومع غياب العدالة الاجتماعية إلا أن الأوضاع لم تصل إلى حد الفصل الطبقي لتبلور الطبقات الاجتماعية، بشكل صريح لعدم استكمال مقومات تشكّل الطبقة بعد.

إلا أن هذا لا يعني غياب الاستغلال والقهر الاجتماعي وبخاصة العبيد والمقراء<sup>(٦)</sup>، بل يمكن الإشارة إلى أن هناك حدوداً للتاجر بين الأغنياء والمقراء متداخلة مع تاجر اجتماعي من نوع آخر قنم على المنزلة الاجتماعية ي ضوء القبلة وعلوها وقوتها، وعلى نسب الأمرة واللون.

## ٣- الملكية

لعل مسألة الملكية كانت أكثر وضوحاً في المناطق الزراعية والتي تتوافر لها مقومات الزراعة المستقرة من عيون ماء، فيما هي أقل وضوحاً في المناطق الأخرى بسبب الانتقال المستمر للبدو. هذه الملكية كانت بارزة في يثرب والطائف مستفيدة من عمل المزارعين المقراء والعبيد<sup>(٧)</sup>، وهذا ما يرجح وجود جذور أولية للإقطاع البسيط القائم على الاستثمار غير الواسع للأرض مع ملاحظة أن هذا النوع من الإقطاع لا يقوم على

عبودية الملاح (قنانة الأرض) كما هو الحال في الإقطاع الأوربي بحساب ذلك فإن وجود طاهرة العبودية لم تكن نتاجاً اقتصادياً فهي عبودية اجتماعية.

بل يمكن القول أن أرض الحجاز ونجد وأرض العروض لم تشهد وجود ملاكين للأرض كبار كما هو الحال في اليمن وذلك لصغر مساحة الأرض المستقاة بالمطر أو بالمياه الأرضية نتيحة لشح الأرض وبخلها على الناس بالماء<sup>(٨)</sup>.

ثانياً: مكانة الفكر الاقتصادي الإسلامي من الفكر العالمي

في البدء يحب الإشارة إلى أن تناول الفكر العربي الإسلامي في المجال الاقتصادي يجب أن يكون خارج فكرة (العصور الوسطى)، لأن هذه العصور بما تتضمنه من مستوى حصاري يتوافق مع نوع معين من التنظيم الاجتماعي تمثل جزءاً لا يتجزأ من تاريخ أوروبا التي كتبت التاريخ ابتداءً من تأريخها، في محاولة منها لتوسيعه ليصبح تاريخ العالم أجمع، وهو ما يتعين رفضه لأن الجزء من تاريخ المجتمع الإنساني لا يعبر بالضرورة عن كل الأجزاء.

فلقول بالعصور الوسطى العربية يعني التسليم بأن المستوى الحصاري للمجتمع العربي بما احتواه من مجتمعات حضارية قديمة، كالحصارات المصرية والبابلية والفينيقية كان لا يهدف عن المستوى الحضاري لأوروبا في العصور الوسطى وهو ما ليس بصحيح.

إن الفكر الاقتصادي والحياة الاقتصادية مطهران مهمان من حياة المجتمع ومن واقع التاريخ، ودراستهما تعد عن حق من الموضوعات التي تساعد على تدقيق كثير من الأفكار في ميادين العلوم الاجتماعية إذا أخذت هذه العلوم بمعناها الواسع.

وأنه لم يقبل التحايل الخطر أن يظل الدارسون في عصرنا يبدؤون عروضهم في الفكر الاقتصادي من تصورات أفلاطون وأرسطو ويقفرون إلى القرن الثامن عشر متجاهلين ما وقع من مجهودات علمية وأخلاقية لعلماء وحكماء عرب ومسلمين في القرن الرابع عشر والخامس عشر<sup>(٩)</sup>، فكثيراً ما أثرت هذه



المفكرة على الباحثين من غير الأوربيين الذين صاروا يعدون العلم محض ظاهرة أوربية تنبئ في المجتمع اليوناني وتنتهي في مجتمعات أوربا الغربية ذات الحضارة التكنولوجية.

بيد أن التجارة العربية كانت ذات صفة عالمية، لأنها كانت ترتبط ما بين الصين والهند وغانا وبلاد الصقالبة والإفرنج<sup>(١٠)</sup>، ومن ثم لا يمكن تصور أن حضارة يتسع نشاطها التجاري والصاعى بهذا القدر، تكون عديمة الفكر الاقتصادي إلى الدرجة التي يعتقد بها بعض الباحثين المعاصرين، تحت حجة انقطاع وحدة الفكر العالمي في فترة العصور الوسطى الأوربية.

إن إبراز هذا التفكير الاقتصادي عند العرب والمسلمين وربطه بواقع الحياة الاجتماعية، يُعد عملاً ليس سهلاً، ومن المهام الأساسية التي تتطلب من الباحثين جهداً مضاعفاً، ومن الدوائر والمؤسسات العلمية والمعرفية العربية والإسلامية مساهمة جادة ومسؤولة.

إن الموضوعية تقتضي لفت النظر إلى أن البحاثه العرب والمسلمين عامة درجوا على تخصيص مكانة مهمة لما جاء به المفكر ابن خلدون وبيان فصله في مجال البحث الاقتصادي، على الرغم من أن هذا المجال لم يعطِ حقه بالكامل من الأبحاث الرائدة عن ابن خلدون، غير أنه لم يتم تحامله إطلاقاً، إذ حصصت له بعض الدراسات سواء كدراسات اقتصادية مستقلة أو دراسات جاءت ضمن الأبحاث الاجتماعية، بوصف أن ابن خلدون يُعد (المعاش) جزءاً من علم الاجتماع.

وعليه فإن ابن خلدون لم يكن المفكر العربي الوحيد الذي انتبه إلى الاقتصاد، كموضوع عملي مستقل بداته (وهي رؤية لم نحد تجسيد لها في كتابات اليونانيين والرومان بل وحتى السكولانيين)، وقد يتفرع إلى فروع كثيرة من تجارة وصناعة وأموال، بل سبقه إلى ذلك مفكرون آخرون<sup>(١١)</sup>.

وفي ميدان التجارة<sup>(١٢)</sup> على وجه الخصوص، يظهر أن أبا الفضل جعفر بن علي الدمشقي (ق١٢م) صاحب كتاب (الإشارة إلى محاسب التجارة) قد وفق في

بحته بطريقة ربما تعد علمية، لأنها تعدت أكثر ما يمكن من الاعتبارات الأخلاقية والفلسفية، وقتصرت على الحانين الواقعي والقانوني لهذا الفرع المهم من الاقتصاد، ولعل أهم ما في هذا الكتاب ثلاث نظريات لها قيمتها في توضيح المعارف الاقتصادية في طور نشوئها وهي:

أ - نظرية أهمية العملة بصفقتها شيئاً كسائر الأشياء.

ب- ترتيب الأموال بمظار فقهي إسلامي.

ج- ترتيب أنواع الكسب مع تحديد هذه الأنواع بطريقة واقعية وعقلانية، مع إعطاء مكانة خاصة للكسب بالمغالبة أي اعتصاب السلطان وذوي الجاه لمختلف الأملاك.

من هنا يتضح أن متابعة الحذور الفكرية للمفكرين العرب والمسلمين والأسس المأخوذة من الواقع الحي للمجتمع العربي والإسلامي، يستلزم البحث ودراسة طائفة من الأصول والتأليف لغرض تكوين النظرة السليمة مثل كتب الفقه والشرعية زيادة على القرآن والسنة.

فمن الفكر الفقهي (بداية المحتهد) للفيلسوف ابن رشد، نتعرف على أصول المعاملات الاقتصادية ومافذها كالبيوع والشركات والركاة، وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ١٢٤هـ)، وهو من كتب الشريعة المتخصصة في الأموال والحياة الاقتصادية، وكتاب الخراج للقصي أبي يوسف (١١٣-١٨٣هـ)، وكتاب يحيى ابن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ)، وإن كانت من المؤلفات التي تنسب إلى الفقه، فإنها لا تخلو من ملاحظات واقعية وأخلاقية أحياناً، إما كتب الحسبة مثل (معالم العربة) وكتاب الحسبة للعقباني، الذي يعطينا صورة حية عن الصنائع في المدن الإسلامية وعن التنظيمات الإدارية التي تسير الاقتصاد، كما تعطينا في بعض الأحيان نظرة عن المقاييس والمكايل والنقود والتعامل به.

وتفيدنا كتب تاريخ الطبري واليعقوبي والمسعودي في انتقاء الأخبار ذات الطابع الاقتصادي من ضمن الحوليات السياسية والعسكرية، كما تعد الخطط

المقريية من أهم المراجع في تاريخ التنظيمات الاقتصادية، وتعد كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، الذين مزجوا التاريخ بوصف المدن والأمصار من الكتب ذات الأهمية الفائقة، لأن إحدى فوائدها أنها ساعدت على تصحيح الكثير من المفاهيم والصور التقليدية عن الاقتصاد الإسلامي خصوصاً في ميدان التجارة، فمن ابن حوقل نتعلم منه أن النقل بواسطة السفن كان أهم من النقل البري في كثير من جهات العالم الإسلامي.

ويقدم الاصطخري صورة عن المعاملات التجارية بين الروس والمسلمين، ولولا البكري لما تعرفنا ضخامة التبادل الأفريقي العربي ابتداءً من القرن العاشر، وبفضل محمد بن الحسن الوران نأخذ صورة دقيقة عن مظاهر الانحطاط الاقتصادي بأفريقيا ابتداءً من القرن السادس عشر. ولم تكن كتب التاريخ والجغرافية الأكثر شهرة هي الدليل الوحيد على الكشف عن الأوضاع الاقتصادية، بل هناك كتب أقل شهرة تمكن من تدقيق العديد من النظريات والمفاهيم، من مثل كتاب (الوزراء) للجهناري (ت ٣٣١هـ)، وكتاب (تجارب الأمم) لمسكويه، تطلعنا على ينبوع عمليات المصادرات المالية، وتقربنا من فهم التفاصيل الخاصة بنظام الإقطاعية الإدارية عند العباسيين، والإقطاعية العسكرية عند مواليتهم من الأتراك.

كما نجد في بعض الكتب مثل كتاب (الأعاني) لأبي فرح الأصفهاني من الأخبار عن تصرف الخلفاء والأمراء في أموال الأمة، إما تديراً في المملدات أو ترفيها على الحاشية والأعوان، مما يعطينا صورة حية عن السلوك الاقتصادي والمالي لذوي الجاه والسلطان.

فيما تعد كتب الأخلاق المصطبغة بالحكمة والمهتمة بالتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، من أهم المصادر التي تتصح للباحث من خلالها محاولة الانسجام في الشريعة والحكمة عند المسلمين.

فكتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي مثلاً، يعطينا صورة عن الانصهار الذي تم بين الخطط الشرعية الإسلامية والخطط السلطانية المتأثرة بالإمبراطوريات السانقة (الفرس والروم)، وهذا ما يمكن أن يقال في ميدان الأخلاق الاجتماعية في مؤلفات مسكويه والطرطوشي والفارابي، وأما الفصول العاصة بالأخلاق والحاشية عند الغرالي، فإنها تمتاز بالتمسك القومي بالأخلاق الاقتصادية الإسلامية الأصيلة، وهي على الرغم من صغتها الصوفية أشرت على تفكير الفقهاء منها إلى تفكير الحكماء ومن حقنا هنا الإباحة عن فكرتنا في صعوبة تقصي كل مؤلفات الأقدمين، ناهيك عن المحدثين التي تنبئ عن الواقع الاقتصادي، وما ذكرنا منها ليس سوى نماذج، ويبقى عدد وفير جداً من المخطوطات والمطبوعات التي لا يمكننا الادعاء بالتوفر عليها جميعاً، وتطل معارفنا مديرة لمؤلفات ابن السديم وابن حلكا وحاحي خليفة وطاش لأكبري زاده وبركلهار وحررهي زيدان وهرانز روزنتال وكراتشوفسكي وأحمد أمين في الإجابة عن الأسئلة المتصلة بواقع الحياة الاقتصادية عند العرب والمسلمين.

كل ذلك وحب أن يتم في إطار المغزى المقبول علمياً، والكامن وراء تكريس دراسة الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي، لا في إطار المطابقة الرمزية مع العصر الأوربي الوسيط، لبيان أوجه المقاربة بقدر ما نطمح إلى التذكير بحقيقة مفادها:

إن المفكرين العرب خاصة منهم والمسلمين من بينهم عامة، كانوا قد وضعوا الخطوات الأولى والحوهرية للمقاربات الفكرية الاقتصادية الأساسية، ومستوى نعتقد أنه بلغ درجة عالية من الرصانة العلمية، ووجدنا من الأنسب أن نراجع التفكير الاقتصادي عند المقريري وابن حلدون لنتمكن من إعداد صياغة حول منهجية النظريات والمذاهب الاقتصادية المعاصرة.

### ثالثاً: مصادر الفكر الاقتصادي الإسلامي

من المؤكد أن الاقتصادي الإسلامي مذهب ونظام، مذهب من حيث الأصول ونظام من حيث التطبيق، وهذه الأصول والمبادئ التي وردت في القرآن والسنة النبوية لا خلاف عليها، وهناك تطبيقات، أي أنظمة اقتصادية مختلفة ونظريات اقتصادية إسلامية، احتلمت حسب الاجتهاد والزمأن والمكر، لذلك فأن تناول الفكر الاقتصادي الإسلامي بالبحث والتحليل، يستلزم الارتكاز على الأسس المكيفة له من دور الولوج إلى الاجتهاد والرؤى المذهبية الأخرى، معتمدين الصياعات النظرية لرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين (عصر الإسلام والحلافة الراشدة)، لأن صياغات المذاهب الإسلامية وآراءهم في حقمة لاحقة والمسوع لهذا الاقتصار، هو أن التطبيقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية جاءت مختلفة عما كانت عليه في صدر الإسلام.

وابطلاقاً من ذلك فلابد من تتبع المراحل التي مر بها التشريع الإسلامي، والتي درج الباحثون في تاريخ الفقه الإسلامي إلى تقسيمها إلى أدوار متعددة تبعاً لتطوره، من نشأة وتأسيس، إلى بناء وتوسيع، ومن ثم إلى ازدهار وتفريع، وأخيراً إلى جمود وتقليد<sup>(١٣)</sup> وهي:

الدور الأول: والذي مدته إثنان وعشرون عاماً تقريباً يبدأ مع بداية ظهور الرسالة الإسلامية وينتهي بوفدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سنة ١١هـ وهذا الدور الذي عاش فيه النبي بعد الهجرة هو عصر نشأة التشريع الإسلامي وتأسيسه حقاً، ففيه كان يرسل القرآن الكريم بالأحكام وتصدر عن الرسول الأحاديث المفسرة للآيات القرآنية والمبينة لها، فهذان المصدران- القرآن الكريم وسنة الرسول- أساساً التشريع ومصدراً للإلهام للفقهاء اللاحقين<sup>(١٤)</sup>.

الدور الثاني: هو دور البناء والتوسع في الفقه الإسلامي الذي واكب الفتوحات وتوسع الدولة الإسلامية، إذ واجه المسلمون بهذه الفتوحات مسائل كثيرة تحتاج إلى تشريع لم يكونوا محتاجين إليه في الجزيرة العربية، لكون الحياة فيها

بسيطة وغير معقدة، فواجه المشرعون الأوائل مسائل حزئية (حالات منفردة)، لم يصر القرآن الكريم عليها ولم يتطرق إليها الحديث، فنتج عن هذا مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامي وهو اجتهاد الحفء والصحابة وآراؤهم في الأمور التي لم ترد في القرآن ولا في السنة، وفي هذا ارتقى البحث في الرأي ونظمت شروطه العامة.

الدور الثالث: يبدأ هذا الدور من أوائل القرن الهجري الثاني إلى منتصف القرن الرابع، وفي هذا الدور بلغ التشريع الإسلامي مرحلة متقدمة من الكمال والاردهار والتفريع إبان العصر العاسي، الذي تميز بحرية الاجتهاد واتساع آفاقه وشموله لجميع الحياة العملية الإنسانية، وتعددت المذاهب الفقهية فظهر الفقه الفرضي والتفديري.

الدور الرابع: وهو دور الجمود والتقليد، إذ فقد الفقهاء الروح الاستقلالية التي كان يتمتع بها أسلافهم فضعت نزعة التفكير وأصبح التقليد (التابع) هو السمة الأساسية.

لذلك تتورع مصادر الفكر الاقتصادي الإسلامي كمصادر رئيسة، استلهم المفكرون المسلمون مادتهم المعرفية حول المسائل الاقتصادية العامة منها، وهي وإن لم ترتقي إلى وضع أسس (نظرية اقتصادية) أو علم للاقتصاد<sup>٤</sup>، إلا أنها لم تكن أقل شأنًا من الأفكار التي أوردها المفكرون في أوربا وهذه المصادر:

#### ١- القرآن الكريم والسنة النبوية

يعد القرآن الكريم وما جاء به فضلاً عن الأحاديث النبوية الشريفة وأحاديث الخفاء الراشدين والصحابة، المنبع الرئيس لكل الأفكار والتصورات في السياسة والمجتمع والاقتصاد، ومع الإدراك للصعوبة التي تواحها في تنبع كل ما جاء به القرآن الكريم من أحكام وتشريعات، لاستنباط الأفكار والبطريات الاقتصادية التي تتواءم مع التعقيد في الحياة الاقتصادية على مر التاريخ

إن الفقهاء والمفكرين المسلمين ظلوا يعملون على صياغة تصوراتهم في تلك المبادئ وبما يتناسب مع كل حالة مستفيدين تارة من الاجتهاد وتارة من القياس.

## ٢- طروحات علماء المسلمين

على العموم لم يهتم الفلاسفة بقضايا الاقتصاد مثلما كان اشغالهم بالأمور الفلسفية والدينية والفقهية، فقد عرف اهتمامهم الواسع بالفلسفة اليونانية وعلوم الأمم الأخرى، ولم يجحدوا جهود الفلاسفة الذين سبقوهم، ولم يكونوا كما يشير إلى ريان ودي بور من أن يصور الفلسفة الإسلامية بصورة التقليد الأعمى للفلسفة اليونانية، مما يوضح حقدهم والزرعة الذاتية الأوربية.

ما قدمته الفلسفة الإسلامية من موضوعات، تعد نزوعاً نحو ربط آرائهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية بأبحاثهم الفلسفية، وتسييرها في ضوء الأبحاث الأولية للفلسفة اليونانية، لذا جاءت نظراتهم مشوبة بأحكام قيمية وأخلاقية أكثر مما تفرضه المعايير، التي توحى بها النظرية الاقتصادية الحديثة، فظلت (النظرات) ظرفية واجتهادية أكثر منها معيارية.

إن متابعة الأصول الفكرية والمعرفية التي تراكمت لدى المفكرين العرب والمسلمين، والتدقيق في الجهد الفكري للعلماء والمفكرين في مدة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، يتيحان لباحثي فرصة مهمة لمعرفة طبيعة الأفكار والتصورات التي طرحها أولئك المفكرون من تاريخيين وجغرافيين، والتي شكلت مصدراً مهماً وملهماً في أبحاث المفكرين العرب والمسلمين في العصور التالية، ويتطلب ذلك العودة إلى دراسة مجموعة واسعة من الأصول والتأليف، التي عبرت عن الصلة الحية للأفكار بالوقائع المجتمعية فكتب التاريخ (للطبري واليعقوبي والمسعودي)\*، تمدنا بمعرفة منظمة وواسعة عن التنظيمات الإدارية والاقتصادية.

مما تقدم ندرك أن اهتمام الفلاسفة والفقهاء والمفكرين المسلمين من تاريخيين وجغرافيين بالنواحي الاقتصادية، كان اهتماماً ثانوياً إذا ما قيس بالإطار الواسع لاهتماماتهم الفكرية، التي انصبّت بالدرجة الرئيسة على الحديث والفقه والفلسفة

والتاريخ، استناداً على تصنيف العلوم إلى عقلية وعقلية وانصوت بمقتضاه المسائل الاقتصادية في حقل العلوم العقلية.

ويقول أنجلز بحق الفلسفة العربية الإسلامية وتثميناً لها، كإحدى حلقات الفكر العالمي (لقد ترك العرب نظام التعداد العشري وبداية الحبر والأرقام الحديثة والكيمياء. في حين لم تترك أوروبا القرون الوسطى أي شيء)<sup>(١٧)</sup>.

#### رابعاً: القوانين الأساسية للنظام الاقتصادي الإسلامي

من المؤكد أن لكل نظام اقتصادي-اجتماعي قوابسه الخاصة التي تولد في ضوء فلسفته وما يمكن أن يسجل كنقطة افتراق بين النظم الاقتصادية الوضعية (الرأسمالية والاشتراكية)، هو أن الفكر لاحق لتطبيق.

في حين جاء الفكر الاقتصادي الإسلامي سابقاً على وقائعه، ومن جانب آخر فإن القوانين التي تحكم النظام الاقتصادي، لابد من أن تشمل على جانبي الإنتاج والتوزيع وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد خلال عملية الإنتاج، بناءً على الأساس القانوني لعلاقات الإنتاج في المجتمع. وهناك قانونان رئيسان في الاقتصاد الإسلامي هما<sup>(١٨)</sup>:

#### ١- قانون التسخير

يحتل قانون التسخير مركزاً محورياً في الفكر الاقتصادي الإسلامي، إذ أن مهمة الحق هي عبادة الله، ولكي يعدوا لاند من بيئة مادية تشمل (المأكل والملبس والسكن)، وهي أساسيات الحياة المادية وتمثل الحد الأدنى لمستوى المعيشة اللازم توفيره للإنسان، حرصاً على حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال<sup>(١٩)</sup>، ويلزم المجتمع في توفيره أسباب حفظ الأشياء الخمسة، التي يعد النظم الاقتصادي الإسلامي مسؤولية تحقيقها هي المسؤولية الأولى للقائمين على المجتمع.

لقد سخر الله الكون كله من أرض وسما وأنهار وبحار لخدمة الإنسان، وهذا التسخير يعني أن في إمكان الإنسان الاستفادة من هذه الكائنات، فسبحانه وتعالى يقول



بسم الله الرحمن الرحيم (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) <sup>١١</sup> (الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات ررقاً لكم وسخر لكم الفلك لتبحري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار) <sup>١٢</sup> (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) <sup>١٣</sup> (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير) <sup>١٤</sup> (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأوسع عليكم نعمة ظاهرة وباطنة..) <sup>١٥</sup>.

## ٢- الاستخلاف

وهو القبول المكمل للقانون الأول والذي يتناول موضوع من أخطر موضوعات الاقتصاد، إلا وهي الملكية التي تمثل موضوع الاختلاف ما بين النظم المعاصرة، ناهيك عن أنها تعد محورياً أساسياً لتطورات نظم الإنتاج على مر التاريخ.

وعلى الرغم من أن الأديان السماوية تقترب بهذا القدر أو ذاك من هذا الجانب، إلا أن الدين الإسلامي قد أحكم موضوع الملكية في إطار مفهوم وواضح لا لبس فيه، فسبحانه وتعالى قد استخلف الإنسان في الأرض، إلا أن هذا الاستخلاف ليس مطلقاً، بل محدداً في ظل سلوكه، ضمن إطار القواعد التي تحددها الشريعة والدولة الإسلامية أو الخليفة أو الإمام ونورد الآيات الكريمة الآتية التي توضح الاستخلاف:

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً...) <sup>(١٦)</sup>.

(آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير)<sup>(٢٥)</sup>.

(ها أنتم هولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله العني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)<sup>(٢٦)</sup>.  
(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح)<sup>(٢٧)</sup>.

(فإن تولوا فقد أبلعكم ما أرسلت به إليكم ويستحلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ)<sup>(٢٨)</sup>.

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء ولا تعثوا في الأرض مفسدين)<sup>(٢٩)</sup>.

إن قانون الاستخلاف من شأنه أن أطر العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام، من دون أن يسمح في حالة الالتزام بمبادئ الشريعة الإسلامية، من ظهور للصراعات المجتمعية، وكذلك صطه لحقوق الملكية بما يخدم الفرد والمجتمع.

## المبحث الثاني

### المنظور الإسلامي للمشكلة الاقتصادية والاستغلال

#### أولاً: المشكلة الاقتصادية

من الحقائق التي تواجهها المجتمعات الإنسانية كافة، بغض النظر عن مرحلة التطور الاقتصادي التي وصلت إليها ونوعية النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المطبقة فيها، هو الإيفاء المستمر بالحاجات الأساسية لسكانها على مر التاريخ، فاتخذ شكل صراع متصل بين الإنسان والطبيعة المحيطة به، وصولاً إلى حل ما اصطلح على تسميته (بالمشكلة الاقتصادية) (Economic problem)، والتي يتفق الاقتصاديون على أن علم الاقتصاد برمته يدور حول هذه المشكلة، التي تجد أصر وجودها في محاولة الفرد أو المجتمع إشباع حاجاته غير المحدودة، في الوقت الذي لا يملك فيه سوى موارد محدودة، وتزداد المشكلة وتستمر طقاً لتزايد حاجات الإنسان وتجدها كلما ارتقى وتطور.

لذلك تصح الندرة (Scarcity) هي المحرك لشأء المشكلة الاقتصادية، وتتوقف على العلاقة بين الموارد والحاجات لا على كمياتها المطلقة، أي أنها نسبية في ظهورها وفي مواجهتها في مجتمع إلى آخر، إلا أنها تكون أكثر حدة في المجتمعات المتخلفة إذا ما قوربت بالبلدان الصناعية المتقدمة. ويجمع الكثير من الباحثين على أن مسببات المشكلة ومصدرها ترتكز على العناصر الآتية<sup>١</sup>؛

الحاجات غير المحدودة للإنسان.

الموارد المحدودة أو الندرة النسبية للمورد على الأفراد.

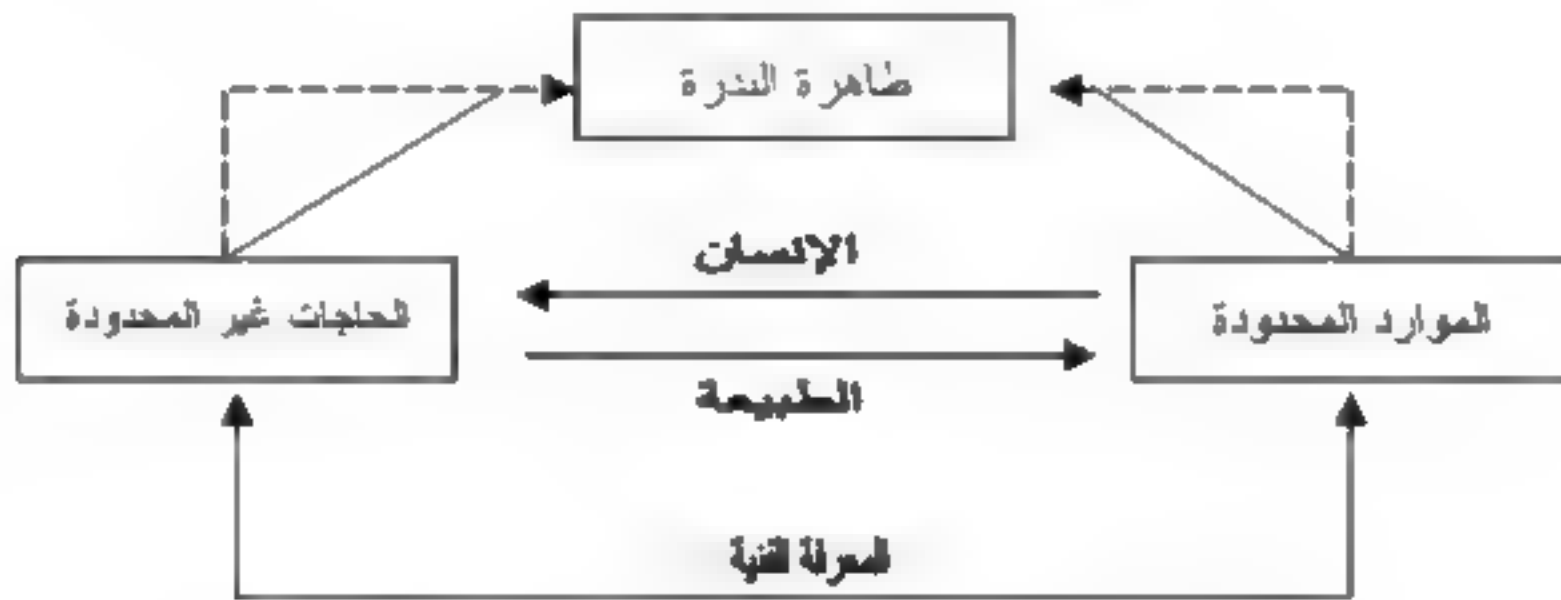
صلاحية هذه الموارد للاستخدامات المتعددة.

التفاوت الطبيعي في توزيع الموارد على الأفراد.

صما تقدم يمكن أن نخلص إلى أن المشكلة الاقتصادية في كل مجتمع من المجتمعات، تعزى لندرة الموارد المتاحة بالمقابلة مع الحاجات الإنسانية غير

المحدودة، وأن العوامل المسببة لها تترند إلى الطبيعة وإلى الإنسان، ولذلك فمن الأهمية مكان التحكم في هذه المسببات، من خلال الاعتناء بتطوير المعرفة الفنية لدعم قدرة المجتمع وتمكيته من إشباع حاجات أفرادِهِ.

يتضح لنا مدى أهمية دراسة الطبيعة والإنسان والمعرفة الفنية في صعيد واحد ومترابط للمشكلة، تبعاً لصيغة الترابط الوثيق فيما بينها وكما في الشكل الآتي<sup>(٢٠)</sup>:



شكل-١ يبين كيفية العلاقة بين الإنسان والمشكلة الاقتصادية

لهذا يصبح إلزاماً بيان وجهة نظر الأفكار الوضعية (الرأسمالية والاشتراكية)، إزاء المشكلة الاقتصادية وسبب معالجتها على الرغم من اختلافها في تشخيص أسبابها، إلا أن المشكلة بقيت قائمة لتمثل حاجساً مستمراً للبشرية بانتظار حلها، ولنتعرف معالجة الفكر الاقتصادي الإسلامي وتمييزه عن الأفكار الوضعية.

#### ١- المنظور الرأسمالي

ويتمثل في إسهامات علماء الاقتصاد الذين أيدوا فكرة الندرة/الحاجات غير المحدودة، وفرض التعطيم كمسلمات مطلقة تنسم بالعمومية، ويرى هؤلاء أن حل المشكلة يتمثل بالحرية الاقتصادية بمعناها الواسع، التي هي المحرك الأساسي لتشغيل النظام الاقتصادي الرأسمالي، مما يؤدي إلى محاولة تحديد العلاقة بين

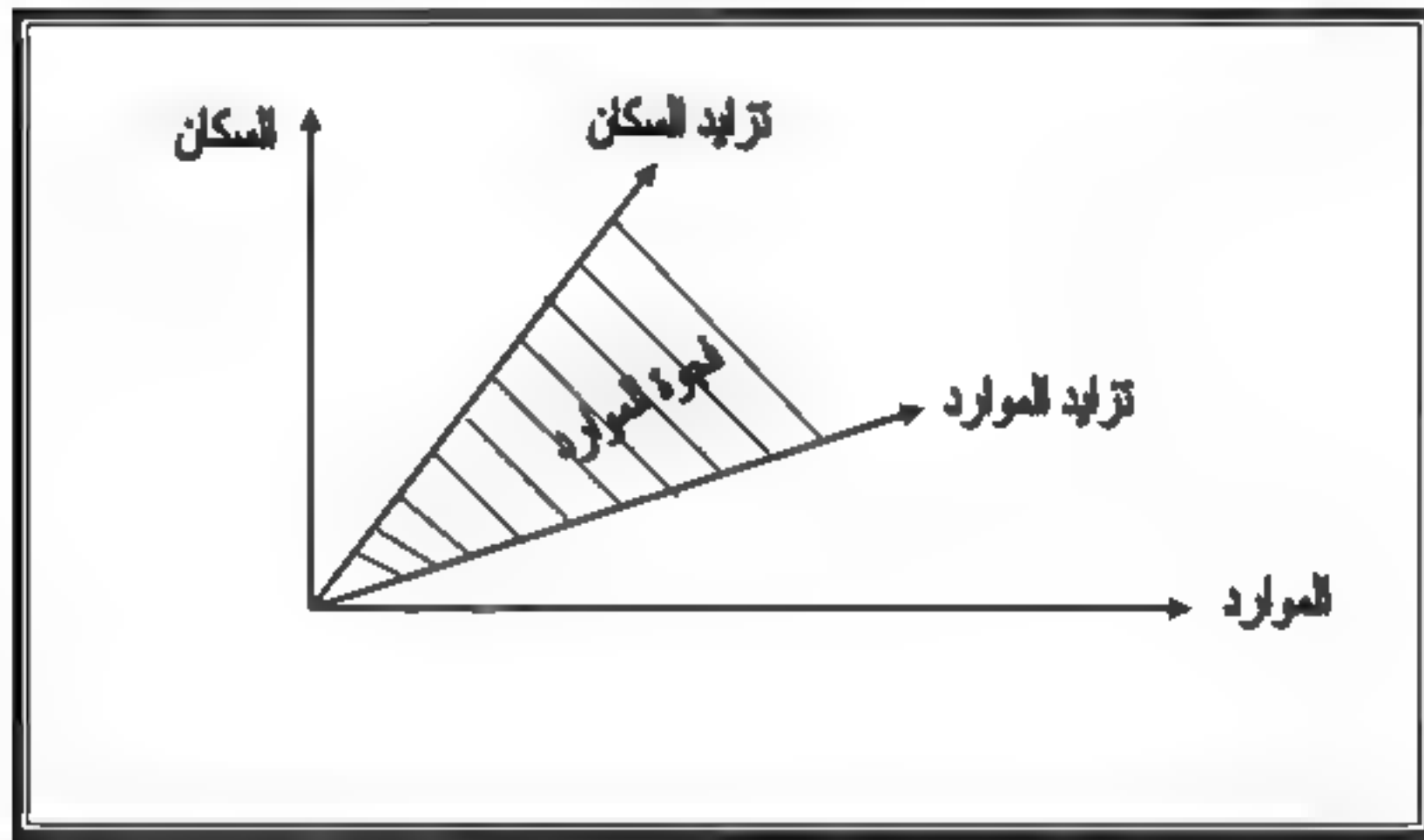
المنافع المتأتية من الاستهلاك، عبر اختيار السلع والخدمات اللازمة لإشباع قدر معين من حاجات الفرد، بما يتناسب مع إمكانيات الفرد المادية (الدخل)، هذا من شأنه أن يوجه إنتاج المجتمع نحو السلع والخدمات المراد توفيرها.

وعلى وفق هذا فإن حمار الأسعار (آلية العرض والطلب) سيكون قادراً على تصييط أوضاع الاقتصاد القومي، من خلال عملية تخصيص الموارد البادرة نحو الاستخدامات المختلفة، من أجل إشباع أكبر قدر ممكن من الحاجات بأقل تكلفة ممكنة، من وجهة نظر المنتج، في حين سيتحقق أفضل إشباع بأقل إنفاق ممكن للمستهلك، في ظل وجود مساحة واسعة للاختيارات (Choices) من جانب الأفراد و (Opportunity cost) للمتجبر فالموارد المتاحة طالما هي تتسم بالندرة النسبية فعندئذ يمكن توظيفها في الاستخدامات البديلة وصولاً إلى التخصيص الأمثل<sup>(٢١)</sup>.

من ناحية أخرى فإن أساس المشكلة كما تراه هذه الفلسفة، هو في التزايد السكاني الكبير بشكل يفوق تزايد الموارد، وهذا ما يعكسه الشكل الآتي والذي تم بناؤه وفق أطروحات (مالثس) في السكان، والتي أكد فيها أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية، بينما تتزايد الموارد بمتوالية عددية، لذلك وحسب على البشرية أن تقبل الحروب والأوبئة والفيضانات<sup>(٢٢)</sup>، لأن من شأنها أن تقلل حجم السكان، وأن تقبل جميعاً ما يسمى بقارب النجاة حفاظاً على الجنس البشري، اعتماداً على أخلاقيات جديدة هي أخلاقية العقل المجردة، لندع الناس يموتون من أجل النقاء النهائي للبشر.

ومن هذا تحاول الفلسفة الرأسمالية معالجة المشكلة الاقتصادية من جانب الضغط على الحاحات، بغية تحفيز حجم الطلب الكلي، حتى يمكن إقامة التوازن المزعوم بين العرض الكلي للموارد المتاحة مع حجم مناسب للطلب الكلي قائم على وجود إنساني محدد وموصوف، وبذلك تمرل مسألة الندرة إلى مسلمة حقيقية (حتمية)، وليست خرافة، متناسية أن موضوع الندرة أمر مصطعب تؤكد السلوكيات الرأسمالية بمطها القديم والمعاصر، وعدم صحتها مستبدن في ذلك على أن الندرة

من صنع البشر<sup>(٣)</sup>، وأنها نتاج لقرارات الاقتصادات الرأسمالية وشركاتها الاحتكارية، ووفقاً لمناطق النظرية الاقتصادية العربية نفسها في الحفاظ على مستويات الأرباح في أسواق المنافسة الباقية. لهذا فإن الفكر الاقتصادي الرأسمالي يقر بوجود المشكلة الاقتصادية، ويستبعد إمكانية حلها في ظروف التطور العلمي والتكنولوجي الهائل، ويبقى أمياً على أطروحاته الأصلية في المعالجة عن طريق خفض الحجم السكاني.



شكل ٢- يوضح التصور الرأسمالي للمشكلة الاقتصادية

## ٢- المنظور الاشتراكي الماركسي

تطلق النظرية الاشتراكية (الماركسية) في نظرتها لطبيعة الأوضاع الاقتصادية الناشئة في كنف نمط الإنتاج الرأسمالي، وإلى المشكلة الاقتصادية ضمناً، من فكرة الصراع والتناقض، فالمجتمع يخضع تبعاً لذلك إلى انقسام حاد بين مالكي وسائل الإنتاج (الرأسماليين) وبين جماهير العمال (البروليتاريين)، ومن يوسم هذا الصراع هو الاستغلال والاستلاب والاضطرار الاقتصادي، وعليه فإن المشكلة

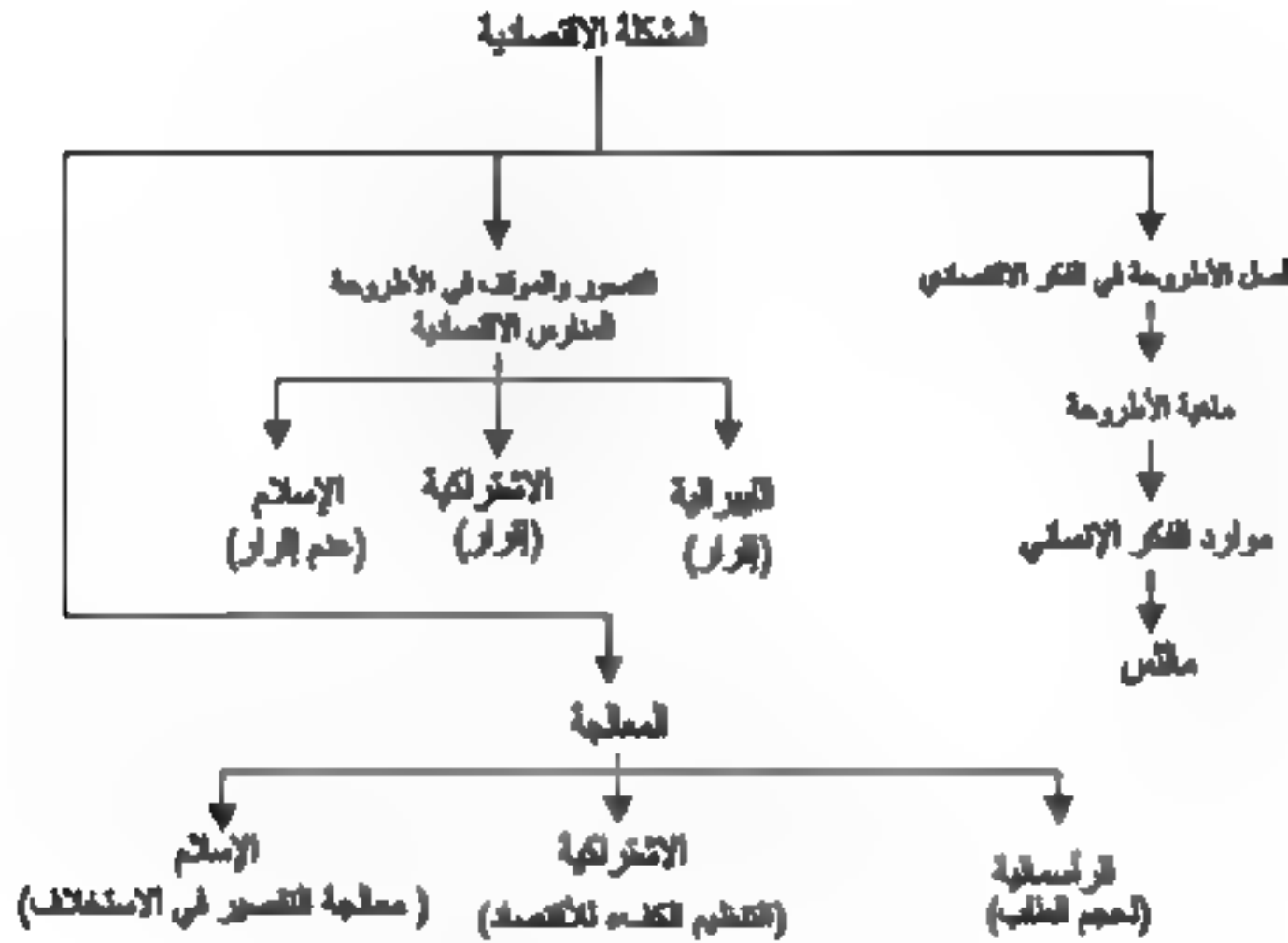
تنحصر بإلغاء هذا الفرز الطبقي وتحويل الملكية الخاصة المستعلة إلى ملكية جماعية<sup>(٣٤)</sup>.

إن ظهور المشكلة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية، هو بسبب طبيعة النظام الرأسمالي وتناقضاته النيوية، وأبرزها الساقض ما بين قابليته الكبيرة على الإنتاج وضعفه في الاستهلاك، والناتج عن ضعف الدحول المورعة نسب فائض القيمة المستترف منها لصالح طبقة ملاك وسائل الإنتاج. لذلك ترى هذه النظرية في أن مصلحة المجتمع تتلخص في وضع الملكية الجماعية في المقام الأول، وعدّ الملكية العامة لوسائل الإنتاج تستهدف إشباع حاجات المجتمع، وليس تحقيق أقصى ربح ممكن للمنتج الفردي.

لذلك فإن النظام الاقتصادي الذي تسعى الاشتراكية إلى إنجازه، يتمثل بملكية جماعية لوسائل الإنتاج لإدارة الدولة للحهاز الاقتصادي عبر تخطيط الإنتاج والاستثمار تخطيطاً شاملاً ومركباً، من أجل حل المشكلة الاقتصادية للمجتمع، هذا يمثل تحولاً كيفياً (نوعياً) لنمط علاقات الإنتاج المتخلفة عن تطور قوى الإنتاج، وبذلك تحتفي حالة التناقض القائمة في نمط الإنتاج الرأسمالي<sup>(٣٥)</sup>.

لقد تركّز حل الاهتمام الماركسي على مسألة التوزيع، والتي شكلت أحد أهم مشكلات النظام الرأسمالي، وهو ما أشار إليه ريكاردو في بحثه للقوانين التي تتحكم بتوزيع الدخل القومي على طبقات المجتمع، والتي تعد تعبيراً عن العلاقات الاجتماعية التي تسود بين الطبقات الاجتماعية الرئيسة، مبيهاً غياب الانسجام الطبقي في المجتمعات الرأسمالية، الذي كان يعتقد به آدم سميث في كتابه (نظرية المشاعر الأخلاقية وثرثرة الأمم)<sup>(٣٦)</sup>.

هذا كان الأساس لتركيز الماركسية على مسألة التوزيع كمدخل مهم لمعالجة المشكلة الاقتصادية، بينما طور أنباعه ومشيعيه بظم التخطيط المركزي لإدارة الاقتصاد القومي، في إطار توفير الحاجات الأساسية المتنامية للأفراد<sup>(٣٧)</sup>.



شكل-٣ مخطط لرؤية المدارس المختلفة للمشكلة الاقتصادية

### ٣- المنظور الإسلامي

إذا كانت المشكلة الاقتصادية هي مشكلة بدرجة أساساً في النظام الرأسمالي، وهي مشكلة تناقص بين شكل الإنتاج وعلاقات التوزيع في النظام الاشتراكي، فالإسلام لا يقر المشكلة الاقتصادية بطلاً لعدم إقراره بمسألة القدرة، اعتماداً على قول الله سبحانه وتعالى (وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم)<sup>٣٨</sup>، وقد فسرها الألوسي بقوله (لا تطبقوا حصرها ولو إجمالاً فأنها غير متناهية).

مما يعني أن مصادر العيش التي بثها الله في الكون هي من الوفرة، بحيث تكون كافية لإشباع حاجات الإنسان الأساسية والمعتدلة، ويقول سبحانه وتعالى (إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر..) وترد كلمة (يقدر) لتعني من الناحية اللغوية (التوازن)، كذلك في الآية المباركة (جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر



أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين)<sup>٣٨</sup>، والتي فسرهما الشوكاني (أي جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المرافق للعباد).

هذه الآيات توضح أن الله جل وعلا قد طمأن المسلم على رزقه، فلا ندرة إذن يخشى منها المسلم والإنسان بشكل عام، سواء كان هذا الإنسان فرداً محدداً أو كان المجتمع الإنساني كله، ولقد كفل الله الرزق لكل الناس سواء المطيع منهم أو العاصي إعمالاً لقوله تعالى (ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير)<sup>٣٩</sup>.

من ذلك كله فإن الإسلام لا يقر أن ثمة ندرة، ولكن هناك اختصاراً بها من ناحية، وعقاباً لعصاة من ناحية أخرى، ومع كماله الرزق للإنسان فإن الله سبحانه وتعالى يحث المسلم على العمل وتحسين معيشته، وفتح أمامه أبواب الأرض كلها، فلا يلتصق بمكان يعز فيه رزقه، فيوسع من دائرة الموارد ويأمر بمتابعة الرزق حيثما وجد، كما في قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض دلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)<sup>٤٠</sup>.

فثمة مقابلة إسلامية تفسر أمرين معاً: لا ندرة في الإسلام ولكن هناك اختيار وابتلاء<sup>٤١</sup>، ومعنى ذلك أن الإسلام لا يرى أن ثمة ندرة موارد بالمعنى الاقتصادي، وإذا ما ظهرت مشكلة اقتصادية، فهذا يعود إما إلى قلة استخدام الموارد والمرتبطة بإحجام الإنسان لسبب أو لآخر عن استخدامها واستثمارها، أو سوء استخدام الموارد عندما يتم توجيهها حيث تشبع القلة المحتكرة، لذلك فإن الإسلام يعدّ مرد ظهور المشكلة الاقتصادية إلى الإنسان وتقصيره، سواء من حيث الإنتاج أو من حيث التوزيع فالمشكلة الاقتصادية-مشكلة الفقر- في نظر الإسلام، هي مشكلة إهمال الإنسان وتقصيره في استثمار الموارد وتكاسله عن العمل، بحباب المشكلة ظلم الإنسان لأبيه الإنسان من خلال سوء توزيع الإنتاج.

وهكذا فمثلما اختلف الإسلام في تحديد مسببات المشكلة الاقتصادية، كان مختلفاً عن النظم الوصعية في إيجاد الحلول لها. وكذلك الحال في الأديان (اليهودية

والمسيحية)، والتي أوضح روجيه غارودي أن المسيحية عموماً تركز على الجوانب الروحية على حساب المجتمع والدولة ونظامها، فراح الكنيسة في العصور الوسطى اجتهدوا في استنباط قانون كنسي، يشتمل على مجموعة من القواعد الاقتصادية التي تدور كلها حول معاني أخلاقية وروحية. لذلك فمن الممكن القول بأنها لا المسيحية ولا اليهودية كدين تقدم نظرية اقتصادية أو نظاماً اجتماعياً متكاملًا، وأن معظم الاحتجاجات التي قدمت، كانت تستهدف أما الانتصار أو تأكيد أفكار معينة أو محاربتها، خدمة لأغراض محددة لا علاقة لها بالدين كعقيدة أصلاً، كالقول بمبدأ الحق الإلهي والتفويض الإلهي وحدود سلطة الملك.

بيما حاول الإسلام أن يعطي تصوراً عملياً لأهم ركائز المشكلة الاقتصادية، التي تزايدت حدتها في ظل البطم الوضعية العربية والقائمة على دعامين أساسيتين، بحسب وجهة نظر روجيه غارودي<sup>(١٣)</sup>:

- الإسراف

- الإفقار المادي والمعنوي للأغلبية الساحقة من البشر في ظل نظام (رأسمالي)، يؤدي إلى عبودية الإنسان كمنتج ومستهلك لاحتكارات رؤوس الأموال.

لقد تصدى الإسلام لهذه المشكلة عبر نظرية اقتصادية متكاملة، لا تقوم على معطيات اقتصادية فحسب، ولكنها تشكل مزيجاً من المحددات الاقتصادية والاجتماعية والدينية لتمثل ساءاً نظرياً متكاملًا.

ثانياً: الاستخلاف (الملكية)

١- مفهوم الاستخلاف ومضمونه

لم تكن الملكية على مر التاريخ ولدى مختلف الشعوب واحدة، باستثناء ما جرى تسميته (المشاعية البدائية)، كما أن الملكية الخاصة لم تكن معروفة لدى بني

إسرائيل والساسانيين في أول الأمر، كما أن مصر الفرعونية لم تعرفها، كذلك وتشير المعلومات المتوفرة (المجلد الثاني سابقاً)، أن الملكية ظهرت متأخرة عند البابليين.

وعند العرب قبل الإسلام كانت الملكية للقبيلة هي السائدة، وذلك فيما يتعلق بمصادر الثروة العامة كالمياه والمراعي...الحج، وأن الملكية الخاصة كانت قاصرة على موضوعات الاستملاك الشخصي من ملبس ومسكن. فإذا ما زادت عن ذلك فلا تكاد تتجاوز الأدوات الميدانية للصيد والقتال.

يعد الإسلام ملكية وسائل الإنتاج بأشكالها العينية (أرض، ثروات وأدوات) والبقدية (رأس المال) لله تعالى، ويعد حائزها من الناس فرداً كان أو مجموعة أو دولة يداً مستخلقة لا يداً مالكة وما دام الإنسان فرداً أو مجموعة ليس بالمالك الأصيل، وإما هو مستحلف من المالك الأصيل/ الله سبحانه وتعالى أو الدولة الإسلامية<sup>(٤٤)</sup>.

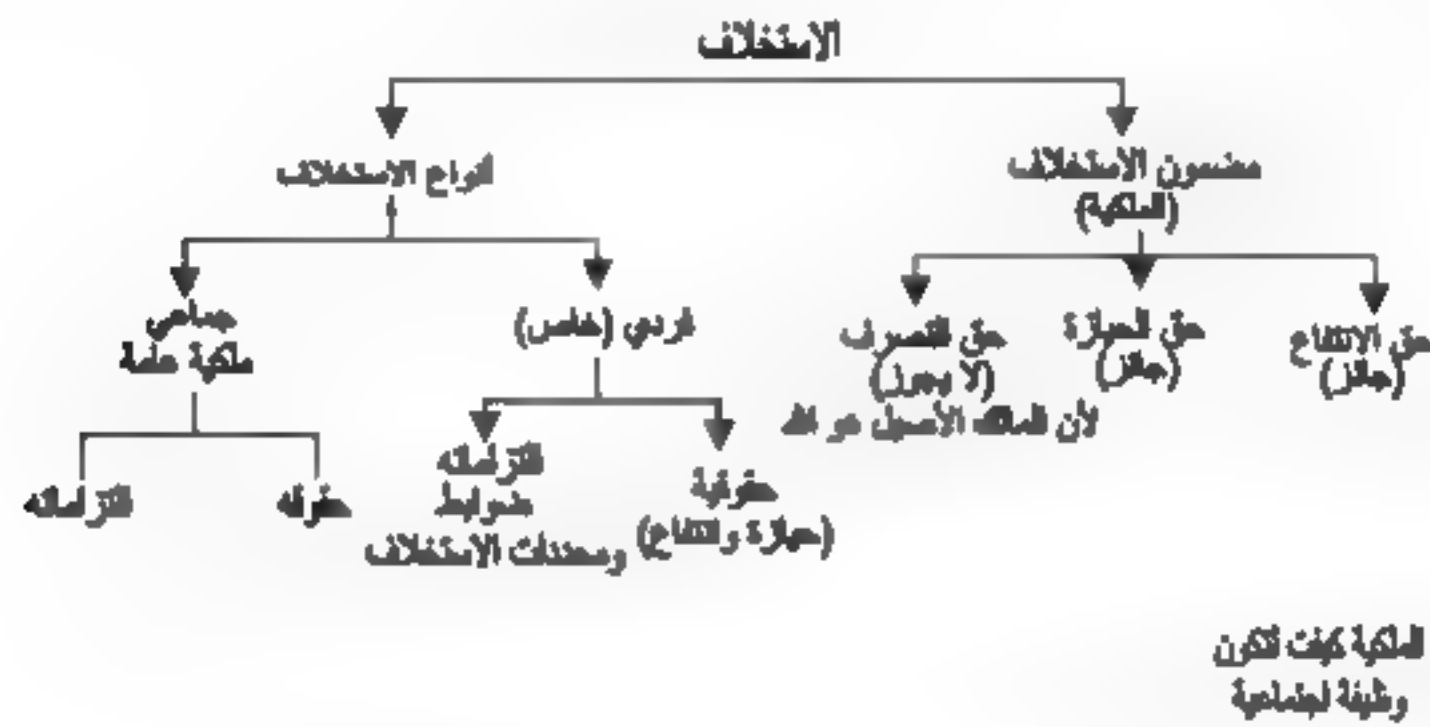
فالملكية هي وظيفة اجتماعية (مهمة استخلافية) تباط بالفرء أو المجموعة بحكم شرعي من الحليفة أو الإمام أو أنها ملكية كيفت كوظيفة اجتماعية، ومن ثم فمن حق المالك الأصيل وهو الله سبحانه وتعالى، أو الدولة الإسلامية أن يحدد لحليفته الإنسان مدى هذه الوظيفة وحدودها تحصيلاً وإيفاقاً أي إنتاجاً وإدارة وتوزيعاً<sup>(٤٥)</sup>، كما من حقه (الدولة) أن تحدد أسلوب هذا التحصيل (الإنتاج) والإدارة والإنفاق (التوزيع).

أي بتعبير آخر أن المستخلف فرداً أو جماعة عندما يمارس مهمة الانتفاع بوسائل الثروة والإنتاج، فإما يتم ذلك بتفويض من المالك الأصيل لها، وأن صلاحية ممارسة مهمة الاستخلاف بثمارها وإنتاجها لا تتعدى الحدود المرسومة في الشريعة.

إن تملك هذه الوظيفة الاستخلافية أو الملكية المكيفة، تتطلب أن يعي المستخلف ويستوعب أنعادهها الاقتصادية والقانونية، ولا يدحل في محالفة المالك

الأصيل أو خليفته وفقاً للشريعة، وإن حصل ذلك فقد يؤدي إلى تجريده مما هو مستخلف عيه<sup>(٤٦)</sup> وهذا الاستخلاف يحدد ما للمستخلف من حقوق، فهو له الحق في الانتفاع بنتج الشيء أو المفعة، وله حق الحيازة، ولكن لا يمكن له التصرف بالشيء، كما أن ممارسته (للملكية) قد تنغى وتسحب منه وتناط بغيره، إذا ما تجاوز ضوابط الاستخلاف وخرق محدداته.

وبين الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في أقصر عبارة وأجمعها، حقيقة أن الإنسان لم يستخلف ليفعل ما يشاء من دون قيد أو شرط، وليترك ليعمل دون حسب أو رقيب وإنما استعمره الله سبحانه وتعالى (المالك الأصيل) في الأرض واستخلفه عليها، إذا ما ظل سلوكه ضمن إطار القواعد التي تحددها الدولة الإسلامية، فيقول عليه الصلاة والسلام (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)<sup>(٤٧)</sup>.



شكل - ٤ مخطط لبيان مضمون الاستخلاف في الاقتصاد الإسلامي

## ٢- ضوابط ومحددات الاستخلاف

لقد كان لتكييف الإسلام لموضوع الاستخلاف، من أنها وظيفة اجتماعية أثره في أن صار للدولة بإزائها سلطات إضافية إلى التزامها في ذلك، بحيث تصل إلى

حق الدولة (كممثلة للمجتمع)، حق التدخل في موضوع الاستخلاف نفسه وتقرير مصيره، ويمكن للدولة أن تتدخل في مهمة الاستخلاف (الملكية الإسلامية)، وأن توقفها أي أن تحرد المستخلف من ملكيته المكيفة).

أ- في مجال التعطيل عن الاستثمار ولاسيما الأرض الموات (الأرض لم يسبق استصلاحها واستثمارها)، فإن تعطيل المستخلف الأرض بإهمال منه، يؤدي إلى استرحاها منه مثال ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أقطع (بلال بن حارث) جميع أرض العقيق، ولكنه لم يعمر شيئاً منها، فلما كان زمن الحليفة عمر قال لبلال (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، لم يقطعك لتحجزه عن الناس، إنما أقطعك لتعمل، فحد منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي<sup>٤٨</sup>.

ب- سواء الاستخدام وأهمها:

(أولاً) حالة الإسراف لأن الشرع الإسلامي يعد ذلك سفهاً، والأصل في ذلك الآية (ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياساً)<sup>٤٩</sup>.

(ثانياً) السلوك الاجتماعي للمستخلف، عندما ربط الإسلام بين السلوك الاجتماعي والتصرف الاقتصادي للمستخلف (ولا غبن ولا ضرر ولا غش ولا خداع) الأصل في ذلك الحديث النبوي القائل (الدين المعاملة)<sup>٥٠</sup>.

(ثالثاً) تركز الثروة في حالة تركز الثروة بأيدي قلة قد يدفع الدولة للتدخل، كما حدث وأن قامت الدولة الإسلامية بانتزاع الأراضي في الأندلس من كبار المالكين، ووزعتها على الفلاحين مما كانوا لا يملكون أيضاً.

ت- المصلحة العامة: يمكن نزع الملكية إذا اقتضت ذلك مصلحة الجماعة، وعندما تكون مصدر ضرر للأفراد والمجتمع، ومن الشواهد على وحبوب نزع الملكية الفردية (الاستخلاف الفردي)، ما حدث لرجل اسمه (سمرة بن جندب) في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان له نحل في حائط (بستان) رجل من الأنصار، فكان سمرة يدخل عليه هو وأهله فيؤديه، فشكا الأنصاري ذلك إلى رسول

الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لسمرة بعه، فأبي، قال فأقلعه، فأبي، قال: هبه ولك مثلها في الحة، فأبي، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت مصر، وقال للأصاري أذهب فأقلع بخله، وهو الانتزاع للملكية حراً عن صاحبها، إذا كانت مصدر صرر للآخرين، وبهذا يكون (التأميم) قد وقع في الإسلام تشريعاً في الوقف، وعملاً كما في (الحمى)، ووقع نزاع الملكية عن صاحبها من الرسول (صلى الله عليه وسلم) قضاء، كما في قصة سمرة بن جندب ويعتقد أن التأميم يصبح واجباً في الحالات التي تقتضيها المصلحة العامة<sup>(٥٧)</sup> وهكذا يكون للمستخلف حق الانتفاع بنتاج الشيء أو المصلحة، وقد يكون له فيها حق الحيارة مقابل التزامات وصوابط قانونية وإدارية ومالية (مصلحة بالشرعية الإسلامية)، ومن حق الدولة أن تجرد المستخلف مما هو مستخلف عليه (بقوة الشرعية نفسها)<sup>(٥٨)</sup>.

إن الترام المستخلف بالأطر المحددة لوظيفته الاجتماعية (الملكية المكيفة) فرداً كان أو جماعة يعود إلى أمرين<sup>(٥٩)</sup>:

الأول: طوعي صادر من ذات الفرد المسلم أو المجموعة المسلمة نتيجة لكون أداء مهام تلك الوظيفة ضمن ضوابطها ومحدداتها، وهو جزء من إيمانه وعقيدته الدينية.

الأخر: جبري تمشياً مع حق الإمام أو الدولة الإسلامية في الإشراف على النشاط، وفي التدحر لمصلحة الجماعة، بما في ذلك حق تجريد المستخلف من وظيفته الاجتماعية (نزع مكيته) كلاً أو بعضاً، إذا ما رأى الإمام أن المستخلف قد انحرف عن الضوابط المحددة لاستخلافه.

### ٣- أشكال الاستخلاف

- أ- استخلاف فردي يتولاه الفرد في صورة (ملكية حق انتفاع فردي).
- ب- استخلاف جماعة تتولاه مجموعة من الأشخاص في صورة (ملكية انتفاع تمارس جماعة من الناس بشكل مشترك).

ج- استخلاف جماعي تتولاه الدولة في صورة (ملكية عامة أو بالأحرى اجتماعية بوصف الدولة هي المسؤولة عن مصلحة أفراد المجتمع جميعاً).

#### الاستخلاف الفردي

إذا ما قطع شخص أرضاً بشرط عمارتها ضمن الضوابط المحددات فيكون له حق حيازتها وحق الانتفاع بها (من أحياناً أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين)<sup>(٥٤)</sup>. ويمكن تفويض أو توكيل شخص آخر عنه لإحياء هذه الأرض، أي ممارسة النشاط الاقتصادي فيها كأمر لا بد منه، وإلا فإن الاستخلاف يعد لاغياً بيد أن إعطاء الحق للانتفاع والحيارة، قد يتحول إلى نقيضه إذا ما أحل مستحلف بالالتزامات والضوابط القانونية والإدارية المخصوص عليها في الشريعة.

#### استخلاف الجماعة الخاص

قد يقوم شحسان أو مجموعة من الأشخاص بنشاط اقتصادي في صورة استثمار مشترك في المال، أو في المال والجهد فقط حسب طبيعة النشاط الاقتصادي، ويطرح المذهب الاقتصادي الإسلامي بدائل محددة للشركات الإنتاجية أو التجارية، من مثل شركة المصاربة أو العس أو الأبدان

#### الاستخلاف العام

إن تتولى الدولة مهمة القيام الاقتصادية بكل جوانبها المختلفة ممارسة ملكية وسائل الإنتاج وإدارة العمليات الاقتصادية وتوزيع الناتج المحقق، ولما كانت وسائل الإنتاج والثروة المادية هي في الأصل لله، ولما كانت الدولة هي الموط بها تنفيذ تشريعاته، فلها أن تعهد إلى الأفراد أي مجال من مجالات النشاط الاقتصادي، كما لها أن تبقى ما تراه في عهدها هي، إن محالات الملكية العامة في الإسلام هي

الكلأ والنار والماء والملح (مصادر الثروة الطبيعية الطاقة) والسبب في ذلك يعود إلى:

(أولاً) أن الاستثمار في مجالات كبيرة كهذه يتجاوز في الغالب طاقات ومقدرة الأفراد، بالإضافة إلى ضخامة الاستثمارات المطلوبة.

(ثانياً) إن إدارة المشاريع أكبر من سلطان الأفراد، حيث أن غالبية القرارات الإدارية في محالات الطاقة مثلاً تتطلب دعماً وسلطاناً حكوميين.

(ثالثاً) إن منتهات هذه المجالات لها صفة المنافع العامة، أي أنها تهتم أفراد المجتمع مما يجعل الدولة - ممثلة المجتمع - مؤهلة أكثر من الأفراد بإدارتها والسيطرة عليها، لضمان استفادة الجميع منها، ودفعاً للأصرار لو ظلت هذه المنافع تحت سيطرة رؤوس الأموال خاصة.



### المبحث الثالث

#### النظريات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام

ثمة إجماع بين المفكرين والعلماء على أن القوانين الاقتصادية هي نوع من القوانين الاجتماعية\*\* يجري تشكيها في طر الثقافة الكلية للمجتمع، بحيث لا يمكن دراستها أو فهمها إلا في ظل الدراسة الكلية والفهم الكامل للجوانب الاجتماعية الأخرى، وأنها نتاج لروح المجتمع. ويذهب ماركس أبعد من ذلك إلى أن ثقافة المجتمع وروحه وتقاليده هي التي تحدد قوانينه، ومن ثم إذا اختلفت هذه الثقافة فلا بد أن تختلف القوانين.

ومن هنا تحاول دراسة النظام الاقتصادي الإسلامي وبيان الهيكل النظري الذي احتكمت إليه المعاملات الإسلامية في شتى مجالات الحياة وبصمها الأنشطة الاقتصادية بغية توصيف الأطر العامة للنظريات الاقتصادية الإسلامية. لذلك سنتناولها على وفق الآتي:

#### أولاً: نظرية الأسعار

تحتكم نظرية الأسعار في الإسلام إلى المعيار نفسه التي تحتكم إليه ظروف السوق (ظروف العرض والطلب بتعبير النظرية الاقتصادية المعاصرة)، عند تحديد الأسعار فاستخدموا تعبير (قيمة المثل) وسعر المثل، وهذه هي فكرة الثمن نفسها في الاقتصاد الوضعي.

إن المتابعة المتعمقة لتقنيات السلوك الاقتصادي الإسلامي والتي وردت في شكل آيات قرآنية وأحاديث نوية، بالإضافة إلى تفسيرات ودراسات المفكرين المسلمين تكشف عن هيكل نظرية اقتصادية إسلامية مماثلة، لما هو قائم في الاقتصاد المعاصر، ولكنها سبقت النظريات الحالية بزمن بعيد، ولا نعلم هنا إلى إظهار الفروق بينها وبين النظريات الحالية.

## ١ مبادئ نظرية الأسعار الإسلامية

أ- تحتكم نظرية الأسعار في الإسلام إلى ظروف السوق (العرض والطلب حالياً) وتحمل المتصنعات الفكرية والمقدمات المنطقية نفسها التي توردها النظرية الاقتصادية المعاصرة.

ب- أعطت النظرية الاقتصادية الإسلامية للسعر السائد في السوق صفة الإلزام في المعاملات، بحيث منعت التجاوز عنه بالرفع أو حتى بالحفض، وتكفلت بحمايته وألزمت به أولئك الذين يحاولون التدخل والتأثير فيه بطرق غير مشروعة، من مثل الاحتكار والكارتلات وغيرها، بما يضمن قيام سوق منافسة كاملة حقيقية.

ت- أباحَت النظرية الاقتصادية عند الضرورة للدولة التدخل بالتسعير للسلع الضرورية<sup>(٥٥)</sup>.

لقد حرص الإسلام منذ بدأ يستقر بالمدينة المنورة، على تحقيق هذه الظروف فما يكاد يفرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بناء مسجده، حتى بدأ البحث عن مكان للسوق، وكان سوق المدينة يقام في حي بني قبيقاع، وهم من اليهود قد جلبت عليهم طبيعتهم، بحيث كانوا يفرضون خراجاً ويبيعون في أماكن من السوق للناعية، وكانت لهم السيادة على السوق في المدينة. لذا فقد مضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى مكان فسيح صالح حر وضرب فيه برجله قائلاً (هذا سوقكم فلا ينتقض ولا يضرب عليه خراج)، وقد كفل الإسلام بذلك حرية السوق وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع على السواء، ومقاومة كل سلطان أو مظهر يراد به التأثير أو الاستئثار بأي امتياز، وإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حرص على توفير الظروف الموضوعية لكفالة أعمال ظروف العرض والطلب في تحديد الأسعار والتأمين، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على كماله عدم تدخل أية قوى في السوق وتأمين السلع سوى ظروف السوق ذاتها

ويقول أبو يوسف، حدثني محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن الحكم بن عتبة عن رجل حدثه أن السعر غلا في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وفي المعنى ذاته، قال أبو يوسف: وحدثني ثابت أبو حمزة اليماني عن سالم بن أبي الجعد قال سمعته يقول: قال الناس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن السعر قد علا فسعر لنا سعراً فقال: إن السعر علاؤه ورخصه بيد الله وأني أريد أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة يطلبني بها<sup>(٤٦)</sup>.

## ٢- محددات الأسعار

من هذا نلاحظ أن الإسلام ترك الأثمان لظروف السوق، وأردف ذلك بمواجهة الظروف التي تميل بها حرية السوق لصالح القلة بكثير من القواعد، التي تكفل سلامة أعمال ظروف السوق من دون تدخل يجعلها في خدمة أحد، فرفض الاحتكار تماماً، بل وحرم الاحتكار ولعن المحتكر، ويقول الرسول في هذا الصدد الحالب مرروق والمحتكر ملعون، ويقول (صلى الله عليه وسلم) (أبشروا فإن الجالب في سوقاً كالمجاهد في سبيل الله، وأن المحتكر في سوقاً كالملاحد في كتاب الله، ولقوله (صلى الله عليه وسلم)، من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله وبرئ الله منه، ولقوله (صلى الله عليه وسلم) أيضاً (يحشر العاكرون وقتلة الأنفس في درجة واحدة)<sup>(٤٧)</sup>.

ولاشك في أن محاربة الإسلام للاحتكار وفقاً لهذه الأحاديث ضد أولئك الذين يعملون على رفع الأسعار عن طريق خفض العرض، إزاء الطلب المتزايد أو الثابت، ويحصلون بذلك على أرباح خيالية على حساب المستهلك، والإسلام بذلك يحرم أكبر مسببات ارتفاع الأسعار ولجميع السلع، سواء أكانت ضرورية أم كمالية، فالاحتكار محرم لجميع السلع. فقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مسألة الحصول على الأسعار الاحتكارية من خلال خفض عرض السلعة واضح، فيقول (من احتكر حكره يريد أن يعلى بها على المسلمين فهو خاطئ)، وبالمقابل فإن الإسلام يرفض أن يبيع بائع، سلعته بسعر أقل من السعر السائد (ثم المثل سعر

التوازن في السوق المعاصرة)، لأن في هذا تأثيراً على البائعين الآخرين، ويأتي هذا الرفض متطابقاً مع رفض الاحتكار، لأن خفض السعر يقود في أسواق المنافسة التامة إلى ما يسمى بحرب الأسعار (Ware price)، والتي من شأنها أن تصفي الأسواق لصالح بعض المنتجين ويتولد نتيجة ذلك الاحتكار.

ومن القواعد التي وضعها الإسلام على عمليات البيع والشراء، هو كفالة سلامة عملية البيع وبقاءها من الغش والمحاشة وحرم الإسلام المحافلة، فهي الحائز الأول عمد الإسلام إلى وضع ضوابط تربط بين السعر السائد وحالة السلعة، بحيث منع البائع من الحديعة أو المكر بالمشتري، ليشتري سعة سعر لا تستحقه ولا يباع به مثيلها، وهذا يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (لا يحرج لأمري بيع سلعة يعلم أن بها داءاً ألا أخبر به) ويقول في موضع آخر وفي الصدق نفسه (من عشنا ليس منا)، فيما أراد الإسلام توفير معايير موضوعية لماعلية قوى السوق فيقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ولا تحاسدوا أو لا تناجشوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً)<sup>(٥٨)</sup>، وإذا دلس البائع في البيع بأن أظهر الحسر من السلعة وأخفى القبيح أو أظهر الصالح وأبطن الفاسد، فإن للمشتري الخيار في الفسخ أو الإمضاء.

إما معنى النجش فيقول الجرائري في منهاج المسلم أن لا يحرج للمسلم أن يعطي في سعة شيئاً، وهو لا يريد شرائها، وإنما من أجل أن يقتدي به العوام فيعرج بالمشتري، كما أنه لا يجوز أن يقول لمن يريد شراءها أنها مشترة بكذا وكذا كذباً ليغتر بالمشتري، وسواء تواطأ مع صاحبها أم لا، إذ نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن النجش<sup>(٥٩)</sup>.

### ٣- آلية التسعير الإسلامي

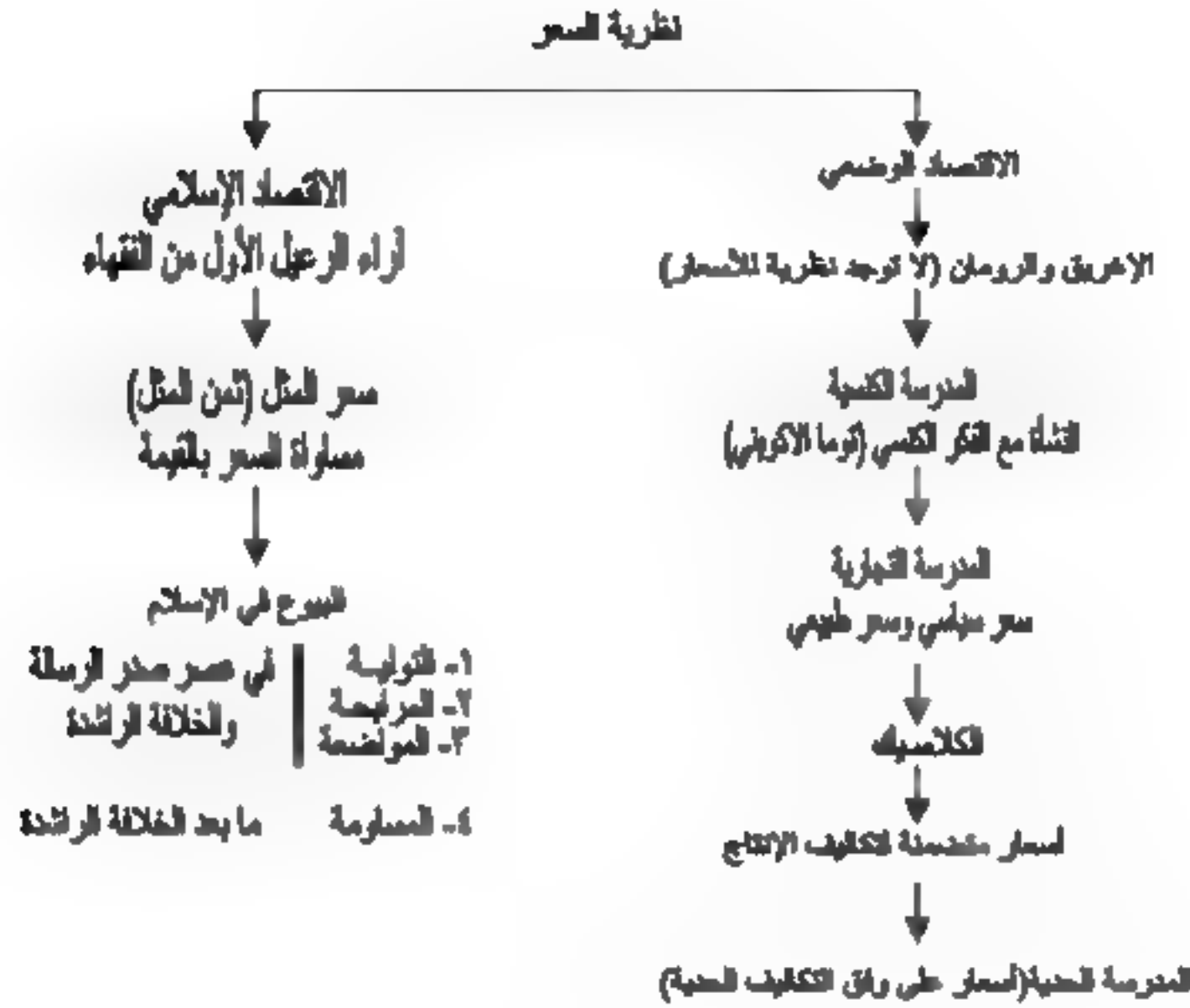
ويمكن الإشارة إلى أن البيع صنفان، مساومة ومرا بعة، وأن المربحة هي أن يذكر البائع للمشتري الثمن الذي اشترى به السلعة، ويشترط عليه نسبة ربح من الثمن الذي اشترى به السلعة، وهذه النسبة لم تكن محددة في النظرية الاقتصادية

الإسلامية، بل تركت تحديد لها لظروف السوق وحالة العرض والطلب. وعندئذ يمكن أن تكون نظرية الأسعار الإسلامية قد أخذت في الاعتبار تكلفة الإنتاج عند البيع بأسلوب المربحة<sup>(٦)</sup>.

السعر الإسلامي (المربحة) = ثمن السلعة الخام + التكاليف المباشرة، (المنفق في العملية الإنتاجية) + التكلفة المضافة والتي لا تدخل في التكاليف المباشرة (غير مباشرة) + نسبة الربح المقبولة شرعاً.

كما أن الفقهاء قد أشاروا إلى معالجة الفروق في أسعار العملة، أو ما سمي في الاقتصاد المعاصر بـ(فروق أسعار الصرف)، أو حدوث التعبير في وسيلة الدفع أو نوع النقود، وما يترتب على ذلك من زيادة في قيمة السلعة، فإن الإسلام أقر أخذ ذلك بنظر الاعتبار عند تحديد الأسعار.

من هذا كله نلاحظ أن الإسلام ترك على يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأسعار تتردد طبقاً لظروف السوق بشكل عام، مع كفالة حرية البيع والشراء، وأوضح أن هذا لا يعني ترك الأمور بحيث تنقلب صد الجماعة ومصلحة القلة، بجانب ذلك دفع بضمن المثل الذي يتحدد بظروف السوق وبأعمال ميكانيزم الأسعار، وبافتراض الفروض نفسها في سوق المنافسة التامة مع توافر العقلانية والرشد في سلوك المشتري، إلا أن هذا لم يكن كافياً لصمان عدم الانحراف في السلوكيات الاقتصادية، فقد وضع الإسلام قيوداً دينية وأخلاقية صابطة لآلية السوق من دون تعييب لهذه الجوانب، من ثم حتى لا تتحول السوق إلى سلطة عصف فوق رقاب الناس، إن توافر الحنب الأخلاقي الباع عن العقيدة الإسلامية (كشرط)، بالإضافة إلى الاعتبارات الاقتصادية من شأنه أن يصح فكرة التوافق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة أمراً تكفله النظرية الاقتصادية الإسلامية، وهو الدين لم تستطع أن تصممه البطريات الوضعية (الرأسمالية أو الماركسية) لافتقارها إلى الشرط الشرعي.



شكل-5 مخطط يبين آلية تكون نظرية الأسعار عبر التاريخ

#### ثانياً: نظرية الأجور

إن الأجر هو العوض المقابل للعمل. ويقصد بالعمل الجهد البدني والعقلي الذي بذله الإنسان في محال نشاطه الاقتصادي والمهني، من أجل الكسب أي الحصول على العوض أو المقابل، كما يقصد بعقد العمل (الاتفاق المبرم ما بين العامل وغيره من أجل أداء العمل لصالح هذا الغير حقيقة أو حكماً، بعوض معين لمدة معلومة أو لإنجاز شيء معلوم)<sup>(١١)</sup>.

وتجمع المدرسة الفقهية الإسلامية على أن عقد الإحارة حاء عاماً ومطلقاً، ليشمل أيضاً أحارة الإنسان أي ما يسميه الآن بعقد العمل ذلك، لأن فقه هذه المدارس المختلفة قسم هذه الإحارة بصورة عامة إلى قسمين رئيسيين هما:

إجارة الأعيان وهي إجارة الأشياء والحيوان.

إحارة الأشخاص أو إحارة النفس أو الأدمي وهذه الإحارة هي ما يطلق عليه الآن مصطلح (عقد العمل)

ويمكن أن يعرف عقد العمل وفقاً للشرعية الإسلامية، بأنه عقد يضع بمقتضاه الإنسان نشاطه المهني المشروع بمقتضى الأحكام لمصلحة الآخر، يستفد منه هذا الآخر انتفاعاً مشروعاً، مدة معلومة أو لغرض إنجاز شيء معين معلوم مشروع، بعوض معلوم مشروع<sup>(١٣)</sup>.

لقد أشارت الآيات القرآنية إلى العمل والأجر وعلى النحو الآتي: قال تعالى:

(قلت أحدهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين)<sup>(١٤)</sup>. (فإن أَرَصِعْ لَكُمْ فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)<sup>(١٥)</sup> (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون)<sup>(١٥)</sup>.

فيما جاءت أحاديث الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام لتوضح ما جاء في القرآن الكريم وهي<sup>(١٦)</sup>:

روى البخاري، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استأجر رجلاً من بني الديك يقال له عبد الله بن الأريقط وكان هادياً خريئاً - أي ماهراً.

روى ابن ماجه (أن النبي صلى الله عليه وسلم) قال (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه).

روي عن أبي سعيد (أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم): (من استأجر أجيراً فليعلمه أجره) وكذلك روي عن الرسول الكريم (نهى عن استئجار الأجير حتى يتبين أجره).

#### ١- شروط الأجر وخصائصه

لقد أوجب الإسلام أن تتوفر في الشيء شروط وخصائص معينة حتى يمكن أن يكون أحراراً، إذ ليس كل شيء يصح أن يكون أحراراً للعامل بمقتضى عقد العمل، وهذه الشروط والخصائص هي ما يلي<sup>(١٧)</sup>:

- أ- إن يكون مالا مقوماً عينا أو نقداً أو منفعة معجلاً أم مؤجلاً.
- ب- يشترط أن يكون الأجر شيئاً حلالاً غير محرم في الشرع.
- ت- إن يكون الآخر في عقد العمل معلوماً متعيناً نافياً للجهالة المفضية إلى النزاع بين أطرافه.
- ث- يجب أن لا يكون الآخر واحياً أداؤه عينا على المستأجر.
- ج- إن يكون الآخر مملوكاً للمستأجر ومقدور التسليم إلى المؤجر أو الأجير.

ومثلما يولي الإسلام الاهتمام بالعامل، فإنه يحرص على الإنتاج ويحمي صاحب رأس المال بالقدر نفسه الذي أولاه للعامل، فقد حرم الإسلام أن ينال العامل أحرأ بعير عمل، إذ أن القواعد الإسلامية (قاعدة مشتقة من روح التشريع وآيات القرآن الكريم)، والتي تقرر ألا ينال الإنسان أجراً دون عمل، فهذه القاعدة الشرعية تجعل ما يحصل عليه العامل دون أن يؤدي عملاً داحلاً في باب الحرام والنسحت<sup>(٣٨)</sup>.

هذه الضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية لأصول التعاقد والإحارة، أريد منها أن ضمان تطبيق المعاملات مع روح الإسلام، إلا أن هذا لم يكن كافياً، بل ذهبت الشريعة إلى وجوب مراعاة العدالة في مكافأة العمل ومراعاة ظروف احتياجات العامل الإنسانية وصحته وطاقته وقدرته، فلم يترك لإسلام لصاحب العمل تحديد حجم الأداء المطلوب في العامل تحقيقه، أو الساعات الواجب اشتغالها بدون الأخذ بنظر الاعتبار حقوق العامل (في المستوى الاقتصادي والمعيشي)، ليقترب بين مصالح أرباب العمل ومصالح العمال بدرجة لم ترد ولن ترد إلا في شريعة الله الحقّة، التي وصلت هنا إلى حد المساواة بينهما في الحقوق، إعمالاً لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم). (فمر كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق فإذا كفلتموهم فأعينوهم)، وإذا ما سلمنا بهذا، يجب أن نسلم بأن الإسلام يطالب بتمتع العامل بمستوى معيشي يماثل ذلك



الذي يتمتع به صاحب العمل، في الطعام والملبس، وهذا يرتبط بفكرة الحد الأدنى من الأجور الواجب توفرها للعامل.

لم يترك الإسلام تحديد أجر لاستغلال صاحب العمل وسيطرته، الذي قد يمكن له أن يستغل العامل والإضرار به على العكس مما هو عليه الحال في النظم الاقتصادية الوضعية.

## ٢- آلية تحديد الأجر

تتضمن إليه تحديد الأجر الحد الأدنى للأجور أو الحد الأدنى لحد الكفاية\*\*\* في الإسلام، أي الأوجه التي يجب أن يعطيها الحد الأدنى من الأجر (المأكل والملبس والمسكن)، بالإضافة إلى إمكانية الزواج لعفاف النفس.

أن الربط الإسلامي بين الحد الأدنى لما يسمى بالكفاية وبين وفائه بحاجات محددة للعامل، حل إشكالية التفرقة بين الأجور النقدية والأجور الحقيقية، وأي مهما محدد أساسي لعرض العمل، وهو الجدل القائم بين (المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الكينزية) في اقتصادنا المعاصر، فحين يربط الإسلام الحد الأدنى للأجور بالحاجات التي يشبعها، والتي تمثل حد الكفاية، وأنه بذلك قد طاق بين الأجر النقدي والأجر الحقيقي، هذا الأخير مجموعة السلع التي يستطيع العامل الحصول عليها من الأجر النقدي.

هذا الأخير يجب أن يؤمن إشباع الحاجات الأساسية للمسلم وهي المأكل والملبس والمأكل وعفاف الفرج والإعالة وغيرها، في حين لا يستطيع أجر الكفاف سوى تأمين استمرار قوة العمل، التي تعد ضرورة لاستمرار الإنتاج. بيد أن ما يمكن ملاحظته أن أجر حد الكفاية يختلف ما بين الأفراد، طبقاً لمزلتهم الاجتماعية وعدد المعالين، وهي متغيرة طبقاً لدوران الحول، أي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار ارتفاع الأسعار بين سنة وأخرى.

وهنا تقرر النظرية الاقتصادية الإسلامية التفاوت في الأجور، مما يعني وجود تفاوت في أجر

الكفاية.

### ثالثاً: نظرية التوزيع

#### ١- فلسفة التوزيع الإسلامي

إن مشكلة التوزيع في النظريات الاقتصادية الوضعية ظلت مشكلة حقيقية، ومثلت في النظرية الرأسمالية موضع حلل كبير ودائم، لم تستطع معالجتها إلا عبر تلميحات معينة حاولت من خلالها نزع فتيل الصراع الطبقي، بينما كان التوزيع في النظرية الاشتراكية هو أحد حواشيها التي تجاوزت فيه للرأسمالية.

إلا أن هذا في الواقع العملي ظل غير ممكن التطبيق والاستمرار فيه لأسباب عديدة أشاع من خلالها التسيب واللامبالاة والركود. كما أن الأطوار المتقدمة في الاشتراكية (الشيوعية) تفتقر نوعاً من التوزيع يعد مثالياً وغير ممكن التحقيق.

والإسلام حين ينكر تبعية التوزيع للإنتاج، لا يقطع الصلة أبداً بينهما، ولكن الصلة في رأي الإسلام بين التوزيع والإنتاج ليست علاقة تبعية وفقاً لقانون طبيعي، وإنما هي وصلة يفرصها المذهب ويحدد فيها الإنتاج. وتقوم فكرة الصلة بين التوزيع وشكل الإنتاج على أساس الآتي:

أ- يعد الاقتصاد الإسلامي قواعد التوزيع التي جاء بها ثابتة وصالحة في كل زمان ومكان، ولمختلف مراحل التطور الاقتصادي.

ب- إن عمليات الإنتاج التي يمارسها الفرد تعدّ مرحلة تطبيق لتلك القواعد العامة في التوزيع، وبذلك يصبح محال الإنتاج هو ظروف تطبيق قواعد التوزيع.

ت- إن ارتفاع مستوى الإنتاج وتطور إمكاناته ووسائله يتيح للإنسان أكثر فأكثر، استغلال القواعد العامة للتوزيع في مرحلة التطبيق، وقد يساهم استخدام هذه القواعد فتصبح خطراً على التوازن العام والعدالة الاجتماعية.

لهذا يقر الإسلام تدخل الدولة كيما يسمح لها بتوجيه التطبيق، هو القاعدة التي ضمن بها الإسلام صلاحية قواعده العامة في التوزيع، وانسجامها مع تصوراته للعدالة الاجتماعية.

## ٢- معايير التوزيع

تختلف المعايير التوزيعية من مجتمع إلى آخر فأحياناً ترتبط بالقوة والنفوذ، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً أو بأسباب أخلاقية أو عقائدية، فمعيار التوزيع عموماً أية قاعدة تعد من تطبق عليه مستحقاً لتلقي دخلاً حقيقياً في حالة معينة، وأهم المعايير هي<sup>(١١)</sup>؛

أ - معيار المعاوضة: وبحسب هذا المعيار يمكن للفرد أن يأخذ من الدخل بقدر ما يعطي من عمل، فمن ينتج بمقدار معين من المال، يحق له أن يتقاضى من السلع والخدمات ما يساويه، ويعتمد النظام الليبرالي عموماً على معيار المعاوضة أو ما يسمى بقوى السوق.

ب- معيار الحاجة: بموجب هذه القاعدة يأخذ الفرد الدخل بقدر ما يحتاج إليه، بصرف النظر عما قدمه من عمل، والأخذ بهذا المعيار من مجتمع معين، يعد دلالة على تقدمه حضرياً وأخلاقياً، ولكن تطبيق هذا المعيار يحتاج إلى من يعطي طوعاً ويعتمد المجتمع الاشتراكي على هذا المعيار.

ج- معيار القوة: إن هذا المعيار مرفوض في أغلب النظم، إذ أن هناك مدفوعات تحويلية أو مريت عينية أو نقدية تعطى لفئات وأفراد ذوي نفوذ وسطوة كسباً لتأييدهم أو لتحييدهم.

د- المعيار الاجتماعي والأخلاقي: إن هذا المعيار يرسى على القيم الاجتماعية والأخلاقية ولعادات والتقاليد، سواء أكانت عادات حسنة أم سيئة، وهذا أشمل معيار توزيعي لتمتعه بسد أخلاقي وقبول عام.

### ٣- وسائل توزيع الثروة

يعتمد الإسلام وسائل عديدة لتوزيع الدخل والثروة لتحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع، وهذه الوسائل تفهم من خلال النصوص الشرعية وتتضمن نوعين أساسيين:

#### أ- الوسائل الثابتة

إن أبرز هذه الوسائل (الزكاة)<sup>(٧٠)</sup> وهي فريضة شرعية والتزام نقدي أو عيني، وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية (مقدارها ومطرحها وعائنها) وتوقيتها وشروطها، وتنفق الزكاة عن الصرائب بخلودها وثباتها وهي غير قابلة للحذف والتعير. إذ أنها تمثل توارناً مستديماً في النظام الاقتصادي الإسلامي. فتأثير الزكاة واضح على التوزيع طبقاً للمصارف التي حددتها الآية، فالمستفيد الأعظم من الزكاة هي الفئات المحرومة والمحتاجة والفقيرة.

#### ب- الوسائل المتغيرة

تخضع هذه الوسائل للقرار السياسي وبحسب حاجة المجتمع، وهذه تشمل الفروض المباشرة وغير المباشرة وفروض التركات وغيرها، والدولة الإسلامية تفرص ما تراه كفيلاً لتحقيق مصلحة المجموع في المجتمع الإسلامي بشرط أن تكون المصلحة قطعية لا ظنية وعامة لا خاصة<sup>(٧١)</sup>. إن دليل ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) [إن في المال لحق سوى الزكاة]<sup>(٧٢)</sup>.

فالدولة الإسلامية تضمن لكل فرد مسلماً أو ذمياً حق العيش الكريم وحد الكفية، وإذا كان عاطلاً عن العمل تهيأ له تلك الفرصة، وإذا كان به عاهة أو مرض يقعه عن الكسب أعدته من بيت مال المسلمين، كما تضمن لكل فرد حق المسكن اللائق والعلاج، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [من ترك كلاً فإلينا ومن ترك مالا فلورثته] وإذا لم تفب أموال الزكاة فللدولة أن تفرص على أموال الأعياء الترامات إضافية كالفروض لسد احتياجات المجتمع، إن عملية التوزيع في

ظل الفكر الاقتصادي الإسلامي يؤكد حقيقة واحد، والهدف من التوزيع في ظل الإسلام هو مصلحة الجماعة وتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم عملاً بقوله تعالى (اعدلوا هو أقرب للتقوى)<sup>(٧٦)</sup>، وأن لا يكون المال متداولاً بين فئة قليلة تستأثر به دون غيرها سواء على مستوى أفراد المجتمع أو دول العالم، الأمر الذي نهى إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً بقوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)<sup>(٧٧)</sup>.

على الرغم من أن الإسلام يقر التفاوت في توزيع الثروات والدخول، وهو أمر طبيعي تبعاً لاختلاف المواهب والقدرات، ويعد ضرورة يحلق الحوافز وتحقيق التعاون والتكامل. والله تعالى يقول (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً)<sup>(٧٨)</sup> إذ يقول تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق)<sup>(٧٩)</sup>.

وهكذا فالإسلام يسمح بالثروة والغنى بشرط ضمان حد الكفاية لكل فرد من أفراد المجتمع، أي المستوى اللائق لمعيشته بحسب ظروف الرمان والمكان والواجب لكل من يتواجد في مجتمع إسلامي، أيّاً كانت ديانته وأياً كانت جنسيته.

فإذا ما عجز الفرد بسبب خارج عن إرادته كمرض أو شيخوخة، انتقلت مسؤولية ذلك إلى بيت مال المسلمين أي خزانة الدولة. شأنه في ذلك شأن من لا يستطيع تأمين حد الكفاية، فإن الجبرء المتبقي من الدخل اللارم للوصول إلى هذا الحد يكون من مسؤولية بيت مال المسلمين، فيما تكون مسؤولية من يحصل على دخل أعلى من حد الكفاية فالزائد يذهب إلى بيت المال بالفرائض الشرعية الحبرية منها والطوعية وبحسب درجة إيمان الفرد.

رابعاً: نظرية الاستهلاك

الاستهلاك هو عملية التمتع بالسلع والخدمات بقصد إشباع الإنسان وسد حاجاته، التي أسماها الفكر الإسلامي بالطيبات، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله)<sup>(٨٠)</sup>، وهو غاية النشاط الاقتصادي في النظم

الاقتصادية الوضعية، ولهذا تبرز في إطار تحليل منظومة الاستهلاك ثابينات عديدة ما بين الرؤيا الإسلامية والوضعية بشأن العديد من مفرداتها، فالسلع الاستهلاكية تظل محكومة بصوابط الشريعة الإسلامية التي تسعى إلى تنظيم السلوك الاستهلاكي للفرد المستهلك.

ويعرّس الاستهلاك دوراً مهماً (أحد العوامل الرئيسة في الطلب الكلي) في الاقتصاد الوضعي من أجل تحقيق التوازن الكلي والاستقرار الاقتصادي، فقد يحري الإقرار على زيادته أو خفصه تبعاً لموقع الاقتصاد من الدورة الاقتصادية.

في حين يكون دور الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي محتلفاً عن ذلك، تبعاً لطبيعته ونمطه والهدف منه، فتمط الاستهلاك الإسلامي يتأثر مباشرة بنمط التوزيع ويتم إعلان إيجابياً، وكلاهما محددان بضوابط شرعية ومرتبضان بهدف مركزي<sup>(١٧٨)</sup>.

#### الإطار العام

أ- إشباع الحاجات الأساسية للمواطن في الدولة الإسلامية والمتمثلة في اصطلاح الفقهاء بـ(حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، والتي جرى ترتيبها على ثلاث مراتب هي (الضروريات، الحاجيات والتحسينات).

ب- إشباع الحاجات غير الأساسية والتي أطلق عليها الفقهاء (الحاجيات)<sup>(١٧٩)</sup>. وجرى ترتيبها بعد الضروريات وهذه الحاجيات تساعد المواطن في الدولة الإسلامية على تحمل أعباء الحياة وواجباتها، ويتفاوت الناس في كل حسب منزلته الاجتماعية وظروف معيشته، بالإضافة إلى ظروف المجتمع كله في ذلك الوقت.

ت- توفير الحاجات التحسينية، وهي المباح من السلع والخدمات التي تعد في منزلة الكماليات في الفكر الوضعي، وهذه السلع من الطيبات المباحة، على أن يكون استهلاكها بما يتفق وقدرة الإنسان الشرائية من دون إسراف أو تبذير.

إن معالم نظرية الاستهلاك وقوانينها في الفكر الاقتصادي الإسلامي ووفقاً لقانون التسخير والاستخلاف، تتطلب دائماً ضغط الاستهلاك الموجه نحو سلع الإسراف والتبذير وبعض السلع الكمالية، التي لا تنسجم مع حد الكفاية، وذلك لفسح المجال للتوسع في إنتاج السلع الضرورية لبناء القاعدة المادية للمجتمع المسلم بغية مواجهة المخاطر، لاسيما وأن كثيراً من موارد المسلمين تهدر من جراء استهلاك الكثير من السلع الكمالية، التي تمثل مظهر الحصار الكاذبة التي يقذفها الغرب إلينا عبر وسائل الاتصال المختلفة.

لقد أورد علماء الاقتصاد الإسلامي تقسيماً وترتيباً لسلم حاجات الاستهلاك في ثلاث مراحل أكست الاقتصاد الإسلامي ميرة خاصة عن الاقتصادات الوضعية، فانتقال السلعة من الضرورية إلى التحسينية لا يتم بصورة مباشرة، بل يمر عبر مرحلة (الحاجي) التي هي حلقة الوصل تتوسط الضروري والكمالي.

لهذا أرم الإسلام الاعتدال إعمالاً لقوله تعالى (والدين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواها) <sup>٨٦</sup> وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) <sup>٨٧</sup>، كما أن الرسول الكريم قال في طيب الاعتدال في الإنفاق (كلوا واشربوا وألعبوا في غير إسراف) موضحاً أن الاعتدال وعدم الإسراف سمة أساسية من سمات المؤمن، فالإسلام يلزم المسلمين بأن ينفقوا ملتزمين بحد معقول بحيث لا يتجاوز إنفاقهم حداً معيناً هو الاعتدال، وهذا لم يربطه بحد الضروريات أو الحاجة البيولوجية بل دعا الاعتدال على إطلاقه مع ترك الفرصة للمؤمن للتمتع بما خلق الله.

ويتحلى ذلك في قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرجت العبادة والطيبات من الرق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) <sup>٨٨</sup> إن ترك الإنفاق للمرء وظروفه والتعبد بالطيبات، لم يكن مفتوحاً إلى النهاية، طالما أن الفرد يعيش في ظل عقيدة تدعو

للاعتدال مع الدين يتواجد معهم في بيئة واحدة. هذا من شأنه أن يجعل الاستهلاك يدور في محاورين طبقاً للمفهوم الإسلامي:

الأول: التزام حد الاعتدال الذي تقرره ظروف المثل في الجماعة أي ظروف أولئك الذين يعيشون في ظروف تماثل ظروف المنفق نفسه.

الآخر: أن المستوى الذي ترتضيه الجماعة لا يصبح معياراً لتقدير حد الاعتدال في الإسلام إلا إذا كانت هذه الجماعة مؤمنة ملتزمة.

#### - المقارنة مع النظم الوضعية

إن مقارنة نمط الاستهلاك مع أنماط الاستهلاك الوضعية، من شأنه أن يميز نظرية الاستهلاك الإسلامية عن مثيلاتها، نظراً لاختلاف الصواب والمحددات، وابتداءً فأن هناك صواباً محددة للاستهلاك في الإسلام هي:

أ- أن تكون السلع المراد استهلاكها تتسم بالضرورة والاعتدال.

ب- يجب أن يكون الدخل المنفق في الاستهلاك متأتياً من عمل صالح.

ت- أن يخصص الدخل المتحصل عليه لصواب الشريعة الإسلامية (الزكاة، الخمس، الخ)، قبل أن يكون جاهزاً للإنفاق، وهذا يقترب من مفهوم الدخل القابل للتعرف في الاقتصاد الوضعي.

ث- التزام المسلم بالضروريات يجب أن لا يقود إلى زهد سلبي من شأنه التأثير على

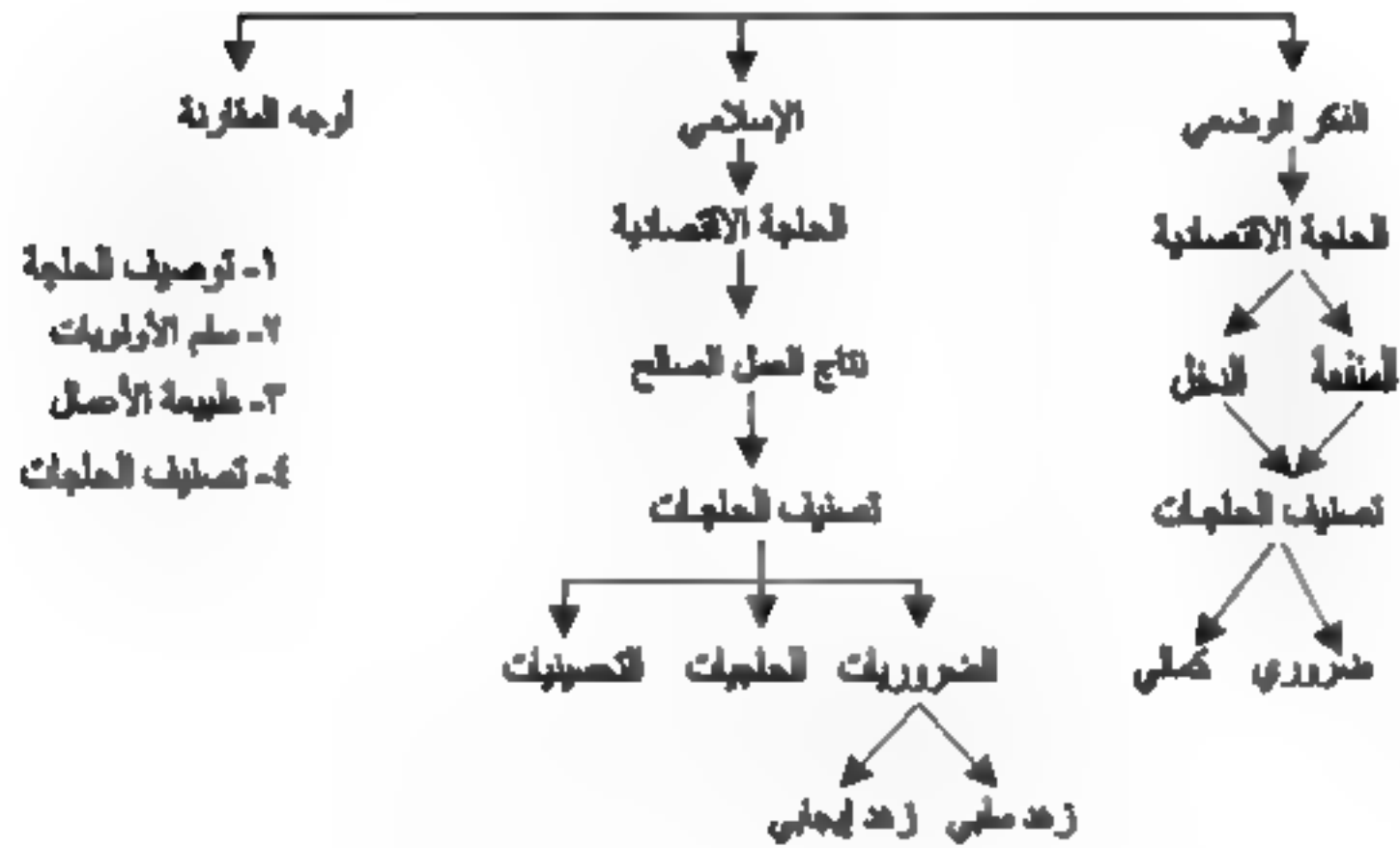
إمكانات العمل والعبادات بوصف أن الإنسان قيمة عليا

ومن المحطط الآتي يمكن بيان جوانب الاختلاف بين نظرية الاستهلاك الإسلامية والنظريات

الوضعية تبعاً لأوجه المقارنة الواردة.



## نظرية الاستهلاك



شكل - ٧ أسس الاستهلاك في النظريات الاقتصادية

### أ- توصيف الحاجة الاقتصادية

توصف الاقتصادات الوضعية كل منتج قابل للاستهلاك بضوء الدخول المتاحة في مجتمع معين، وفي مرحلة معينة اعتماداً للمفعة التي يحققها للمستهلك، من دون وجود أي مبع أيديولوجي يحدد استهلاك السلع، في حين أن الاقتصاد الإسلامي لا ينظر إلى الحاجة الاقتصادية بصورة مطلقة، بل يحددها في ضوء المقاصد الخمسة (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال) وهي توضيح مصالح المسلم. فاستنبط العلماء المسلمون من هذه المقاصد الأدلة والأحكام التي وجدوا فيها أنها تدور حول مصالح العباد في دنياهم وأخرتهم.

لقد أكد الإسلام نوعية المنتج وأشكاله (فبعض السلع محرمة على المسلمين)، في حين لا نحدد ذلك في الاقتصاد الوضعي الذي يميل إلى التجريد في ذلك.

كما أن العوامل التي تؤثر في الطلب على السلع لأغراض الاستهلاك، هو الدخل، والنظم الوضعية لا تبحث في مصادر هذا الدخل سواء أكانت شرعية أم غير شرعية، وما ظاهرة (غسيل الأموال) إلا ترجمة لوجود مصادر عديدة لدخول غير شرعية، إلا أن الإسلام يلزم أن يكون الدخل المنفق نتاج أعمال صالحة وليست طالحة.

#### ب سلم الأولويات

إن النظم الوضعية لا تضع حدوداً دنياً وحدوداً علياً للسلع والحاجات بل تبقى مفتوحة، فالمستويات الدنيا للاستهلاك تظل مفتوحة، والمستويات الدنيا للاستهلاك تظل مفتوحة، مما يعرض الناس إلى بؤس والشقاء والتشرد، وعلى الجانب الآخر، فإن حدود الاستهلاك العليا لا تحدّها أية حدود، طالما أن الدخل قادرة على شرائها.

في حين يعمل الإسلام على تنظيم هذه الأولويات، فالحاجات الضرورية يلزم المجتمع بتوفيرها للسكان، حتى وإن ظلت مجموعات غير قادرة على استهلاك هذه الضروريات، وحدد (الكفاية) المستوى الأدنى للاستهلاك. وهو ما يضمن للفرد العيش بالمستوى الذي لا يحط من كرامته وإنسانيته، ويجعله قادراً على أداء أعماله الدينية والدنيوية، ويلزم الإسلام (بيت المال) لمعالجة أوضاع السكان الذين تقع دخولهم دون حد الكفاية.

والمحددات الأساسية تنحصر في الجوانب الآتية:

- عدد العيال.

- مرابط الخيل (ويقصد بها المنزلة الاجتماعية للشخص).

- الأسعار عند دوران الحول (ويراد بها مستويات الأسعار).

وبالمقابل فإن الإسلام يضع قيوداً على الحاجات التحسينية، ويرفض و يقيد بشدة الاستهلاك التفاخري والترفي ويعدّه إسرافاً وتبذيراً في الموارد، طالما توجد

حاجة عند الناس، كما الإنسان يظل يحب ذاته ودينياً، إذا لم ترسخ فيه مبادئ الإسلام.  
فقال سبحانه وتعالى (أن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر حزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً)<sup>٨٢</sup>، فأن آدم طماع لو كان لديه واديان من ذهب لتمنى ثالثاً، هذه الحقيقة مقتضية من القرآن الكريم من قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقباير المقبضات من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الدنيا والله عنده حسن المآب)<sup>٨٣</sup>

#### ج- طبيعة الأعمال

يقرر الإسلام أن العمل هو أساس الحاجات، وهو يخضع للضوابط الشرعية، وليس كل عمل سائع في الاقتصاد الإسلامي، من ثم فإن القيمة لا يسري مفعولها، إلا إذا كانت متحسدة في سعة أو حاجة اقتصادية حثرة من حيث الإنتاج والتبادل والتوزيع والاستهلاك من منظور الحكم الشرعي، والإسلام يحترم العمل ويعظمه، يقول سبحانه وتعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)، ويقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) (من أمسى من عمل يده أمسى معفوراً له).

ويربط الإسلام بين العمل والأجر، فيشترط أن يكون العمل والأجر مباحين حائزين شرعاً، أي أن يكونا مشروعين وفق الشريعة الإسلامية، ولا يصح الأجر لتسهيل فعل محرم أو العمل في شيء يساعد على فعل الحرام.

ومن جانب آخر فقد أكد الإسلام أن يكون العمل بعقد مفهوم من الطرفين، وأثرى الفقه الإسلامي هذا الجانب (إحارة الأدمي أو إحارة الشخص أو إحارة النفس)، وفق ضوابط ترفض الاضطراب الاقتصادي المتعارف في النظم الوصعية، أي أن لا تستغل حاجة الشخص لتشغيله بأجر دون الأجر السائد أو الذي يستحقه. كما أن النظم الوصعية لا تصع قيوداً على نوع الأعمال أو الأجر المدفوعة.

#### د - تصنيف الحاجات

لم يحدد الإسلام تصنيفاً ثابتاً للحاجات، بل ترك ذلك للظروف الخاصة بكل مجتمع ولكل زمان وحاجته وأوصاعه، إلا أنه ركز على الحاجات الضرورية والتي تمس حاجات الناس وإعطائها الأولوية، إما فيما عدا ذلك فيرتهن بوضع الجماعة، لذلك فإن تصنيف الحاجات جاء مستنداً على فئمة الحاجات الأساسية لأقل الشرائح عيشاً في المجتمع وعند حد الكفاية، الذي هو أعلى من حد الكفاف في النظم الوضعية

لقد كان الفكر الإسلامي بحق أول نظام يسعى لتحقيق الحاجات الأساسية للأفراد بوصفهم مكلمين لتحمل الرسالة وللقيام بالمهمة الاستحلافية التي كلمهم بها الباري عز وجل. قال تعالى في محكم كتابه الكريم (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً)<sup>٨٥</sup>.

إن النظرة الإسلامية في تأمين الحاجات الأساسية في الدولة الإسلامية لأدنى طبقات المجتمع لم تهمل الحد الأعلى، فقد نهى الإسلام عن بذل الأموال حتى يعلو الفرد فوق جلدته، والذين ينفقون أموالهم في الاستهلاك الترفي وعدهم الله بالويل والعذاب وعدهم من أصحاب الشمال إعمالاً لقوله تعالى (أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا درد ولا كريم أنهم كانوا قبل ذلك مترفين)<sup>٨٦</sup>.

فعلى سبيل المثال لا الحصر وضع الله سبحانه وتعالى معياراً أساسياً ارتبط بمعنى التبذير، فكل ما ينفق في معصية الله فهو حرام، وكل ما أنفق فوق المعقول والمقبول والشائع فهو إسراف، فمن مثل الشرب في آية الذهب والفضة ولس الحرير والديباج والجلوس عليه، فهو حرام، والتعالي في البنيان والتوسع فيه لعير الضرورة يعامل معاملة ما سبق.

#### خامساً: نظرية التكافل الاجتماعي

##### ١- دور بيت المال

يشكل بيت المال الجهاز المالي للدولة فميه تتجمع موارد الدولة الإسلامية ومن خلاله يتم إيفاق هذه الموارد في أوجهها المحتمة، والدور الذي يؤديه بيت المال يتجاوز حدود المالية الوصعية فهو بجانب وظيفته الرئيسة أعلاه، يطلع بدور توريعي كبير من خلال كفالة أوضاع الأفراد الذين تقل دخولهم عند حد الكفاية.

وهذه الوظيفة لا يوحد ما يقابلها في النظم الوصعية، مضافاً إلى ذلك أنها تعطي للدولة المرونة في التدخل في الحياة الاقتصادية، لإعادة التوازن الاقتصادي والاجتماعي وتمويل نفقاتها في الظروف غير الاعتيادية.

فقد فرص الإسلام على الدولة ضمان معيشة أفراد المجتمع الإسلامي ضماناً كاملاً، وهذا يتم من خلال تهيئة الدولة للفرد وسائل العمل، وفرصة المساهمة الكريمة في النشاط الاقتصادي المثمر، ليعيش على أساس عمله وجهده، فإذا كان الفرد عاجزاً عن العمل وكسب معيشته بنفسه كسباً كاملاً، أو كانت الدولة في طرف استثنائي لا يمكنها منحه فرصة العمل، فعندئذ تطبق الدولة مبدأ الصمان عن طريق تهيئة المال الكافي من بيت المال لسد حاجاته وتوفير حد خاص من المعيشة له.



شكل ٨- موارد بيت المال ومجالات الأنفاق فيه

ومبدأ الضمان الاجتماعي يركز على التكافل العام وحق الجماعة في موارد الدولة العامة، ولكل منهما حدوده ومقتضياته في تحديد نوع الحاجات، التي يجب أن يضمن إشباعها وتعيين الحد الأدنى من المعيشة التي يوفرها مبدأ الضمان الاجتماعي للأفراد.

كما أن إيمان الإسلام بحق الجماعة كلها في موارد الثروة. لأن هذه الموارد قد حلت للجمعة كافة، لا لفئة دون فئة، وحتى تتمكن الدولة من هذا الحق وحماية الجماعة في إيجاد قطاعات توفر موارد الملكية العامة وملكية الدولة، لكي تكون إلى جانب فريضة الزكاة ضماناً لحق الضعفاء من أفراد الجماعة، عملاً بقوله تعالى (وما أفاء الله على رسوله منهم، فما أوجفت عليه من خبز ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، والله على كل شيء قدير، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى لله وللرسول ولذا القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)<sup>(٨٧)</sup>.

ويستند نظام التضامن الاجتماعي على النص القرآني (أوتوهم من مال الله الذي أتاكم)<sup>٨٨</sup>. ويقول تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)<sup>٨٩</sup> وكذلك (وأن ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل)<sup>٩٠</sup>. وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)، هذه الآيات توضح من دون نس أن هناك حقوقاً للفقراء ومثلهم في أموال الأغنياء منهم، ولعل الفاصل بين الفقر والغنى في الإسلام، هو الحد الذي يفصل بين إعطاء الزكاة ومنعها.

وقد نقل حديثاً عن الإمام علي بن أبي طالب (ع): أنه مر بشيخ مكفوف كبير السن في اسواق الكوفة، وأنه كان يستعطي من عامة الناس، فقال أمير المؤمنين ما هذا؟ فقيل له: يا أمير المؤمنين أنه نصراني، فقال الإمام، استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أففقوا عليه من بيت المال<sup>٩١</sup>

إن هذه الاموال مخصصة بالتحديد بشكل محلي، ولكل بلده، ويحول ما فاض منها الى بيت المال في الأقاليم المجاورة، بعد استيفاء الأسهم الشرعية، مع اشتراك

الميزانيات المحلية جميعاً بتمويل الجهاد في سبيل الله من السهم المخصص لها، ولذلك يراعي الإسلام عدم إخراج زكاة الأعياء إلى بلد آخر، وأهل البلد محتاحون إليها، والسند الشرعي في ذلك هو لما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) معاد إلى اليمن قائلاً له: حذها من أعيائهم وضعها في فقرائهم<sup>(٩٧)</sup>.

ومن الملاحظ أن موارد بيت المال ذات صفة إجبارية وطوعية مرتبطة بحافز أداء ذاتي، ولا تتطلب أجهزة للرقابة ومتابعة للمشمولين، وتتميز بالعدالة التامة لذلك فإن التهرب منها يكون ذا أثر نفسي وشخصي بالغ.

## ٢- مصادر التكافل الاجتماعي

### أ- زكاة الأموال

فقد أوجب الإسلام الزكاة بعد معلوم هو العشر أو نصف العشر من قيمة ما تخرج الأرض من حاصلات، إذ فرض الرسول الأعظم (ص) الزكاة فيما سقت السماء، وفي البعل وفيما سقت العيون العشر، وفيما سقت السوان (السواقي) نصف العشر، مصداقاً لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيث منه تمفقون ولستم بأخديه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد)<sup>(٩٨)</sup>.

وتذهب زكاة الأموال إلى أن تفرض على القمح والشعير والتمر والزبيب والعسر والحيوانات (الإبل، البقر، والعم) والذهب والنقصة ومنتجات الحيوان والثروات التجارية.

### ب- زكاة الفطر

وقد فرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) زكاة الفطر على الناس من رمضان صاعاً من تمر أو ربيب أو صاعاً من شعير على كل حر أو عبد أو أنثى من المسلمين، والصاع هو أربع حفلات بكفي الرجل المعتدل، ويقدر بالورن الحالي بنحو ٢,١٧٦ كيلو غرام من القمح<sup>(٩٩)</sup>. وهي زكاة بذن لا زكاة مال، فهي واحة

على كل حي يرزق من الشر، وزكاة الفطر تدفع عن الصغير والكبير، وعن العبيد، وتصرف لمقراء المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام (أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم)<sup>(٩٥)</sup>.

#### ت - كفلة الأقارب

دفع الإسلام الأفراد إلى العمل للارتفاع بدخولهم من ناحية، وبعد أن حرم الاحتكار والربا والسجش والتدليس وغيرها، ليمنع تراكم الثروة بطرق غير مشروعة، نجده يعتمد بعد ذلك إلى تصييق أثر التفاوت الطبيعي في الدخول، إذ يلزم العني بكفالة الأقارب والإيفاق عليهم بر وبكفالة الحيران أيضاً، فيقول الله تعالى (وأن ذا القربى حقه)<sup>(٩٦)</sup>، ويقول (فآت ذا القربى حقه)<sup>(٩٧)</sup> وتوضح الآيتن أن هذه الكفالة ليس أمراً متروكاً لختيار المرء، بل أنه حق لهم عليه وواجب عليه نحوهم، والإسلام إذ ينظم العلاقات الاجتماعية على أساس من (التبادل).

وقد أوصح الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في أحاديثه، كيفية اتحاه درجة الالتزام، وترتيب إنفاق دحله وثروته، فيقول (أبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فصر شيء فلأهلك فإن فصر عن أهلك شيء فلذوي قرانتك فإن فصل عن ذوي قرابتك فهكدا وهكدا)، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر الصدقة (أبدأ بمن تعول).

وقد فكر الخليفة عمر (ض) في عام الرمادة، إن يسكن الضعفاء في دور الأغنياء (قال لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم، إلا أن أدحل على كل أهل بيت عدتهم، فيقاسموهم أنصاف بطونهم، حتى يأتي الله بحيا فعلت، فأنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم)<sup>(٩٨)</sup>.



وجاء في كتاب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى واليه علي مصر (ثم الله في الطبقات السفلى، من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزماني، فإن في هذه الطبقة قنعاً ومعتراً، وأحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشعلنكم عنهم بطر)<sup>(١١)</sup>.

## المبحث الرابع

### أعلام الفكر الاقتصادي الإسلامي

أستلهم المفكرون العرب والمسلمون مادتهم المعرفية من مصادر رئيسة ثلاثة هي<sup>(١٠٠)</sup>: (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، آراء الفقهاء والصحابة وبعض المؤلفات التي تعرضت بالتحليل والتدقيق لقدر معين من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية)، من هذه المنابع استقى مفكرونا معارفهم في المجال الاقتصادي أيضاً، غير أننا ندرك أن اهتماماتهم في القضايا الاقتصادية، على الرغم من موسوعيتهم وعلمهم الوفي والغزير، كانت اهتمامات وشواغل ثانوية إذا قيست مما كانوا يركزون عليه العهد البحثي والتحليلي في مجالات الحديث والفقه والتاريخ والفلسفة، وغير ذلك فقد انصبّت شواغلهم المعرفية، وقد يكون ناحياً عن رؤيتهم نحو مختلف العلوم، فقد كنت لدى العرب والمسلمين تصنيفات لها وصعوها في سوء تصنيفهم الأساس إلى علوم عقلية وعقلية وانضوت بمقتضاها الظواهر الاقتصادية في حقل العلوم العقلية<sup>(١٠١)</sup>.

أضف إلى ذلك أن حمى الصراعات الفكرية والعقيدة، وضرورة الحفاظ على المبادئ والمركرات الإسلامية واحترام الثوابت فيها، حتمت على مفكرينا وفقهائنا وعلماء الكلام والفلسفة، تركيز نشاطهم النظري المكري على بلورة نتاج حاص للثقافة العربية الإسلامية، بالإفادة من معارف وعلوم الأمم الأخرى.

لذلك نعتقد أن المشكلة الاقتصادية لم تطرح إلا كتاج عرضي، إذ أن العلاقات الاقتصادية هي إقرار طبيعي لممارسة الدولة العربية الإسلامية لوظائفها الرئيسية في الحكم والتشريع وتنظيم المجتمع، لكن هذا القول لا يسوغ لنا أو لغيرنا، تقويم النتاجات المعرفية العربية والإسلامية في مجال تحليل الظواهر الاقتصادية على وفق ما حلص إليه علم الاقتصاد السياسي، بعدم أرسيت أسسه وملامحه العامة في القرن الثامن عشر، فقد استقلت الدراسات الاقتصادية عن غيرها من

الدراسات، كما أن هذا لا يعني أن فمة نقصاً في مداخلهم البحثية والمعرفية، لأن الفكر حاجة تفرضها أوضاع البشر المادية من حياتهم الاجتماعية، وتفرضها هذه الأوضاع بصيغتها التي تكون عليها<sup>(١٠٣)</sup>. عليه سنتناول اثنين من أعلام الفكر الاقتصادي الإسلامي هما ابن خلدون والمقرئزي.

أولاً: ابن خلدون

- نظرات ابن خلدون الاقتصادية

نظر ابن خلدون إلى العلوم جميعاً بوصفها ظاهرة إنسانية تخضع لـ"طبائع العمران" ويرتبط تطورها بتطور المجتمعات، وأدرك على نحو بديهي، إن النشاط الفكري لاحق لنشاط العلمي، وإن الحاجات الضرورية للعيش شرط لظهور الفكر النظري، وكان معيياً في أن يقوم تعليل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية على الكف عن العوامل الموضوعية، فلابد من أن تستند العلوم على مقدمات وقوانين "طبائع العمران" وتبدل الأحوال لا يستقيم منه منطق الفلاسفة والفقهائ، لأن فاعلية المجتمع الإنساني في مجال المعاش تخصص للطبيعة ولظروف البيئة ومقعدة بالعلاقات الاجتماعية التي نسمع بقيامها بل تفرضها الظروف نفسها

إذ نجد "الحتمية العمرانية" إن جاز لنا القول، تعبيرها عند ابن خلدون في التفاعل الحركي للعوامل المكونة للظواهر تلك. وفي ضوء ما تقدم وبالعودة إلى فصول الباب الخامس من المقدمة يمكن التوقف عند النظرات الخلدونية كما أدركها وشخصها هو، لا كما عرفتھا وعرضتها النظرية الاقتصادية الحديثة، فليس أهدافنا عقد المقارنات بين نظرات يفصل بينهما زمن طويـل تبدلت فيه الأحوال والمعاشات، بل بيان الأهمية التاريخية لأراء ابن خلدون بالنسبة لتطور علم الاقتصادي السياسي.

أ - الملكية

وفي موضوعها يقول ابن خلدون، والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه، ويشير إلى قوله سبحانه وتعالى

(سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، وما في الأرض جميعاً منه) (الجاثية ١٣)..ثم يستطرد ويد الله مبسوطة على العالم وما فيه، بما جعل الله له من استخلاف<sup>١٠٠</sup>..”وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك.

في ذلك يقول بعض الباحثين المتخصصين في قضايا الفكر الاقتصادي العربي والإسلامي، إن ابن خلدون يعبر انتماءه لمدرسة الفكر العربي- الإسلامي، التي تؤمن بأن وسائل الثروة والإنتاج ومصادرها أرضاً وسماء هي ملك لله، وإن الشر أفراداً وجماعات يمكن أن يستحلفوا عليها<sup>١٠١</sup>. وفي إطار إيضاحه لعلاقة السياسة بمط الملكة السائد، يرى ابن خلدون، إن الجاه (المتأني عن السلطة) هو الأساس في تكوين الثروة وليس ملكية المال نفسه.

وعن هذا الفهم يقول بعض الباحثين، أنه يسبح مع واقع الملكية في المجتمعات الإسلامية ومع الدور الذي تلعبه الجماعة والدولة فيها<sup>١٠٢</sup>، ويستدل على هذه بما يقوله ابن خلدون..”وقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال، فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه.

وإن فقدان الجاه يقود إلى الحرمان والفقر والتحول من طبقة إلى طبقة أدى دور أن تجمع ملكية المال أو طبيعة الرزق هذا التحول، فإن كان صاحب المال بدون جاه فإنه لا يكسب إلا بمقدار سعيه وعمله، بل قد يصيب الدمار والخراب عمله أيضاً لأن الدولة “السوق الأعظم” فهي المدر الأول، ولأن الجماعة(العصية) هي منطلق تكوين الحقوق، وسقوط الجاه في هذين المحسين يعكس سلباً على الرزق والعمل، ويتسبب في فقدان مصدري الرزق والعيش، وعلة ذلك، أن الحق العام متفوق على الحق الخاص ويحتويه وليس العكس.

#### ب- المذهب الاقتصادي

يذهب الدكتور محمد حلمي مراد، إلى أن ابن خلدون كان من السابقين للمناداة بمذهب الاقتصاد المرسل وأبعاد الدولة عن التدخل<sup>١٠٣</sup>. ويعتمد حجة في ذلك قولاً لابن خلدون جاء فيه..”أن التجارة من السلطات مضرّة بالرعايا مفسدة

للجباية". وتتفق الدكتورة ربيب الحضيري مع هذا الرأي ومعنى ذلك، أن ابن خلدون، وتمشياً مع مذهبه الداعي لإطلاق حرية الأفراد لمراولة النشاط الاقتصادي، يبادي بحرية العمل التجاري على حلفية أدانته للاحتكار والتقييد !!.

وفي معارضة ذلك، يعتقد بعض الباحثين أن دعوة ابن خلدون لمذهب الحرية الاقتصادية ارتبطت بوضع الدولة في المجتمع، بوصفها دولة لم تكن تمثل مصالح الجماعة بل مصالح الأقلية الأرستقراطية، لذا كان من الطبيعي ألا ننظر منهم موقفاً آخر غير الموقف الذي نوه به، والدولة لا ترعى مصالح الجماعة يكون من الأخير أن تترك للأفراد تأمين مصالحهم وتسمح لهم بالنشاط من دون أن تضع قيودها وبما يحول دون استغلالها للعادة العالبة عدداً ونفوساً.

عليه نصل إلى خلاصة مفادها أن رؤية ابن خلدون للمذهب الواجب الأتباع وما إذا كان مرسلاً أم مقيداً، لا صلة بالسفسطة الفكرية والكلامية كما تعرضها الأدبيات الحديثة، بل هو موقف ينبع من تشخيصه لوضع المجتمع الذي عاشه وشاهده وخير ما فيه من أحداث وتحولات، ودلالة ذلك أن ابن خلدون لم يتجاهل التناقضات الاجتماعية ويدرك على نحو لا ريبه حوله، التعارض بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد كقضية حاسمة في محرى تحديد الأدوار التي تلعبها الدولة والأفراد.

#### ت- العمل وقيمة السلعة

من نصوص واضحة لا غموض يشوبها، يعتمد ابن خلدون في بحثه للظواهر الاقتصادية من "المقدمة" (يستدل) على مفهوم ذي طابع مادي تاريخي فيما يتصل بدور العمل في تحديد قيمة الشيء أو السلعة، فهو يقول: "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب.

فقد تبين أن المفاداة أو المكتسبات كلها أو أكثرها، إنما هي قيم الأعمال الإنسانية. ومنه يفهم، أن ابن خلدون جعل العمل مصدراً للقيمة، أي أن قيمة الشيء

هي في العمل الإنساني المبذول فيه، فليس المهم بذل المجهود، بل لابد من أن يترتب على الجهد المبذول إنتاج شيء يتمتع بالقدره على إشباع الحاجة.

ومن نصوص قريبة مما أوردناه سابقاً، يصل بعض الباحثين إلى نتيجة مفادها أن ابن خلدون يقيم علاقة إيجابية بين كمية الجهد المبذول وبين قيمة الأشياء المستحقة، وكل ذلك إما هو مترتب على نظره إلى العمل بوصفه عاملاً للتقدم والحضارة، وغير أن هذا ينبغي أن يأخذ في سياقه التاريخي المحدد ويخضع لتدقيق في رؤية ابن خلدون حول كل الاقتصاد القائم وطرائق تفاعل عناصر مجتمعه من أجل الإنتاج وإشباع الحاجات قابض خلدون، على نحو الإجمال، لم يقدم نظرية متكاملة للقيمة بل أطر لا تحليلية لطواهر اقتصادية وفقاً لمبدأ السبب والنتيجة.

#### ج- المشكلة الاقتصادية

ابتداءً يحدد ابن خلدون مشكلة الاقتصاد في عصره على أنها مشكلة مالية تتحول إلى اقتصادية ذات طابع أشمل وأعم، والمشكلة تنجم عنده عن ممارسة أهل السلطان (الدولة) وبيان ذلك أن "الدولة والمملك صورة الحليفة والعمران وكله مادة له، من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم.

وإذا أفص السطان عطءه وأمواله في أصلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي داهية عنهم في الجباية والحراج عائدة عليهم في العطء، فعلى نسبة مال الدولة يكون يسر الرعايا وعلى نسبة الرعايا أيضاً، وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتهم..".

إن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس غلاء، لأن كمال الحضارة، إنما يكون عنده بهاية الدولة في استفعالها، وهو رمز وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها، حينئذٍ كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء، لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبصائعهم بجميع ما يعمقونه من مؤنة أنفسهم، فيكون العكس لذلك داخلياً في

قيم المبيعات وأثمائها فتعظم نفقات أهل الحاضرة ونحرج عن القصد إلى الإسراف. ويؤوه ابن خلدون في مواضع أخرى إلى التدرج في الريادات فيها بمقدار بعد مقدار طبقاً لتدرج عوائد الدولة في الترف. وكثر الحاحات التي تنقل المعارم على الرعايا. ومن ثم ستقص العمران بذهاب الأموال. ومما تقدم نحصل على نتيجة رئيسة هي أن الأزمة تحدث لسببين متصلين هما: الترف والتندير لدى المترفين والموسرين ممن يقتربون من السلطان لدواعي الملق أو خدمة المصلحة الخاصة، ولجوء الدولة لفرض الضرائب على الغالبية مما يؤدي إلى خفض القدرة على الشراء وانحطاط العمران.

إن ما أتينا عليه من عرض لأفكار ابن خلدون، إنما يمثل غيضاً من فيض فكر معرفي متعدد الأوجه، ليس من المستحسن محاكمته في ضوء النظرية الاقتصادية التقليدية أو الحديثة، وإنما أوجب النظر فيه في إطاره التاريخي المحدد.

وفي نطاق المهجية البحثية عند ابن خلدون، وغير ذلك لن يؤدي لنا إلا إلى إسقاط مقولات الاقتصادي السياسي الحديث على نتاج عقلي لا نريد أن نستنطقه بعير ما يقول، فقد يختلف عن فكر من سبقه ومن عاصره، ثم لابد أن يكون مختلفاً عما صدر ويصدر من اللاحقين، مؤثراً فيهم وليس هم مؤثرون فيه.

ثانياً: المقرئزي

١- حياته

هو تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ - ١٣٦٤م وتوفي فيها سنة ٧٤٥هـ - ١٤٤٢م، عايش العصر العربي الإسلامي مصر في زمن دولتي المماليك البحرية والبرجية، وهما دولتان حكمتا في مصر ردهاً غير قصير من الزمن، كان مؤرخاً من طراز خاص وله عدة مؤلفات منها "الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآراء" و"السلوك لمعرفة دول الملوك" ورسالتان في البقود (شدود العقود في ذكر الملوك) و(إغاثة الأمة بكشف العمة) وهذه الأخيرة أكسبته

شهرة واسعة وأدخلته كأحد المفكرين في الموضوعات الاقتصادية. وترتب على هذا أن استندت له وظائف حكومية عدة<sup>٧١</sup>.

والمقريزي هو المؤلف العربي الإسلامي الوحيد الذي اهتم بمشكلات العملة ومن الذين كتبوا في المسائل المتعلقة بالركود والكساد الاقتصادي، ولا يقول الأزمة الاقتصادية، لأن مفهوم الأزمة الاقتصادية مفهوم حديث نسبياً وارتبط بأزمة فيض الإنتاج التي تصاحب عصر الرأسمالية، انصب اهتمام المقريزي في القحط والمخاض وطاهرة العلاء القدي (رواج الفلوس)، مؤكداً أن القحود في حد ذاتها لها تأثير حاس على التوازن الاقتصادي، ولقد توصل إلى ذلك عندما حلت بمصر أزمة عام ١٤٠٦م فاقترح نظام إصلاح القحود.

## ٢- منهج المقريزي

يتميز منهج المقريزي الذي سلكه في (إعانة الأمة بكشف العممة) بخصائص أساسية هي<sup>٧٢</sup>:

أ- اعتماد مبدأ السببية في تفسير الظواهر الاقتصادية: من خلال مناقضته للمخاضات التي حلت بمصر مد القدم حتى العصر الوسيط، رافضاً مبدأ القدرية السلبية والجبرية في النظر إلى أصل الأزمات، وهي ظواهر مادية واجتماعية ترتبط بالعوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، تدوم بديمومتها وتزول بزوالها والأزمات هي وقائع اقتصادية تظهر عندما تحتل مسبباتها ودواعيها

ب- النسبية في تحليل الظواهر: امتاز منهج المقريزي اعتماد مبدأ النسبية في الإشارة إلى الظواهر الاقتصادية وتحليلها وإعطائها حجمها الطبيعي بدون زيادة أو نقصان، ويرى أن النظر إلى الأمور الاقتصادية وأحداثها يجب أن يكون ضمن المنظور التاريخي لحدوث الوقائع وتعاقبها وبشكل نسبي، وضمن إطار تحليل الأوضاع الكلية ومقارنتها مع ما سبقها.

وفي هذا يحاول المقريزي اعتماد هذه النظرة كمنهج علمي يضمن للباحث أو المتتبع أن يحقق الآتي:



- الترابط والتتابع التاريخي في النظر إلى الوقائع الاقتصادية وتحليلها.
- التكامل في النظرة إلى مجمل تلكم الظاهرة بحيث يصبح الحدث التاريخي جزءاً للكل التاريخي.
- إن الترابط والتكامل يكملان التوصل إلى استنتاجات أقرب إلى الدقة العلمية في تفسير الطواهر الاقتصادية وبيان مسبباتها،(فالأمر - كلها - وحلها - إذا عرفت أسبابها سهل على الخبير صلاحها).

### ٣- تحليل المقريري للأزمة الاقتصادية:

يبدو تأثير ابن خلدون واضحاً على المقريري فجدل الأحداث واضح في تحليله، فكل شيء خاصع للتطور (يولد ويمو ويموت)، وهذه الثلاثية هي ثلاثية ابن خلدون، فيرى أن هناك أسباباً تتجمع لحلق حدث، فيخلق ويتطور، ثم تتجمع أسباب تلاشيها، فيتحلل ويندثر، فظن الناس كما يلاحظ المقريري (أن هذه المحزن لم يكر فيما مضى مثلها، ولا مر في زمن شهها)، ومن خلال هذا المنهج العلمي يستخلص المقريري أسباب المجاعات (الأزمات التي يمر بها المجتمع ويردها إلى الآتي) <sup>١</sup> .

أ- فساد السية السياسية والاجتماعية (نظام الحكم والعلاقات الاجتماعية) وهي نظرة كلية وبنائية، وتسلب الولاة وشيوخ الفساد والرشوة واشتغال السلطان وحاشيته بالتجارة واحتكارها.

ب- انهيار النظام الإنتاجي والذي كان قائماً على الزراعة، فالآفات الطبيعية لم تكن إذن وحدها سبباً للمجاعات والشدة التي حلت بالناس، بل يعود إلى احتكار القوت وتلاعب المحتكرين في غفلة من أولي الأمر، وهو إذن سوء تدبير.

ت- تأثير العامل النقدي على النشاط الاقتصادي واستقراره، فلم يكن الارتفاع في الأسعار هو السبب في انهيار قيمة النقد ووظائفه بل على العكس

تماماً فإن الزيادة في الأسعار كانت نتيجة لكثرة النقد المتداول، ورواج النقود الرديئة.

#### ٤- الغلاء والتضخم النقدي

إن مقولتي الغلاء (ارتفاع الأسعار) والتضخم النقدي (انخفاض القوة الشرائية لوحدة النقدية) مقولتان عرفهما الفكر الاقتصادي بالالتزام، فقد اقترن وجودهما الواحدة بالأخرى، فالغلاء قد نجم عن قصور مياه النيل، مما سبب انخفاضاً في عرض السلع، وهذا أدى إلى انخفاض القوة الشرائية للوحدات النقدية، كما أن إجراءات هذا الأمر أو ذاك في طرح كميات إضافية أو جديدة من النقد، مع بقاء مستوى الإنتاج على حاله، يعني ارتفاع الأسعار بشكل يوّاري انخفاض القوى الشرائية للوحدة النقدية.

من الممكن أن تتداخل الاعتبارات الاقتصادية والإدارية والسياسية والصرفية بعضها مع بعضها الآخر وتدفع الحاكم لاتخاذ قرار تخفيض العملة بصورة غير مباشرة عن طريق استدائها بعملة نقدية جديدة. ففي وقت الغلاء نزع السعر وطلب القمح فلم يقدر عليه، واشتد خوف الناس، وعظم الأمر، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح (كل وقية بديارين) كان من نتيجة هذا، إن تداخلت عوامل عدة دفعت الحاكم لاتخاذ قرار تخفيض العملة بصورة غير مباشرة، عن طريق استدائها بعملة جديدة في محاولة للتخلص من كميات هائلة من الوحدات النقدية القديمة، إلا أن هذا لم يؤد إلى كبح جماح رواج الفلوس.

فازدادت النقود الرديئة من الفلوس النحاسية وتزايدت النقود المضروبة خارج الدولة (النقود المرمية) وحدوث العث في الوزن والعيار، كانت هذه أسباب كافية لحلق الاضطراب في المعاملات النقدية، ومن ثم ارتفاع أثمان السلع.

ثم يذهب المقرئ إلى طبيعة الآثار التي يتركها الغلاء ورواج الفلوس على ارتفاع شرائح معينة، من مثل الطبقة الحاكمة وحاشيتها والتجار والحرفيين، لجمعهم

أرباحاً عظيمة ولتحويلهم هذه الأموال في الغالب الأعم إلى أموال عينية (أموال هروبية) تحنناً لهبوط قيمة النقد من حديد.

ومشكلة التضخم على الرغم من كونها متأدية من عوامل طبيعية لا يمكن للبشر القضاء عليها، إلا أنهم قادرون بحسن إدارة اقتصادهم ومجتمعهم الإنساني، إن ينظموا مفعول الطواهر الطبيعية بحيث لا تؤدي إلى الخراب.

ويلقي المقررري الحجة على القائمي على إدارة الاقتصاد في دولتي الماليك البحرية والبرية، لأنهم ابتعدوا عن مبادئ الاستحلاف وتنكروا له، فصاروا ينطبقون من مواقعهم السياسية والإدارية، للإثراء بتحويل هذه المواقع السياسية إلى امتيازات اقتصادية، حيث يقول (لا جرم أن يعمص عيينه) (يقصد الحاكم) ولا يبالي بما أخذ من أنواع المال.. ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ويتعجل منهم أموالاً، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعاية يشربون لأحذاها بحيث لا يعفون ولا يكفون)'''.

#### ٥- السيولة النقدية

أعطى المقررري أهمية كبيرة لكمية النقد المتداول في السوق وإلى عمليات زيادة السيولة النقدية وخفصها، منطلقاً من وظيفة النقد (الذهب والفضة) كمقياس للقيمة في تحليل الدور الذي يراه لسقد في عمليات التبادل، وفي الموارد ما بين العرض والطلب بحيث يعطي لعمليات المصاربة والصيرفة بخصه، وفي ظل إجراءات الدولة في سك النقد وعمليات التدخل في كمية النقد المتداول (عرض النقد)، من خلال زيادته أو خفصه الدور المهم عدم تحقيق الاستقرار الاقتصادي وتجاوز الأزمات الاقتصادية.

كما أن قرارات الحاكم في سك نقد جديد واستبدال القديم منه بقرارات سياسية تحدد مواعيد استبداله، وفي فترات قصيرة من شأنها أن تحلق موجة من القلق والدعر وعدم الاستقرار وإن كان مؤقتاً، بحيث يدفع الناس للتخلص من أعداد كبيرة من النقد المتداول من أجل الحصول على النقد الجديد.

هذه الإجراءات يراها المقريري بالإضافة إلى ما يؤديه دور المتنفذين في المناصب السياسية والإدارية في استغلال الأوضاع ورفع الأسعار بصورة تحكمية، عن طريق فرض مستويات أعلى من الربح والمغرم (الضرائب) واحتكار السلع، تعد عوامل تسبب ظاهرة الغلاء والقحط. ويشير المقريري إلى أحد الأمرين إذا ما حصل سيكون كميلاً نتردي الأوضاع وحصول الأزمة وتدهور أوضاع النقود من خلال زيادة السيولة النقدية وهما.

الأول: فساد نظر من أسند إليه النظر في ذلك وجهله بسياسة الأمور وهو الأكثر في الغالب.

الثاني: (الجائحة) التي أصابت ذلك الشيء حتى قل كما حصل في لحوم الأبقار دلموت الذريع الذي نزل بها

وما حصل في السكر نتيجة قلة زراعة قصبه واعتصاره.

يمكن القول أن المقريري من الرواد في الاقتصادي الإسلامي الذين نظروا في التضخم وعوامله، بسبب من المنهج الذي اعتمده، والذي استطاع من خلاله رصد الوقائع لتحليل ظاهرة القحط والغلاء (الأزمة)، واستباط الصياغات النظرية الأولية لتفسير ظاهرة التضخم النقدي والأساليب التي يراها لمعالجة هذه الظاهرة، إذ أشار بدون أي لبس إلى أن ظاهرة التضخم تكمن مسبباتها جريئاً في زيادة النقد وتوسيعه قاعدة السيولة النقدية، في حين يكون علاجها مقتصرأ من وجهة نظره في زيادة الإنتاج (العرض)، الذي يمكن من خلاله تحقيق التوازن بين العرض والطلب، وصولاً إلى الرفاه الاقتصادي إذ يقول (إن بقاء ما بأيدي الناس من الذهب والفلوس على ما هما عليه من غير زيادة ولا نقص، مع رد الأحوال والرفه والرحص إلى ما كانت عليه أولاً قبل هذه المحن يحقق فائدة جلية).

مما سبق يكون للمقرري في الفصل في الإشارة الأولى للتنظيم لموضوع التضخم النقدي والاستدلال على نظرية كمية النقود في تفسيره لظاهرة التضخم، بجانب توصله من دون أن يعلن ذلك إلى قانون أساس بشأن النقد، إذ يقرر على أن النقود الرديئة قد أزاحت النقود الحيدة. وهذا ما توصل إليه جريشام فيما بعد ليسمى بـ (قانون جريشام).

## هوامش ومصادر الفصل الخامس

- ١ القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية (١٥١).
- ٢ سورة الأنعام، الآية (١٥٢).
- ٣- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ط ٢، ج ٧، بيروت، ١٩٦٩.
- ٤- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي، دار الطليعة، ط ٢، بيروت ١٩٧٨، ص ٧.
- ٥- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، ط ٣، بيروت، ١٩٧٤، ص ٦٠.
- ٦- نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص ٦٥.
- ٧- أبو الحسن السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد، ج ١، القاهرة، ١٣٢٦هـ ص ١٢٥.
- ٨- جواد علي، مصدر سابق، ص ١٥٦.
- ٩- فاضل عباس الحسب، في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي، الدار العربية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٠.
- ١٠- للمزيد حول ذلك ينظر: شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر الرسالة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠.
- ١١- عبد الرحمن بدوي، دار العرب في تكوين الفكر الأوربي، بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٨.
- ١٢- فيصل السامر، نهضة التجارة في العصور الوسطى الإسلامية، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢١٧١، ١٩٨١، ص ٦١.

- ١٣- بدران أبو العنين، الشريعة الإسلامية، تاريخها ونظرية الملكية والعقود، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ٨٦
- ١٤- أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٢٣.
- ١٥- لييب شقير، مصدر سابق، ص ٩٢.
- \* للمزيد ينظر:
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ١٩٦٣، ص ٤٤٢.
  - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، الجف، ١٢٨٥ هـ، ص ٢٦.
  - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٨٥.
  - ١٦- ف. أنجلز، دياكتيك الطبيعة، دار التقدم، ١٩٥٥.
  - ١٧- عبد الله عبد العبي عام، المشكلة الاقتصادية في الإسلام، المكتب الجامعي، الإسكندرية (بلا)، ص ٩٩.
  - ١٨- البري، أصول الفقه الإسلامي، دار النهضة، القاهرة، (د.ت)، ص ١٣٣.
  - ١٩- سورة النمل، الآية (١٤).
  - ٢٠- سورة إبراهيم، الآية (٣٢).
  - ٢١- سورة الأعراف، الآية (٥٤).
  - ٢٢- سورة لقمان، الآية (٢٩).
  - ٢٣- سورة لقمان، الآية (٢٠).
  - ٢٤- سورة النور، الآية (٥٥).
  - ٢٥- سورة الحديد، الآية (٧).
  - ٢٦- سورة محمد، الآية (٢٨).
  - ٢٧- سورة هود، الآية (٥٧).
  - ٢٨- سورة الأعراف، الآية (٧٤).
  - ٢٩- عبد المنعم السيد علي، مدخل في علم الاقتصاد، الجزء الأول، دار الكتب- جامعة الموصل، ١٩٨٤، ص ٢٥.

- ٣٠- محمد دويدار وآخرون، أصول علم الاقتصاد السياسي.
- ٣١- للمزيد حول ذلك ينظر:
- Richard H. Leftwich , The price system & Resource Allocation , sixty Edition , Oklahoma State University , U.S.A. , ١٩٧٦. p.١١٤.
- ٣٢- بيير فثرمون، السكان والاقتصاد، ترجمة منصور الراوي، مطبعة النجوم، بغداد، ١٩٦٨، ص١٦٥.
- ٣٣- فرانسيس مورلايه وجريف كوليسيز، ساعة الجوع (حرافة البدر)، ترجمة أحمد حسان، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٣، ص١٨.
- ٣٤- صلاح الدين نامق، توزيع الثروة في النظامين الرأسمالي والاشتراكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص٥.
- ٣٥- مجموعة من المؤلفين السوفيت، الاقتصاد السياسي، ترجمة فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، ١٩٧٣، ص١٢.
- ٣٦- جورج سول، المذاهب الاقتصادية الكرى، ترجمة راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٢، ص٦٣.
- ٣٧- Kaldor N: Alternative Theories of Distribution , Review of Economic Studies , XXIII (٢) , ١٩٥٥ , p٨٣.
- ٣٨- سورة النحل، الآية (١٨).
- ٣٩- سورة فصلت، الآية (١٠).
- ٤٠- سورة البقرة، الآية (١٢٦).
- ٤١- سورة المائدة، الآية (١٥).
- ٤٢- عبد الله عبد الغني، مصدر سابق، ص٢٠٢.
- ٤٣- محمد علي الدمشاوي، روجيه غارودي، نموذج الحضارة الغربي نقلاً عن عبد الله عبد الغني، مصدر سابق، ص ١٩٧.
- ٤٤- فاضل عباس الحسب، مصدر سابق، ص١٧.
- ٤٥- المصدر السابق نفسه، المكان نفسه.
- ٤٦- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص٤٨.



- ٤٧- عبد القادر عودة، المال والحكم في الإسلام، دار القدير، ط ٢، بغداد، ١٩٦٤، ص ٥٧.
- ٤٨- أبو يوسف، الخراج، المطبعة السلفية، ط ٣، القاهرة، ١٣٨٢ هـ، ص ٦٥.
- ٤٩- سورة النساء، الآية ٥.
- ٥٠- إبراهيم الطماوي، الاقتصاد الإسلامي: مذهباً ونظاماً، ج ١، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٨٥.
- ٥١- مصطفى حسن السباعي، اشتراكية الإسلام، الدار القومية للطباعة، ط ٣، دمشق، ١٩٦٠، ص ١٠٣.
- ٥٢- عبد الجبار السبهاني، الاستحلاف، رسالة ماجستير، مقدمة إلى قسم الاقتصاد، جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص ١٠١.
- ٥٣- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٤٦.
- ٥٤- أبو الأعلى المودودي، ملكية الأرض في الإسلام، مطبعة الأمان، ط ٢، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٧.
- \*أبرز القائلين بهذه الآراء منتسكيو، تالكوت وآخرون من علماء الاجتماع وراذكليف براون، جورج دالتون، ليفي شتراوس من علماء الأنثروبولوجيا وسيسموندي وبوشر وكارل ماركس وآخرون من علماء الاقتصاد.
- ٥٥- محمد فاروق النيهان، شرعية تدخل الدولة (ندوة الاقتصادي الإسلامي)، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٣، ص ٣٧٨.
- ٥٦- أبو يوسف، مصدر سابق، ص ١٩.
- ٥٧- عبد الله عبد العني، مصدر سابق، ص ١٥٠.
- ٥٨- القرطبي، بداية المجهتد ونهاية المقتصد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٣٣ هـ، ص ١٧٥.
- ٥٩- أبو بكر الحزائري، منهاج المسلم، مكتبة كليات الأزهر، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٣٨٣.

- ٦٠ - القرطبي، مصدر سابق، ص ٢١٢.
- ٦١ - صادق مهدي السعيد، العمل والصمان الاجتماعي في الإسلام، مطبعة المعارف بغداد ١٩٧٠، ص ١٣٣
- ٦٢ - — عقد العمل والأجور في الإسلام، ندوة الاقتصاد الإسلامي، مصدر سابق، ص ١٤٩.
- ٦٣ - سورة القصص، الآية ٢٦.
- ٦٤ - سورة الطلاق، الآية ٦.
- ٦٥ - سورة الزخرف، الآية ٢٢.
- ٦٦ - وردت في الأحاديث في: صادق مهدي السعيد، مصدر سابق ص ١٥٠.
- ٦٧ - عبد الرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الإجارة، القاهرة، ١٩٣٥، ص ١٢٨.
- ٦٨ - محمد سلامة جبر، أحكام النقود في الشريعة الإسلامية، الكويت، ١٩٨١، ص ١٨.
- \*\*\* حد الكفاية لغة هي من الكمية (بضم فسكون) وهو ما يكفيك من العيش والكفاية من القوت ما فيه كفاية والجمع كفى، وكفاه الشيء كفاية استعنى به عن غيره وفي التبريل قوله تعالى (وكفى بالله شهيدا). سورة الفتح، الآية ٢٨.
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج ٣، ص ١٩١.
- ٦٩ - عبد الرحمن الجزيري، مصدر سابق، ص ٣٤٢.
- ٧٠ - القرطبي، مصدر سابق، ص ٢٣٣.
- ٧١ - رفعت السيد العوضي، في الاقتصاد الإسلامي، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ١٤١٠هـ، ص ٣.
- ٧٢ - المصدر السابق، ص ٦٥.
- ٧٣ - سورة المائدة، الآية ٨.
- ٧٤ - سورة الحشر، الآية ٧.

- ٧٥ سورة الزخرف، الآية ٣٢.
- ٧٦- سورة النحل، الآية ٧١.
- ٧٧- سورة البقرة، الآية ١٧٢.
- ٧٨- نجم الدين الشيعلي، نمط الاستهلاك الإسلامي وأثر الحاجة الاقتصادية فيه، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى معهد التاريخ العربي، بغداد، ١٩٩٩، ص ١٦٥.
- ٧٩- الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٨.
- ٨٠- سورة الفرقان، الآية ٦٧.
- ٨١- سورة الإسراء، الآية ٢٩.
- ٨٢- سورة الأعراف، الآية ٣٣.
- ٨٣- سورة المعارج، الآية ٢١.
- ٨٤ سورة النور، الآية ٥٥.
- ٨٥- سورة العنكبوت، الآيات (٦،٧).
- ٨٦- سورة النور، الآية ٣٣.
- ٨٧- سورة الذاريات، الآية ١٩.
- ٨٨- سورة الإسراء، الآية ٢٦.
- ٨٩- محمد بن حسن العاملين، الوسائل، ج ١١، ص ٥٩٩.
- ٩٠- هشام العمري، اقتصاديات المالية العامة، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨ ص ٢٠٦.
- ٩١- سورة البقرة، الآية ٢٦٧.
- ٩٢ يوسف القرصاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مكتبة وهبة، ط ٢، القاهرة، (د.ت)، ص ٦٢.
- ٩٣- القرطبي، مصدر سابق، ص ٢٨٣.
- ٩٤ سورة الإسراء، الآية ٢٦.
- ٩٥- سورة الروم، الآية ٢٨.

- ٩٦- نعمان ياسين، مصدر سابق، ص١٨٦.
- ٩٧- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تصحيح أدوارد سخو، طبعة ليدن، ١٣٤٧هـ ص ٢٢٨.
- ٩٨- الإمام علي بن أبي طالب (ع)، نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده، مطبعة الاستانة، القاهرة، (ب.ت)، ص١١١.
- ٩٩- لبيب شقير، مصدر سابق، ص ٨٤.
- ١٠٠- محمد وقيدى، العلوم الإنسانية من ابن خلدون إلى أوغست كونت، دراسات عربية، العدد ٢٦، ١٩٩١، ص ٢٢.
- ١٠١- محمد مبارك، نظرات في التراث، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٠.
- ١٠٢- علاء حمرون، قضية الدولة عند ابن خلدون، مجلة الممار، العدد ٣٤، ١٩٨٧، ص ٣٢.
- ١٠٣- عادل عبد المهدي، الفكر الاقتصادي في المجتمعات العربية بين مفهومي الحاه والملكية استناداً إلى ابن خلدون، الفكر العربي المعاصر، ع ٢، ١٩٨٠ ص ٤٠.
- ١٠٤- محمد حلمي مراد، أبو الاقتصاد ابن خلدون، بحث مقدم إلى مهرجان أعمال ابن خلدون، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٣٠٩.
- ١٠٥- فاضل الحسب، آراء المقرئزي الاقتصادية، من ندوة الاقتصاد الإسلامي، مصدر سابق، ص ٤٦١.
- ١٠٦- فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، ج ١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨١، ص ٩١.
- ١٠٧- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، دار ابن الوليد، حمص، ١٩٥٦، ص ٤٣.



## **الفصل السادس**

### **الفكر الاقتصادي للرأسمالية التجارية الماركنتيلية**

MERCANTILISM



## الفصل السادس

### الفكر الاقتصادي للرأسمالية التجارية الماركنتيلية

#### MERCANTILISIM

تمهيد

يبدو أن تعبير (الماركنتيلية) أطلقه آدم سميث في كتابه (ثروة الأمم) للدلالة على السياسات والآراء الاقتصادية التي قدمها الكتاب السياسيون ورجال القانون، وقد اطلق على مجموعة هذه الافكار والرؤى (النظام التجاري أو الماركنتيلي The commercial or Morcantile) <sup>١</sup>.

لقد ساد هذا الفكر ما بين حوالي ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ في إنكلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وروسيا والسويد وإيطاليا وغيرها من الدول الأوربي، وتعرض إلى النقد الشديد من قبل آدم سميث مخصصاً جزءاً كبيراً من كتابه ثروة الأمم للهجوم عليه.

استرشدت أغلب الدول الأوربية بهذه الأفكار والسياسات للتدخل في الحياة الاقتصادية، لعرض الحصول على الثراء ومن ثم بناء قوتها العسكرية والسياسية وتحقيق وحدتها القومية، ولهذا فإن المذهب التجاري لم يكن سوى وسيلة لتحقيق هذه الأهداف.

إن تياراً فكرياً يستمر هذه المدة الطويلة من الزمن (ثلاثة قرون)، من الطبيعي أن لا يكون مسوَباً إلى مؤلف أو كاتب واحد، ولم يتكون دفعة واحدة، بحانب أن وقع الأوضاع الاقتصادية عليه كان عاملاً على أن يكون بأكثر من نوع

وما يمكن قوله أن هناك اتجاهين رئيسيين فيه، فالآراء التجارية التي أثبتت الوسادة لظهور وتطور الرأسمالية التجارية تعكس أيديولوجيا نشوء هذه الرأسمالية في حين جاءت الأفكار التجارية المتأخرة وقبيل الثورة لصاعية (أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر) تعكس حاجات الرأسمال الصناعي



ومتطلباته، وكان لهؤلاء الكتاب الفصل في وليم بتي W. Petty وجيمس ميل J. Mill.

ما يمكن الإشارة إليه هو أنه على الرغم من أن جميع الأفكار التجارية تلتقي على فكرة أساسية، إلا أن وسائلها العملية احتلّت من بلد أوروبي إلى آخر. بيد أن بعض الكتاب لا يرى في المذهب التجاري إلا سياسات اقتصادية لم ترتق إلى كونها أفكاراً اقتصادية، وليس لها قيمة تذكر في محال النظرية والتحليل الاقتصاديين، (آراء شمولر Schmoller)، فيما يديها آخرون بأنها نظرية متخلفة لا تتمتع بقدر من الأصالة العلمية (آراء هكشر Heckscher).

فيما يأخذ الفريد بركن (A. Buergin) موقفاً وسطاً، ليدعي أن المذهب التجاري هو النظرية والتطبيق الاقتصاديان للنظام الرأسمالي في مرحلته الأولى، المرحلة التجارية<sup>٢٢</sup>، فهي الخطوات الأولى من التحليل الاقتصادي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال عدّها محاولة غير متكاملة وبدائية في وضع نظرية اقتصادية، وإنما كانت انطلاقاً من الطرف الذي كان سائداً فهي نظرية ثلاثية متطلبات مرحلتها.

لم يظهر الفكر الماركنتيلي في أوروبا مصادفة، بل أن أسس المادية كانت تتزعزع في أحضان النظام الإقطاعي والتحوّلات في طبيعة النشاط الاقتصادي بدأت بالظهور، وإن تراكمها من شأنه أن يفضي إلى نظام اقتصادي جديد وإلى بناء فكري يحسد ما يعتمل به الواقع.

على الرغم من عدم الإقرار على أي من المسببات في تفسير ظهور الرأسمالية أواخر العهد الإقطاعي، والتي تراوحت ما بين عوامل داخلية وأخرى خارجية، في حين يرى آخرون أن هناك عوامل نفسانية وروحية لها دورها الكبير في إحداث جملة من هذه التطورات هي التطور الاقتصادي والتطور النفسي والتطور السياسي.

بينما نلاحظ اقتصاديين آخرين يصنفون العوامل إلى بعيدة غير محسوسة وعوامل مباشرة، ويدخلون الإصلاح الديني وحركة الأحياء ونشوء الدول والروح الفردية كعوامل غير مباشرة في حين يشكل ازدياد العلاقات البضائية- النقدية وتطور المصارف والتجارة وغيرها عوامل مباشرة. إلا أن جميع هذه العوامل لها دور كبير في ظهور الفكر الماركسيتي تعبيراً عن نشوء الرأسمالية.

## المبحث الأول

### الأوضاع الاقتصادية- الاجتماعية الداعمة لظهور المذهب التجاري

ليس الارتقاء التاريخي للمجتمع الإنساني سوى تعبير عن انتقال من تشكيلة اقتصادية واجتماعية إلى تشكيلة أخرى أكثر رقياً، وكل تشكيلة تمثل المجتمع في مرحلة معينة من تطوره، والتشكيلة تعني مستوى محدداً من تطور القوى الإنتاجية، مطومة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المميزة لهذه التشكيلة، المؤسسات السياسية والنظريات الأيديولوجية.

إن الانتقال من التشكيلة الإقطاعية إلى التشكيلة الرأسمالية، يفترض أساساً وصول نمط الإنتاج السابق إلى أزمته وأماطه ويستهلك فرصته التاريخية، بحيث يجعل من الصعب الإقرار على أن وقع الحياة الاقتصادية يحض لظهور إنتاج هذا النمط، مما يستلزم منا الإشارة إلى طبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عند نهايات الإقطاع وبخاصة الأوربي منه، أي قبل ظهور الاقتصاد الرأسمالي لتفسير مضمون التطور الحاصل.

من المؤكد أن واحداً من المظاهر المميزة للإقطاع المكتمل، هو نهوض المدن بصفاتها نقاط احتشاد حرفي وتجاري ومراكز إنتاج سوقي، وأن التحسن المتواصل الذي يطرأ على أدوات الزراعة أدى إلى أن تصبح الأسرة الفلاحية تركز وقتاً أطول إلى النشاطات الحرفية المساعدة، مما أضعف باستمرار كون الزراعة المصدر الوحيد للرزق، بل صار في مقدور الأقبان افتداء أنفسهم، أو أن يسعوا إلى الفرار من قراهم باتجاه المدن.

هذا من شأنه أن كسر حاجز تقديس سلطة الإقطاعيين والموالي، وأضعف الإنتاج الإقطاعي القائم على جهود الأقبان ومقابل تزايد حاجة الموالى والإقطاعيين إلى الأموال، كان هناك ازدياد في القهر الطبقي وهروب أكبر للفلاحين وهكذا

كانت الحاجات الإقطاعية للطبقة الإقطاعية تدفع باتجاه المزيد من القوة الاقتصادية للبرجوازية. كانت مصادرة الفلاحين القسرية وسيلة للتراكم البدائي لرأس المال، بجانب ازدياد حاجة السلطات إلى المال للإنفاق على الجيش والجهار الإداري، فما كان لها سبيل إلا الاقتراض من التجار والمرايين مقابل فوائد مرتفعة. وهذا ما كان له أن يحدث لولا، الإصلاح الديني الذي سعت البرجوازية لتحقيقه وبخاصة ضد الكاثوليكية بصفتها الأساس الأيديولوجي الإقطاعي. ولدعوة إلى منظومة عقائدية جديدة تقدم روح المؤمن وشعوره الشخصي على البنى المنظورة للكنيسة، وكان من نتائج هذا الإصلاح إحداث شرح كبير في الطابع الصلب للتراتب الهرمي الإقطاعي، وكرر من نتائج ذلك أن أباحت الاقتراض والفائدة وإصعاف العلاقة بين الكنيسة والأفراد وعدّ مضاعفة الثروات والأرباح حتى وإن كان على حساب العمال عمل (بر وتقوى)<sup>(٣)</sup>.

إن الأوضاع الاقتصادية الدافعة بقوة نحو التطور في قوى الإنتاج وتمجيد الحرية الشخصية وإطلاق العلم والاكتشاف، استوجب ضمناً ضموراً كبيراً لاصطفاف الكنيسة مع الإقطاع، وإصعاف الميثاقيزيقي التي أدت إلى فقدان السعي لدى الشر، مما نتج عنها تركيز أوضاع التطور رمزاً كبيراً، وإعلاء شأن العقل والإتيان بتفسير علمي للظواهر والوجود.

ويجمع أكثر الباحثين في الفكر الاقتصادي، على أن هناك عوامل عديدة عملت على تسريع ظهور النظام الرأسمالي التجاري عدوها (دعائم لظهور المذهب التجاري) وهي:

أولاً: الاستغلال المتزايد لرقيق الأرض

أدى طابع الاستغلال المتزايد لرقيق الأرض إلى تزايد هجرتهم أو هروبهم من الريف إلى المدينة، هذا الاستغلال كان نتيجة طبيعية لتزايد السعي الحثيث للإقطاعيين على تقوية مراكزهم ونفوذهم على الآخرين، مما زاد من حاجتهم

للموارد المادية لزيادة عدد الجنود والأتباع، مضافاً إلى ذلك المحافظة على حياة الترف والذخ والإسراف التي ألفها الإقطاعيون، هذا يحتم عليهم زيادة استغلالهم للرقيق من خلال مطالبتهم بريع أكبر مما كانوا يحصلون عليه قبل ذلك.

بحيث أصبح الريع الإقطاعي يعادل من حيث المقدار المنتج الفائض للفلاح القن، ويتجاوز أحياناً ليشتمل على جزء من منتجه الضروري، متجاوزاً الشكل الأول للريع (السخرة)، إذ أصبح من الأربح إلى الإقطاعي الحصول على منتجات الفلاحين الجاهزة، وعندئذ أصبح الإقطاعي لا يستحوذ على العمل الفائض للفلاح بل منتجه الفائض تحت شكل عيني<sup>(١)</sup>.

ومع تطور العلاقات النقدية- السلعية طهر الريع النقدي، الذي كان ظهوره على شكل فريضة نقدية، يطالب بها الإقطاعي بدلاً من الصورة العينية، لقد ساعد تلعلل العلاقات النقدية- السلعية في القرية الإقطاعية على أحداث تمايز لاحق بين الفلاحين أنفسهم. مما دفع بالكثير منهم إلى الهروب من حياة البؤس والحرمان والشقاء في الريف إلى المدينة.

لقد ترتب على هذا أن أخذت المدن تستعيد أهميتها شيئاً فشيئاً، والتي كانت تحظى بها إبان الإمبراطورية الرومانية، مما ترتب على ذلك أن تصبح المدن قوة مناهضة للنظام الإقطاعي، يترجم ذلك التجار الذين كانت تقتضي مصالحهم تهتك روابط هذا النظام، انطلاقاً من مصاعفة النشاطات الاقتصادية وغير الاقتصادية من أجل الحصول على ربح أكبر.

ولما كانت القيود الصارمة التي يفرضها التنظيم الإقطاعي على المدن بوصفها جزءاً خاصاً للإقطاعي، تقف حجر عثرة في طريق التجار الذين كانوا يحتاجون لقسط وافر من الحرية، فقد قد هؤلاء الصراع بين المدن والريف وشجعوا بشكل غير مباشر الأقبان على شق عصا الطاعة للإقطاعيين.

## ثانياً: الاستكشافات الجغرافية

لا يمكن الإقرار على أن الاستكشافات الجغرافية لوحدها قادت إلى ظهور النظام الرأسمالي التجاري، كما ترغم أطروحات بعض المدارس المفسرة لولادة الرأسمالية تحت تأثير الاكتشافات الكبرى<sup>٥</sup>، بل رعم من الدور الذي أدته هذه الأخيرة في إحداث التراكم البدائي لرأس المال من ناحية، والتنافس بين البلدان الأوروبية لاستعمال بلدان أخرى.

إلا أن التسطّيح في التحليل يجعل بعض الاقتصاديين يبالغون في أهمية الاستكشافات الجغرافية، (كعامل مستقل) في نشوء النظام الرأسمالي، أو أهمية بعض التطبيقات التكنيكية المتصلة بها من مثل استخدام (البوصلة، البارود) أو أهمية الروح الجديدة، روح المخاطرة والمجازفة والسيطرة على الطبيعة أو قيام بعض النظم المعرفية والقانونية، عدا أنها جميعاً تستمد أهميتها التاريخية من مساحتها في خلق السوق العالمية.

لقد كان لاستيلاء الأتراك في عهد السلطان محمد الثاني على القسطنطينية عام ١٤٥٣، وسعيه إلى توسيع دائرة السيطرة العثمانية على أوروبا، بعد احتلاله للبوسنة واجتياح البلقان فيما بعد، محولاً اليونان وصربيا وبلغاريا وهنكاريّا الشرقية إلى مقاطعات عثمانية<sup>٦</sup>.

وما ترتب على هذا من انقطاع طرق الاتصال والتجارة مع الشرق، العامل المباشر للاستكشافات الجغرافية في أواخر القسم الخامس عشر في محاولة لإيجاد طرق تجارية أخرى، تربط أوروبا بالشرق بعيداً عن السيطرة التركية التي امتدت لتخضع الشرق العربي كله.

فيما شكل نهب الأراضي المستكشفة حديثاً والمحوّلة إلى مستعمرات، آفاقاً رحبة أمام التراكم الرأسمالي، وكان لألاء الكسب تدفع بالأوروبيين نحو مناطق جديدة، وكان أول ما تدبر لنفسه مستعمرات هم الموالى والتجار الأسبان

والبرتغاليون وقد أوصل طمأ البرتغاليين إلى الذهب إلى سواحل أفريقيا، ثم شقوا طريقهم على امتداد الشاطئ الشرقي لتلك القارة حتى بلعوا أخيراً الهند.

ففي عام ١٤٩٢ وصل كريستوف كولومبس الملاح الجنوبي (نسبة إلى جنوا)، العامل في خدمة ملك أسبانيا إلى سواحل أميركا، وأعلنت جميع الأراضي التي وطأتها قدماء ممتلكات للناج الإسباني، وفي عام ١٤٩٨ اكتشف دي كاما الطريق إلى الهند.

وأكتشف كابرال البرازيل عام ١٥٠٠، وفي مستهل القرن السادس عشر وتحديد عام ١٥١٩ اكتشف ماحلان البرتغالي العامل في خدمة عاهل أسبانيا، الطريق الجنوبية-الغربية للشرق الأقصى، وأثبت اتصال المحيط الأطلسي بالمحيط الهادي<sup>(٧)</sup>. لقد تركت الاستكشافات الجغرافية أثراً كبيراً على أوروبا وغيرها من البلدان، وهي:

- ١- توسع السوق أمام البضائع الأوروبية التي أخذت بالتزايد.
- ٢- تحول طرق التجارة الكبرى التي تصل أوروبا الغربية بالشرق.
- ٣- بداية الصراع بين الدول الأوروبية للاستحواذ على ثروات الدول التي أخضعوها فقد دشنت أسبانيا والبرتغال عهد الاستعمار تبعثها هولندا وإنكلترا وفرنسا.
- ٤- عمل المستعمرون على نهب البلدان التي وطأت أقدامهم فيها، فقد نهبت أسبانيا ثروات الأزتيك في المكسيك والآنكا في البيرو، وقضت قضاءً مبرماً على حضاراتهم المتطورة، ومثلهما فعلت بريطانيا بالهند ودمرت حضارتها وصناعاتها النسيجية.
- ٥- تعرضت أفريقيا التي تكالب عليها الاستعمار الأوروبي إلى أكبر عملية نهب وإبادة في التاريخ فبجانب نهب ثرواتها (فضة والذهب)، راح تجار الأبتوس يأسرون مئات الآلاف من الناس ويضربون عليهم الأغلال

ويرحلونهم إلى أميركا الشمالية والجنوبية والوسطى، إذ تم نقل أكثر من (١٥ مليون) أفريقي عبر ما سمي بالتجارة المثلالية<sup>(٨)</sup>.

٦- ألزم التنافس بين تجار أوروبا للسيطرة على أسواق البلدان المستعمرة إلى استدعاء الدولة لتؤدي دورها في حماية الرأسمالية الناشئة<sup>(٩)</sup>.

### ثالثاً: تراجع سلطة الكنيسة

ظلت حصاره العصر الوسيط الأوربي الأخلاقية تحمل البصمة العميقة للدين والكنيسة، إذ كان الدور الفاصل في أيديولوجيا المجتمع الإقطاعي ترجع إلى الدين، وفي أوروبا للكنيسة، فقد كانت بما تطلقه من وعود عن السعادة في السماء تعويضاً عن الأوجاع في الأرض، تمارس وظيفة ترويض المجتمعات لصالح مالكي الأرقاء والأقمان.

وتعكس بنية الكنيسة (الكاثوليكية) طبيعة التراتب الهرمي المألوف للإقطاع، إذ كان على رأسها البابا والسدة الرسولية، ثم يأتي بعد ذلك الكرادلة والأساقفة والآباء...الح، وعند أسفل السلم كان هناك خواربة الأبرشيات كانت الكنيسة نفسها تعد من أكبر الملاك العقاريين، فقد كنت في حورتها أراضي زراعية كبيرة وغيابات ومرارح شاسعة ومرابط حيول لا يحصى لها عد وقطعان هائلة، وكان أمراء الكنيسة يجنون فضلاً عن ذلك العشر، أي عشر مدخول كل فلاح<sup>(١٠)</sup>.

ولما أضحت الكنيسة طوال العصر الوسيط ماصرة للإقطاع، فيما طلست الرغبة في الاعتناق من السخرات والالتزامات الأخرى تحاه المولى رغبة عامة عند الأرقاء، فقد كنت التناقضات الاجتماعية تزداد شيئاً فشيئاً، كلما بلغ الإقطاع كتشكيلة اجتماعية اقتصادية طور النضج.

إد اجتاحت أوروبا بأسرها مد من الانتفاضات لأرقاء الأرض وفقراء المدن، وحسبنا أن نذكر ثورة الرعاة في عام ١٢٥١، وفي فرنسا ١٣٢٠ والحركة التي نرعمها دولشيو في إيطاليا ١٣٠٥ ١٣٠٧، وانتفاضة أيتن مارسيل بين ١٣٥٧-١٣٥٨ وتمرد فات تايلر في ١٣٨١ في إنكلترا<sup>(١١)</sup>.



هذه الانتفاضات بقدر ما كانت موجهة ضد الإقطاع، فإنها موجهة ضمناً ضد الكنيسة لهذا عجلت مواقف الكنيسة بظهور المذهب البروتستانتي، الذي ساند ذلك كفاح البرجورية ضد الكاثوليكية التي تقف سطوتها الدينية والدينية ضد مصالح هذه الطبقة، ولإصلاح دور الكنيسة كان لابد من أن يظهر المذهب البروتستانتي بروح ومعالم وسمات مختلفة، فقد كانت في تأويلها للأوضاع مختلفة عن الكاثوليكية فهي تعد الكتب المقدسة المصدر الوحيد لمعرفة الحقيقة، إذ ترى أن المؤمن حر في تأويلها على النحو الذي يحلو له دون أن يتوجب عليه الانصياع لسلطة عقائدية إن موطن الإصلاح الديني كان في ألمانيا، إلا أن البروتستانتية قد تجسدت مذهباً في أفكار جان كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤)، والذي كان أكثر تحملاً في أفكاره الاقتصادية من مارتن لوتر (١٤٨٣-١٥٤٦)، الذي لم يبتعد بأفكاره عن أفكار رجال الدين في القرون الوسطى، في حين كان كالفن واقعياً وكانت أفكاره الاقتصادية منسجمة مع روح العصر.

فهو لم ينتقد التجار والسيارة والممولين، كما أنه دعا إلى الحرية الفردية في الدين، وسلك قصة على سلطة الكنيسة على أفكار الأفراد، ويمكن بيان الآثار التي تركتها هذه الأفكار على النظام الإقطاعي وهي<sup>(١٣)</sup>؛

- ١- أباحت الربا والفائدة والاندفاع للحصول على الأرباح وجمع الأموال والثروات.
- ٢- أثرت على سلوك الفرد الاقتصادي في إطار الحرية الفردية.
- ٣- أدت إلى إعادة توزيع الثروات والدخول في الأقطار التي شملها الإصلاح. فقد كانت الكنيسة البابوية تملك ثروات طائلة في معظم الأقطار المسيحية حتى قدر أن أكثر من ثلث ثروة إنكلترا كانت تعود إلى الكنيسة<sup>(١٤)</sup>. بالإضافة إلى الهبات والهدايا والإعانات، وبعد الإصلاح صودرت أملاك الكنيسة وأراضيها وثرواتها ووزعت الحكومات أراضيها

في هذه الأقطار، وهكذا تبدو الكنيسة قد أزيحت جانباً مفسحة المجال للسلطة  
الدنيوية

#### رابعاً: الدولة القومية

أدى تراجع سلطة الكنيسة والإقطاع إلى أن عملاً الفراع من الدولة المطلقة المدعومة من  
البرحوارية. ولينتشكل حلفاً قوياً ضد الكنيسة والإقطاع، فالدولة لا ترغب بأن تنارعها قوة أخرى على  
السلطة المركزية، وهي حاجة إلى الرأسمالية التجارية لتمويل الجهار البيروقراطي المتنامي وعساكر  
المرتزقة، وبالمقابل كانت الرأسمالية التجارية بأمر الحاجة للدولة القومية لحمايتها في صراعاتها مع  
الإقطاعية في الداخل، ومنافسة المغامرين في دول أوروبا الأخرى في الخارج.

في أواخر القرن الخامس عشر أخذت بعض الدول القومية في غرب أوروبا بالظهور، فيما  
شكلت معاهدة وستفاليا (Westphalia) عام ١٦٤٨ في فرنسا، إقراراً على نشوء الدولة الحديثة،  
وهذه الدول إنكلترا-فرنسا- أسبانيا-هولندا وغيرها، أصبحت وحدات سياسية مستقلة ذات سلطة  
مركزية قوية كما أصبحت تدل عليه الآن، وكان لها ملوك حقيقيون، إلا أن سيطرتهم كانت محصورة  
في نطاق صيق ولم تتركز تمتد إلى سائر أنحاء بلدانهم أو ممالكهم، إذ أن النبلاء الإقطاعيين كانوا  
يدفونهم في السلطة. إن التمازج الطبقة التجارية والمستفيدة من الأوضاع بحاب رغبة الطبقت  
الفقيرة التي تمت أن تعرف الأمر أو أن تحكم بصورة جيدة، وأضحى كل هؤلاء مستعدين للتعاون  
مع الحكومة وقبول سلطة الملك بحماسة، لم تعكس القرون السابقة مثلاً لها<sup>(١٤)</sup>.

إن الظروف حينذاك كانت ملائمة لقيام مثل هذه الدول، فالإقطاع بدأ يصعب ومعه  
صعفت سلطة النبلاء، والعوامل التي أدت إلى إضعاف الإقطاع كانت من أهم العوامل التي  
ساعدت على قيام هذه الدول، والعكس صحيح أيضاً، إذ أن قيام الدولة القومية كان من أهم  
الأسباب التي أضعفت الإقطاع. ويجمع المفكرون والدارسون لتاريخ أوروبا، إن من أهم الأسباب التي  
أضعفت الإقطاع بصورة مباشرة هي:

- ١- استعمال البارود الذي تم جلبه من الصين لدك حصون البلاء وقلاعهم.
- ٢- نمو المدن وزيادة ثرائها وملجأ للعارين من سطوة الإقطاع
- ٣- انتشار العلاقات السلعية-النقدية وزيادة استعمال النقود وحماية الصرائب.
- ٤- قيام الدولة القومية.

أدت هذه الظروف إلى ظهور بعض الأمراء والملوك الأقوياء الذين اغتتموا الفرصة، فقد تمكن هنري السابع الذي حكم ما بين عام (١٤٨٥-١٥٠٩)، من توحيد إنكلترا وإشياء دولة ملكية قومية فيها، وتدعم اقتصاد إنكلترا وتوسع إمكاناته كثيراً وشرعت قوانين اقتصادية عديدة لحماية الصاعات الناشئة وتشجيع استيراد المواد الأولية، ومنع تصدير المعادن التمية وبناء الأسطول التجاري وتقوية الأسطول الحربي، هذا حدث في حكم هنري السابع وولده هنري الثامن الذي حكم بين (١٥٠٩-١٥٤٧) الذي أصدر القوانين الدموية.

ومثله في فرنسا فقد تمكن لويس الحادي عشر الذي حكم بين عامي (١٤٦١-١٤٨٣)، من تركيز السلطة بيده وأن يمضي قدماً في توحيد البلد وتقويته حتى أصبحت فرنسا في عهده إحدى الدول الكبرى في أوروبا، وكذلك الحال في أسبانيا التي ظهرت فحأة على المسرح الأوربي كدولة قومية موحدة، عندما تروح الملك فرديناند ملك أراغون من الملكة إيرابيللا ملكة قشتالا عام ١٤٦٩. ومن الملاحظ أن قيام دولة قوية بمعناه السياسي يتطلب أمرين:

الأول: توحيد الدولة من خلال ضم المقاطعات التي كانت تحت سلطة الإقطاع.

الآخر: إن لا تنازع سلطة الدولة سلطة أخرى سواء أكانت دينية أم زمنية، وهذا يعني ضمناً نفي أية سلطة للإقطاع أم للكنيسة.

إن متطلبات إنجاز هذين الأمرين يتطلب أن ترسم السياسة بحيث لا تتأثر بمبادئ الأخلاق أو الدين، بل عليها أن تحقق الغايات الكبرى التي وحدث من أجلها.

ولقد كان ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) الناطق بلسان عصره ومعبراً عن احتياجات الدولة آنذاك، وقد أوضح كل تصوراتهِ في كتابهِ (الأمير)<sup>(١٥)</sup>، فيقرر أن الأحوال تحتاج إلى أمير أو ملك قوي يحقق وحدة الدولة وقوتها، وأن هذه الغاية تبررها كل الوسائل المتخذة من قبل الأمير<sup>(١٦)</sup>.

## المبحث الثاني

### الانتقال إلى نمط الإنتاج الرأسمالي

الرأسمالية توجد حين لا تكون وسائل الإنتاج التي هي نتاج العمل الاجتماعي مسيرة من المجتمع كله، بل من طبقة أو شريحة من هذا المجتمع، وتظهر حين يصبح تطور القوى المنتجة متقدماً لدرجة يصبح معها من غير الممكن للمنتج نفسه أن يملك وسائل الإنتاج، فالفلاح والحرفي التقليدي يصنعان بأنفسهما أدواتهما، إما العامل فلا يستطيع أن يصنع بنفسه مصنعه. فالنمط الرأسمالي يتحدد إذن بثلاث خصائص أساسية هي<sup>(١٧)</sup>:

- ١- تعميم الشكل السلعي على الإنتاج الاجتماعي برمته.
  - ٢- اكتساب قوة العمل نفسها لهذا الشكل السلعي، أي أن المنتج بعد أن أصبح مفصولاً عن أدوات إنتاجه قد تحول إلى عامل.
  - ٣- اكتساب المعدات نفسها أيضاً الشكل السلعي.
- ففي الوقت الذي تكتسي فيه الحياة الاقتصادية في المجتمعات ما قبل الرأسمالية أشكالاً غير سوقية، فإن الاقتصاد والأشكال السوقية تصبح في النمط الرأسمالي ذات معنى واحد. فقد تم الانتقال من أسلوب الإنتاج الإقطاعي إلى أسلوب الإنتاج الرأسمالي بطريقتين، من جهة تطور الإنتاج السلعي البسيط (Simple commodity production) والدور الذي أداه في ذلك الرأسمال السلعي. ومن جهة أخرى دور الرأسمال التجاري في تفكيك الاقتصاد الطبيعي (الحرفي والفلاحي) إسهامه في قيام الإنتاج الرأسمالي.

أولاً: طبيعة التحولات في القطاعات الاقتصادية

#### ١- القطاع الحرفي

شهد العهد الإقطاعي تطوراً تدريجياً في نظام الإنتاج السلعي البسيط، أي إنتاج الحرفيين الصغار والفلاحين القائم على الملكية الخاصة غير الاستثمارية

لأدوات الإنتاج والعمل الفردي، وإنتاج السلع لأغراض التبادل، وأدرك تطور القوى الإنتاجية مستوى رفيعاً، ظهرت معه العلاقات الرأسمالية تعلن عن ظهورها في رحم الاقتصاد الإقطاعي في كل مكان، وكان هذا مرتبطاً بصلة وثيقة بتكون وتبلور طبقتين حديقتين، هما البرجوارية مالكة وسائل الإنتاج وأدواته، والعمل الأجراء المحرومون من تلك الوسائل المضطرون أحياناً إلى بيع قوة عملهم للرأسماليين.

وكان لتطور القوى الإنتاجية الشرط الأول لولادة النظام الرأسمالي في رحم التشكيلة الإقطاعية، من خلال دفع عطف الإنتاج السعوي البسيط نحو تحويل أجراء كيرة منه إلى الإنتاج الرأسمالي، مستنداً على خصائص معينة هي:

أ- اختلاف ظروف وشروط العمل الفردي اختلافاً كبيراً بين الوحدات الإنتاجية، بسبب اختلاف الأدوات أو المهارة، مما يؤدي إلى اختلاف كبير في نفقات الإنتاج، بالرغم من وحدة أسعار السوق، بسبب من ضيقها الشديد.

ب - شدة المنافسة بين المنتجين، من أجل خلق ظروف إنتاجية أفضل تساعد في خفض التكاليف وتحقيق أرباح أعلى.

ج- التمايز الاجتماعي بين المنتجين، فيرداد فقر الفقراء منهم ويتحولون إلى عمال أجراء، بينما تثرى أقلية ضئيلة ويتحول أفرادها إلى منتجين رأسماليين.

إن نمط العلاقات الإقطاعية ولاسيما الحرفية في نظام الطوائف عقبة تقدم قوى الإنتاج، ولهذا بدأت الوحدات الحرفية الشيطة تحتال على النظام وتتهرب بمختلف الوسائل من قيوده، وتطبق أساليب عمل تريد الإنتاج وتستعمل عدداً أكبر من الصناع، وتتحول تدريجياً إلى وحدات رأسمالية قائمة على استثمار عمل الحرفيين الفقراء. أي أن الطوائف المهنية الإقطاعية أصبحت عقبة تحول دون تطور الإنتاج السعوي الصغير إلى إنتاج رأسمالي، فكان يحب استدالها بعلاقات إنتاجية

جديدة، وكان النظام الرأسمالي انعكاساً لهذه الضرورة التاريخية. وكان القطاع الحرفي هو القطاع الأكثر أهمية في نظر التجار، ولهذا فإن السيطرة عليه تمثل أولوية في جدول أعمال التجار، وبالتدريج فقد جرى تحويل الإنتاج الحرفي الصغير إلى إنتاج رأسمالي عبر الخطوات الآتية:

أ- ابتداءً كان التاجر مجرد (وسيط) في مبادلة سلع المنتجين السلعيين زراعية وصناعية، وبعض إنتاج الإقطاعيين الذي يدخل المبادلة.

ب- تطور دور التاجر إلى (محتكر للشراء) من المنتجين الصغار، وذلك لغرض بيع سلعهم في سوق أوسع، وقد مكّنه هذا الدور من السيطرة على قسم كبير من المنتجين الصغار، عن طريق تسليفهم المال والمواد الخام ولوارم الإنتاج الأخرى، مقابل التعهد بالبيع له بسعر رخيص جداً متفق عليه مقدماً.

ت- اتحاد التاجر دور (المورع) للمواد الأولية على المنتجين الصغار مقابل مبالغ يحددها التاجر، وبهذا ضمن التاجر تعيّنهم له وسيطرته على الإنتاج الحرفي، مما مهد بشكل مباشرة لمرحلة المشاغل اليدوية.

ث- أفصت المراحل السابقة إلى تحول المنتج الصغير إلى عامل بالأجرة لدى الرأسمالي التجاري، بعدما فقد أدوات إنتاجه وتحول الرأسمالي هو الآخر إلى رأسمالي صناعي.

كان من الطبيعي أن تؤدي هذه الأوضاع إلى ولادة المؤسسات الرأسمالية الأولى، المشاعل اليدوية (المانيفكتورات Manufactories)، والتي ظهرت مكرراً في إيطاليا، إلا أنها أصبحت نظاماً سائداً في الصناعة الأوروبية ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر، هذه المشاعل اليدوية تحولت إلى مصانع آلية في ظل الثورة الصناعية بمجرد استخدام القوى الآلية (البخار)، لتعلن عن انبثاق الرأسمالية الصناعية (Industrial Capitalism).

## ٢- القطاع الزراعي

أدى الرأسمال التجاري دوراً مماثلاً لما قام به في القطاع الحرفي في تفكيك نظم لاقتصاد الريفي الطبيعي، فبدخول التاجر وثروته النقدية الجديدة إلى هذا القطاع، حدثت تحولات اجتماعية داخل النظام الإقطاعي، انتهت بتفكيك أسس الرقعة الإقطاعية والتمهيد لرسميتها، ومن ثم انشق النظام الرأسمالي، وقد اعتمدت الخطوات الآتية لإحداث عملية التحول وهي:

أ- استبدال شكل الربح أي تبديل الالتزامات العينية المفروضة على الفلاحين الأقنان بالالتزامات النقدية، وبذلك حل الربح النقدي محل (ربح العمل- السخرة) أو الربح العيني.

ب- تحول الإنتاج الفلاحي إلى إنتاج سلعي، تحت ضغط الإقطاعيين للحصول على ربح نقدًا، مما اضطر الفلاحون لبيع التزاماتهم النقدية للإقطاعيين.

ت- أدى دخول التجار والمرايين إلى القطاع الزراعي إلى مصاعمة استغلال الأقنان، فعرض طريق مد الإقطاعيين والفلاحين بالمال اللارم، أصبح الفلاح يتعرض إلى ضغط المرايين من جهة وضغط الإقطاعي من جهة أخرى.

ث- إن اشتداد أوضاع الاستغلال هذه أدت إلى استقطاب اجتماعي حاد، فبينما عم الأقنان عن الإيفاء بالتزاماتهم المالية، انتزع المرايون منهم أدوات إنتاجهم وتحولوا إلى عمال بالأجرة، وهذا يشمل الأكثرية الساحقة.

فبينما سعدت فيه أقلية من أغنياء الفلاحين إلى المستوى الرأسمالي لتستثمر أموالها في منح القروض الساهضة مقابل الحصول على المنتجات بأسعار بخسة، وتستولي على الأراضي وأدوات الإنتاج، وعلى وفق هذا ولد الإنتاج الرأسمالي.

إن اصطلاح (رأسمالية ماركنتيلية) الذي استعمل لوصف الحقبة التي تمتد في أوروبا من عهد النهضة وحتى الثورة الصناعية (١٦٠٠-١٨٠٠)، هو سبب الأخطاء العديدة في التحليل، ذلك لأن هذه الحقبة في الواقع ما هي إلا حقبة انتقالية،



ولم تستطع أن تحب تشكيلة اجتماعية اقتصادية صافية، ولا تمثل سيادة كاملة لـ نمط الإنتاج الرأسمالي، لأن هذا النمط من خصائصه تصفية كل الأنماط ما قبل الرأسمالية وإزاحتها لذلك نلاحظ وجود تعايش طوال هذه الحقبة بين عدة أنماط وحتى الثورة الصناعية، ولذلك تعد المرحلة التجارية مرحلة انتقالية لعدم نصج نمط الإنتاج الرأسمالي وسيادته على مستوى اقتصادات أوروبا العربية، وأن تنظم التشكيلات (المحيطة والمركزية) جميعها في نظام واحد منظم وتراتبى، وتصح السوق على مستوى العالم سوقاً واحدة، سوقاً رأسمالية. بيد أن المرحلة التجارية تطل تواسم بأنها مرحلة تهيئة مقدمات الانتقال صوب نمط الإنتاج الرأسمالي، لذلك فقد امتارت هذه المرحلة بالمميزات الآتية<sup>(١٨)</sup>:

- ١- بقاء سيطرة نمط الإنتاج في التشكيلات الخاصة بتلك الحقبة.
- ٢- ازدهار التجارة البعيدة (التجارة الأطلسية).
- ٣- أدى الازدهار التجاري على تفكيك نمط الإنتاج الإقطاعي.

وعليه فإن وجود نمط الإنتاج الرأسمالي بشكل جنيني في هذه المرحلة، يعني حدوث فصل ما بين أنماط الإنتاج المختلفة (العبودية الإقطاعية الرأسمالية). وهذا ما يفسر توصيف هذه المرحلة بأنها مرحلة انتقالية بالرغم من أهميتها الكبيرة في ولادة الرأسمالية وتكوينها.

#### ثانياً: شروط الإنتاج الرأسمالي

يتطلب وجود الإنتاج الرأسمالي توافر شرطين مسبقين هما<sup>(١٩)</sup>:

الأول: تراكم رأس المال النقدي والذي يمكن تحويله إلى وسائل إنتاج استثمارية تتيح المحال لعملية الاستثمار الرأسمالية، أي تملك الرأسماليين لثمرات عمل المنتجين. وإذا كان رأس المال- النقدي قد وجد لدى جميع المجتمعات

الشرقية، القديمة والإقطاعية، إلا أنه لم يقد أنداً إلى تطور العلاقات الرأسمالية، بسبب عدم وجود أيدي عاملة حرة وجاهزة في هذه المجتمعات.

الثاني: التكديح أو السخرة، أي (وجود العمال بأجر) أي المستحون الذين فقدوا وسائل إنتاجهم من جهة، وباستطاعتهم أن يتقلوا أحراراً بأشخاصهم إلى حيث تتوفر فرص التشغيل من جهة أخرى، فهم أحرار حقوقيون، لكنهم محرومون من وسائل الحياة، محروون على بيع قوة عملهم إلى من يملك وسائل الإنتاج.

إن التراكم الأول لرأس المال هو العملية التاريخية السابقة لقيام نمط الإنتاج الرأسمالي، وتمثل نقطة انطلاق تكون نمط الإنتاج الرأسمالي. ومن هذا المنطلق فهو يمثل بداية تدرج تطور الرأسمالية كتشكيلة اجتماعية اقتصادية تركز على أساس الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هذه العملية (التراكم البدائي لرأس المال) هي التي تم من خلالها توافر الشرطين السابقين للإنتاج الرأسمالي، وقد وصفت بالبدائية (Primitive)، ولما رافقها من أعمال الاغتصاب والعنف والفصائح، التي لا توصف، وتمييزاً عن التراكم الحديث أي ما يسمى (بتجديد الإنتاج الموسع - Expanded Re-Production).

ثالثاً: مصادر التراكم الأولي (البدائي) لرأس المال

هناك مصادر عديدة للتراكم الأولي، داخلية وخارجية، لا يمكن التطرق إليها أو الإلمام بها جميعاً في هذا المجال، ولكن يمكن الإشارة إلى أهمها:

#### ١- عملية التسييج (Enclosure Movement)

جوهر هذه العملية (وبخاصة في إنكلترا) هو تجريد الفلاحين من أملاكهم المشاعة، وتحويلها إلى ملكية عدد ضئيل من كبار اللوردات، وذلك بمختلف وسائل العنف، بما في ذلك القوانين التعسفية لقد بدأت هذه العملية في إنكلترا أواخر القرن الخامس عشر، وكان أهم دافع اقتصادي لها هو تحويل أراضي الفلاحين إلى

مزارع واسعة لسد حاجة السوق الخارجية ثم الداخلية، إلى الصوف لإمداد صناعة النسيج البريطانية الناشئة<sup>(٣٠)</sup>.

لقد رافق هذه العملية التي تسمى في التاريخ الاجتماعي البريطاني بحركة التسييج، اصطهادات وحشية ضد الفلاحين ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الفلاحين، وكان من حملة الوسائل التي استعملت ضدهم، اتهامهم بتهمة (التشرد) والحكم عليهم أفواجاً بالإعدام، ثم استبدلت هذه العقوبة بعد تطور الرأسمالية الصناعية بعقوبة الحبس في المصانع، من أجل العمل لإنتاج القيمة الفائضة (الرائدة)، التي تذهب إلى أصحاب المصانع لتصب في أفنية تراكم رأس المال، من أجل إعداد توظيفها مرة أخرى في الإنتاج.

والخلاصة أن جوهر العملية هو تحويل الملكية الإقطاعية للأرض إلى ملكية (رأسمالية) من جهة، وتحويل الفلاحين (المستقلين) إلى عمال أحرار (أحرار) مزووعي وسائل الإنتاج مضطرين لتأجير أنفسهم للرأسماليين.

## ٢- النشاطات الربوية (الاتجار بالبقود)

### ٣- نهب ثروات المستعمرات

كان لنهب المستعمرات بشكل مسعور انعكاساته على اقتصادات البلدان الأوربية الاستعمارية، فقد مكنت ظروف الاستعمار الأوربي من نقل ثروات ضخمة من المستعمرات، سواء أكانت كوراً ثمينة أو الذهب والفضة أو الأحجار الكريمة، بحانب استغلال مناجم الذهب والفضة في البلدان الأخرى ومن خلال أيدي عاملة مسترقّة.

وبجانب هذا جرى إبادة سكان العديد من البلدان، اعتماداً على عنف منظم بحيث جرى استخدامه (العنف)، كأنه قابلة كل مجتمع قديم، عندما يكون حاملاً بمجتمع حديد، ويصبح العنف نفسه قدرة اقتصادية.

فقد وضعت البلدان الاستعمارية في بلدان عديدة أسعاراً لإبادة السكان (فقد وصلت أسعار القتل للهنود الحمر مثلاً ١٠٠ جنيه إسترليني عن كل جلد رأس

رجل عمره ١٢ سنة فأكثر، ١٠٥ جنيه إسترليني عن كل أسير، ٥٥ جنيه إسترليني عن رأس كل امرأة أو طفل<sup>(٣١)</sup>. عن هذه الوحشية يقول وليام هاويت (إن ما اقترفه ما يسمى بالعروق المسيحية من همجية وقسوة صفيقة، في جميع مناطق الدنيا حيال جميع الشعوب، التي أمكن لها أن تستعدها، يتجاوز جميع المصانع التي ارتكبت في أي عهد تاريخي كان، من قبل أي عرق كان، مهما بلغ من الوحشية والجهل ومن القساوة والصفاقة)<sup>(٣٢)</sup>

#### ٤- التبادل اللا متكافئ

يمكن القول أن لا رأسمالية بدون أسواق خارجية، ولا أسواق خارجية بدون الوصول إلى مرحلة معينة من تطور الإنتاج الرأسمالي، وفي الرأسمالية قد تصبح التجارة فعالية رأسمالية مثل الإنتاج الصناعي، ويظهر الرأسمال التجاري لهذا السبب جزءاً من الرأسمال الاجتماعي. في التجارة البعيدة يصبح التبادل الدولي للسلع على أنه تبادل منتجات بين تشكيلات اجتماعية- اقتصادية مختلفة في تطورها، ففي (المركز) الذي كان في طور التكوين (أوروبا الغربية)، والمحيط الذي كونه الماركنتيلية، تصبح العلاقات التجارية عناصر جوهرية في نظام الرأسمالية قيد التكوين، لما يحققه من نزح للفوائض الاقتصادية المتحققة في محتمعات أخرى.

إن مصدر هذه الفوائض هو الاختلاف في القيم بذاتها التي تثمن بشكل غير متساوٍ في مجتمعين يجهل أحدهما الآخر، أي مجتمعين يتاحران بمواد نادرة لا يعرف كل منهما كلفة إنتاجها الاجتماعية، هذه الفوائد يجب أن تميزها عن الربح الذي يحققه رأس المال التجاري. من المعروف جيداً أن التجارة مع المستعمرات قد جرى بهاؤها على الضغط المباشر والعش والتدليس، كما كانت ذات طبيعة احتكارية، لقد مارست الدول الأوروبية الاحتكارية لتجارة المستعمرات الداخلية منها والخارجية فتمتعت بوضع احتكاري. هذا الاحتكار أدى دوراً حاسماً في تكديس الثروات الرأسمالية الأولى سواء أكانت بشكلها التجاري أم الصناعي الأول.

وهذا يثبت زيف الرأي الشائع في أن المنافسة التامة (الحرّة) كانت لصيقة بالنظام الرأسمالي، فأرّ تدخّل الدولة الرأسمالية في الاقتصاد يحدّه من طبيعته الرأسمالية في حين أن التاريخ يثبت العكس، بأن حرية التجارة لم تظهر ولم تسد في إنكلترا إلى مدة قصيرة تاريخياً، بسبب الاحتكار الفعلي الذي كانت تتمتع به قياساً لباقي العالم.

فاعتماد سياسات الحماية الكمركية ما بين الدول الأوربية، جاء لممارسة دور احتكاري في السوق الداخلية وهذا منهج معتمد، وعندما احتاحت بريطانيا إلى تمرير التجارة وحفص القيود الحماية بسبب قوة صناعتها ووضح اقتصاديها بحيث لا تقوى دولة على منافستها. جاءت نظرية التكاليف السمية لريكاردو لتبرهن أن المكاسب ستعم كل البلدان المتاحة من دون أي اعتبار لفروقات في التطور الاقتصادي، وهذه حدقة لفطية لا يمكن تصديقها فمهمج التبادل لا متكفئ واحتلاف المكاسب يظل قائماً منذ ظهور الرأسمالية إلى الآن، فمن المؤكد أن المكاسب ستعقد للاقتصاد الأقوى<sup>(٣)</sup>.

ولذلك تحرص البلدان الرأسمالية على استمرار قيام هذه العلاقات عن طريق لحم معطيات التطور للبلدان المحيطية (النامية) وفق التقسيم الدولي للعمل. من أجل ضمان استمرار نزوح الفائض الاقتصادي إلى الدول الرأسمالية.

### المبحث الثالث

#### جوهر المذهب التجاري وأفكاره المشتركة

أولاً: جوهر الماركنتيلية

أثارت الماركنتيلية بشأنها آراء متعددة سواء فيما يخص جوهرها أم الحقبة التاريخية التي ظهرت فيها الآراء التجارية المودحية. ومن الطبيعي أن تبرز الحقبة التاريخية التي امتدت حوالي (ثلاثة قرون) إلى جميع البلدان الأوربية وروسيا، وعلى الرغم مما انتاب هذا الفكر من تطور خلال هذه المدة الطويلة وتباين آراء كتّابه، إلا أن الإجماع حاصل على مشترطات معينة في هذا الفكر. فهناك فريق من الباحثين يرى أن طول الفترة ومفهوم الماركنتيلية يعد مصلاً، لأن الواقع متحرك باستمرار، وهذه الأفكار لم تعد كما هي حينما طرحها الآباء الأوائل، فيما يعتقد رأي آخر أن الماركنتيلية لا تستحق تسميتها بمذهب، فهي مجرد وصفات إدارية مختلفة فيما بينها تمام الاختلاف، وتدل على أحسن تقدير على وجود موقف متشابه، من دون مذهب منظم، وهي موجهة لأهداف سياسية صرف هو خدمة الدولة وليس الأفراد وعليه فهي لا تتضمن أهدافاً اقتصادية محتمعية.

والرأي الثالث لا يدخل الآراء البليوية (Bullionisme) في أسابها وتعني السبائكية إشارة إلى استخدام سبائك الذهب والفضة في صلب المدرسة الماركنتيلية، مما يعني أن الماركنتيلية لم تظهر قبل القرن السابع عشر أي قبل تطور ونمو الرأسمالية التجارية.

وما يمكن قوله أن هناك عناصر مشتركة أكيدة لدى أغلب الماركنتيليين، وهذه العناصر تعكس مستلزمات الرأسمالية التجارية في مرحلتها التاريخية وتبعاً لدرجة التطور الاقتصادي، وهذه الافتراضات المشتركة بين التجاريين هي<sup>(٢٤)</sup>:

١- تعد بناء قوة الدولة هي الهدف الحقيقي للسياسة الاقتصادية.

- ٢- أن الثروة وخاصة بشكلها النقدي هي مقياس القوة المذكورة.
- ٣- إن الوسيلة الرئيسة للحصول على الثروة هو تملك مناجم الذهب والفضة أو التجارة الخارجية عبر تحقيق ميزان تحاري ملائم.
- ٤- ضرورة السعي لتوجيه النشاط الاقتصادي بفروعه الرئيسة لتأمين سلع للتصدير.
- ٥- عد التجارة أهم مصادر للثروة ثم تأتي الصناعة وأخيراً الزراعة.
- ٦- التدخل الحكومي ضرورة لازمة لضمان تطبيق الماركنتيلية.

يرتكز المتشككون في وحدة المدرسة النحارية ومبهم شمولر وكري وأن آراء التحريين الأواخر تدو متعارضة مع المتأخرين، وبخاصة فيما يخص تدخل الدولة، وكأن هناك ربطاً بين الفلسفة التجارية وبقاء الدولة، فأراء التحريين نشأت من حاجات رأس المال التجاري، حتى وأن عبر عنها أحياناً بطريق مباشر، شكل السياسات التي ابتدعت لتحقيق أغراض تتصل بإقامة الدولة. ليس مما يبعث على الدهشة أن يكسو التجاريون آراءهم برداء سياسة استهدفت منها تقوية الأمة، أو أنهم تطلعوا إلى الدولة كي تطبق نظرياتهم، أد أن توسع التجارة صاحبة اختلاف بين المصالح التجارية الفردية.

هذه المصالح جميعاً تتطلع إلى قيام سلطة مركزية قوية تحميها من دعاوى منافسيها، وليس في الإمكان أن يفهم تقلبات سياسة الدولة خلال الفترة الطويلة من سيادة فلسفة التجاريين من دون أن ندرك إلى أي حد كانت الدولة من خلق المصالح التجارية<sup>(٢٥)</sup>.

إذن يجب النظر إلى العلاقة بين التنظيم الاقتصادي الذي جاءت به الماركنتيلية والنظم السياسية وبين أفكارها وسياساتها الاقتصادية والسياسية، على أنها علاقة تفاعل وانسجام. لقد طالب التجاريون بدولة من القوة بحيث تحمي المصالح التجارية وتحطم الكثير من الحواجز التي أقامتها العصور الوسطى في وجه التوسع التجاري.

بيد أن الخلافات الحقيقية في المصالح ما بين المراتب المختلفة للتجار (بين تجار التصدير وتجار الاستيراد)، وما بين الشركات هي التي كان لها الدور الحاسم، في دفع الفكر الماركنتيلي نحو التطور والتكيف على الدوام، لمواكبة التطورات في النظام الرأسمالي من أشكاله التجارية- المابيفكتورية، ليتحول تماماً وسهولة بفعل الثورة الصناعية إلى تجارة نمطية.

ثانياً: الأفكار المشتركة لدى الماركنتيليين

١- إن الوحدة الفكرية التي كانت تعم الفكر الماركنتيلي تلتقي على فكرة أساسية أو منطلق أساسي يعد أن المعادن الثمينة تشكل الثروة الحقيقية للدولة، ولذلك يجب إنماء كمياتها إلى أبعد مدى، ويعزل التجاريون ذلك بأنه يمكن الحصول على أي شيء بواسطة المعادن الثمينة لكونها تتمتع بمزايا عديدة منها:

أ- عدم قابليتها للتلف بحيث يمكن تخزينها إلى أجل غير محدود.

ب- تمثل قيمة كبيرة في حيز صغير.

البحث عن الذهب في البلاد البعيدة هو الصورة المخصصة التي اتخذها التوسع التجاري في أول الأمر، وبهذا الصدد يقول كولومبس (الذهب شيء مذهش، من يمكنه يملك كل ما يرغب به، بل وبالذهب يستطيع المرء إدخال الأرواح في الجنة)، وتشكل موضوع الذهب والفصة (كنقود) شغلاً شاغلاً للمفكرين التجاريين.

فسيرا (Serra) التجاري الإيطالي، أخذها قصة مسلمة، من أن كل شخص كان يفهم (كيف أن من المهم للشعوب والأمراء أن يكتروا من الذهب والفصة في المملكة) "، وهذا الأمر نَحده في مطارحات ملين وميسلدن، اللذين بالرغم من جدلهم العنيف حول سياسة التجارة الخارجية، اتفقا بشأن الذهب والفصة.

وهكذا اشترك جميع التجاريين في تقديرهم الكبير للنقود، فكانوا ينظرون إلى العملية الاقتصادية من وجهة نظر المرحلة البدائية التي وصلت إليها الرأسمالية أي مرحلتها التجارية- وأدى ذلك بهم إلى الربط بين النقود ورأس المال.



٢- الرأي الثاني للتجارين والذي يعطى بإجماعهم كما عبر عنه جوهان جواكيم بشر J I Buecker، في أن (بيع السلعة إلى الآخرين هو دائماً أفضل من شرائها منه، لأن الأول يحقق ربحاً، بينما يسبب الثاني خسارة لا مفر منها)، لقد تجلّى هذا التخوف في مجال التجارة الخارجية بوجه خاص، ولهذا يسعى التجاريون إلى توفير فائض للتصدير، وهو سعي كان جوهره الرعة في خلق فائض من الثروة والتجارة الداخلية لن تؤدي إلا إلى نقل الثروة من فرد إلى آخر بدون أن يكون هناك ربح صافي، في حين تعمل التجارة الخارجية على خلق الفائض، وقد ترتب على هذه الفكرة تهمين التجارين للتصدير ومحاربتهم الاستيراد.

٣- على الرغم من تقدير التجارين للنقود وإحداثهم لمطابقة بينها وبين رأس المال، فإن هذا يمثل فهماً بدائياً لرأس المال بصورته النقدية، هذا الخلط أصبح موضع ازدراء المفكرين فيما بعد، إلا أن هذا الفهم كان متماشياً تماماً مع الأوضاع الاقتصادية آنذاك.

٤- مطالبة التجارين بتحفيض سعر الفائدة، ففي عام ١٦٢٢ هاجم جيرالد مالين بشدة شرور الربا الفاحش، ودعا إلى فرص رقابة على أسعار الفائدة وإلى إصدار ما يدعوه (نقود التقوى) لحيولة دون استغلال الفقراء<sup>٣٧</sup>، ولم يتورع التجاريون عن استخدام آراء الكنسيين في محاربة الربا وأسعار الفائدة المرتفعة، ودعوا إلى أن يكون سعر الفائدة منخفضاً لأن من شأن هذا أن يشجع التجارة.

وقد حاولت المدرسة التجارية إضفاء المصلحة القومية على مصالحها الذاتية في خفض سعر الفائدة، زاعمة أن ذلك من شأنه أن يفضي إلى ازدهار التجارة وبخاصة الخارجية منها، في ظل ندرة لرأس المال السائل وعدم تطور التسهيلات المصرفية، ولما كانت الرأسمالية التجارية بحاجة ماسة إلى القروض، لذا كان لزام عليها أن تسعى إلى ذلك لتحقيق التراكم الأولي لرأس المال.

٥- أكد التجاريون كثيراً على زيادة أو نمو السكان، بحيث لا نحد بين كتاب ومفكري تلك المرحلة من دعا إلى خلاف ذلك، لقد جاء هذا التأكيد بناءً على

أوضاع الدول الأوروبية، التي كانت تشكون من قلة في عدد سكانها، ورغبة في زيادة الأيدي العاملة من جهة وفي زيادة قواها العسكرية من جهة أخرى، ومن الطبيعي أن الأيدي العاملة تناسب طردياً (دالة) مع زيادة عدد السكان، بحيث أن هذه الزيادة تمكن الدولة من تجنيد عدد أكبر من الحدود، وتوسيع قواها العسكرية برأ وبحراً لحماية مصالح الطبقة التجارية، ولهذا دعو الدولة لاتخاذ التدابير الممكنة لزيادة عدد السكان والقوى العاملة، وذلك مثل تشجيع الزواج المبكر، وفرض عقوبات على غير المتزوجين، ومنح محصنات للأطفال والاهتمام بحياة وصحة الأفراد، كما دعت إلى القضاء على البطالة<sup>(٢٨)</sup>.

٦- الدعوة القومية المتطرفة، لأن الدولة القوية وحدها تستطيع فتح المستعمرات والاحتفاظ بالطرق التجارية العالمية والانتصار في الحروب الاقتصادية، إن مفهوم التجاريين للاقتصاد كان مفهوماً سكونياً، ولهذا فلم يتصوروا إمكان التقدم الاقتصادي لأمة إلا على حساب الأمم الأخرى، ومن الطبيعي أن تكون قوميتهم تلك عسكرية الطابع وذات مسحة عدوانية.

٧- الدعوة لسياسة الحماية التجارية ضد المنتجات الصناعية والمواد الأولية لأحسية، في حالة ضرورتها للصناعة الوطنية، ومنع تصدير المواد الأولية الوطنية، إن هذه السياسة تستند إلى تفصيل مصلحة التاجر على مصلحة المستهلك، وكان من مقتضاها ارتفاع الأسعار وتراكم المعدن النفيس.

٨- الدعوة إلى استغلال المستعمرات واحتكار التجارة معها، وإخضاع اقتصادها كلياً للاقتصاد الوطني، كما تدل على ذلك مثلاً قوانين الملاحة (السيئة الصيت) في إنكلترا في عامي ١٦٥١، ١٦٦٠ التي حصرت بقل التجارة مع المستعمرات بالسفن الإنكليزية، وحرمت تصدير أكثر منتجات المستعمرات لغير إنكلترا وفي بعض المنتجات، أوجبت المرور بإنكلترا قبل شحنها للدول الأخرى، كما أنها حرمت على المستعمرات الاستيراد إلا من إنكلترا. كذلك حرمت عليها ولوج الإنتاج وبقاءها كمنتج مجهز بالسلع الزراعية والمواد الأولية للصناعة البريطانية.

## المبحث الرابع

### السياسات الاقتصادية للتجارين

لقد اعتمد التجاريون سياسات اقتصادية مختلفة طبقاً لظروف كل بلد واختلاف الظروف التي كانت سائدة، إلا أن ما يمكن قوله في هذا المجال، هو أن محور الفكر الماركسيتي كان بناء الدولة القومية وتنمية الثروات الاقتصادية، انطلاقاً من المبدأ التجاري الذي يرى أن الثروة القومية لا يمكن زيادتها إلا من خلال التجارة الخارجية، وما تدره هذه من معادن نفيسة على البلد.

على وفق هذه الرؤيا حري وضع السياسات الاقتصادية المحتممة في الأقطار الأوربية التي حاولت الوصول إلى هذه الأهداف، ففي الوقت الذي اعتمدت فيه التطبيقات التجارية في أسبانيا على السياسة المعدنية، كانت الحالة في فرنسا تعتمد سياسة التنمية الصناعية، في حين اتخذت السياسة الاقتصادية في إنكلترا طابعاً تجارياً. بجانب هذا كانت هناك أساليب تجارية أخرى جرى تطبيقها في بلدان أوربية أخرى، فهي ألمانيا اعتمدت هذه السياسة على تقوية الجهاز الإداري بينما اختطت إيطاليا منهجاً يتناغم مع مشكلاتها المتمثلة بالتحركة القومية فعملت على تقوية الدولة

#### أولاً: السياسة المعدنية في أسبانيا

على الرغم من الإجماع على المبادئ الماركسيتية الأساسية، إلا أن هناك رؤى خاصة باعتماد السياسة الاقتصادية المتماثلة مع أوضاع كل بلد، والاتجاه البليوني (البليونية- السبائكية Bulionism) لم يكن حديثاً، فهو اتجاه قديم جداً، ولم يكن له صلة بالمصالح التجارية، كما أن التشريعات المانعة لتصدير الذهب والفضة وجدت في القرون الوسطى.

إن محاولة الفصل بين الماركسيتيين وفقاً لرؤيتهم النقدية، يعد أمراً لا يجانب الصواب، فالتقدير الكبير للذهب والفضة كان (هدف) للماركسيتيين جميعاً، لأسباب

تتعلق مهمة التاجر في الحياة الاقتصادية. والفرق في هذه الرؤى هو في اختيار الوسائل الموصلة للهدف المذكور، وهو أغناء البلد عبر زيادة الذهب والفضة (كثروة) حسب الفهم التجاري. والرغبة في تكديس الذهب والفضة تأتي تعبيراً عن ظروف وأوضاع أوروبا آنذاك، التي كانت تستنرف إمكاناتها النقدية (الذهب والفضة) في معاملاتها التجارية مع الشرق (لأن أوروبا ليس لديها شيء مهم لتقدمه بالمقابل ما عدا المعدن الثمين، وكان الخطر الدائم من حصول نزيف ذهبي كان هاجس هذه المرحلة) <sup>١</sup>. لذلك نلاحظ ظهور التشريعات القانونية التي تحظر تصدير الذهب والفضة، والدعوة لتدخل الدولة في هذا الحانب، والحرص على عدم التصدير إلى الأجانب بقدر ما يستورد منه (بحسب رأي هيلز Hales)، لأن ذلك أن حدث فسوف يؤدي إلى إفقار هذه البلدان <sup>٢</sup>.

وفقاً لهذا جاءت السياسة الأسبانية لتوجه جل اهتمامها للحصول على الذهب والفضة بصورة مباشرة، مستغلة المناجم في مستعمراتها، ولاسيما في المكسيك وبيرو التي كانت تابعة لأسبانيا آنذاك، لذلك كانت تمد عليها كميات كبيرة من المعادن النفيسة سوياً، حتى رادت الموحود منهما بالداخل، فيما ست القوانين والإجراءات لمنع خروجهما أو تصديرهما، فلهأت الدولة إلى تنظيم التجارة الخارجية بطريقة تكفل مع خروج الذهب والفضة للبلاد الأخرى ومن هذه الإجراءات:

١- إلزام السمر التجارية التي تنقل البصائع من أسبانيا بأن ترد أقيام تكتم البصائع بالذهب والفضة.

٢- إكراه التجار في الدول الأخرى الذين يحلون بضائعهم إلى أسبانيا إحراج أثمانها نقدياً خارج أسبانيا، بل أن ما يسمح لهم إنفاق حصيلتها في شراء سلع أسبانية.

٢- تم حصر خروج الذهب من أسبانيا في محالات محددة تخص التاج الأسباني من مثل: تسديد ديون الملك، الإنفاق على البعثات المقدسة التي كان يرسلها الملك إلى الخارج.

إن الساطة في السياسة التجارية الأسبانية كان مبعثها الطرف التاريخي لأسبانيا، مما جعلها توصف بالريعية (Rentilsim)<sup>(٣٣)</sup> لهذا لم نلاحظ حدوث توجّهات تموية لدى أسباني مقارنة بإنكلترا وفرنسا، على الرغم مما أتيح لها من إمكانات في حصر هذه المرحلة. بل على العكس أن حرص أسبانيا الشديد على تجميع الذهب والفصة أدخلها في مشكلات اقتصادية كان أبرزها الارتفاع العام بالأسعار.

لم ينكر الاتجاه الماركيتيلي الصلة بين مقدار السبائك الذهبية وتقلبات أسعار التحوير الحرجي، انطلاقاً من ارتفاع الكمية النقدية المعروضة حتماً، إلى ارتفاع مماثل في مستوى الأسعار وإلى انخفاض القوة الشرائية للمقود على القدر نفسه، وهو ترجمته نظرية كمية المقود التي جاء بها جان بودان ١٥٩٦-١٥٣٠ Jan Bodin لذلك نلاحظ تطور الفكر التجاري ليجمع بين حركات الذهب الدولية وتقلبات أسعار الصرف، بالعلاقة مع وضع الميزان التجاري.

ثانياً: السياسة الصناعية في فرنسا

لم تكن فرنسا بلداً تجارياً على الصعيد العالمي، وليست لها مستعمرات ذات مناجم للذهب والفصة، كما أن الواقع الاجتماعي الاقتصادي الذي كان سائداً مشدوداً إلى الإقطاع وأسوب إنتاجه، بدرجة أكبر من إنكلترا وأسبانيا، وعلى الرغم من أن السياسة التجارية قد جرى تطبيقها في فرنسا مد وقت مكر، إذ جرى اعتمادها رسمياً بعد أسبانيا، إلا أن أوضاعها ولاسيما في القطاع الصناعي كانت في إطار نظام الوظائف، مع عدم توافر أوضاع مساندة لتجاوزة نحو المانيفكتورات.

كل هذه الأوضاع كانت تندو قيداً على السياسة التجارية، لذلك انتهجت هذه السياسة أسلوباً نحو تعظيم قدرات فرنسا بهدف الوصول إلى الهدف الماركنتيلي العام، وهو كيف يمكن الحصول على المعادن النفيسة.

ولما كانت فرنسا تعد بلداً زراعياً، فإن جل تجارتها ستكون في السلع الزراعية، والتي تعتمد بطبيعتها على الظروف المناخية، ولأنها أقل إنتاجية من القطاع الصناعي، وإذا ما أرادت أن تزيد حصائلها من التصدير عليها أن تولي القطاع الصناعي اهتماماً كبيراً بعية تصييع فرنسا وكان هذا عنواناً للسياسة الاقتصادية للتجارين الفرنسيين.

يعد كولبير Colbert (١٦١٩-١٦٨٣) من أشهر الماركنتيليين الفرنسيين، وأصبح تاريخ فرنسا الاقتصادي في القرن السابع عشر يرتبط باسمه إلى الحد الذي أطلق عليه (عهد كولبير)، مع أنه لم يكن منظراً، ولا يوحد له إسهام فكري في الفكر الماركنتيلي. إلا أنه كان رجل دولة تدرج في المناصب ليصبح وزير المالية الفرنسي حينذاك.

وتستند سياسة كولبير على أن قيمة المنتجات الصناعية أكبر من المنتجات الزراعية إذا تساوى حجمها، ويمكن التحكم بهذه المنتجات في حين لا يتحقق ذلك في المحاصيل الزراعية، وعليه فإن الأداة الرئيسة التي يعتمد عليها في زيادة التصدير، يجب أن تكون المنتجات المصنعة، إما الزراعة فمهمتها هي إنتاج المواد العدائية للسكان وخدمة الصناعة في توسعها، فكان لزاماً تشجيع الصناعة وتقويتها حتى تتقدم وتلحق بركب التقدم الصناعي الذي بلغته إنكلترا فكان لزاماً اتخاذ مجموعة إجراءات هي<sup>(٣٣)</sup>:

- ١- فرض قيود كبيرة وعديدة وبخاصة في مجال فرض الرسوم الكمركية على المنتجات الصناعية المتأتية من الخارج، من أجل حماية الصناعة الفرنسية الناشئة من المنافسة غير المتكافئة للسلع الصناعية الإنكليزية.

- ٢- جلب كولير الحرفيين الماهرين من خارج فرنسا. ومنع هجرة الحرفيين الفرنسيين والعمال الماهرين إلى الخارج.
- ٣- منح المشروعات الصناعية القائمة والجديدة تسهيلات وإعفاءات ضريبية كبيرة وعزز مواقعها الاحتكارية في السوق المحلية، كما منح المصدرون الفرنسيون الحوافز المادية والقروض المنخفضة الكلفة من أجل تشجيع الصادرات الصناعية الفرنسية
- ٤- قامت الحكومة الفرنسية باستيراد المنتجات الزراعية ولاسيما الحبوب من أجل تخفيض مستويات المعيشة ومن ثم الأجور البقديّة في القطاع الصناعي.
- ٥- عملت الحكومة على إقامة شركات كبيرة تكون مهمتها تسويق وتصريف البضائع الفرنسية في الخارج وشجعت الأفراد على الاكتتاب في رؤوس أموالها.
- ٦- قامت الحكومة بإنشاء صناعات حكومية (أو صناعات ملكية) بقصد تحسين بعض أنواع المنتجات وأبرز هذه الصناعات صناعة جوبلان (كوبلان) المشهورة.
- ٧- إقامة جهاز للتفتيش الصناعي والرقابة على المنتجات الصناعية.

من المؤكد تاريخياً أن لهذه الجهود والإجراءات دوراً في حفر وتشجيع الصناعة الفرنسية، إلا أن ما يمكن ملاحظته وعلى الرغم من هذه الإجراءات، هو بقاء الصناعة الفرنسية تدور في إطار المشروعات الصناعية الصغيرة، فلم يكن من نتائجها ظهور الصناعة الكبيرة بمعناها الحديث والمستفيدة من حجمها الكبير في فرنسا بعد.

إن أسلوب كولير في تصنيع فرنسا بالرغم من النجاحات المتحققة في بادئ الأمر، إلا أنه أصبح فيما بعد عائقاً أمام تطور فرنسا الاقتصادي اللاحق، ويمكن بيان بعض الآثار السلبية التي تركتها وهي<sup>(٢٤)</sup>.

- ١- السيطرة والمركزية العالية لكولير على الصناعة والشروط التي وضعها على الصاعات.
- ٢- التدخل التفصيلي من خلال القوانين التي صدرت آنذاك والتي وصلت إلى حد توصيف عملية الإنتاج لكل سلعة منتجة، وطبيعة الآلات التي يجب استخدامها.
- ٣- الإنفاق الحكومي الكبير على إنشاء المعاهد العلمية والحرفية المخصصة لتطوير القاعدة التكنولوجية والحرفية والتي أضحت عبئاً ثقيلاً على ميزان الحكومة.
- ٤- إن التدخل الواسع للحكومة أضعف البواعث الشخصية لدى الطبقة الرأسمالية في المساهمة بالحياة الاقتصادية على العكس من الدور الذي أدته هذه الطبقة في كل من إنكلترا وهولندا ولكن بحفز محسوب من الدولة.

#### ثالثاً: السياسة التجارية في إنكلترا

اتجهت إنكلترا في سياستها الماركنتيلية بمحى مختلف عن الدول الأوربية الأخرى، طفقاً لما تتمتع به من قدرات اقتصادية، وساءاً على فلسفتها التي أريد منها التعجيل بالتحول من بلد زراعي إلى بلد صناعي وتشجيع التجارة الدولية.

لقد جاء هدف هذه السياسة منصّباً على الحصول على المعادن الثمينة من الخارج، عن طريق القيام بالتجارة بينها وبين العالم الخارجي، وخاصة المستعمرات التابعة لها، لاسيما أنها كانت أكبر دولة استعمارية. وقد ساند توجهات إنكلترا هذه، تمتعها بأسطول تجاري كبير تميزت به عن الدول الأخرى (عدا هولندا)، إلا أن هذا لا يعني أن إنكلترا قد أهملت القطاع الصناعي، بل على العكس أحدثت الصناعة نمو بدرجة لا تقل عن درجة نموها في فرنسا إبان تلكم الحقبة، وتمثلت هذه السياسة بالآتي<sup>(٣٥)</sup>:



١- تسهيل أعمال طبقة التجار من خلال تأسيس البورصة وفقاً لاقتراح جريشهام عام

١٥٦٨

٢- دخلت الدولة لتنمية بعض القطاعات الصناعية ولاسيما صناعة النسيج وتوفير الحماية  
الكمركية لها وتسهيل حصولها على المواد الخام وتصريف منتجاتها في أسواق  
المستعمرات من أجل الحصول على الأرباح.

٣- عملت إنكلترا على تصفية الصناعات الحرفية في جميع مستعمراتها حتى تتيح  
لصناعاتها رواجاً واسعاً.

٤- شرع كرومويل Gromwell قانون الملاحة عام ١٦٥١ والقاضي بنقل البصائع بين إنكلترا  
ومستعمراتها بسفن إنكليزية حصراً وعلى أن يكون ثلاثة أرباح العاملين بها من حملة  
الجنسية الإنكليزية وكذلك الحال مع البلدان الأخرى.

٥- إن الهدف من وراء هذه الإجراءات تشجيع بناء أسطول كاري يجلب لإنكلترا المعادن  
النفيسة عن طريق ما يقدمه من صادرات غير مطورة.

٦- إعفاء السلع الإنكليزية المصدرة من ضرائب التصدير.

٧- تخفيض أسعار الفائدة لتمكين التجار والمنتجين من الحصول على القروض بفوائد  
منخفضة.

٨- ساعدت الحكومة الإنكليزية على تخفيض أجور العمال بمساعدة صناعات التصدير على  
منافسة سلع بلدان العالم الأخرى.

## المبحث الخامس

### أعلام المدرسة التجارية

لقد سادت الأفكار التجارية على مدى ثلاثة قرون، وقد ظهر العديد من الكتاب والمفكرين ورحال الأعمال والساسة ممن دعموا أو ساندوا هذا الفكر، ويمكن القول أن كل ملوك وحكام الدول الأوربية كانوا مساندين لهذا التيار الفكري، ولا يمكن تأييد حال من الأحوال الإمام بكل جهود أعلام هذا الفكر وآرائهم لقلّة المقام، كما أن هذا الفكر شهد تطوراً وانتقالاً في طبيعة السياسات المنحذة، كما نلاحظ أن هذا الفكر بدأ محتتماً نوعاً ما عن بدايته، فمعص الفلاسفة والكتاب ممن لا يمكن عدّهم من التجاريين، كانوا قد ساندوا بعض أفكار هذا المذهب وحالفوها في نواحٍ أخرى. وسرّكز على بعض أعلام هذا الفكر.

أولاً: توماس مان T. Mun (١٥٧١-١٦٤١)

#### ١- مكانته الفكرية

هناك شبه إجماع بين مؤرخي الفكر الاقتصادي على أن توماس مان هو أكبر الكتاب الممثّين للاتجاه الماركنتيلي في جميع البلدان الأوربية، وقد اكتسب خبرة تجارية واسعة في إيطاليا وبلدان الشرق الأدنى، ومن انضمامه لشركة الهند الشرقية عام ١٦١٥ وأصبح مديراً لها حتى وفاته، وقد نشر كتابين الأول عام ١٦٢١ (بحث في الاتجار بين إنكلترا والهند الشرقية)، والآخر (ثروة إنكلترا عن طريق تجارتها الخارجية)، والذي كتبه عام ١٦٣٠ غير أنه لم ينشر إلا عام ١٦٦٤، أي بعد وفاته بثلاث وعشرين سنة.

لقد قال كارل ماركس K. Marx في الرد على دوهرنغ، بأن دوهرنغ أخطأ عندما عدّ أنطونيو سيرا مؤسساً لعلم الاقتصاد السياسي والممثل الأساس للفكر الماركنتيلي، مبيناً أن توماس مان متأثره على الفكر الاقتصادي والتشريع الإنكليزي لمدة تنوف على المائة سنة، ولمهاجمته المباشرة الدكية للاتجاه السيوي (الطام

النقدي البدائي حسب تعبير ماركس)، يعد من دون شك الممثل الرئيس للفكر الماركسيتي ومعبراً  
أصدق تعبير عن إرادة الماركسيتيين الإنكليز.

## ٢- آراء العامة

أ- يعد توماس مان التجارة الخارجية أهم مصدر لإثراء البلاد، ويضع التاجر في مركز القيادة  
والتوجيه لمجموع النشاط الاقتصادي.

ب- يستهل مان آراءه في كتابه الثاني بتحليل الميزان التجاري الذي أشار إليه من قبل  
ميسلدن Misselden، مبيناً كيف يمكن لإنكلترا إذا ما أرادت أن تزيد معادنها الثمينة  
أو شراءها أن تستورد أقل مما تصدر، أو بمعنى آخر أن تحصل على ميزان تجاري موافق  
لها، فمن خلاله سوف يتبين للقطر مقدار المعادن الثمينة التي تخرج منه، ومقدار  
المعادن الثمينة التي تدخل إليه، والفرق الموجب بينهما هو الذي يؤدي إلى زيادة الثراء  
في القطر.

ج- يضيف عصباً جديداً في غاية الأهمية بجانب الميزان التجاري وهو مفهوم الـ Stock، أو  
بلعة الاقتصاد الحديث رأس المال، ومتجاوزاً في هذا الكثير من الماركسيتيين الذين خلطوا  
بين رأس المال والنقود، بل ميز رأس المال النقدي بوصفه ذلك الجزء من النقود الذي  
يدر فائضاً أو عائداً، وهو في هذا يدافع بشكل مباشر وبكل وضوح عن رأس المال  
التجاري بجميع أشكاله.

د- إن مقياس (إنتاجية) الرأسمال التجاري عند توماس مان هو قدرته على خلق فائض في  
الميزان التجاري، وهذا هو الطريق الوحيد لجلب المعادن النفيسة لبلد لا يملك المناجم  
كإنكلترا.

هـ- إدراكه للآثار التي تتركها الزيادة في المعادن الثمينة في ارتفاع في الأسعار بحيث تكون  
هذه الآثار غير حسنة على التجارة.

وما يمكن الإشارة إليه في عرض أفكار توماس مان أنه أولى اهتماماً كبيراً لمسألتين مهمتين هما.

الأولى: فيما يخص وضع الميزان التجاري

الثانية: حركة الأسعار

٣- آراؤه في الميزان التجاري

بعد أن تكلم عن أهمية الحصول على ميزان تجاري موافق لإنكلترا، نلاحظ أن توماس مان يأتي باقتراحات محددة يستوجب على إنكلترا اتباعها لتحقيق هذه الغاية وهي:

أ- ضرورة تقليل الاستهلاك من السلع الأجنبية.

ب - يجب زراعة الأراضي غير المزروعة من أجل توفير السلع الزراعية من دون استيرادها من الخارج.

ت- يكون شحن الصادرات الإنكليزية إلى الخارج حصراً بسفن الأسطول التجاري الإنكليزي للاستفادة من أجور الشحن.

ث- توسيع صيد الأسماك من البحار المجاورة وعدم ترك ذلك للهولنديين.

ج- السعي الحثيث لجعل إنكلترا مركزاً تجارياً توزع منه السلع إلى الأقطار الأخرى.

ح- الاهتمام بالتجارة مع المستعمرات وبلدان الشرق خصوصاً، عن طريق استيراد ما تحتاجه الصناعة من المواد الأولية ثم إعادة تصدير المنتجات إليها.

٤- آراؤه في الأسعار

وفي مجال الأسعار فأن توماس مان يدعو لاتباع سياسة تسعير للصادرات مختلفة حسب الظروف، مؤكداً الآتي:

- أ- لا بأس من اعتماد سياسة سعرية مرتفعة في السلع التي تتمتع إنكلترا فيها بالاحتكار.
- ب- يجب اعتماد أسعار يضمن من خلالها الفوز في المنافسة في السلع التي تخضع للمنافسة الحرة.
- ج- لا يشجع توماس مان على اعتماد حرب الأسعار Ware price من أجل القضاء على المنافسين وإعادة رفع الأسعار بصورة مصطنعة من جديد.

#### ٥- العلاقة بين النقود والتجارة

من بيان العلاقة بين النقود والميزان التجاري معتمداً تحليلاً دقيقاً لتوزيع كميات الذهب والفضة على البلدان المختلفة، ويستنتج مستشهداً بمختلف الأمثلة التاريخية من تأريخ أسبانيا وعدة دول أخرى رؤيته في هذه العلاقة مؤكداً الآتي:

- أ- إن أسبانيا بالرغم من امتلاكها لمناجم الذهب والفضة، إلا أن العجز المستمر في ميزانها التجاري اضطرت إلى صرف رصيدها الذهبي على الاستيرادات، من دون تعديل لميزانها التجاري، فكانت النتيجة خروج الذهب منها.
- ب- إن المبالغة في تكديس الثروة النقدية كهدف بذاته يمثل خطأ فادحاً للسياسة الاقتصادية، وهو في هذا يعبر عن حصول تطور في نظرة الماركنتيلية، على الرغم من تأكيداته أهمية النقود كعامل في الحر وكاحتياطي للطوارئ، إلا أنه يؤكد وظيفة النقود كمحدد لدعم فعالية الدولة لحماية الرأسمالية الماركنتيلية.
- ت- لا يوافق على سياسة التخفيض (الكمي) للعملة الذهبية والفضية خوفاً من اعتماد الدول الأخرى السياسية نفسها، انطلاقاً من الحجج الواهية نفسها. فتكون دوافعها انتقامية، مما يهدد التجارة الإنكليزية في الخارج.
- ث- إلغاء التقييدات التي أشيعت آنذاك في إرغام التحار الأجانب على إنفاق منتجاتهم من الذهب والفضة في شراء السلع الإنكليزية،

وذلك خشية المقابلة بالمثل وهذا يعده مان كارثة حقيقية لإنكلترا، بل يدعو إلى اعتماد سياسة الحرية التجارية، لاسيما أن الشركات الإنكليزية تعد مهيمنة (مهيمنة) للتجارة الخارجية وأقوى من الدول التجارية الأوروبية من مثل (هولندا، أسبانيا، فرنسا... الخ).

ثانياً: جون بودان ١٥٩٦-١٥٣٠ Jean Bodin

كان كاتباً سياسياً ومؤلفاً اقتصادياً، صاحب مؤلف (الجمهورية)، اكتسب شهرة واسعة في فرنسا من خلال رسالته (جواب على تناقضات ما لستروا Malestrois عام ١٥٦٩)، وما لستروا أحد رجال البلاط الفرنسي وكبير المشرفين على حزية الدولة، وكان موضع الاختلاف والتناقض آنذاك هو ارتفاع الأسعار في أوروبا.

كما أن بودان من مشيخي مفهوم السيادة المطلق والذي يعكس حاجة النظام الرأسمالي الوليد إلى (دولة مركزية) تجهز على الإقطاع وعلى نفوذ الكنيسة السياسي.

إلا أن مجال الشهرة كان من خلال دراسته المشهورة عن النقود، التي استطاع من خلاله أن يقدم لأول مرة تفسيراً جديداً لظاهرة ارتفاع الأسعار العام الذي حدث في أوروبا على أثر الاكتشافات الجغرافية وتدفق الذهب والفضة إلى أسبانيا ومن خلالها إلى جميع البلدان الأوروبية.

وبهذا وضع المبادئ الأولى لنظرية كمية النقود (The Quantity Theory of Money)، محالماً الرأي القائل بأن ارتفاع الأسعار هو اسمي صرف، في حين كان تفسير بودان أن ارتفاع الأسعار كان حقيقياً ناتجاً عن تدفق المعادن النفيسة على أوروبا وبكميات كبيرة، أي زيادة عرض النقد، محاولاً في ذلك الكشف عن وجود علاقة متينة بين كمية النقود ومستوى الأسعار، على أساس أن ارتفاع الكمية النقدية سيؤدي دائماً وأبداً إلى ارتفاع مماثل في مستوى الأسعار، وإلى انخفاض القوة الشرائية للنقود على القدر نفسه.

يقدم جان بودان خمسة أسباب لظاهرة ارتفاع الأسعار هي:

١- وفرة الذهب والفضة.

٢- الاحتكار.

٣- ندرة العرض من السلع بسبب التصدير.

٤- تنذير المملوك والإقطاعيين.

٥- التخفيض الرسمي لعيار العملة.

ويحاول بودان تفسير هذه الأسباب، فيعد وفرة الذهب والفضة هي السبب الرئيس لطاهرة ارتفاع الأسعار أي وفرة النقود (وفرة ما يحكم تجميع وتسعير الأشياء)، على أن هذه الأخيرة جاءت نتيجة التجارة الخارجية، لاسيما مع بلدان أمريكا الجنوبية العنية بالمعادن الثمينة فيما يعد الاحتكار سبباً غير رئيس، لأنه يعمل على رفع الأسعار بصورة مصطنعة، نتيجة لندرة المنتج ارتباطاً بكمية النقود، فيما يرى أن زيادة الإنفاق الحكومي يعد تدبيراً، ومن المؤكد أن هذا الإنفاق يؤدي إلى ارتفاع في الأسعار على العكس من الاكتنار الذي يؤدي إلى تقليل آثار زيادة كمية النقود على الأسعار.

كما أن بودان في إشارته للتخفيض القدي المسبب لارتفاع الأسعار لا يأتي بجديد، وهو في ذلك يسير دلاتجاه نفسه الذي احتطه الأسقف بيقولا أورزم (١٣٠٢-١٣٨٢)، أسقف مدينة ليريو صاحب الرسالة المشهورة حول التخفيض القدي، والتي كانت مقبولة وقتذاك، إلا أن جل ما جاء به بودان هو محاولة إثبات صحة آراء أورزم بأدلة تاريخية وأدلة منطقية على السواء.

إن أهم ما في آراء بودان هو علاجه لمشكلة الارتفاع العام في الأسعار من خلال دعوته لإطلاق حرية التجارة، وهذا من شأنه أن خلق تعارضاً ما بين دعوته ونوحيات الماركنتيلية في دعوة الدولة للتدخل في الحياة الاقتصادية وفرض الحماية التجارية، وهذا ما دعا قسماً من الباحثين من عدم عدّ بودان ماركنتيلياً، وإن كان مثلهم يعكس مستلزمات تطور الرأسمالية التجارية.

ثالثاً: وليم بتي ١٦٢٣ - ١٦٨٧

أهم وأقدم اقتصادي إنكليزي طور الفكر الماركنتيلي ومهد الأرض أمام النظام الكلاسيكي، وهذا دفع بعض المفكرين إلى أن يطلقوا عليه بحق مؤسس الاقتصاد السياسي.

ولد السير وليم بتي SirWilliam Petty عام ١٦٢٣ من عائلة فقيرة كان أبوه يعمل نساجاً في مدينة هامشاير. وتقلبت به صروف الحياة بصورة غير اعتيادية، فبدأ حياته بائعاً متجولاً، عاملاً في مراكب الأسطول التجاري، طبيباً ثم أستاذاً لعلم التشريح، ومن ثم مساحاً للأراضي ومالكاً ثرياً. وعلى الرغم من فقر حاله إلا أنه نال قسطاً وافراً من التعليم بدأه في فرنسا في كلية الجزويت، في إنكلترا أكمل دراسته في جامعة أكسفورد، التي أتاح له أن يتمتع بوفرة الصداقة وتعرف البارزين من العلماء ورجال الأدب في عصره. فأصبح عضواً في جماعة العلماء التي كانت تجتمع في لندن وأكسفورد، والتي عرفت فيما بعد (الجمعية الملكية) وكان أعضاء مجلس هذه الجمعية (التي تعد أعلى هيئة علمية) يعينون بإرادة ملكية.

في كتابه (علم الحساب السياسي) الذي يرجح أنه كتب عام ١٦٦٠ ونشر عام ١٦٧٢، يفصح بيتي عن المركز المتقدم الذي يشغله في الفكر الاقتصادي، فدا متحرراً من قيود المصالح التجارية التي كبلت غيره من الكتاب آنذاك، ساعده في ذلك خبرته الواسعة على نحو غير عادي مع الناس، وبخاصة دوره في المسح الذي أحري عن الأراضي الأيرلندية وتوزيعها على حدود كرومويل، وفق كرس هذا إعجابه بقيادة الفكر العلمي التجريبي وارتباطه بهم، كل هذه محتمة أكسبت كتاباته الاقتصادية رصانة تحليلية وسعة أفق، لم ينافس عليها أحد طيلة مائة عام.

ثم أورد في كتابه سلسلة من المقالات (مقالة عن الضرائب والمساهمات) عام ١٦٦٢ والتشريح السياسي لأيرلندا عام ١٦٧٢، في حين كان له إسهام فكري عن النقود عام ١٦٨٢ وبشرت عام ١٦٩٥.



## ١- منهج بتي في التحليل

اعتمد بتي منهجاً وأسلوباً جديدين في البحث الاقتصادي كانا غير مألوفين في عهده ومتميزين عن الأسلوب الذي نهج عليه الماركيتيليون، فبينما انطلق هؤلاء في تحليلهم للظواهر الاقتصادية من العلاقات السطحية التي كانوا يلاحظونها، حاول أن يتجاوز هذه العلاقات ليغوص بعمق في مسوغاتها ليتوصل إلى القوانين الاقتصادية التي تقف خلف هذه الظواهر.

فيقول بدلاً من الاختصار على الألفاظ الدالة على التفضيل والحجج العقلية اتخذت طريق التعبير عن نفسي بمصطلحات العدد والأوزان والقياس وبالاختصار على استخدام الحجج المستندة إلى الحواس وعلى بحث أمثال تلك العلل التي لها أسس ظاهرة مركبة في الطبيعة.

لقد التزم بتي حقاً بما أعلنه عن المذهب التحريبي، وليسجل جانباً من شهرته في الدور الذي أدّاه في إرساء أسس على الإحصاء فهو بحق متدع هذا العلم، كما أنه لم يكتفِ ببيان الأسلوب النظري والعملي لطريقة التي يجري فيها جمع المعلومات وتنظيمها، بل ذهب إلى توصيف الوظائف الأوسع للبحث الإحصائي.

هذا كان له انعكاساته الواضحة في اعتماد بتي عند دراسته للظواهر الاقتصادية الأسلوب الكمي بصورة أساسية، يبدو فيها متأثراً كثيراً بآثاراً كبيراً بأساليب التحليل التي تتبعها العلوم الطبيعية. ومفترضاً إمكانية تطبيقها على العلوم الإنسانية، فاعتقاده بإثبات صحة القوانين الاقتصادية دفعه إلى الاستناد على الإحصائيات والأدلة العددية وليس على الآراء الشخصية والأدلة الذاتية القابلة للشك في صحتها.

## ٢- الآراء الاقتصادية

جاءت آراء بتي لتتجاوز آراء الماركنتيليين في مواضيع عديدة، كما أن تحليله أُنسم بتوزعه على مساحة واسعة من المفاهيم الاقتصادية لتصبح حدود أفكاره أُنعد مما كانت عليه عند أسلافه، ولعدم إمكانية الإمام بجميع آرائه ستكون وقفنا مع أبرزها وهي:

## ١- مفهوم القيمة

يحاول بتي جاهداً تجاوز أسلوب التحليل الماركنتيلي ومتقدماً عليهم، وفي الوقت نفسه مستوعباً لعجز اللاهوتيين عن الإتيان برأي محدد وصحيح لشروط تكافؤ القيم، في إطار سعيهم لتحقيق السعر العادل.

إن بتي يبدأ تحليله للربح انطلاقاً من تحليل قيمة البضاعة مفرقاً بين (السعر السياسي) والذي يعني عنده سعر السوق وبين السعر الطبيعي الذي يريد به القيمة، ولا يولي بتي اهتماماً للسعر السياسي لاعتقاده بأنه يتحدد عن طريق آلية العرض والطلب، وهو لن يتعد عن السعر الطبيعي أي القيمة الحقيقية للبضاعة، أي بتعبير آخر أن السعر السياسي يظل يحوم حول السعر الطبيعي، وكما يسميه (الضمن الحقيقي الجاري).

لهذا ركز بتي جهوده الفكرية من أجل التوصل إلى تحديد السعر الطبيعي فيفترض أن رجلاً ما يحتاج للحصول على كمية معينة من الفضة من باطن الأرض، في الوقت نفسه الذي يحتاج فيه رجل آخر لإنتاج كمية معينة من القمح في مكان آخر، فعند ذلك ستكون كمية الفضة التي حصل عليها الرجل الأول مساوية لكمية القمح التي حصل عليها الثاني، وعليه ستكون بضاعة الأول السعر الطبيعي للثاني. (فعندما تكون الأولى عشري أوقية من الفضة وتكون الثانية عشرين بوشل من القمح، ومن هذا يتضح أن ثمن البوشل من هذا القمح عبارة عن أوقية من الفضة).

وفي حالة اكتشاف مناجم أكثر غزارة بحيث يستطيع إنتاج ضعف الكمية من الفضة في المدة الزمنية نفسها والتكليف الإنتاجية نفسها. فإن هذا سيضاعف سعر القمح بحيث يترتب على منتج الفضة دفع ضعف الكمية للحصول على كمية القمح نفسها.

من هذا نلاحظ أن بتي يشتق القيمة استناداً على العمل المبذول في إنتاج السلعة بصورة قاطعة، إلا أنه يشير بصورة غير مباشرة، إلى أن القيمة تتغير تبعاً

لتعير إنتاجية العمل. وبهذا فإن بتي يعد العمل مصدر القيمة الحقيقي ومقياسها، إلا أنه سرعان ما يقدم لنا رأياً آخر في القيمة يعارض به رأيه الأول.

فيقول أن (العمل هو الأب والمبدأ الفعال للثروة) كما أن الأرض هي الأم، وفي هذا يجعل بتي من الأرض والعمل عاملين مشتركين في تحديد القيمة، ولعل هذا راجع إلى خلط في ذهنه بين القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية، وحيث يعالج أمر القيمة التبادلية فيقول (يسغي تقييم جميع الأشياء وفق وحدتين قياسيتين طبيعيتين وهما الأرض والعمل).

ويعحر بتي عن التمييز أيضاً بين خلق القيمة من جهة وبين خلق قيم استعمالية أي ثروات مادية ملموسة من جهة أخرى، بجانب عدم تفرقة بين العمل وأجر العمل، فيشير إلى أن قيمة البضاعة تتحدد من خلال كمية المواد العدائية التي تستهلك في عملية إنتاج البضاعة المعينة على الرغم من ادعائه بأن متوسط طعام الرجل هو أجر العامل. وليس معياراً لكمية العمل، بحيث يضمن هذا للعامل العيش والعمل والتاسل، وفي هذا يستق فكرة ريكارو عن الثمن الطبيعي للعمل، والذي هو العمل اللازم لتمكين العمال واحداً مع الآخر، من أن يعيشوا ويتقوا على حنسهم. في ظل هذا فإن بتي يرى (بأن لا يتاح للعامل من الأجر إلا ما يسمح له بالعيش، لأنه لو سمح له بضعفه وفي هذه الحالة فلن يعمل العامل إلا نصف ما كان يعمل من قبل)، هذا القول استطاع ماركس فيما بعد أن يشتق منه فكرة فائض القيمة، ومن هنا كان تقدير ماركس إلى وليم بتي وعده مؤسس الاقتصاد السياسي.

وما يمكن قوله أن عدم استقرار مفهوم القيمة في ذهن بتي، إلا أن هذا لم يمنعه من بيان العوامل المؤثرة في القيمة وهي:

١ أن العلو والرخص الطبيعيين للسعر الطبيعي (القيمة) يتوقفان على قلة أو كثرة الأيدي اللازمة لضرورات الطبيعة.

٢- بينما يتوقف السعر السياسي (سعر السوق) على:

أ- عدد المتطاملين (الطارئين) في كل حرفة بأكثر مما هو لازم.

ب- العوامل المؤثرة على العرض والطلب.

ج- العادات والتقاليد.

د- مدى إمكانية توافر بدائل للسلعة (جميع السلع لها بدائل أو ما يحل محلها).

هذه العوامل جميعاً يمكن عدّها وكأنّها (ترفع أو تنقص من ثمن الأشياء)، ومن المنفت لسطر أن آراء بتي في تفسير القيمة قد فتحت بوابة المشكلة المردوجة التي ظلت تعاني منها نظرية القيمة في تاريخ تطور الفكر الاقتصادي.

١- خلق السلعة (القيمة الاستعمالية) يعود أساساً إلى مشاركة العمل الإنساني وقوى الطبيعة (وبالاعتماد فيما بعد على السلع الرأسمالية) أما خلق القيم التبادلية المحددة والدخل فيعودان أساساً إلى العمل.

٢- إن ما ينتجه العمل أكبر مما يستهلكه أي أن غلة العمل تفوق المكافأة التي يحصل عليها في العملية الإنتاجية، لهذا يعد بتي متوسط كعام الفرد البالغ (الذي ١٠٠/١ مما يأكله ١٠٠ رجل من جميع الأنواع والأحجام).

٢- فائض القيمة والربح

يستند بتي على العمل لتحليل فائض القيمة باعتباره المحدد للقيمة، ولم يتناول المقولة العامة لفائض القيمة بل يأخذ الربح والفائدة كشكلين لها، ومعتبراً الربح المقولة الأساسية لفهم وتحديد فائض القيمة انطلاقاً من الواقع الذي كان يعيشه، وللدور الرئيس الذي يؤديه القطاع الزراعي في الحياة الاقتصادية، ولتحديد الربح يشير بتي إلى أن الربح ما هو نتيجة لطرح تكاليف الإنتاج من الناتج الزراعي الكلي، أي هو الفرق بين الناتج الزراعي الكلي والمذور وضروريات الحياة التي يحتاجها المنتج.

الربح = الناتج الزراعي الكلي - تكاليف الإنتاج (مستلزمات الإنتاج) + تكاليف المعيشة (متوسط طعام الرجل البالغ)

إن المدخل التحليلي الذي اعتمد بتي يفترض في الأساس أن الربح متأبٍ من فائض عمل المنتج الزراعي، وما أن العمل هو الذي أنتج قيمة الناتج الكلي، فيكون الربح منطقياً نتاجاً للعمل، أو بصورة أدق لفائض العمل، أي أن قوة العمل قادرة على خلق فائض يزيد على ما هو لازم لمعاش المنتج. لهذا فالربح هو الفائض الوحيد الذي عرفه وكان يتضمن كل مفهوم الربح.

في الوقت نفسه كان بيتي على وعي تام بالعنصر التفاصيل في الربح، فقد قرر بوصف نظرية الربح التفاضلي قبل ريكاردو بمائة وخمسين عاماً فيقول (إذ كما ترفع الحاجة إلى النقود من سعر الصرف فإن الحاجة إلى القمح ترفع من ثمن مبادلته ومن ثم ترفع من ربح الأرض وأخيراً ثمن الأرض نفسها).

وبناءً على فكرة بيتي بخصوص ربح الأرض يحاول بيتي تحديد قيمة الأرض وبذلك يكون أول من المفكرين حاول التوصل إلى قيمة الأرض من خلال رسملة الربح، إذ يعتقد أن الناس يدفعون ثمناً للأرض يتفق مع العائد منها، ومع عدد السنين التي يتوقعون أو يتوقع سلالتهم المباثرون أن يتمتعوا بذلك العائد. ويرى بيتي أن ثلاثة أجيال تعد تقديراً معقولاً، وفي إنكلترا كانت ثلاث حيوات مساوية لإحدى وعشرين سنة عندئذٍ تحتسب قيمة الأرض على أساس ربحها السنوي لمدة إحدى وعشرين سنة.

مما سبق واستناداً على سعر الأرض والربح يذهب بيتي لبيان آرائه بشأن الفائدة وسعر الفائدة، فيدعي أن سعر الفائدة هو الذي يقرر ربح الأرض، وعندئذٍ سيكون سعر الفائدة مساوياً لربح تلك المساحة من الأرض التي يشتريها المرء بنقود مقترضة، وإلا فلن يجد المرء من يعطيه قرضاً بسعر فائدة دون الربح الذي يمكن لصاحب النقود الحصول عليه من شراء الأرض بدلاً من إقراضه بنقود.

ومن الملاحظ أن بتي لم يول مسألة الفصل بين الربح المطلق والتفاضلي قدراً من الاهتمام، بل أن حر ما أراد توصيحه في مثاله المشهور هو بيان الربح التفاضلي الناتج عن اختلاف الموقع الجغرافي، فالقمح الذي يؤتى به إلى مدينة لندن من مسافة تتعد أربعين ميلاً أعلى من تكاليف القمح الذي يؤتى به إلى لندن من مررعة لا تتعد سوى ميل واحد، وذلك لأن فارق تكاليف النقل لمسافة تسعة وثلاثين ميلاً ستضاف إلى الثمن الطبيعي. وبما أن السعر سيجعل المنتجين واحداً، لذا فسيحصل صاحب الأرض القريبة من لندن ربحاً إضافياً يساوي فرق تكاليف النقل.

### ٣- النقود

آراء وليم بتي المبكرة وكتائنه كانت متأثرة أيضاً بالماركنتيلين، فقد أولى أهمية كبيرة على المعادن النفيسة بوصفها أحب أشكال الثروة كما أن الاتجاه المعدي له تأثير على أفكاره ففي تحليله لموضوع القيمة يعطي اهتماماً واضحاً للصورة النقدية التي تبدو بها. إلا أن ما يحسب له هو عدم وقوعه في الخلط الذي أصاب الماركنتيلين بين النقود ورأس المال.

ففي دراساته عن أيرلندا وجد أن النقود لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من ثروات الدولة، النسوية الكلية، ثم أورد ذلك في محاولته لإحصاء الثروة البريطانية والاستدلال على نسبة النقود في تشكيل هذه الثروة، ليجد أنها لا تتجاوز الواحد في المئة من مجموع الثروة.

وعى الرغم من مشاركته التجاريين في أهمية النقود كوسيلة مهمة لتشيط التجارة، إلا أنه ينتهي حاباً ومخالفاً لهم، مدعياً أن البلد يمكن أن يكون في حالة ازدهار على الرغم من قلة النقود، إلا أن النقود والتجارة الخارجية يمثلان معاً أهمية كبيرة، لأنهما يساعدان البلد على تنمية صناعته والسعي لرفع كفايته في إنتاج السلع التي تحتاج إليها التجارة.

بيد أن الإنجاز الذي جاء به وليم بتي متقدم على التجاريين، عندما راح يحاول اكتشاف القدر الصحيح من عرض النقد في بلد، فإنه يستخدم فكرة (سرعة

تداول النقود)، تلك الفكرة التي قدر لها فيما بعد أن تؤدي دوراً مهماً في النظرية النقدية، وما يدل على عمق تحليله قوله، إن وجود كمية معينة من النقود أمر ضروري لتسهيل عملية التبادل السلعي، وأن حجم هذه الكمية يتحدد من خلال المشتريين وسرعة تداول النقود ومن خلال قيمة الوحدة النقدية الفضية.

ولم يكن يعتقد بنظرية كمية النقود بدلالة إشارته إلى أن الأمة قد تملك من النقود أكثر أو أقل مما ينبغي، فإذا كانت أكثر مما يجب، فينبغي له أن يذيب الفضة والذهب ويصدرها كسلعة، حيث هناك طلب عليها أو يقرصها بفائدة حيث تكون الفائدة عالية، في حين إذا كانت قليلة فيتطلب هذا إنشاء بنك يتمتع بإدارة كفءة فسوف يضاعف تقريباً من تأثير نقودا المسكوكة. واقترح إقامة بنك في إنكلترا نظراً لتوفر مستلزماته، وسيكون بمقدوره تقديم المال الكافي لطرد تجارة العالم التجاري برمته، وهذا ما يحقق عظمة إنكلترا، وهذا توقع أمكن تحقيقه بعد سنوات قليلة من اقتراحه من قبل بتي.

#### ٤- آثار خفض العملة

يتضح أن بتي قد استوعب بدقة الآراء التي سبقته عن آثار خفض العملة ومركز المعادن النفيسة في التجارة الخارجية، فعندما تحفز الدولة قيمة عملتها الوطنية فإنها على حد تعبيره (أشبه بالتجار المفلسين الذين يخفضون ديونهم، أو يحبرون دائنين على شراء بضائعهم بأكثر من أسعارها السوقية)، كما أن النقود القديمة غير المتساوية يجب إعادة سكها على حساب الدولة، ولكن الفرق بين قيمة النقود الجديدة والنقود القديمة يجب أن يتحمله الذين يملكون النقود القديمة، وبخلافه فإن الناس سيجدون ما يغريهم بإفراض النقود التي يملكونها، ولن تؤثر العملة الحديدية كثيراً على التجارة الخارجية

## هوامش ومصادر الفصل السادس

- ١- عبد الرسول سلمان، معالم الفكر الاقتصادي، الكتاب الأول، شركة الطبع والنشر الأهلية، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، بغداد، ص ١٥.
- ٢- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٩٦.
- ٣- زوبريتسكي، كيروف، متروبولسكي، التشكيلات الاجتماعية- الاقتصادية ما قبل الرأسمالية، ترجمة جورج طرايبسكي، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٥.
- ٤- بافلوفينيتش توكارييف، ربيع الأرض وتطور الرأسمالية في الزراعة، ترجمة عارف دليلا، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٥.
- ٥- سمير أمين، التطور اللا متكافئ، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٨.
- ٦- بيرو اندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظمي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٣.
- ٧- زوبريتسكي وآخرون، مصدر سابق، ص ١٢٧.
- ٨- أندرو ويست، سوسيولوجيا التنمية، ترجمة حمدي حميد يوسف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٩٩.
- ٩- عبد علي كاظم المعموري، إشكالية الدور الاقتصادي- الاجتماعي للدولة الريفية النفطية العربية، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى جامعة بغداد، ١٩٩٧، ص ٥٢.
- ١٠- زوبريتسكي وآخرون، مصدر سابق، ص ١١٤.
- ١١- تاريخ أوروبا في القرون الوسطى.
- ١٢- عبد الرسول سلمان، مصدر سابق، ص ٣٤.
- ١٣- روبرت هليبرور، قادة الفكر الاقتصادي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٥.



- ١٤ جوزيف شتراير، الأصول الوسطية للدولة الحديثة، ترجمة محمد عيتاني، دار التنوير، الطبعة الأولى، ١٩٨، ص ٩٠.
- ١٥ للمزيد ينظر، نيقولا ميكافيلي، الأمير، ترجمة فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، الطبعة (١١)، بيروت، ١٩٨١.
- ١٦- المصدر السابق، ص ٢٠.
- ١٧- سمير أمين، التطور اللا متكافئ، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٠.
- ١٨- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٤٦٦.
- ١٩- سمير أمين، مصدر سابق، ص ٢٩.
- ٢٠- المصدر السابق، ص ٢٨.
- ٢١- طلال البانا، قضايا التحالف والتنمية في العالم الثالث، دار الطليعة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ٢٥.
- ٢٢- ماركس- أنجلس، في الاستعمار، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ص ١٥٥.
- ٢٣- المصدر السابق، ص ١٥٢.
- ٢٤- هذه الرؤيا نحتها عبد أغلب الكتاب الاشتراكيين، ويعود الفضل في طرحها لأول مرة، من قبل روزالوكسمبورغ وطورها أريحي إيمانويل وشارل بلتهايم وسمير أمين، للمزيد أنظر، سمير أمين، التبادل اللا متكافئ وقانون القيمة.
- ٢٤- Gray , The Development of Economic Doctrine p.٦٦.
- ٢٥- أريك رول، مصدر سابق، ص ٥٧.
- ٢٦- المصدر السابق، ص ٦٠.
- ٢٧- المصدر السابق، ص ٦٢.
- ٢٨- عبد الرسول سلمان، مصدر سابق، ص ٤٨.
- ٢٩- سمير أمين، مصدر سابق، ص ١٢٣.
- ٣٠- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٤٩٦.

- ٣١- للمزيد حول سلوك الدولة الرعية ينظر:  
عبد عي كاظم المعموري، مصدر سابق، الفصل الثالث.
- ٣٢- للمزيد حول آراء كولبير ينظر.
- لبيب شقير، مصدر سابق، ص ص ١٢٤-١٢٥.
- محمود عبد المولى، مصدر سابق، ص ص ١١٠-١١٢.
- ٣٣- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ص ١١٥ - ١١٦.
- ٣٤- مصدر سابق، ص ص ١١٢ - ١١٣.



**الفصل السابع**  
**الفكر الاقتصادي للطبيين**  
**«الفيزوقراطيين»**



الفصل السابع  
الفكر الاقتصادي للطبيين  
" الفيزوقراطيين "

تمهيد

جاء الفكر الاقتصادي للطبيين مكملًا للآراء التي سبقتها في دفع علم الاقتصاد ليأخذ شيئاً فشيئاً ملامحه المميزة، وما يتصف به فكر الطبيين بحاصة عن الاتجاهات الفكرية السابقة له، كونه أول مدرسة اقتصادية لها مؤسس ومطر هو فرانسوا كيناي F. Quesnay (١٦٩١-١٧٧٤) أحد أطباء لويس الخامس عشر، والذي نشر كتابه الجدول الاقتصادي عام ١٧٥٨، التف حول فرانسوا كيناي العديد من الكتاب والمهتمين بشؤون الاقتصاد كان معظمهم من أصحاب الأراضي الواسعة فكونوا طبقة جديدة من الرأسماليين الزراعيين، شوا هجوماً عيماً على السياسات التجارية، ونادوا بأفكار جديدة غايتها إعلاء شأن الزراعة وبيان أهميتها في التقدم الاقتصادي.

كما أنهم حاءوا بأفكاراً جديدة استهدفت إصلاح نظام الضرائب الذي كان سائداً، فدعوا إلى القضاء على تعدد الضرائب التي كانت تفرض آنذاك واستبدالها بصريفة واحدة على ما أسموه بالنتائج الصافي المتولد في الزراعة وصيد الأسماك والنشاطات الاستخراجية.

لقد أبرز التاريخ هؤلاء الكتاب تحت اسم فيزوقراط physiocrates وهي كلمة يونانية مؤلفة من مقطعين (فيرو) و(قراط) وتعني حكومة الطبيعة أو حكم الطبيعة". وبظهور أفكار الطبيين يدخل الفكر الاقتصادي في عصر المدارس والمذاهب، لتزود علم الاقتصاد بفكرتين حديثتين تناقضان الأفكار الماركنتيلية في تبنيها لضوابط وتنظيمات مصطنعة وهما:

الأولى: الاعتقاد القوي بوجود نسق جوهري في المجتمعات الإنسانية وهو النسق الطبيعي، مما جعل أحد الكتاب الطبيعيين يضع مؤلفاً بهذا المعنى تحت عنوان (نظام طبيعي وأساسي للمجتمعات الإنسانية) هذا النظام في رأي الطبيعيين واضح وبديهي، تكفي ملاحظته حتى تصاع لأوامره وتنسجم معه.

لذلك لا فائدة في رأيهم من تبني ضوابط مصطنعة وتخيل قوانين وترتيبات مفتعلة ولم يبق أمامنا في رأيهم أي محال إلا أن تعمل بما تمليه علينا الطبيعة، علينا إذن أن نعمل بمبدأ (دعه يعمل).

الثنية. عدّ الزراعة هي الأصل والوفاة وتفصيلها على التجارة والصناعة، فالأرض هي الطبيعة وهي مصدر كل الثروات وهي وحدها القادرة على إعطاء نتاج صافي، لذلك تعد طبقة المزارعين (الفلاحين) عند الطبيعيين، الطبقة الوحيدة الممتحة، أما الطبقات الأخرى فهي طبقات عقيمة.

شكلت الفكرة الأولى للطبيعيين ححر الراوية في أفكارهم، ودشنت سياسة جديدة استمرت ردهاً من الزمن ومعققة إنجازات كبيرة.

وما يمكن الإشارة إليه أن الطبيعيين يؤمنون بمبادئ أساسية ويعتمدون نظاماً موحداً، ولم يكن كما هو الحال عند الماركستيليين (التجارين) يجمع بين أفكار مختلفة، ومثلما كان فصل فرسوا كياي في إرساء دعائم هذا الفكر فإن لسياسات ترحو (Turgot) ١٧١٧-١٧٨١ وزير المالية الفرنسي في عهد لويس السادس عشر) ذات الصبغة الليبرالية أهمية كبيرة لإرساء أسس المذهب الحر (الليبرالي) والتواشج معه فكرياً.

لقد كانت هناك عوامل مختلفة كان لها شأن كبير في ظهور الفكر الطبيعي وأهم هذه العوامل هي:

١- الاتجاهات الفلسفية التي ظهرت إبان عصر التنوير والنهضة.

٢- السياسة الاقتصادية التي سار عليها كولبير وتطبيقه لأراء الماركستيليين في فرنسا.

## المبحث الأول

### مصادر المذهب الطبيعي (الفيزوقراطي)

طغت على الفكر الأوربي في مرحلة تاريخية مهمة نزعة الحنين والرجوع إلى الطبيعة ونزذ الأنظمة المصطنعة بحيث طغت على الأدب والسياسة لدى الكثير من المفكرين من مثل مونتسكيو وجان جاك روسو، لتمتد إلى الاقتصاد.

فالمذهب الطبيعي (على النقيض من الفكر التجاري) يستند على قاعدة فلسفية يستمد منها آراءه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وهي فلسفة الباطم الطبيعي في حين أن طبيعة الفكر الماركنتيلي نفسه لا تسمح بذلك، فهو لم يكن سوى اقتراحات عملية للسياسة الاقتصادية.

وهي من جانب آخر رد فعل على بعض النتائج التي أسفرت عنها التغيرات التي دبت في بنية المجتمع الأوربي، أي منذ اصمحلال الفكر اللاهوتي في القرن الرابع عشر، وما جاء به من تفسير لكثة الأشياء والطواهر الطبيعية وتنظيم العلاقات الإنسانية<sup>(٢)</sup>.

لقد أدى تحول الاهتمام من فكرة الحياة الآخرة إلى الحياة الدنيوية إلى فتح المجال واسعاً لتحسين الحياة على الأرض. فاندفع الفكر الشري في اكتشاف الإمكانيات الكبيرة التي تكمن في الأرض نفسها، فابرى عدد من العلماء لدراسة الطبيعة والكشف عن القوانين التي تتحكم بها، فتم إثبات كروية الأرض وبهد فكرة ثباتها وكونها مركز الكون على يد كوبرنيكوس Kopernidus ١٤٧٣-١٥٤٣ وغاليلو (Galileis) ١٥٦٤-١٧٢٧ عن الجاذبية والحركة.

فكان لهذه التطورات العلمية أن حملت معها الاصطدام مع أفكار الكنيسة وما جاءت به من تفسير للطبيعة استقته من أرسطو مثلما استقت منه الفلسفة التي كانت تقوم عليها، وعندئذ أصبحت المواجهة قائمة بين الكنيسة والقائمين عليها وبين المفكرين المتهمين بالإلحاد.



هذه الأوضاع عجلت بإمكانية طرح سؤال بدأ يدور في أعمة الناس يتلخص بالآتي: إذا ما كانت المصادر القديمة قد أخطأت في نظرتها إلى الكون وتفسير القوانين التي تتحكم به، أليس من الممكن أن تكون قد أخطأت في نظرتها إلى الدين وإلى تفسير قوانين السلوك الإنساني؟.

وفي ضوء هذا أصبح كل شيء - باستثناء بعض الحقائق - مشكوكاً فيها وقابلة للمراجعة والنقاش، ولقد كانت النتيجة التي تترتبت على رفض الكنيسة لاكتشافات العلم واحتراعاته أن بدأت حركة التشكيك والخروج عن آراء الكنيسة وذلك لاعنفاد أن ما تدعيه الكنيسة من مهية الكون والقوانين التي تتحكم فيه هو رأي الدين، وصار لراماً على الدين رفضوا هذا أن يبحثوا عن تفسير بديل لمهية القوانين فوجدوا في الطبيعة ملاذهم.

إما الذين ظلوا على تمسكهم بالدين ولو ظاهرياً، فقد اعتقدوا أن الله تعالى يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة، وبذا لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب، بل هي شيء يستلزم ما الطاعة ومحالفته دليل على حصول نقص في التقوى والأخلاق.

على وفق هذه الخلفية الفلسفية عللت الفلسفة النهضة في أوروبا الآلام البشرية بأنها وليدة عصيان القوانين الطبيعية والنتيجة الحتمية لتصرفات البشر المناهية للطبيعة وهي التي أفسدت المجتمع البدائي (الطبيعي)<sup>(٣)</sup>.

إن هذه الأفكار التي ألهمت كتاب دلكم العصر، هو الخيال الواسع في التحدث عن أوضاع المجتمع البدائي، الذي عاش في كنفه الإنسان سعيداً فاضلاً حراً بعيداً عن كل ما هو غير طبيعي ومفتعل، وراحوا يتصوران عن غير وعي داتي منهم، جنة عدن على الأرض إذا ما التزمت البشرية بالشروط التي يتطلبها النظام الطبيعي.

وجان جاك روسو Rousseau ١٧١٢-١٧٧٨ كان أحد الفلاسفة الرومانسيين الذين اعتنقوا ذلك، ودعوا إلى أفضلية الحياة الطبيعية التي عاش فيها البشر آنذاك

أحراراً متساوين، إما الحياة العصرية التي يعيشها الإنسان، فقد خلقت منه إنساناً مشوهاً ومزيفاً، فاقداً للعناصر الإنسانية الطبيعية ذاتياً ومحتلماً عن الإنسان الطبيعي الذي لا زال يحتفظ بإنسانيته وقيم الفضيلة<sup>(٤)</sup>.

إن هذا الفهم لحالة المجتمعات البدائية لا تدعمه الحقائق المتاحة لدى علماء الأنثروبولوجيا، والرغبة في الحرية لا تقع في نطاق هذه المجتمعات، بل هي كامنة في النفس البشرية، وغير مقتصرة على حالة المجتمعات هذه، ولم يكن روسو موقفاً في الربط بين إقامة النظام الطبيعي كهدف يتطلب من الأفراد إقامته، وبين العقد الاجتماعي كقاعدة إدارية شرعية صحيحة في النظام المدني.

وهذا ما انتقده آدم سميث فيما بعد وعمل على تنفيذه، فالظرة الأخلاقية الطبيعية فضلت النظر إلى المجتمع كنسق طبيعي (Natural system) يشأ من الطبيعة البشرية نفسها وليس من العقد الاجتماعي (جان جاك روسو)، أي أن عقد المجتمع نسقاً طبيعياً أو كائناً عضوياً (أنثروبولوجياً اجتماعياً)، يحتم دراساته باستخدام المنهج التحريسي الاستقرائي، وليس منهج الفلسفة العقلية الديكارتية (نسبة إلى ديكارت)، هذه الرؤيا التي تبلورت لدى الفيزوقراط فتحت الباب لاستخدام واسع للمنهج التجريبي لدى الكلاسيك.

## المبحث الثاني

### الآراء الاقتصادية للفيزقراط (الطبيين)

#### أولاً: فكرة النظام الطبيعي

تعد الفكرة الأساسية في هذا المذهب وأصوله ممتدة إلى الفلسفة الرواقية وإلى الفكر اليوناني في العهد الاسكندراني أو الهليستي Hellenistic (من القرن الرابع إلى القرن الأول ق. م)، والذي يمجّد قسر العبودية وتسويةها درائياً، وعلى وفق التحيز الأيديولوجي لنظامه آنذاك، ومن خلال عدم المساواة الطبيعية في القابليات، والتي انتقلت منه إلى كتاب القانون الروماني لتصل إلى المدرسين (السكولائيين) في القرون الوسطى.

وقد طبقت فكرة القانون الطبيعي في العلوم الطبيعية على وجه الخصوص قبل أن تنتقل إلى العلوم الاجتماعية في عصر الفيروقراطيين (الطبيين)، إلى الذين اعتقدوا أن الطواهر الاقتصادية حالها حال الطواهر الطبيعية والمايولوجية تخضع لقوانين طبيعية، لا دخل لإرادة الإنسان في إيجادها وهذه القوانين تحكم مظاهر الحياة الاقتصادية كافة، وتستند في انطباقها وتنظيمها للحياة الاقتصادية على مبدأين أساسيين هما:

المبدأ الأول: مبدأ المفعة الشخصية وهي امتداد لفلسفة السعادة (Hedonism) فلسفة اللذة والألم الأبيقورية<sup>١٥</sup>، والتي تستحث الإنسان باستمرار لحفره على النشاط الاقتصادي والاهتداء في تصرفاته الاقتصادية لتمثل قوة توجهه لمباشرة هذا النشاط.

المبدأ الثاني: مبدأ المنافسة، كل فرد عندما يسعى لتحقيق منفعه الشخصية يدخل في تنافس مع بقية الأفراد في المجتمع، فيحدد ذلك من انطلاق كل فرد في تحقيق منفعه.

هذه المبادئ كانت المواطن الأساسية للقوانين الطبيعية يتم من خلالها تنظيم الحياة الاقتصادية، وما يميز هذه القوانين جملة من الخصائص هي<sup>(١)</sup>:

١- أنها مطلقة وتتصف بالعمومية، وكل محاولة من الفرد لعدم تطبيقها يكون جراًؤها إلحاق بعض الألم به فيضطر للرجوع إليها.

٢- إنها ذات طابع عالمي، إذ تنطبق على أوضاع المجتمعات كافة في العالم، بصرف النظر عن خصوصيتها وظروفها.

٣- إنها أبدية (أزلية) غير قابلة للتبديل أو التغيير على حد قول كيناي مؤسس هذه المدرسة.

٤- هي قوانين إلهية، بمعنى أن الله هو الذي فرضها وحتمها، ولما كان الله سبحانه وتعالى يريد الخير للبشر فلا بد أن تكون تلك القوانين هي الأخرى خيراً ولن ينتج عن تطبيقها ضرراً للناس.

لهذا يجب أن تتسع ولا يجب محالمتها، كما أن القوانين الوضعية يجب أن تقترب منصوصها مع ما تمثيه القوانين الطبيعية، وقد بين الطبيعيون أنه ليس في وسع أي فرد أن يدرك فصوص هذا النظام والقوانين الطبيعية التي يمكن استخلاصها منه، إلا من قبل الصفوة أو السجبة (Elite) من الناس، والطبيعيون هم هذه الصفوة المثقفة والمنورة من الناس.

كما أن الحرية الفردية والحرية الاقتصادية وحرية الملكية هي بعض ما يمليه علينا النظام الطبيعي حسب اعتقادهم.

هذه الرؤيا تحمل في ثاياتها تفاؤلاً مفرطاً لسر الحياة الاقتصادية عند الطبيعيين، وما تم استخلاصه بهذا الشأن من أن كل فرد عندما يسعى لتحقيق مصلحته الشخصية، فإنه يسعى في الوقت نفسه لتحقيق مصلحة الجماعة، فهذه الأخيرة ما هي إلا مجموع المصالح الفردية.

في حين يختلف الفيزوقراطيون عما جاء به توماس هوبز (T. Hobbes) (١٥٨٨ - ١٦٧٩) من مبدأ (دعه يعمل) والمستند على حق الأفراد الطبيعيين في

الأنانية الاقتصادية<sup>(٧)</sup>، أي صراع الكل ضد الكل من أجل تحقيق المصلحة الاقتصادية العامة.

فالنظام الطبيعي عندهم يتعين ويستند على الانسجام والتوافق بين الأنانيات الفردية، هذا الاعتقاد نحده عند جميع الطبيعيين (مرسيي دي لارفيير وجيدورست وغيرهم)، على الرغم من أنهم لم يقيموا الدليل الكافي على وجود هذا التوافق.

إن الانسجام والتوافق الذي جاء به الطبيعيون، يمثل حجر الزاوية في أسس الفلسفة الاقتصادية للمدرسة الكلاسيكية في القرن التاسع عشر، بل يمثل أساساً استند عليه آدم سميث A.Smith (١٧٢٣ - ١٧٩٠) في مؤلفه (نظرية المشاعر الأخلاقية).

#### ثانياً: الإنتاج

يكمّن جوهر الإنحار الذي قدمه المذهب الطبيعي للاقتصاد السياسي هو تأكيدُه على أن ثروة الأمة هي حصيلة العملية الإنتاجية، وهو ما يعدّ تجاوزاً للتجارين، ونقلاً للاهتمام من التجارة إلى الإنتاج، لأن التجارة بحسب اعتقاد كيناي لن تؤدي إلى زيادة الثروة، فهي عملية تبادل بين قيم متكافئة، والتبادل السعي على حد اعتقاده لا يمكن أن ينتج شيئاً، وإنما سيحصل تبادل بين ثروات لها قيمة معينة بثروات أخرى تمتلك القيمة نفسها.

والشيء نفسه ينطبق على الدخول الشخصية المستحصل عليها من الأفراد، فهي كذلك لم تكن حصيلة عملية التبادل بل هي نتاج لعملية الإنتاج، وأن أساسها هو المنتج الفائض أي المنتج الصافي، وعلى وفق هذا جاء تعريف الطبيعيين للإنتاج (بأنه كل عمل من شأنه أن يحقق ناتجاً جديداً من خلال إضافته مقداراً من المواد أكثر من تلك التي بذلت في الإنتاج)<sup>(٨)</sup>.

لهذا استنتج الطبيعيون من هذا التعريف أن الزراعة هي النشاط الاقتصادي الوحيد الذي يعد منتجاً، اتساقاً مع منطق تعريفهم لأنها هي وحدها التي تؤدي للحصول على كمية من الحاصلات أكبر من البذور التي استخدمت والمواد التي استهلكها المزارعون أنفسهم في أثناء قيامهم بالإنتاج

إما الصناعة والتجارة فليستا من ضمن النشاط الاقتصادي المنتج، فما يجري في القطاع الصناعي هو تحويل المواد الأولية من شكل إلى شكل آخر، وأنه في حالة التحويل تستخدم كمية معينة من العمل تحري مكافئها بقيمة معينة هي الأجر، الذي هو أجر الكفاف والذي يساوي كمية المواد الضرورية لعيش العامل، في حين تتدخل قوى الطبيعة في إنتاج القطاع الزراعي.

إن تمييز الطبيعيين بين عملية الإنتاج في القطاع الزراعي والقطاع الصناعي، يستند أساساً على الفهم المادي الملموس للقيمة ثم الثروة، مما حدا بهم إلى الاعتقاد بأن ثروة الأمة تتوقف على حجم المنتج الصافي فقط، وهذا دافعهم إلى إعلاء شأن الزراعة على القطاعات الاقتصادية الأخرى كافة، فأسعار البضائع الزراعية فقط هي ببطر الطبيعيين تعد أسعار كلمة، وتحتوي على فائض القيمة (أي منتج صاف) وهو هبة الطبيعة.

ولعدم تفريقهم بين ريع الأرض وفائض القيمة فقد توصلوا إلى أن الربيع (RENT)، هو المظهر الوحيد لفائض القيمة، عندئذ يصح العمل في القطاع الزراعي عملاً منتجاً، بسبب قابليته على إنتاج فائض القيمة، إما القطاعات الأخرى فهي عقيمة، وعملية خلق فائض القيمة هي المعيار الوحيد بنظر الفيزوقراطيين للتفريق بين القطاعات المنتجة وغير المنتجة

### ثالثاً: الأجر وسعر الفائدة

من الجدول الاقتصادي لكينيائي يمكن التوصل إلى رؤية الفيزوقراط للأجور، وهي تعد تواصلاً مع الآراء السابقة، فأجر العامل لن يكون أكثر من ذلك المبلغ الذي يكفي العامل لسقاء على قيد الحياة، أي أن الأجر لن يكون عداً عند حد الكفاف، وذلك لأن العامل لا يضيف إلى قيمة المواد الأولية أكثر من قيمة المواد الضرورية لعيشه أولاً، ولأن التنافس بين العمال أنفسهم على فرص العمل من شأنه أن يؤدي إلى خفض أجر العامل إلى هذا المستوى ثانياً.

إن أحر العمل (سعر العمل) مثله مثل الأسعار الأخرى كافة، لا يمكن أن يتجاوز تكاليف إنتاجه، وهذا هو السعر الطبيعي للعمل، لذلك فلن يكون انخفاض أسعار السلع ولاسيما الحبوب في صالح الطبقة العاملة، لسببين هما<sup>(٩)</sup>:

١- إن انخفاض الأهور النقدية بصورة حتمية إلى مستوى أجر الكفاف بفعل العوامل أعلاه محتملة

٢- إن تخفيض أسعار الحبوب(السلع الزراعية) من شأنه أن يخفض حجم الناتج الصافي المتحقق، مما يحمل معه تحفيضاً ضمناً لدخل المجتمع ومستوى رفاهته.

في حين يتسم تحليل الطبيعيين ولاسيما فرانسوا كيناي في الالتباس وعدم الوضوح، ولم يكن تحليلاً عميقاً فيه معالم تجاوز للمفكرين الذين سبقوهم، الفهم الفيروقراتي ظل مرتهاً بفهم لمصادر خلق الناتج الصافي، لقد اقصروا ذلك على الأرض، فهذه فقط تستطيع خلق قيمة تفيض عن تكاليف الإنتاج، لذا فلن يكون لرأس المال فائض قيمة خاصة به، يمكن له خلقها مثلما عليه الحال في العمل، من هنا يظهر تناقض الميزوقراطيين أي تناقض كيناي فيما يخص تحليل سعر الفائدة التي يحصل عليه المنتج الرأسمالي.

يدعي كيناي أن الفائدة ما هي إلا تعويض عن الكلفة وحصة الابدثار ومكافأة عن المخاطر والمجازفة، وهذا غير مقنع، إذ أن الفائدة شيء والابدثار شيء آخر، فهما مفهومان مختلفان تماماً، كما أن المكافأة على المخاطر هي جزء من التكاليف، والتي لا يفترض حصولها في حالة استعمال رأس المال فقط.

رابعاً: الجدول الاقتصادي

استعار فرانسوا كيناي (كونه طبيباً) فكرة الجدول الاقتصادي من تداول الدم في الجسد الإنساني، مشبهاً تداول المنتجات في الجسد الاقتصادي منه، وقد قدمه في بحث لا يتجاوز بضعة صفحات عام ١٧٥٨، ليمنحه شهرة واسعة تجاوزت حدود

فرنسا، وليحتفظ بمكانة متميزة في تاريخ الفكر الاقتصادي. ويفترض كيناي فروضاً عدة، لبيان الكيفية التي يتم بها توزيع الناتج القومي على الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع وهي<sup>١</sup> .

١- ينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة ملاك الأرض، طبقة المزارعين (المنتجين)، طبقة الصناع والتجار.

٢- إن الإنتاج يتكرر عند المستوى نفسه. أي أن هناك إعادة إنتاج مبسط بحسب التصور الماركسي.

٣- وجود نظام لإيجار الأرض، يدفع المستأجر الرأسمالي لصاحب الأرض ريعاً نقدياً.

٤- إن أسعار البضائع تتسم بالثبات.

٥- إهمال التبادل السلعي ضمن إطار الطبقة الواحدة، بل يأخذ إجمالي التبادل ما بين الطبقات.

وانطلاقاً من الفهم الميزوقراطي للإنتاج والعمل المنتج، فإن القطاع الزراعي هو القطاع الذي يمكن أن ينشأ فيه فائض القيمة، وتعد طبقة الفلاحين ومستأجري الأرض فقط الطبقة المنتجة. إن الطبقات الاجتماعية الأخرى (طبقة ملاك الأرض وطبقة الحرفيين والرأسماليين الصناعيين والعمال الذين يعملون في القطاع الصناعي والخدمات بجانب التجار) فهي طبقات عقيمة.

وتبعاً لذلك يجري كيناي عملية توزيع الناتج على هذه الطبقات، لافتراض أن الإنتاج الزراعي الكلي يساوي خمسة مليارات فرنك فرنسي، منها ملياران فقط هو الفائض (المنتج الصافي)، وبذلك يكون التوزيع على النحو الآتي:

طبقة ملاك الأرض

- تتسلم مليارين كبديل إيجار عن أراضيها.

- تنفق مليار فرنك في شراء بضائع زراعية من الطبقة المنتجة.



- تنفق مليار فرنك في شراء بضائع من الطبقة العقيمة (الصناع والتجار).

#### الطبقة العقيمة

- تتسلم مليار فرنك في طبقة الملاك لقاء بيع بضائع لها.
- تسلم مليار فرنك من الطبقة المنتجة لقاء بيع بضائع وأدوات لها.
- تنفق هذين المليارين في شراء سلع زراعية من الطبقة المنتجة.

#### الطبقة المنتجة

- تنفق مليارين كبديل إيجار إلى طبقة ملاك الأرض.
- تنفق ملياراً لقاء شراء سلع صناعية من الطبقة العقيمة.
- تتسلم مليار فرنك من طبقة ملاك الأرض لقاء شرائها سلع زراعية.
- تتسلم مليارين فرنك من الطبقة القيمة لقاء شراء سلع زراعية.
- تنقي ملياري فرنك فرنسي لإعادة الإنتاج في القطاع الزراعي.

يتضح من هذا التوزيع أن جميع الدخل المتولد يؤول إلى طبقة المزارعين (الطبقة المنتجة)، وهكذا تبدأ دورة الإنتاج والدخل في هذه الطبقة وتنتهي بها، وهذا يمثل أول تحليل لدورة الدخل والإنتاج في إطار التحليل الكلي وهو بمثابة التدفق الدائري للدخل.

#### خامساً: نظرية التجارة الخارجية

لم تكن التحليلات الاقتصادية لموضوعة التجارة عند الفيزوقراط ذات بعد تقديمي وإضافة يعتد بها، بل كانت تمثل تراخياً عما جاء به الماركيتيليون المتأخرون، الذين ناصروا حرية التجارة الخارجية.

وابتداء رفض الفيزوقراطيون دعوة التجاريين بضرورة وجود فائض في الميزان التجاري تحت حجة مفادها، إن تسرب كمية معينة من النقود إلى بلد ما، من شأنه أن يرفع مستويات أسعار السلع في داخل البلد، وفي ظل حرية تامة

للتجارة فإن السلع المنتجة محلياً ستكون مرتفعة الأسعار مما سيقلل الطلب الخارجي عليها، وعلى العكس سيزداد الطلب المحلي على السلع الأجنبية، مما سيؤدي إلى تسرب الكمية النقدية التي حصل عليها البلد إلى أن تعود حالة التوازن بين كمية القود وحجم العرض السلعي.

يرى الفيروقرات أن الحالة الوحيدة التي تحمل المنافع من التجارة الخارجية لصالح البلد، وفي ظل حرية التجارة تتمثل بتصدير الحبوب، إذ سيكون في هذه الحالة إمكانية تحقيق السعر الذي يعطي تكاليف الإنتاج التي يتحملها القطاع الزراعي مع ضمان فائض يربو على هذه التكاليف.

فيما عدا هذا وبالرغم من أهمية التجارة الخارجية في توفير السلع التي لن يكون بمقدور البلد إنتاجها محلياً، فإنه يصر مصلحة الشعب من وجهة نظر الطبيعيين، وحتهم في ذلك أن الأرباح التي تنشأ عن التجارة ستكون على حساب المنتج الصافي، وذلك لأن التبادل سيكون دائماً بين قيم متكافئة، وبهذا أيضاً لن يكون في الإمكان زيادة ثروة الأمة عن طريق التجارة الخارجية.

آراء الفيروقرات هذه حملت تناقضات صارخة، فإذا كانت التجارة الخارجية، لا تؤدي فعلاً إلى زيادة في ثروة الأمة - باستثناء تصدير الحبوب طبعاً -، عند ذلك تصح التجارة الخارجية فعلاً مضرة، ولكنها ليست ضرورية وهذا ما يخالف الواقع طبعاً.

إما إذا كانت التجارة الخارجية ضرورية، فعند ذلك سيكون بإمكانها طبعاً حق قيم إضافية، وهذا سينطبق بحكم المنطق على التجارة الداخلية والصناعة أيضاً.

إن تخطيط الفيروقرات وتناقضاتهم، جاءت بسبب الفهم الخاطئ لمفهوم الإنتاجية وعجزهم عن التمييز بين الإنتاجية المادية الملموسة (نسبة التكاليف إلى الربح مقاسة بالكمية) والإنتاجية في خلق القيمة، أي نسبة التكاليف إلى الربح مقاسة بالقيمة.

#### سادساً: الضريبة الواحدة

عَدَّ الطبيعيون الزراعة من أنها العمل الإنتاجي الوحيد، إما النشاطات الأخرى فهي عقيمة، لهذا نادوا بأن تقتصر الدولة فرض ضريبة واحدة على الزراعة، وحصراً على الإنتاج الصافي المتولد في هذا القطاع، ولما كانت الزراعة هي القطاع الوحيد المولد للإنتاج الصافي، فالمسطق يشير إلى إمكانية فرض هذه الضريبة فقط عليه.

بجانب ذلك لم يؤمن الطبيعيون بتعدد الضرائب، وحثهم في ذلك يرتكز على أن فرض الضريبة على الصناع والتجار لا يعني دفعهم لها، لوجود إمكانية نقل عبئها إلى الآخرين، بل سيعمد هؤلاء إلى نقلها إلى الزراع، من خلال رفع أسعار المنتجات التي يبيعونها لهم بمقدار الضريبة. وكذلك الحال عند فرض الضريبة على ملاك الأرض الذين سيكون بمقدورهم نقلها إلى الزراع من خلال رفع إيجار الأراضي، وبهذا وفي جميع الأحوال ستكون نقطة سقوط الضريبة على الزراع متوفراً لجهد الدولة وحتى لا تتحمل الدولة تكاليف هذه الضريبة، التي تكون أكثر بكثير من تكليف الحماية المباشرة على الناتج الصافي، كما سيصعب حساب الضريبة عند تحول الدخل من يد إلى أخرى، وهذا من الممكن أن يصاعفها، لذلك فإن الضريبة المباشرة على الناتج الصافي هو في صالح الطبقة المالكة، وليس ضد مصلحتها كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة.

لقد قدرت الضريبة المفروضة على الناتج الصافي بـ (٣٠%)<sup>(١١)</sup> من مجموع هذا الناتج، وإذا ما تولدت الرغبة على زيادة الضرائب الكلية، فهذا يتطلب زيادة الناتج الكلي والناتج الصافي عن طريق تحسين الزراعة أو المصادر الطبيعية بصورة عامة، وبهذا فإن حصيلة الضريبة لن تزداد بفعل التغيير في سعرها، بل كحصيلة نتيجة زيادة حجم الدخل أو الناتج الصافي.

إن قصر الضريبة على أصحاب الأرض كان له ما يسوغه، فقد كانت طروحات الفيزوقراط منسجمة مع ما ذهبوا إليه، إذ أن فرض الضريبة على الأيدي

العاملة لا يستقيم مع تحديدهم للأمر عند مستوى الكفاف (الحد الأدنى للمعيشة)، فهذا من شأنه أن يرفع مستوى الأحرار إلى الأعلى بمقدار الضريبة المفروضة، وعلى وفق هذا ستتحمّل الطبقة العقيمة عبء الضريبة.

ومن ناحية أخرى فإن فرض الضرائب مباشرة على الطبقة الرأسمالية الصناعية، لم يلقَ التأييد من الفيزوقراط أيضاً، فمن خلال الدولة الاقتصادية لا يوجد لديها ناتج صافٍ، مما يعني أن فرض الضريبة عليها من شأنه تجريدها من بعض رؤوس أموالها، مما يعيق عملية خلق التراكم الرأسمالي المنشود.

عدت نظرية الطبيعيين في الضريبة الوحيدة أصلاً اقتصادياً واجتماعياً هاماً، لاعتقادهم بأن توزيعها على طبقات المجتمع، هو السبب الأساس في بؤس الشعب وشفائه، وأنهم وحدوا العلاج لهذا في الضريبة الواحدة، والتي من شأنها أن تؤدي إلى زيادة الإنتاج وريادة الناتج الصافي، الذي هو مصدر الثراء والرخاء في البلد.

لقد أثبت انتقادات في حينها على هذه الضريبة وهي:

- ١- أنه ليس من العدالة بمكان أن تفرض الضريبة على كاهل طبقة واحدة من الشعب، بدلاً من توزيعها بالتساوي على الطبقات كافة.
- ٢- عدم كفاية الضريبة لمطالبات نفقات الدولة.

وقد رد الطبيعيون على هذه الانتقادات، إذ أن فرض الضريبة على الناتج الصافي يحقق الانتقاد الأول، لأنها تأخذ ما أنتجته الطبيعة ولا تؤخذ من أحد، بالإضافة إلى ذلك فإن فرض الضريبة على الطبقتين الآخرين، وهي طبقة الزراع والطبقة العقيمة غير ممكن، لأن دخولها يكفي بالكاد فقط لإنتاجها ومعيشتها، وأن إلقاء عبء الضريبة عليهما من شأنه تقليص دخولهما الحقيقية، وهذا أكد الطبيعيون الأخذ بقانون الأجر الحديدي.

في حين كان ردهم على الانتقاد الثاني في عدم كفاية الضريبة لمطالبات إنفاق الدولة، يتبلور في أن الأخذ بنظامهم وتطبيقه، سيؤدي بدون أدنى شك إلى

زيادة الناتج الصافي ومن ثم زيادة مجموع الضرائب التي تستلمها الدولة، مضافاً إلى ذلك فإن نفقات الحماية سوف تكون أقل بكثير مما كانت عليه، وذلك لسهولة جاية الضريبة الوحيدة. رأي الطبيعيين في الضريبة الوحيدة كان مدعاة لتقبلها من قبل العديد من الكتاب، والذين استندوا إليها بجانب نظرية ريكاردو في الربح، ومن هؤلاء الكاتب الإنكليزي جيمس ميل J.Mill ١٨٣٦-١٧٧٣ والكاتب الأمريكي هري جورج H. George ١٨٣٩ - ١٨٩٧، إما الكاتب المعروف جون هوبسن J.Hobson ١٨٥٨ - ١٩٤٠، فقد نادى بفرض ضريبة على كل فائض اقتصادي، سواء قد تولد من الأرض أم من غيرها.

#### سابعاً: الدولة

إن إيمان الطبيعيين المطلق بالنظام الطبيعي والقوانين الطبيعية ودعوتهم إلى الحرية، وعدم التدخل في هذا النظام من خلال تشريع قوانين وصعية تتعارض معه، وبناء على ذلك دعوا إلى تقليص دور الدولة ووظائفها وحصريها في جوانب معينة. وتأتي هذه في ضوء التجربة التاريخية التي عاشتها فرنسا منذ ظهور الدولة المركزية حتى ظهور الطبيعيين، وما ألحقته السياسة الكوليرية من أضرار في الحياة الاقتصادية من خلال تدخلها الواسع، فللدولة في ظل الماركنتيلية كانت متدخلة ومتعددة الوظائف والأغراض. لهذا فقد حمل اعتقادهم بالقوانين الطبيعية إلى المناداة بإلغاء معظم القوانين الوصعية كنها، أو تقليصها إلى أقصى حد ممكن، وإذا كان هناك ضرورة لتشريع قانون جديد فيجب أن يكون القانون صورة مماثلة لقوانين الطبيعة، متطابقاً معها ومنبثقاً عنها.

وعلى الرغم من أن تأثيرات المدرسة الطبيعية كانت في زخمها الفكري مقتصرة على فرنسا، إلا أن آثارها امتدت إلى بلدان أخرى، فقد طلبت كاترين

الكبيرة في روسيا من مرسير دي لارفير أحد أعلام الطبيعيين لزيارة موسكو والإسهام في وضع دستور للبلاد، يأخذ بنظر الاعتبار طروحات الطبيعيين، فقال أن خير شيء يمكن عمله في هذا الخصوص، هو أن تترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.

إلا أن ليس مدعاة للقول أن الطبيعيين يأخذون بالفوضوية، حينما دعوا إلى تقليص وظائف الدولة وإلغاء القوانين الوضعية التي لا تطابق القوانين الطبيعية، وإنما كانوا من أشد المتمسكين بالنظام والسلطة المركزية على أن لا تتازعها سلطة أخرى في البلد.

إن ما ينبغي أو يشير إليه الطبيعيون هو الإصغاء إلى صوت الطبيعة والعمل وفق ما تملّيه إرادتها وقوانينها،

من هذا حصر الطبيعيون وظائف الدولة في الآتي:

- ١- صيانة النظام الطبيعي والعمل وفق قوانينه والمحافظة على أسسه مثل الملكية الخاصة، وحق التعاقد والمنافسة الحرة وكذلك إشاعة العدل والأمان في البلد.
- ٢- نشر الثقافة والتعليم وخصوصاً تثقيف الناس وتكوين رأي عام سليم لديهم يتمكنوا به من تفهم محتوى النظام الطبيعي والعمل بموجبه.
- ٣- القيام بالأشغال العامة وذلك مثل تشييد الطرق والجسور والقنوات.. الخ، لأن هذه الأعمال تؤدي إلى تسهيل الاتصال بين المناطق المختلفة ورفع قيمة أراضيها.

بالإضافة إلى هذا فقد حذر كيناي من لجوء الدولة إلى القروض لسد نفقاتها، وأن تتحاشى ذلك قدر الإمكان، ومسوعات رفض كيناي للقروض، هو لأنها تولد طبقة من الممولين الذين يعتاشون على الموائد التي يجب أن تنفقها الدولة للصالح العام، كما أن النقود المقتصة سوف تسحب من الدورة العامة للثروة، فيهبط الإنتاج ويقل الناتج الصافي.

والاستنتاج الذي يمكن قوله أن الدولة قد وُضعت واجباتها في السماح بتدخلها لصيانة الأمن الداخلي والحارحي وحماية الملكية الفردية، وجعل الأفراد ينفذون ما يرتبطون به من العقود، ولقيام الأعمال العامة التي لا غنى عنها لمراولة النشاط الاقتصادي، هذه التصورات لم تكن بدون سند فكري وواقعي، وهي مبنية على صيحة أطلقها فنسنت دي جورباي Vincent de Gournay اكتسبت الشهرة منذ ذلك الوقت إلى الآن (دعه يعمل.. دعه يمر laissez faire , laissez passer).

### المبحث الثالث أبرز أعلام الفكر الطبيعي

لم يتح للفكر الطبيعي أن يعطى بالصدي المناسب في باقي أنحاء العالم بالقدر نفسه في فرنسا، ويمكن أن يعود إلى اختلاف واقع فرنسا الاجتماعي والاقتصادي عن الأقطار الأوربية الأخرى، وإلى طبيعة تنظيم المدرسة الطبيعية نفسها، إذ كانت أشبه بعصبة ظلت أمية على أفكار مؤسسها، من خلال النقل والشرح لأفكار كيناي من دون محاولة حقيقية لتطوير هذه الأفكار.

وهذا ينطبق على أفكار ميرابو الكبير (1715-1789) نفسها، فيما حاول ريفيرا 1720-1793 الذي نال شهرة واسعة واحتراماً كبيراً من خلال مؤلفه (النظام الطبيعي محرك المجتمعات السياسية)، والذي يحاول به تطوير آراء كيناي على أساس أنها اتجاه حديد في فلسفة الدولة، والذي لقي معارضة وسحرية من فولتير ودي مابلي وينطبق الأمر على ديونت Dujont (1739-1817) .<sup>٢٠</sup>

ومن تلامذة كيناي المخلصين هو (تروزون Trosne)، الذي اشتهر بدفاعه عن الفكر الفيروقراتي ضد النقد الذي وجهه كوندياك (Condillac)، محاولاً إثبات صحة آراء الفيروقراتيين في موضوع القيمة.

#### ترحو Turgot

لم يكن ترحو ملتزماً بأفكار كيناي، بل كان يفي ارتباطه بالمذهب الفيروقراتي، على الرغم من أن الاتجاه العام لأفكاره يدل بصورة حلية على انتمائه الفكري لهذه المدرسة، ويهرد كتب الفكر لترحو مساحة مهمة عند استعراض الفكر الطبيعي، فهو أكثر أعلام الفيروقرات شهرة وعمقاً، وبعد خمس سنوات من الإطاحة به أي في مايس عام 1781، توفي ترحو أثر مرض عصال ألم به، تاركاً خلفه حياة حافلة بالأحداث ثبت فيها يصارع بغير أناة ولا تراجع من أجل مصالح فرنسا ومستقبلها.



## آراء ترحو الاقتصادية

لا تكمن أهمية ترحو في تاريخ الأفكار الاقتصادية، كونه من دعاة الفكر الميزوقراطي، بل لسعيه الجاد والحثيث لتطوير هذا المذهب وجعله أكثر اقتراباً من الواقع الاجتماعي والاقتصادي آنذاك، بحاب حرأته في تحاوز أسس الفكر الطبيعي ولاسيما آراء كيناي، باتجاه عدم جمود هذا الفكر<sup>(١٥)</sup>.

### ١- تقسيم المجتمع

اعتقد الفيروقراط وانطلاقاً من آراء كيناي بأن المجتمع يتكون من ثلاث طبقات اجتماعية، هي الطبقة المنتجة (الفلاحين)، الطبقة المنتفعة (أصحاب الأراضي)، الطبقة العقيمة (التجار والصناعيين والعمال)، هذا الاعتقاد ساد عند معظم المفكرين الطبيعيين، إما ترحو فقد رفض هذا التقسيم، مدعياً أنه لا يعطي صورة دقيقة للواقع الاجتماعي، واقترح تقسيماً آخر قسم فيه الطبقة العقيمة إلى فئتين.

الفئة الأولى: تتكون من الرأسماليين الصناعيين الذين يستخدمون الأيدي العاملة في الإنتاج من أجل الربح.

الفئة الأخرى: العسدية والفكرية ويتمثل دخلهم بالأجر الذين يحصلون عليه.

بهذا يتكون المجتمع وفق رؤية ترحو من خمس طبقات هي:

أ- الطبقة المنتجة.

ب- الطبقة المنتفعة.

ج- طبقة الرأسمالية الصناعية.

د- الحرفيون.

هـ- العمال المأجورون.

وتتجلى أهمية هذا التقسيم من أنه تجاوز جميع التقسيمات المعروفة، بدءاً من أرسطو وإلى الفيروقراط، وتتجلى هذه الأهمية بالآتي: إنه مهد الطريق إراء

المفكرين الكلاسيكيين، لتقسيم المجتمع على وفق ملكية وسائل الإنتاج، أي أن التقسيم أصبح على النحو الآتي:

- أصحاب الأراضي (ملكية الأرض).
- الرأسماليون (ملكية وسائل الإنتاج).
- العمال المأجورون (مالكون لقوة عملهم).

لم يكن بالإمكان تجاهل الربح الذي يحصل عليه الرأسماليون الصناعيون، على العكس من كيندي الذي تجاوز مسألة الربح، وفقاً لتقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات طبقة منتجة وطبقة ملاك الأرض وطبقة عقيمة، إذ وضع الرأسماليين والعمال في الطبقة العقيمة على مستوى واحد، باعتبارهم لا يتجورون بأكثر مما يستهلكون، وأن طبيعة إنتاجهم لا يؤدي إلى ظهور المنتج الصافي (الفائض)، بل مجرد تحويل لموارد الطبيعة.

وابتداءً من هذا المهم الميزوقراطي، فإن ما يحصل عليه الرأسمالي الصناعي لا يعد ربحاً أو كما أسماه ماركس (فائض القيمة)، وإنما مجرد أحر يحصل عليه لقاء الجهد الذي يبذله في حين يرى ترحو أن قيمة الناتج تحتوي على كلفة رأس المال أولاً، وعلى أحوار العمل والتي لن تتعدى مستوى حد الكفاف ثانياً، إما الباقي منه فيتفتت على ثلاث صور:

الأول: هو الربح الذي يحصل عليه الرأسمالي كدخل وبدون أن يقدم أي جهد، وذلك لكونه مالك رأس المال، أي أن الرأسمالي يحصل على هذا الجزء من الفائض كفايدة على رأس المال الذي وضعه.

الثاني: هو الدخل الذي يحصل عليه الرأسمالي كمكافأة على ما قدمه من جهود وما بذل من مشاق في العملية الإنتاجية.

الثالث: هو الربح الذي يحصل عليه صاحب الأرض، وهذا الجزء لا ينشأ إلا في القطاع الزراعي، لهذا يدعي ترحو أن المستأجر للأرض الزراعية (الرأسمالي

الزراعي) يجب أن يحصل على فائض يفوق ما يحصل عليه الرأسمالي الصناعي، لأنه يتعين عليه أن يدفع ريعاً لصاحب الأرض.

## ٢- الربح والفائدة

فيما يتعلق بتحديد مقدار الربح والفائدة، فإن ترجو يجعل من ريع الأرض المحور الأساسي لهما، وفي هذا لم يأت بجديد عما ذكرها المفكرون سابقاً، وبخاصة وليم بتي فالربح الذي يحصل عليه رب العمل لا يمكن أن يكون من دون سعر الفائدة، لأنه إذا لم يحصل على هذا والذي يمثل الحد الأدنى، فلن يوظف رأسماله في المشروع ويتحمل مشاق العمر وأخطار المجارفة، وإنما سيقرض رأسماله إلى الآخرين.

وبناء على هذا، فإن ترجو يعين الحد الأدنى لسعر الفائدة على وفق مقدار الربح الذي يحصل عليه صاحب الأرض، وذلك لأن الرأسمالي لن يقرض رأسماله، إذا كان سعر الفائدة دون مستوى الربح الذي يحصل عليه صاحب الأرض، بل سيعتمد على شراء أرض زراعية ويؤجرها ليحصل على ريع يفوق سعر الفائدة.

هذا التحليل يؤكد ارتباط ترجو بالمذهب الطبيعي، إذ أن الفائدة (غلة رأس المال) تتعين أساساً بالاستناد إلى غلة الأرض، وهذه عند ترجو (وجميع الطبيعيين) هي هبة الطبيعة<sup>(١٦)</sup>.

## ٣- التراكم الرأسمالي

مع اهتمام ترجو بطبيعة القطاع الصناعي عامة والإنتاج الرأسمالي خاصة، دفعه إلى البحث في مصادر تراكم رأس المال، وفي الرؤيا الفيزوقراطية، نلاحظ أن ترجو يعد المصدر الأساس لحصول التراكم الرأسمالي، هو في المنتج الصافي المتحصل في القطاع الزراعي ويفسر التراكم الحاصر في القطاع الصناعي كحصيلة للتضحيات الشخصية التي قام بها بعض الأفراد في استهلاكهم، وذلك لأن

العمل في هذا القطاع، لا يمكن أن يؤدي إلى فائض في الإنتاج يفوق مستوى الاستهلاك.

#### - الموضوعات الاقتصادية الأخرى

وفي هذا الجانب يقدم ترجو آراءً في موضوعات اقتصادية مختلفة تمثل إشارات أو نظرات محددة لها، من مثل<sup>(١٧)</sup>:

أ في إطار سعي ترجو للبحث عن المصادر المختلفة لاستثمار رؤوس الأموال، فإنه يتوصل إلى تساوي معدلات الربحية بسبب من المنافسة الحاصلة بين رؤوس الأموال للاستحواذ على فائدة أعلى، فإن من شأنه تساوي معدلات الربحية في جميع الحالات.

ب- لقد توصل سيرا (Serra) ووليم بتي وستيوارت إلى قانون العلة المتناقصة، إلا أن ترجو عرضه بأسلوب علمي وبوضوح من خلال بحثه في المنتج الصافي، الذي لا يمكن زيادته كما يرى ترجو من خلال استخدام رأس المال بكثافة أعلى إلى ما لا نهاية، وذلك لأن معدلات ارتفاع الغلة ستبدأ بالتناقص.

ج- إن آراء ترجو في موضوع القيمة، والتي تنص على أن القيمة التبادلية للسلعة تتحدد باعتقاده من خلال الحاجة إلى البضاعة وضرورة هذه الحاجة، مقارنة بالحاجات أخرى التي يحاول المرء إشباعها، وبهذه الرؤيا، تجعل من ترجو رائداً في التوصل إلى نظرية القيمة الذاتية.

## هوامش ومصادر الفصل السابع

- ١- محمد عبد المولى، مصدر سابق، ص ١٢٣.
- ٢- جورج سول، المذاهب الاقتصادية الكبرى، ترجمة راشد البراوي، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٥٠.
- ٣- عدنان عباس علي، ص ١٧٧.
- ٤- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٠٢.
- ٥- إبراهيم كبة، مصدر سابق، ص ٣٦٣.
- ٦- لبيب شقير، مصدر سابق، ص ١٤١.
- ٧- للمزيد حول آراء توماس هونز يمكن الرجوع إلى يوسف كرم، مصدر سابق، الصفحات (٥١-٥٧).
- ٨- أريك رول، مصدر سابق، ص ١٢٣.
- ٩- عبد الرسول سلمان، مصدر سابق، ص ٦٦.
- ١٠- يوحد عرض ممتاز لكيفية التوزيع (الجدول الاقتصادي) عند فرانسوا كياي في 'فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١٠٤-١٠٥.
- ١١- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
- ١٢- نصار عبد الله، لورز والمأرق الليبرالي، مجلة المنار، العدد (٦٠)، ١٩٨٩، ص ٦٦.
- ١٣- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٢٠٧.
- ١٤- لبيب شقير، مصدر سابق، ص ١٣٧.
- ١٥- Schumpeter , J. A, A history of Economic Analysis , Oxford University Press, New York , ١٩٥٤, p.٢٤٨.
- ١٦- أريك رول، مصدر سابق، ص ١٢٤.
- ١٧- Schumpeter , op. Cit , pp. ٢٤٣-٢٥٠.
- ١٨- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٢١٥.

## **الفصل الثامن**

### **الفكر الكلاسيكي**



## الفصل الثامن

### الفكر الكلاسيكي

#### تمهيد

بدأ النتاج الفكري في القرن الثامن عشر مضطرباً وعرضياً، على الرغم من المقدمات البارعة التي جاء بها الكثير من المفكرين، فدفاع نورث عن حرية التجارة، وأطروحات وليم بتي العبقريّة في بيان المشكلات المتعلقة بالقيمة، وجهود كانتيون في توصيف الجهاز الاقتصادي. وعلى الرغم من اللمحات الفكرية عند الكثير من المفكرين، إلا أنها لم تحدث الفعل المطلوب في بناء صرح فكري منظم ومنسق، يسمو بالاقتصاد من حالة الفكر المبهوث هناك، إلى استواءه على نحو منظم ومحدد، له أصوله وقوانينه وأسس تحليله. وبعيداً عن الاضطراب والتشويش إلى رؤية لجهاز مفاهيمي متماسك، والحال يمتد إلى النظام الاقتصادي والعلاقات المتداخلة المعقدة بين الأجزاء المكونة له. واحداً من أهم فضائل الفكر الكلاسيكي، أنه نقل الاقتصاد من مجرد أفكار ترد على هامش كتابات المفكرين والفلاسفة، إلى علم قائم بذاته تحكمه قوانين، شأنه في ذلك شأن العلوم الأخرى. إذ وطف آدم سمث تأثير الفكر الطبيعي (الفيروقراطي)، المتمثل بالأيمان بأن هناك قوانين طبيعية، هي التي تحدد سلوك الأشياء في هذا الكون وتضبط حركتها، ومستعياً كذلك بتراث الرومان في وجود القانون الطبيعي، ليمد ذلك إلى الاقتصاد، ويقول (أن الاقتصاد تحكمه قوانين تفعل فعلها بعيداً عن التدخل فيه).



بفضل بزوغ تفكير جديد ومتفتح وحمله الريادة للتطور البشري، عدّ سمة للقرن الثامن عشر لم تشاركه فيها القرون السابقة، فكان ميلاد المدرسة الكلاسيكية، إيذاناً بالتحضير للثورة الصناعية، وميلاداً للفكر الليبرالي في تاريخ البشرية.

هذا إستعلته الرأسمالية وهي في مرحلة نهوصها على خلفية تحقيقها لمسألتين مهمتين، والتي تعدان إبحاراً للماركستيلية وهما: التراكم النقدي وظاهرة البثرة، مما سمح لاحقاً لتبلور نمط الإنتاج الرأسمالي واكتمال صيرورته.

## المبحث الأول

### الوسط التاريخي والتطورات المادية والفكرية

أماز الربع الأخير من القرن الثامن عشر بمكانة مهمة في تاريخ الرأسمالية الصاعدة، بحيث بدت علائم جديدة تظهر في المحيط الاقتصادي- الاجتماعي، امتزجت فيما بينها وتحت مظلة التطور السياسي المرتكز على تقزيم الإقطاع ونقايه، وخروج الرأسمالية بقوة من ميدان التجارة الى عصر حديد عصر الصناعة، إلى دفعة كبيرة تحاه تبلور غط الإنتاج الرأسمالي وأكتمال صيرورته، ولاند من الإشارة الى أبرز مخرجات هذا الربع الأخير من القرن وهي<sup>(١)</sup>:

١- المزاج ما بين العلم والصناعة على خلفية الشراكة المبرمة بين ماثيولتن وجيمس وات عام ١٧٧٥.

٢- إعلان استقلال أمريكا عام ١٧٧٦.

٣- ظهور كتاب آدم سميث عام ١٧٧٦ (بحث في طبيعة وأسباب ثروة الشعوب).

٤- قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

٥- أعطت المدرسة الفيزوقراطية لظهور المذهب الحر دفعة قوية عندما أشار كتابها المتأخرون الى ضرورة تحديد دور الدولة وتحرير التجارة.

هذه الأحداث سرعت من إنصاح الظروف الموضوعية للانتقال الى طور رأسمالي أكثر نصجاً، وعى الجنب الذاتي فأر الرأسمالية الصناعية كانت تشق طريقها بقوة أمام انهيار نظام الطوائف الحرفية ونقاي الإقطاع في أوروبا، ولا يمكن القول أن بداية الرأسمالية الصناعية يتحدد بظهور الثورة الصناعية في انكلترا فحسب.

إن هذه المرحلة تعد من أهم مراحل تطور وانتشار الرأسمالية فكراً وغطاً للإنتاج، إذ أشاعت الليبرالية الاقتصادية والسياسية في أوروبا على الأقل، ونقلت الإنتاج من طبيعته التي يغلب عليها الطابع الحرفي إلى الإنتاج النمطي.

#### أولاً: تكوين البناء النظري الكلاسيكي

إن المفكرين الكلاسيكيين عندما أنشأوا نظامهم الفكري لم يخرجوا به عن إطار من سبقهم من المفكرين، ولم تكن أفكارهم إلا تعبيراً عن احتياجات المرحلة القائمة آنذاك، بيد أن الاستخدام الثر لقوة المنطق التحليلي النظري للجهود المعرفية والعلمية كانت أداة جرى من خلالها تجاوز حدود الفكر السائد آنذاك.

فيم وفرت المراجعة الشاملة للحقائق استناداً على منتجات عصر النهضة والتنوير أرضية خصبة لقبول هذا الفكر وسريانه بسرعة، ويمكن بيان بعض من الخصائص الفكرية التي ساهمت في تبلور الفكر الكلاسيكي وهي:

- ١- خفوت النظرة الدينية وتراجعها إزاء الحقائق العلمية، مما أضعف بالمقابل مساحة الميتافيزيقيا في ذهنية الفرد والمجتمع.
- ٢- صعود المنهج التحريبي (Empirical Method) القائم على إعطاء الأولوية للظاهرة المادية للكون، وعد الفكرة ما هي إلا نتيجة للوجود السابق للمادة.
- ٣- الاهتمام الكبير بالفلسفة السياسية والاجتماعية، وظهور أطروحات عديدة راجعت حال الحاكم والسلطة والدولة، من مثل (مونتسكيو، جان جاك روسو، هوبز، الخ)، مما يسر إعادة التفكير السياسي وتقييد صلاحيات الدولة والحاكم
- ٤- العودة الشرعية إلى أرسطو في احترامه للملكية الخاصة ومن ثم الفردية (Individualism)، وعد المصلحة الفردية القاعدة الأساسية للمصلحة العامة من خلال تحليل الطبيعة الإنسانية، والإصرار على أنهما مسحمتان تماماً من دون تدخل.

## ثانياً: التطورات المادية

لقد ساهمت التطورات المادية المنحزة بالتعجيل في إحداث التطورات اللاحقة، وبإثبات في الميدان الاقتصادي، وبسبب من احتضان انكلترا آنذاك، كونها الحاصلة الأساس للرأسمالية المتصاعدة في أوروبا والعالم، فقد تجلت الاستفادة من هذه التطورات بمزيد من التسارع في التحول صوب الرأسمالية الصناعية، ومن ذلك الآتي:

- ١- التحول نحو نظم الإنتاج القائم على التخصص وتقسيم العمل.
- ٢- تزايد أهمية رسملة الإنتاج الزراعي وظهور سوق العمل الزراعي على خلفية (Unclosed Movement) حركة التسييج.
- ٣- توسع السوق الداخلية سواء في الإنتاج أم الاستهلاك، الزراعي منه والصناعي، في ظل حصول العاملين في الزراعة والصناعة على دخول نقدية.

بيد أن لواء التقدم الذي حصل كان يبدو واضحاً بجلاء في القطاع الصناعي، مدعوماً بقوة الطلب الخارجي والداخلي، إذ بدا واضحاً عدم أمكانية الطابع التكنولوجي القائم من الاستجابة لهذا الطلب (الخارجي)، والذي بدوره يوفر للمعامل قدرات كبيرة لأحداث التراكم وإعادة الإنتاج الموسع (على حد التعبير الماركسي).

لقد كانت انكلترا ما بين (١٧٦٠-١٨٣٠) مصدراً الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا لاحقاً، فالاختراعات التقنية والعلمية من الطواهر التي بدت مألوفة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وكان أثرها كبيراً في تمكين المنتجين من إحلالها محل الأيدي العاملة، (موفرة عرض عمر أكثر من الطلب) من جهة، ولأنها في الوقت ذاته رادت إنتاجية العامل والإنتاج عمومًا (ريادة الأرباح)، وشملت هذه التطورات الفنية كافة القطاعات وتركزت في قطاع السيج والصلب والطاقة وهي<sup>٢</sup>:

#### ١- قطاع النسيج:

أ- اختراع آلة لف الحرير عام ١٧١٦ من قبل لومب.

ب- اختراع المكوك الطائر عام ١٧٣٣ من قبل كي.

ت- اختراع الغزل الآلي من قبل اركوايت.

ث- اختراع النساج الآلي عام ١٧٨٣ من قبل كرنرايت.

ساهمت هذه الاختراعات في ظهور صناعة نسيج قوية في بريطانيا وأعطتها السيطرة على السوق العالمية في صناعة المنسوجات، مما انعكس إيجاباً على الإنتاج الداخلي من جهة، وساهم في جعل ميزان المدفوعات البريطاني بأن يحقق فائضاً لمدة زمنية طويلة.

#### ٢- قطاع الصلب:

أ- اختراع طريقة صناعة الصلب من الحديد والفحم عام ١٧٣٥ من قبل أبراهام داربي.

ب- اختراع طريقة إذابة الحديد وتأسيس أول معمل تعدين عام ١٧٥٠ من قبل هونستمان.

#### ٣- قطاع الطاقة:

يعد اختراع الآلة البخارية عام ١٧٦٤ من قبل جيمس وات، أهم حدث تقني وقع في القرن الثامن عشر وظل مستخدماً إلى منتصف القرن العشرين. يرى جوزيف شومبيتر (أحد الأعلام الاقتصاديين) في التاريخ الحديث، من أن هؤلاء المخترعين لم يكونوا مرودين بعلوم أكاديمية، بل كانوا مدفوعين بمتطلبات وصرورات الواقع آنذاك، لإيجاد حلول ووسائل كانت السبيل الاقتصادية بأمر الحاجة لها.

## المبحث الثاني

### الآراء الاقتصادية لمؤسس المدرسة الكلاسيكية

آدم سميث A-Smith ١٧٢٣-١٧٩٠

ولد آدم سميث عام ١٧٢٣ في مدينة كيركالدي في اسكتلندا، أكمل دراسته الجامعية في جامعة أكسفورد، وأصبح تدريسياً في قسم الفلسفة ودرس علم المطلق والفلسفة الاجتماعية، ولهذا فهو اقتصادي أكاديمي، وهذا ما انعكس إيجاباً على طريقة تفكيره ومنهجيته العلمية.

في عام ١٧٥٩ أصدر أول كتبه في الفلسفة (نظرية المشاعر الأخلاقية - The theory of the moral sentiments)، وفيها ضمن أفكاره الأولى فيما يخص الفرد والمصلحة الذاتية وانسجامها مع المصلحة العامة وأيمانه المطلق بالحرية الفردية، ومحاولته رسم المسارات الفلسفية للنظام الليبرالي اللاحق. لهذا نرى أن كتابه الذي أصدره عام ١٧٧٦ (بحث في أسباب ثروة الأمم والشعوب)\* والمتضمن (١٤) جزءاً، والتي امتدت كتابته سنين عديدة لم يتطرق إلى تحرير ما جاء به من فلسفة للنظام الجديد.

ويقول الاقتصادي الأمريكي جون كينيث جالبريث الحائر على جائزة بول في الاقتصاد عن آدم سميث، (مع آدم سميث خطأ تاريخ الفكر الاقتصادي أطول خطوانه) "لهدا يلحظ عودة الكتاب ومفكرين إليه باستمرار لتأصيل وترصين بحوثهم، فهو بحق (ألب الروحي للرأسمالية) كما يطبق عليه البعض من الكتاب.

أولاً: منهجية البحث

اعتمد آدم سميث في بحثه وتحليله الطريقة ذاتها التي استخدمها علماء ومفكرون آخرون من مثل إسحاق نيوتن، إذ يسعى إلى التوصل إلى حقائق بسيطة عن طريق الأعمام وصولاً إلى الفكرة المركبة (Synthesis).

بعدها يعمل على تحقيق التاريخ والنظر الى الأحداث الحقيقية- الرئيسة لهذا التاريخ في حقب وآماد زمنية مختلفة، ويحاول أن يجمع مشتركات هذه الأحداث ليستخلص منها أطروحته، سواء أكان هذا بصورة مباشرة أم غير مباشرة، مما يدل على انه اعتمد المنهج الاستقرائي مشفوعاً بالمنطق التجريدي لعزل الأحداث عن بعضها البعض.

ومن طريقة عرضه لكتابه (بحث في أسباب ثروة الأمم والشعوب) نلاحظ أن آدم سمث لجأ وبشكل كبير لالتكاء على التجربة تأثراً (بالمهج التجريبي- الامبيريقى) Empirical Method ، الذي أخذ ينتشر في الحياة العلمية نتاجاً لعصر التنوير والنهضة في أوروبا.

ويعمد آدم سمث الى الفصل المقصود بين ما هو سطحي (عرضي) وما بين جوهري، مدلاً على نضوج فكري ومعرفي وعلو كعب في البحث تأني من ممارسته الأكاديمية، إذ عرف كيف يكشف عن جوهر الظواهر والأشياء من خلال استخدام (الأسلوب التحليلي- Analytical Method)، فيما وظف (الأسلوب الوصفي- Dispersive Method) لدراسة الظواهر السطحية.

بيد أن دراسته للعلاقات الداخلية للمجتمع الرأسمالي في مراحل تكوينه المختلفة، جعلته يتنقل من منهج الى آخر، مثلما هو الحال لتحليله لموضوعة تشكّل القيمة، هذا التقدر رآه البعض اردواحية في المنهج<sup>١٤</sup> ، في حين يراها البعض الآخر أنها جاءت عرسية، والصحيح أنها كانت مقصودة من قبل آدم سمث.

إن جل ما أراد فعله هو بناء جهاز مفاهيمي وفكري متماسك، وهذا واضح من توصيف ادم سمث لموضوع الاقتصاد السياسي (موضوعاً لإنتاج الحيرات المادية في ظروف تاريخية محددة)<sup>١٥</sup>.

ثانياً: الفلسفة الاقتصادية

ترتكز الفلسفة الاقتصادية لأدم سمث على إقتناعه المطلق بالقانون الطبيعي The natural law، الذي يعد ركناً أساسياً في فلسفته الاقتصادية، فهو يرى ثمة

وجود لنظام طبيعي وتلقائي تعمل بموجبه الحياة الاقتصادية، وأن القوانين التي تبتثق من الطبيعة تحد في الرأسمالية حاضنتها الأساسية، وعملية تصحيح الأخطاء التي تتباب النظام بفعل لسياسات غير الصحيحة التي تحرف هذه القوانين عما تهدف إليه تتم عبر آليات النظام ذاته.

وتشكل المصلحة الذاتية للفرد مكمم القوة في هذا النظام، لأنها كما يقول (هي مصدر القدر الأكبر من الخير العام)، وهناك أشبه ما تكون يداً خفية تقود الفرد وتدفعه لتحقيق غايات لم تكن جزءاً من مقصده، وفكرة (اليد الخفية)، التي جاء بها آدم سميث هي ليست يد حقيقية، بل كما يقول جانبريث (استعارة لغوية) كونه (أحد رجال عصر التنوير والنهضة، ولم يكن بحاجة الى دعم روحاني لحجته)<sup>(١)</sup>.

إذ يرى آدم سميث من تصرفات الأفراد تركز على معطيات نفسية، تتلخص في تعلقهم بصفة عفوية بمصالحهم الخاصة نتيجة لدافع الغريزة الشريفة الصرف، ويرى أن من مصلحة المجتمع حماية هذه العفوية والحفاظ على الحرية الشخصية، لأن ذلك من مصلحة المجتمع.

وتتلخص فلسفة الرأسمالية الكلاسيكية بجانبها الاقتصادي على الآتي:

١- إنها فلسفة سكونية ينصب تحليلها للظواهر على واقع معين وفي مدة زمنية معينة، وعليه فالكلاسيكية سكونية التحليل وحركية المحتوى.

٢- ركزت اهتمامها بالفرد ومصالحه سواء أكان منتجاً أم مستهلكاً، أي أنها في التحليل الأخير تهتم بالجزئيات (Micro) وتعتقد أن النظام الاقتصادي هو نتاج إضافة الجزئيات بعضها الى بعض، لهذا لم يعط المفكرون الكلاسيك اهتماماً لموضوع الاقتصاد الكلي (Macro).

٣ الكلاسيكية فلسفة ليبرالية ترى أن المصلحة الفردية تحتل بالمصلحة الجماعية، وأن الفعل السحري (اليد الخفية) التي لها رنين صوفي غامض، كفيل بتحقيق الانسجام بين المصالح، ولهذا ليس مسموحاً لآلية حرة من خارج هذه الفلسفة التدخل (المقصود بها الدولة) من تشويه



ميكانيزمات الأسواق، هذا التعلق بالليبرالية يخلق تناقضاً للمتشائمين من مفكري  
الرأسمالية، من أنها غير قادرة على ضبط التوازنات الاقتصادية مما يستوجب تدخل  
الدولة.

٤- إن البوصلة التي تحفظ فعل القوانين في النظام الاقتصادي بحسب وجهة النظر  
الكلاسيكية، هو المحافظة على قوة وفاعلية المنافسة (التامة- الكاملة).

#### ثالثاً: السياسة الاقتصادية

جاءت السياسة الاقتصادية لأدم سمث مرتكزة على أسس تضمنتها انتقاداته للمذهب  
التحاري والطبيعي، فيما أعتمد المبدأ الميزوقراطي الذي جاء به فست حورباي والذي دعا الى  
(دعه يعمل،، دعه يمر)، مما يعني إن تعطى الحرية الاقتصادية كاملة للمتبحين.

لم تتضمن سياسة آدم سمث الاقتصادية الاهتمام بالمستهلكين كما هو الحال للمنتجين، على  
أسس الفهم الرأسمالي من إن صبط الأجور والدحول للعمال، هو شرط أساس لتفعيل التراكم  
الرأسمالي الذي بدأ عند التحاريين، ولكن ضرورات التحول في أسلوب الإنتاج الرأسمالي من الصناعة  
المانيفكتورية الى الصناعة السمطية القائمة على الآلات والمكانن، تطلبت حجوم اكبر من رأس المال  
لهذا نلحظ أن السياسة الاقتصادية عنت كثيراً بتشجيع المنتج، عندما يسرت له الوصول الى  
الأسواق من ناحية عبر الدعوة الصريحة لحرية التجارة، وكذلك عملت على لجم ممكنات ارتفاع  
تكاليف الإنتاج، عندما أشاعت فكرة الميل الى الادخار وعده فصيلة من خلال التصحية بالاستهلاك.

#### رابعاً: الدولة

لم يأت ادم سمث بشيء جديد تجاه الدولة، فقد سار مع الموجة التي تزعمها  
الفيزوقراطيون المتأخرون من الدعوة الى الحرية ومنع تدخل الدولة في الحياة

الاقتصادية، وهو في هذا يعارض التجارين الذين عظموا من شأن الدولة، إذ شهدت المرحلة الممتدة من ١٧٥٠-١٨٠٠ تنامي الشعور بالصد من السياسات التجارية، وما أكتنفها من ازدياد الحمائية التجارية المفرطة التي اعتمدتها معظم الدول الأوروبية، والتي بدت عاملاً معوقاً للنمو والتطور. إلا أن آدم سمث حل مغزى لجم تدخل الدولة وأضعاف دورها بوضوح وتسبب جاء متناعماً مع رؤيته العامة، واستجابة لتطورات الواقع آنذاك، ونعبراً عن مصالح الطبقة الرأسمالية قنودة التطور، والتي عبر علماً عن دعمه لها، فقد أورد حملة عوامل رئيسة تدفعه تحاه تحديد هذا الدور وهي:

- ١- إن تدخل الدولة يعترض ويقوض الحرية العامة بما فيها الحرية الاقتصادية.
- ٢- من شأن تدخل الدولة الواسع في الحياة الاقتصادية الإضرار بمبدأ المنافسة، الذي عد ححر الزاوية في أسلوب الإنتاج الرأسمالي.
- ٣- لا حاجة لهذا التدخل حتى في ظل حدوث اختلالات اقتصادية، إذ أن من شأن آليات (ميكانيزمات الأسواق) أن تعيد التوازن إلى الاقتصاد.
- ٤- تعتمد الدولة في جل نشاطها على (إيراداتها) المتأتية من الضرائب على الأفراد والمؤسسات، وعليه كلما زاد دور الدولة اردادت الضرائب على المنتجين (الوحدات الإنتاجية)، مما يعني خفض لمستويات الأرباح وأضعاف التراكم الرأسمالي وإعادة الإنتاج.
- ٥- يرى آدم سمث أن مجمل أنشطة الدولة هي استهلاكية (يعدها غير منتجة)، ولذلك فالدولة منذرة للأموال وسيئة الإدارة.
- ٦- رؤية آدم سمث للدولة لا تخرج مطلقاً عن قواعده التامة بالرأسمالية، لهذا فهي تمثل التزاماً أيديولوجياً طبقياً، فهو يرى (أن الدولة تحمل قدراً كبيراً من الدمار).

على وفق ذلك يوصف آدم سمث دور الدولة ويحدده على أنه (سكرتارية لرجال الأعمال)، أي أنها تعنى بتسهيل عمل الوحدات الإنتاجية ورفع المعوقات التي تعترض سبيل عملها وتقديمها، ويرى أن يتركز دورها بالآتي:

١- صط الأمن والنظام وحماية ممتلكات ومصالح الطبقة الرأسمالية، فهي في نظره (شرطي أمن).

٢- حماية الحدود الخارجية للبلد من الاعتداء الخارجي، أي التمكين السيادي للدولة، وبهذا فهي (جندي حدود).

٣- المحافظة على تطبيق القوانين والأنظمة التي شرعتها الدولة، وهي قوانين في محصتها تخدم الطبقة الرأسمالية، اعتماداً على أن الدولة طبقية، لذلك فدور الدولة هما (قاضي).

عدا هذه الدور والوظائف، فإن تدخلها من شأنه أن يحدث تشوهات في عمل النظام الاقتصادي القائم واليات عمله (آلية التضبيب الذاتي)، وهذا ينعكس في جملة من التشوهات من مثل (التشوه في هيكل الأجور - التشوهات السعرية - التشوهات المالية المعكسة على سعر الفائدة).

هذه الرؤيا السمثية قدر لها أن تعود بقوة في الربع الأخير من القرن السابق، على يد ميبتون فريدمان (منظر المدرسة النقودية)، ورعيم تيار الكلاسيكية الجديدة، من خلال دعوته التي وردت في كتابه (الرأسمالية والحرية)، العودة الى الأصول والمبادئ - أي العودة الى آدم سمث.

حامساً: مفهوم القيمة

تعد موضوعة القيمة من الموضوعات التي تواجها النظم الاقتصادية المختلفة، إذ ترتبط بها اشد الارتباط قضية التوزيع، وعلى الرغم من قناعة آدم سمث بأنهما قصيتان مهمتان ومحوريتان في فهم الاقتصاد، إلا أن آراءه بشأنهما لم تكن قاطعة وواضحة ومستقرة<sup>(٧)</sup>.

فالمحتوى الثنائي للقيمة (القيمة الاستعمالية) و(القيمة التبادلية) أمراً يعد من تراث الإغريق، فما يحدد القيمة الاستعمالية هي المنفعة (Utility)، إما القيمة التبادلية فتعتمد على ما يحصل عليه صاحب السلعة عند استبدال سلعته بسلعة أخرى.

دا المحتوى قاد آدم سمث الى الالتفات الى ما يسمى بـ (لغز القيمة) Paradox of value، والذي يصرف الى الطبيعة الاقتصادية لبعض السلع، والتي تتفاوت في أهميتها وقيمتها من مثل الماء ذو أهمية قصوى للحياة لكنه قيمته، وبالتالي أسعاره منخفضة، في حين يتسم الماس بقلّة استعماله إلا أن أسعاره (عالية)، ولقد استخدم هذا المثال الاشتراكي الفوضوي (برودن) في محاضراته الفكرية للرأسمالية.

والملاحظ أن آدم سمث عجز عن إيجاد التفسير المنطقي والمقنع لسلوك هذه السلع، وكان مقدراً أن يكون حل هذا الموضوع، الذي أشكل على آدم سمث على يد مفكري المدرسة الحدية، وأن يستخدموا هذا اللغز في الوصول الى (نظرية المنفعة الحدية)<sup>١٨</sup>.

لهذا نلاحظ تركيز آدم سمث على مفهوم القيمة التبادلية أو ما يسميه بالسعر الطبيعي للسلعة، ويرى أن قيمة أي شيء يمتلكه الإنسان تقاس بكمية العمل التي يمكن أن يبادل بها سعته، وبالتالي فإن العمل هو المقياس الحقيقي لجميع السلع المراد تبادلها.

ياخذ الباحثون والمفكرون (جوزيف شومبتر- جون كينيث جالبريث- أريك رول)، على آدم سمث أنه طر يتنقل من مفهوم الى آخر للقيمة من دون بيان أسباب ذلك، مما يبدو لقارئ أن آراءه تتسم بالتقرب والتناقض والغموض، إذ يحدد هؤلاء أن آدم سمث أورد ثلاثة مفاهيم للقيمة وهي:

الأول: العمل هو المصدر الوحيد للقيمة، وهو ما برره شومبتر على انه استقرار لحالة المجتمعات البدائية.

الثاني: نظرية كمية العمل، أي أن قيمة أي شيء يمتلكه الإنسان تقاس في نهاية الأمر بكمية العمل المبذول في أنتاجها.

الثالث: إن تكاليف عناصر الإنتاج هي التي تحدد قيمة السلعة، وهو ما جاء به آدم سميث في سياق بيان أن المجتمعات المتطورة أي التي في ظروف الإنتاج الرأسمالي، لا تستطيع تجاوز أو إهمال كلاً من الربح ورأس المال.

سادساً: الثروة

الثروة عند آدم سميث هي مجموع الأموال المادية التي تساهم بإشباع الحاجات الإنسانية، والتي يحصل عليها الفرد من عمله بصورة مباشرة أم غير مباشرة عن طريق المبادلة، وأن مقدار ثروة أية دولة يتوقف على عدد العاملين في عملية الإنتاج (الإنتاج المادي)، بالإضافة إلى إنتاجية العمل، وبهذا فهو يعطي العمل موقعاً في ثروة الأمم، ويرى أن درجة تقسيم العمل تؤثر على إنتاجية العمل وبالتالي على الإنتاج.

لهذا فإن الثروة لديه تعتمد على رأس المال كونه الوسيلة لزيادة الإنتاج وتطوير من خلال تطوير العمل المانيفكستوري<sup>(٩)</sup>.

أطروحة آدم سميث هذه هي نقد وتجاوز للمبدأ الحوهرى للتجارىين القائم على أن التجارة (زيادة الصادرات عن الواردات) هي مكملة الثروة، إذ أن الثروة (بحسب اعتقاده) تردد طلقاً للمهارة والكفاءة اللتين يتسنى بهما استخدام العمل<sup>(١٠)</sup>.

وتتوقف رفاهية أي مجتمع على العلاقة بين العمل الكلى وعدد السكان، أو على ما نستخدمه الآن (الدخل الحقيقى للإفراد).

وبحسب إعلاؤه نشان تقسيم العمل والإنتاج يشير إلى أهمية الآلات والمكانن، التي بدأت تسهل توسعاً وحضوراً في تحول أسلوب الإنتاج، مما يعنى زيادة درجة سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة، بالإضافة إلى دورها في رفع إنتاجية العمل وبالتالي زيادة ثروة المجتمع

ولم يلتفت آدم سمث (كما يشير ماركس)، إلى أن الآلة على الرغم من تخفيفها لوطأة العمل في أسوب الإنتاج الرأسمالي، فهي في الوقت ذاته تزيد من شدة العمل، وأن الثروة المتحققة من ذلك تذهب إلى الرأسماليين وتزيد من إفقار المنتجين الحقيقيين<sup>(١١)</sup>.

#### سابعاً: الربيع

تعد موضوعة الربيع أحد أهم الموضوعات التي تناولتها المدارس الفكرية، وحتى الرومان الذين أعطوا قدراً من الأهمية للزراعة، قد أشاروا إلى الاختلاف ما بين الأراضي الزراعية القريبة من المدن عن البعيدة، ولم يوسعوا دائرة البحث في ذلك، فيما جاءت آراء وليم نتلي ناضحة وعلى قدر عال من التركيز وبخاصة لموضوع الربيع، حيث عده متغيراً حاكماً للربح ولتحديد سعر الفائدة. هذه الآراء ظلت مهمة طالما توجد ملكية خاصة للأراضي الزراعية، إلا أن آدم سمث أقصر تدوله لهذا الموضوع على الربيع بشكل عام، من دون تناول أنواع الربيع وليس إشكاله، فهو قد صب جل اهتمامه للربيع المطلق وأهمّل تماماً الربيع التفاضلي (Differential Rent)، والذي يسجم عن تفوق الأراضي الخصبة عن غيرها أو موقع هذه الأراضي عن السوق، وهو بهذا لم يتجاوز الفيروقرط بشيء، وظل حبيس الفكرة التي ترى، إن الربيع ما هو إلا نتاج عمل قوى الطبيعة، وينشئ بصورة مباشرة عن الملكية الخاصة للأراضي الزراعية، ويدخل هذا الربيع كمتغير في تحديد أسعار السلع الزراعية.

بيد أن محاولات آدم سمث لصياغة تحليل جديد عن الربيع يراها الكثير من المفكرين، من أنها كنت كما هو حال تفسيره للقيمة، إذ قدم تفسيرات متنوعة متصارعة ومتناقضة<sup>(١٢)</sup>، ولم يكر موفقاً في تفسير الربيع بعمق وشمولية كما كان حله ريكاردو، ويمكن بيان إشكال الربيع التي جاء بها والتي توضح تنقله من مفهوم إلى آخر وهي<sup>(١٣)</sup>:

الشكل الأول: وهو الشكل البسيط لموضوع الربح والذي لم يتجاوز في تحليله وليم بتي أو الميروقراط، إذ يربط الربح بالملكية الخاصة للأراضي الزراعية، ويعد ذلك نتاج الطبيعة التي أهدت ممالك الأرض هذا الربح يتمتع به عندما يرعب الآخرون باستثمارها، ويدخل هذا الربح كجزء محدد في أسعار السلع الزراعية، فكلما كان هذا الربح مرتفعاً أدى إلى ارتفاع السلع الزراعية.

الشكل الثاني: يستخلص آدم سمث شكلاً للربح ناجماً عن الأسعار الاحتكارية للمنتجات الزراعية، بسبب من تفوق الطلب على العرض للأراضي الزراعية، والذي يؤدي بدون شك إلى ارتفاع قيمتها مما ينعكس على ارتفاع في ربح هذه الأراضي.

الشكل الثالث: التمس الأمر على آدم سمث بشأن الربح التفاضلي، ولم يستطع عزله عن أنواع الربح الأخرى، لهذا تراوح تفسيره للاختلاف الحاصل في خصوبة الأراضي الزراعية، ما بين المفهومين أعلاه دون القدرة على تفسيره إلى أن جاء ديفيد ريكاردو ليفسره بوضوح تام.

#### ثامناً: الأجور

يرى آدم سمث أن الأجر المدفوع إلى العامل هو تعبير عن تكلفة الحفاظ والإبقاء على حياة العامل للاستمرار بتقديم عمله إلى المنتج الرأسمالي، وهو بذلك يقر بطريقة أجر الكفاف كتعويض عن جهد العامل، وقد اعتمد سمث هذه الرؤيا على الميروقراط في نياهم لمفهوم الأجور الوسطية، وسمى ذلك بالسعر الطبيعي للأجور.

هذا الفهم أوقع سمث في حلقة مسدودة في تفسيره للأجور، وتسبب ذلك هو اعتقاد آدم سمث الحاطن، من أن القوانين التي تحكم الأسعار هي ذاتها التي تحكم التوزيع، لهذا يلحظ عدم استقراره في تفسيره للأجور، مما فرض عليه الإشاحة عن أربع تفسيرات لها وهي<sup>(١٤)</sup>:

١- اعتقاده بأن المجتمعات البدائية قد عاشت مرحلة حصول العامل على كامل ناتج عمله.

٢- يرى انه في ظل ظهور الملكية الخاصة وتطور المجتمعات أضحي الأجر عبارة عن البواقي (Residual) عن قيمة الإنتاج بعد توزيع مكافئة عناصر الإنتاج الأخرى وهي الإرباح (لرأس المال - كون الملكية والتنظيم متجسدة في شخصية المنتج)، وكذلك مكافئة الأرض(الريع)، وعلى يمكن الوصول الى الأجر عبر المعادلة الآتية:

$$\text{الأجر} = \text{قيمة الإنتاج} - (\text{الإرباح} + \text{الريع})$$

٣- لا يمكن للأجر أن ينخفض في الأمد الطويل Long time الى أقل من اجر الكفاف.

٤- ثم يأتي آدم سمث بتفسير رابع ونظرية جديدة فعواها (لا يمكن للطلب على العمال أن يرتفع بنسبة مكافئة للنسبة التي يرتفع بها الرصيد المخصص للأجور)<sup>(١٥)</sup>.

وما يمكن قوله أن النظرية الأخيرة التي جاء بها آدم سمث، يسرت للمفكر جون ستورانت مل (J. s.Mill)، إن يؤسس عليها نظرية رصيد الأجر (Wages Stock)، انطلاقاً من اعتقاده بأن الرأسمال الكلي في البلدان الرأسمالية من الممكن أن ينمو بنسبة أعلى من نمو السكان، مما سيؤدي الى ارتفاع الأجر نتيجة الزيادة في الطلب على العمل.

تاسعاً: التجارة الخارجية

ترجع أول محاولة جدية لتفسير التجارة الدولية تفسيراً علمياً لآدم سمث، الذي ركز على تقسيم العمل والتخصص سواء على مستوى المشروع، أم على مستوى العلاقات الاقتصادية الدولية، إذ يرى أن تقسيم العمل الدولي يحبر الدولة على التخصص في إنتاج السلع التي تمكنها ظروفها الطبيعية (أي تكلفتها المطلقة)،



مقارنة بالدول الأخرى من مبادلة ما يفيض عن حاجتها للحصول على سلع فائضة عن حاجة الدول الأخرى التي تجري المتاجرة معها

وقد اعتمد آدم سميث كمية العمل اللازمة لإنتاج الوحدة الواحدة من السلعة لأغراض التحصيص، إذ يفترض أن هناك دولتين هما انكلترا والبرتغال، وهما ينتجان النبيذ والقماش، وأن أيام العمل متماثلة فيما بينهما، وأن إنتاج (٢٥) متراً من القماش في انكلترا يتطلب (١٠٠) يوم عمل، في حين تتطلب الكمية ذاتها في البرتغال (٩٠) يوماً، فيما يتطلب إنتاج (٥٠) لتراً من النبيذ في انكلترا (١٢٠) يوماً وفي البرتغال (٩٠) يوماً، عندئذ تكون الكلفة المطلقة مقدرة بأيام العمل على النحو الآتي<sup>(١١)</sup>:

$$\text{الكلفة المطلقة للنسيج في انكلترا} = 25 / 100 = 0,25$$

$$\text{الكلفة المطلقة للنسيج في البرتغال} = 25 / 90 = 0,277$$

$$\text{الكلفة المطلقة للنبيذ في انكلترا} = 50 / 120 = 0,416$$

$$\text{الكلفة المطلقة للنبيذ في البرتغال} = 50 / 90 = 0,555$$

وهنا يتضح أن من مصلحة البرتغال التخصص في إنتاج النبيذ، لأن تكلفة إنتاج لتر منه منخفضة نسبياً أي لا تحتاج إلى كمية عمل كبيرة، وتترك إنتاج النسيج إلى انكلترا، وتحصل على ما تحتاجه من النسيج من خلال مبادلة الكميات الفائضة عن حاجتها من النبيذ. هذه النظرية واجهت تساؤلاً مشروعاً، ما هو مصير الدول التي ليس لها ميزة مطلقة في إنتاج أية سلعة؟، هل لا يحق لها الدخول في معترك العلاقات الدولية؟.

### المبحث الثالث أبرز أعلام الفكر الكلاسيكي

أولاً: ديفيد ريكاردو

#### ١- التكوين المعرفي

وهو ممن أعقب سمث ومالثس من حيث الترتيب الزمني للمفكرين الكلاسيك، وقد عاش ما بين (١٧٧٢-١٨٢٣)، وبعد أشهر أئمة المدرسة الكلاسيكية باستثناء آدم سميث، بل أن بعض امفكرين عده الأب الحقيقي للاقتصاد والمدرسة الكلاسيكية، حتى أن كارل ماركس على الرغم من نقده لفكر الكلاسيكي، إلا أنه اخذ بعضاً من أفكاره ووظفها في بنائه النظري.

ينحدر ديفيد ريكاردو من عائلة يهودية اسبانية وتعلم مهنة السمسرة (التوسط) في الشركة التي كن يملكها والده، وعن طريق ذلك أصبح على علم بالشؤون المالية والصيرفة في انكلترا، التي كانت تعد المركز المالي العالمي آنذاك.

شكل زواج ريكاردو من سيدة مسيحية ومن ثم اعتناقه لديانتها على المذهب المسيحي الانجيلي، وما ترتب عليه من عصب واستياء والده، إيذاناً بالبداية الحقيقية لشهرة ريكاردو، إذ أسس شركة خاصة به، وأصبح من كبار أصحاب الملايين وهو بحدود (٣٥) سنة من عمره. هذا كان دافعاً مضافاً له لاغتراف العلم وإشباع رغبته في الدرس، وكرس مساحة مهمة من تعلمه الى الرياضيات والعلوم، ولما فرغ من قراءة كتاب (ثروة الأمم) توفر على تنمية نظريات الاقتصاد السياسي ودعمها.

وتعد إطلالته الفكرية في تناول موضوعه الريع أحد أسباب شهرته، ودافعاً له ليصبح من أكبر ملاكي الأراضي في انكلترا ومن طبقة اللوردات، وأصبح بفضل ذلك عضواً في مجلس العموم البريطاني.

## ٢- منهجية البحث

يرى الكثير من المفكرين أن دراسة ريكاردو للرياضيات والعلوم، كان لها أثر واضح في منهجية وأسلوب بحثه، إذ يمتار ريكاردو على خلاف آدم سميث، بأنه قد حاق المنهج الاستقرائي في التحليل، واعتمد منهج الاستنباط المكثف<sup>(١٧)</sup>، بعد اعتماده على أسلوب التجريد للظواهر الاقتصادية، مما وسم كتاباته بالحفاف والتعقيد والصعوبة أحياناً.

وتبدو كتاباته، أكثر عمقاً تحليلياً من آدم سميث، وتبتعد عن أسلوب السرد الوقائعي للحوادث التاريخية، فهو يذهب الى عمق الظاهرة بشكل مباشر، وعزل متغيراتها الحاكمة، لبيان كيفية تأثيرها.

لذلك يعده البعض هو الأب والمؤسس الحقيقي للفكر الكلاسيكي، فقد استثمرت بريطانيا بفصله، نظرية التكاليف المقارنة (الميزة النسبية) لتهيمن على التجارة العالمية ربحاً طويلاً من الزمن، كما أن منظمة التجارة العالمية الآن تعتمد تلكم النظرية أداة لتحرير التجارة الدولية على قاعدة التخصص.

وما يؤكد اعتماده على المنهج الاستنباطي هو ذهابه الى تحليل القيمة من خلال العمل، إذ من اللافت للنظر أن كارل ماركس استخدم معطياته الفكرية للوصول الى فائض القيمة وما يترتب عليها من الاستغلال. لاسيما وأنه مؤمن بأن العمل هو مكون القيمة الحقيقي، ولا يمكن اشتقاق هذه القيمة من دون العمل، وهو ما يتطابق تماماً مع الرؤية الماركسية بشأن القيمة.

## ٣- نظرية التوزيع

لقد اعتمد ريكاردو خطأً آخر في أطروحاته الاقتصادية، إذ لم يركز على التحليل الاقتصادي للكشف عن القوانين التي تتحكم في زيادة الثروة الشعوب كما هو حال آدم سميث، بل ذهب الى معرفة القوانين التي تتحكم بعمى الظواهر الاقتصادية وطريقة عملها، وبخاصة توزيع الدخل القومي على طبقات المجتمع،

وهو في هذا ينحى الى الأسلوب ذاته الذي أسسه فرانسوا كيناي في (الجدول الاقتصادي).

ويعد النهج الجديد الذي اعتمده في توضيح الأسس التي يركز عليها توزيع الدخل القومي على قوى الإنتاج المختلفة، أي تحليل القوى التي تتحكم في الارتفاع السبي لدخول الطبقات الاجتماعية المختلفة ونسب التغيير هذه زمنياً<sup>(١٨)</sup>.

إن تحليل ريكاردو للعوامل التي تتحكم في توزيع الدخل القومي كان تحليلاً نظرياً محرداً، احتفت عنده الفلسفة الاجتماعية التي كانت تشكل عند سمث المطلق الأساس الذي بني عليه دعواه بوجود نظام طبيعي، يسوده انسجام المصالح الاجتماعية المختلفة.

يرى بعض المفكرين أن لفلسفة بنتام الاجتماعية (Jeremy Bentham) تأثيراً كبيراً على آراء ريكاردو من خلال توطد العلاقة الشخصية بينه وبين جيرمي بنتام عن طريق صديقهم المشترك جيمس ميل

ولعل ريكاردو قد أدرك مبكراً أهمية التوزيع ومشكلاته المعقدة، فالإنتاج قد حضي عند الكلاسيك وما تلاهم باهتمام كبير، إلا أن التوزيع لم يحص بالقدر ذاته، ومصادق ذلك هو وجود حوارات ورسائل بين مالثوس وريكاردو، وحدث بعد وفاة ريكاردو، كان أبرزها هو تساؤل أبده مالثوس، مفاده ماذا يحدث لو حصل نقص في الطلب ؟، مما يدل أن التحوف جاء بناء على سوء التوزيع وعدم كفاءته في استيعاب الإنتاج.

إن الإحساس الذي بدا يتسور فكرياً كانعكاس للواقع، بالإضافة الى موج الحركات الاشتراكية والعمالية، كان موحهاً بالدرجة الأساس الى طريقة التوزيع الرأسمالية، والتي الى الآن ظلت تعدي من عدم القدرة على إحداث التوازن الكلي المفترض طبقاً للفهم الكلاسيكي.

لهذا تعد مشكلة التوزيع مشكلة مزمنة في النظام الرأسمالي، لم يستطع مفكروها من إيجاد الحلول الناجعة لها، وهو ما يعد إشكالاً بنيوياً في هذا النظام، إلا

أن ريكاردو استطاع أن يضع حجر الأساس لبناء منتظم في دراسة توزيع الدخل على طبقات المجتمع بصورة عامة، لهذا تتكامل نظريته في التوزيع تبعاً لتحليله للربح وللقيمة والأجر.

#### ٤- الربح

يعد تحليل ريكاردو للربح أحد أهم الانجازات الفذة له، إذ قدم فيه فهماً ورؤية لازالت تحتفظ بمكانتها للدارسين في هذا الموضوع، كما أنه استطاع أن يستوعب بدقة فكرة الربح وموقعها المركزي في النظرية الاقتصادية، ويدخله في نسيج بنائه الفكري.

إن ما يسمى بالنظرية الريكاردية في الربح (The Ricardian Theory of Rent)، قد تداولها مالثوس في بحث نشر عام ١٨١٥، وكذلك عرض E. West فكرة الربح مضمناً إياه حر أفكار ريكاردو بما فيه الربح التفاضلي (Differential Rent)<sup>(١١)</sup>.

لقد تأثر ريكاردو بوضعه الطبقي (بحسب تعبير غالبريث)<sup>(١٢)</sup> كونه كان سيداً إقطاعياً موصفاً الربح، هو ذلك الجرم من إنتاج الأرض الذي يدفع لمالكها نظير استخدام القدرة الأصلية للتربة وغير القابلة للإتلاف.

وعى الرغم من المقاربة المكزية ماين ريكاردو والفيزوقراط من أن الربح ما هو إلا الريدة (المائص) عن تكاليف الإنتاج، إلا أن ريكاردو يختلف عنهم في النظرة الى الربح، فبينما ينظر الفيزوقراطيون للربح، هو نتاج سحاء وكرم الطبيعة، يرى ريكاردو الربح هو نتاج لبخل الطبيعة، هذه النظرة يراها (غالبريث) تأثيراً واضحاً بالتشاؤمية المالثوسية<sup>(١٣)</sup>.

يتفق ريكاردو مع آدم سميث من الربح هو عائد احتكاري يتأتى في جله من الملكية، إلا أنه يذهب الى ما هو انعد في تفسيره، الى أن الربح التفاضلي يتأتى من اختلاف حصونة الأراضي الزراعية أو اختلاف الأساليب المعتمدة في استغلالها، ولما كان سعر البيع يتحدد أساساً بتكاليف العمل، فإن سعر البيع سيكون مساوياً للكلفة الحدية، مما يعني أن الأراضي الخصبة ستكون تكاليف الإنتاج فيها أدنى من

غيرها، وسيطالب أصحاب الأراضي الحصة مستأجرها بدفع ريع يساوي الفرق الموهود بين تكاليف الإنتاج الفعلية وتكاليف الإنتاج الحدية<sup>(٣٣)</sup>.

لهذا فهو يرى أن ازدياد عدد السكان سوف يؤدي إلى استخدام أراضي أقل خصوبة، وصولاً إلى الأراضي الحدية، مما يخلق تماوتاً في تكاليف الإنتاج ومن ثم اختلاف ريع هذه الأراضي لهذا فإن الربيع يمكن استخلاصه وفق المعادلة الآتية:

الربيع = السعر السوقي للمنتج الزراعي - تكاليف الإنتاج

علماً بأن الأسعار هي في ظل سوق المنافسة التامة، أي سعر المنتج في الأسواق يتحدد وفق آلية العرض والطلب ويكون موحداً.

على وفق ذلك سيحصل أصحاب الأراضي الخصبة (قليلة التكاليف) على ريع عال من الأراضي الأقل خصوبة (عالية التكاليف).

مثال افتراضي: كانت هناك قطعتا أرض هما (A و B) وكانت تكاليف الإنتاج للقطعة (A) هي ١٠٠٠٠٠ دينار لطن القمح، وتكاليف الإنتاج للأرض (B) هي ٢٠٠٠٠٠ دينار للطن، علماً بأن سعر الطن في الأسواق هو ٤٠٠٠٠٠ دينار، فإن الربيع هو:

الأرض الخصبة (A) = ٤٠٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ = ٣٠٠٠٠٠ دينار

الأرض الأقل خصوبة (B) = ٢٠٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠٠ = -٢٠٠٠٠٠ دينار

ملاحظات<sup>(٣٣)</sup>:

أ- إن منشأ الربيع هو محدودية الأراضي الخصبة، وهو الفرق بين خصوبة الأراضي، وكذلك موقعها من الأسواق.

ب- مع تزايد طلب المجتمع على الأراضي الخصبة لابد للسعر أن يرتفع نتيجة ضغط النمو السكاني، وبالتالي يرفع كلمة استغلال أراضي أقل خصوبة.

ج- الربح بهذا لا يعد ربحاً بل هو الفائض الذي يتجاوز القدر الضروري لاستمرار الإنتاج، ذلك لأن ريكاردو يعد التكاليف (تشتمل على العمل المباشر وغير المباشر - رأس المال).

#### ٥- القيمة

يذهب ريكاردو كما ذهب إيسلافه من المفكرين إلى التفريق بين القيمة الاستعملية والقيمة التبادلية، وتعر عبده القيمة الاستعملية عن المنفعة (Utility) وهي سبب القيمة، وأن القيمة الاستعملية هي أساس وجود القيمة التبادلية، ولكنها لا تصلح معياراً وحيداً لقياس السعة مستبعداً من ذلك السلع الفريدة (التمائيل واللوحات النادرة).

ويعرف ريكاردو القيمة التبادلية: أنها الكمية التي يستطيع المرء الحصول عليها من سعة عند استبدالها بهذه السلعة.

إما السلع الغير فريدة فإن قيمتها ترتبط بكمية العمل المتحسد في هذه السلعة، سواء أكان نمط الإنتاج (مشاعياً) أم رأسمالياً، وهو يرفض رؤية سمث أن كمية العمل يمكن أن تقاس من خلال قيمة العمل، أي من خلال الأجر المدفوع للعامل، فقيمة هذا العمل هي أصغر من كمية العمل المبذول لإنتاج السلعة<sup>(٢٤)</sup>.

ادم سمث: قيمة البضاعة = كمية العمل = قيمة العمل

ريكاردو: قيمة البضاعة = كمية العمل < قيمة العمل

وعليه فإن نظرية القيمة عند ريكاردو تتلخص في جوهرها، إن نسب التبادل بين البضائع المختلفة تتحدد دائماً وأبداً استناداً إلى ساعات العمل التي بدلت في إنتاج تلك البضائع. كذلك يرى ريكاردو أن معالجة الاختلاف في أنواع العمل (الشاق - البسيط، والمهاري - وغير المهاري) يتم من خلال الأسواق بصورة دقيقة ومباشرة.

ومن ناحية أخرى يعتقد ريكاردو بأن قيمة السلعة يحددها العمل سواء المباشر منه أم غير المباشر (الماضي - الحيت) ويضع المكان والآلات (رأس المال الثابت) في حطيرة العمل الماضي، وهذا استفاد منه ماركس تماماً في توصيف رأس المال كما أنه ينكر تأثير اختلاف الأحرار في إحداث تغيير في النسب التبادلية للسلع، هذه الأفكار حملت معها تحبط شديد لدى ريكاردو، نتج عن عدم الوضوح أو التفريق بين القيمة التبادلية والقيمة الحقيقية، إلا إن هذا لا يمنع الإشارة إلى إن ريكاردو خطأ بنظرية القيمة خطوة كبيرة إلى الأمام.

ومن المناسب الإشارة إلى الكثير من المشكلات التي واجهت تفسير ريكاردو للقيمة، إلا أنه ظل ثانياً على اقتناعه، بأن مصدر القيمة هو العمل، وهو ما فرض عليه الدفاع بهوادة عن أفكاره ولكن بعض التساؤلات التي طرحت نفسها بقوة، لم تحض منه بالحواب إلا في وقت متأخر نسبياً، وهي<sup>١٢٥</sup>.

إذا كان العمل وحده هو الذي يخلق القيمة وكمية العمل التي تبذل لإنتاج السلعة هي التي تحدد قيمتها، فلماذا يكون الأحرار أقل من القيمة، على قاعدة ريكاردو التي تشير إلى أن رأس المال لا يخلق قيمة؟

مما يدل أيضاً على أن التبادل بين الرأسماليين والعمال (باعثار العمل سلعة - لها سعر) هو تبادل غير متكافئ، وإذا كان متكافئاً فيسببي أن يحصل العامل على قيمة البضاعة بأكملها، وبما أن هناك فائضاً يحصل الرأسمالي عليه. لذلك يمكن القول وبشكل مطلق، بأن التبادل التجاري في الحياة الاقتصادية منذ عرفت البشرية نمط الإنتاج الرأسمالي وإلى الآن، أنه كان تبادل لا متكافئاً.

ومن المناسب قوله أن أهمية تفسير وتحليل مفهوم القيمة في النظم الاقتصادية، تعد أمراً مركزياً للسوء الفكري واليات عمل النظام الاقتصادي، ويتم بناء نظام التوزيع عليها، لذلك خبقت أفكار آدم سميث وريكاردو إشكالية حقيقية، مما حدا بهما إلى التراجع عنها، فقد تراجع آدم سميث عن نظرية كمية العمل واقصرها على المجتمعات البدائية محتجاً بأن هذه المجتمعات لم تشهد تراكم رأس المال.



وكذا الحال لريكاردو الذي تراجع هو الآخر في رسالة بعث بها الى ماك كوخ بتاريخ ١٣-٦-١٨٢٠، مدعياً أن قيمة البضاعة تحددها كميات العمل النسبية فقط إذ لم يبذل أي شيء آخر غير العمل. في الرسالة أيضاً يتمنى لو قدر له أن يكتب الفصل المتعلق في القيمة من حديد ليحدد سبباً للقيمة بدلاً من سبب واحد وهما<sup>(٣٦)</sup>:

(الكمية النسبية من العمل اللازمة لإنتاج السلعة + معدل الربحية خلال الفترة التي يبقى فيها رأس المال محمداً أو ساكناً الى أن تباع السلعة في السوق).

#### ٦- الأحرار

يعد ريكاردو شأنه شأن معظم المفكرين الرأسماليين من أن العمل سلعة، وأن الأحرار هو (ثمن العمل - سعر سلعة العمل)، وأن تحديده لا يختلف عن تحديد أقيام السلع الأخرى في الأسواق، تبعاً لقيمة العمل أو تكلفة العمل المبذول في إنتاجها.

وأن الأجر المدفوع للعامل نقدياً يسمى بالأجر الاسمي (Nominal) أو النقدي (وهو مبلغ من المال يدفع لقاء العمل المنجز خلال مدة رمزية معينة)، فيما يمثل الأجر الحقيقي (Real Wage) زمن العمل الضروري لإنتاج وسائل المعيشة للعامل المكافئة للزمن الذي تقاضى عنه أجره الاسمي. لهذا يرى ريكاردو أن الأهمية لا تكمن في مقدار المبلغ المدفوع للعامل نقدياً، بل في كمية الغذاء والمواد المعيشية الأخرى الضرورية له ولعائلته، هذه التكلفة متقدمة من ريكاردو بشأن ما عرف لاحقاً من ظاهرة التوهم النقدي.

وعلى وفق ذلك يمكن إجمال الأفكار الرئيسة لريكاردو بشأن العمل بالآتي:

أ- إن الأجر يتحدد كما هو حال السلع الأخرى في الأسواق، من خلال المنافسة العادلة والحرية، ولا يكون تحديده خاضعاً للضغط أو التشريع، وأن العامل كما هو المنتج بائع لعمله.

ب- الأجر عند ريكاردو يمثل جزءاً من القيمة التي يخلقها العامل أثناء عملية الإنتاج أي هو لقاء العمل المباشر، فيما يظل الجزء الآخر رهناً بالعمل الماضي أو المجسد من خلال وسائل الإنتاج.

ت- يرى ريكاردو أيضاً أن هناك سعرين للعمل هو سعر طبيعي وآخر سوقي، فالأول: هو الذي يمكن العامل من حفظ نوعه بدون زيادة أو نقصان، أما الثاني: فهو يتحدد في السوق بفعل العرض والطلب، ويتوقف على عوامل كثيرة يتأثر بها منها مؤقتة أو عارضة، ولكنه في الأغلب الأعم يحوم حول السعر الطبيعي.

على الرغم من قدرة ريكاردو وإمكاناته في تناول الكثير من الموضوعات الاقتصادية بطريقة غير تقليدية، إلا أنه تعرض للحلط أو عدم الوصول إلى القوانين الحاكمة للطاهرة، فهو لم يصرق بين العمل وقوة العمل.

ولذلك نراه يفسر الشيء بالشيء من خلال تحليله لماهية قيمة العمل، فهو يرجع جميع الأجور إلى الأجور الوسطية، وعندما يحاول تفسير دوران الأجور حول قيمة وسائل المعيشة الضرورية، لا يجد مخرجاً لاشكاليته فانه يتكئ على قانون العرض والطلب<sup>(٢٧)</sup>.

بيد أن ريكاردو يسجل اعترافاً خطيراً عندما يشير إلى أن البؤس والحرمان يعد أمراً لا مفر منه لمن يعيش في ظل الرأسمالية، والقانون الاقتصادي الذي تفرسه لا يمكن الخروج عنه، فيقول غابريث<sup>(٢٨)</sup>، تلك هي الرأسمالية، وذلك ما فعله ريكاردو بسمعتها.

#### ٧- نظرية التجارة الخارجية (الميزة النسبية)

يقوم التفسير الكلاسيكي لأسس التجارة على مبدأ التكاليف النسبية الذي صاغه الاقتصادي الإنجليزي دافيد ريكاردو في سنة ١٨١٧<sup>(٢٩)</sup>، ففي رأي ريكاردو أن أساس التجارة الدولية إنما يوجد في تلك الاختلافات التي توجد بين الدول في

التكاليف النسبية، فقد يكون احد البلدان أكثر كفاءة من غيره في إنتاج كل سلعة ممكنة. ولكن طالما أنه ليس أكثر كفاءة بدرجة متساوية في كل سلعة، فإنه يوجد أساس للتجارة، فسيكون من المفيد للبلدين أن يتخصص في إنتاج تلك السلع التي يكون فيها أكثر كفاءة نسبياً، وأن يقوم بتصدير هذه السلع مقابل سلع تكون كفاءته النسبية فيها اقل. وفي عرضه لمبدأ التكاليف النسبية، استخدم ريكاردو نموذجاً مبسطاً مكوناً من بلدين انجلترا والبرتغال وسلعتين هما المنسوجات والنبيذ، كما افترض أن قيمة السلعة تتحدد بكمية العمل اللازمة لإنتاجها، وفيما يأتي نلخص ظروف البلدين قبل قيام التجارة الخارجية<sup>(٣٠)</sup>:

تكلفة إنتاج الوحدة مقاسه بوحدة العمل

المنسوجات	النبيذ
انجلترا ١٠٠ ساعة	١٢٠ ساعة
البرتغال ٩٠ ساعة	٨٠ ساعة

تكاليف إنتاج اللتر من النبيذ في البرتغال

$$= \frac{120}{80} = 1.5 \text{ لتر} = 66\%$$

تكاليف إنتاج اللتر من النبيذ في انجلترا

تكاليف إنتاج المتر الواحد من النسيج في البرتغال

$$= \frac{120}{90} = 1.33 \text{ متر} = 90\%$$

تكاليف إنتاج المتر الواحد من النسيج في انجلترا

يلاحظ من المثال أعلاه أن البرتغال أكثر كفاءة من انجلترا في إنتاج كلتي السلعتين، ولكنها أكثر كفاءة في إنتاج النبيذ، لذلك فإن من مصلحة البرتغال أن تتخصص في إنتاج النبيذ وتترك إنتاج النسيج لانجلترا.

بعد التخصّص وقيام التجارة بين البلدين سيتحول العمال من إنتاج النسيج في البرتغال الى إنتاج البعيد، وكذا الحال لانكلترا، مما يؤدي الى زيادة الإنتاج مقترناً بانخفاض التكاليف لكلا السلعتين، لهذا تنتعش التجارة والمبادلة بين البلدين.

هذا هو جوهر النظرية الكلاسيكية في التجارة الدولية، فأساس التجارة الدولية هو تلك الاختلافات التي توحد بين الدول في التكاليف النسبية، وبالرغم من واحة منطق هذه الطريقة، فقد انتقدت<sup>(٣١)</sup> على أساس أنها تفترض أن قيمة السلع تتحدد فقط بكمية العمل اللازمة لإنتاجها ومن الواضح أن السلع لا تنتج بواسطة العمل فقط، وإنما بتوليفة من كافة عوامل الإنتاج. العمل، الأرض، رأس المال، فإذا قارنا بين السلع المختلفة على أساس ما تستلزمه المسوحات من عمل، فإن هذا لن يعطينا صورة صحيحة عن قيمها النسبية، فعلى سبيل المثال، نلاحظ أن ما تستلزمه السيارات من عمل أقل مما تستلزم المنسوجات مثلاً، ولكن هذا لا يعني أن السيارات يتم تقويمها بأقل نسبياً مقارنة بالمنسوجات، فينبغي علينا أن نأخذ في الاعتبار حقيقة أن ما تستلزمه السيارات من رأس المال أكبر مما تستلزم المسوحات، أنها بالصط هذه النسبة المتغيرة لمزج عوامل الإنتاج في إنتاج السلع المختلفة، هو ما يجعل من المستحيل استخدام نظرية العمل في القيمة

ثانياً: توماس روبرت مالثوس

١- التكوين المعرفي والمنهج

ولد توماس روبرت مالثوس (Thomas Robert Malthus) في مدينة روكري بالقرب من لندن عام ١٧٦٦، ينتمي الى الطبقة الوسطى في المجتمع، وعائلته ذات ميول دينية - فلسفية، لذلك نشأ مالثوس نشأة دينية، وأتيحت له دراسة الفلسفة واللاهوت والتاريخ في جامعة كمبريدج. ارتبط مالثوس بصداقة حميمة مع ريكاردو، وكان تبادل الأفكار بينهما، قد أتضح في الكثير من الموضوعات، لعل أبرزها على الإطلاق التساؤل الذي دفعه

مالثوس الى ريكاردو، والذي لم يرد عليه في المراسلات التي وجدت فيما بعد، هي موضوعة (النقص في الطب) الذي وفر فيما بعد الأرضية المناسبة للاقتصادي البريطاني (جون ميسارد كينز) لولوج الى أزمة الرأسمالية - الكساد العظيم - ١٩٢٩-١٩٣٣.

انعكس تأخر مالثوس في الزواج حتى الأربعين من عمره على أفكاره التي إشتهر بسببها وهي (مشكلة السكان) <sup>(٣)</sup>، ومثلما ذاع صيت آدم سميث في كتابه (ثروة الأمم)، نال مالثوس ولحد الآن شهرة واسعة عندما نشر (مقالة في مبدأ السكان) أو ما سمي (قانون السكان).

اعتمد مالثوس منهجية الاستنتاج (الاستنباط) في أعماله الفكرية، وقد تعمق ذلك بعدما أصبح أستاذاً للاقتصاد السياسي عام ١٨٠٥، في كلية هلييري التي أنشأتها شركة الهند الشرقية لتدريس العاملين فيها.

وعلى خلاف ريكاردو الذي كان يركز على الأسس النظرية لحياة المجتمع الاقتصادية، كرحر أعمال يحاول الكشف عن القوانين غير المنظورة التي تتحكم في هذه الحياة، بينما كان مالثوس يسعى لمعرفة ما إذا كانت هذه القوانين تلائم العالم الذي يتراءى أمامه.

## ٢- نظرية مالثوس في السكان

لقد اهتم مالثوس بالمجتمع ومشكلاته، وهو ما دفعه الى التركيز على أوضاع السكان، ولهذا يمكن القول انه أسس لمدرسة فكرية، لارالت ترى أن سبب التحلف القائم في البلدان السامية، يكمن في التزايد السكاني بمعدلات اكبر من قدراته الاقتصادية.

بيد أن هناك أفكاراً بعضها تعود الى مفكرين مثاليين (طوباويين) قد دفعته الى بناء منظومة تعبر عن قناعاته المختلفة عن تلكم الأطروحات المتفائلة.

إذ أبدى عدم اقتناعه بطروحات الاشتراكي المثالي الإنكليزي (وليم جوردن) أو الانسكلوبيدي الفرنسي (Morelly) الذي كان يرى أن (العالم هو مائدة تكفي لكل

الدين سيحلسون حولها)، أو أطروحات كوندورسيه عام ١٧٩٤ الواردة في كتابه (صور تاريخية عن تقدم النفس البشرية).

كان مalthus يرفض دعوى أن الفقر ذو طبيعة اجتماعية أو نتاج قوانين الملكية المتولدة نتيجة علاقات الإنتاج الرأسمالية أو لعدم العدالة في التوزيع، بل يرى فيه منتجاً حتمياً لقوانين الطبيعة ولعريضة الإنسان، وإن المستقل الذي يتطرق الشريعة على وفق ما هو قائم سيكون أكثر بؤساً وأشد شقاءً<sup>(٣٣)</sup>.

ينطلق مalthus في تحليله من إستحالة التوسع بلا حدود للموارد المتاحة للبشر من النبات والحيوان نظراً لندرة الأراضي الزراعية، وميل غلتها (إنتاجيتها) للانخفاض.

وعليه يكشف مalthus عن وجود ميل للسكان نحو النمو بأسرع من سرعة نمو إنتاج المواد الغذائية، ويشترك من هذا أطروحته التي ترى حصول نمو السكان لتواليته هندسية ونمو الغذاء لتواليته عددية، مما يعني تضاعف عدد السكان كل (٢٥) عاماً وكما يأتي<sup>(٣٤)</sup>:

السكان	١	٢	٤	٨	١٦	٣٢	٦٤	١٢٨	٢٥٦
الغذاء	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩

من الجدول أعلاه نلاحظ أن هناك تزايداً للسكان لا يقابله تزايد مكافئ في المواد الغذائية، فعندما يكون حجم السكان بعد مرور قرين من الزمن (٢٥٦)، فإن كمية الغذاء تكون عند مستوى (٩)، وهذا يعني وجود فجوة كبيرة ما بينهما وعند مalthus ميل السكان للنمو بمعدلات تفوق معدلات نمو إنتاج المواد الغذائية (قانون السكان)، وهو بطوره من أهم القوانين الطبيعية في علم الاقتصاد السياسي.

لذلك إنبرى مalthus إلى وضع معالجات لإيقاف عمل هذا القانون، بغية إيجاد التوازن بين حجم السكان وبين كمية المواد الغذائية المتاحة لإعاشة السكان، وهو يضع وسيلتين<sup>(٣٥)</sup>:

الوسيلة الأولى: العقوبات الوقائية (السلبية)، وهو كل ما يؤدي الى تقليل نسبة الولادات من مثل الزواج المتأخر، أو التحكم والإقلال من الغريزة الجنسية.

الوسيلة الثانية: العقوبات الإيجابية، وتتضمن كل ما من شأنه أن يؤدي الى زيادة الوفيات بين السكان من مثل الحروب، الأوبئة، الأمراض، المجاعات، الكوارث الطبيعية. لقد أمن مalthus بقوة بقانون الغلة المتناقصة (كما هو شأن غالبية الكلاسيكيين)، ومنه سار في تحليله لتفسير العلاقة بين إنتاج العلال والسكان، فهو يرى أن عمل هذا القانون لن يسمح بزيادات مستمرة في إنتاج المواد الغذائية وبما يكفي لسد حاجات السكان.

### ٣- نقد قانون السكان

مثلت أفكار مalthus في السكان رؤية تشاؤمية ومحيفة وتركت الى الآن صدئ محرنأ بين الباحثين والمفكرين، ويعدها البعض على أنها تتناغم وتعبّر عن مصالح الطبقة الارستقراطية، وقد تعرض هذا القانون (أو كما يسميه البعض نظرية السكان) الى انتقادات شديدة أبرزها الآتي<sup>(٣٥)</sup>.  
أ- تتسم بالديماعوجية والتكليف والتسطيح للأسباب الحقيقية لمؤس الطبقات الدنيا في المجتمع.

ب- تحاول أن تجعل من تجارب وأوضاع بعض البلدان على الرغم من شذوذ هذه الحالة قوانين تحكم مسار التطور البشري وحركة السكان.

ج- عدم دقة أطروحته من أن الارتفاع في إنتاج المواد الغذائية من شأنه أن يؤدي الى ارتفاع مماثل في حجم السكان، إذ أثبتت الوقائع المتحققة في البلدان الرأسمالية، إن الارتفاع في إنتاج المواد الغذائية ومستويات المعيشة فيها، قابله في أحيان كثيرة انخفاض معدلات الولادة، وبالتالي فإن معدل نمو السكان سجل في بعض البلدان معدلاً سالباً<sup>(٣٦)</sup>، وهذا يدحض الفكرة المalthوسية.

د- إن التقدم العلمي والتكنولوجي الحادث في العالم، وبخاصة فيما يتعلق بالهندسة الوراثية واستنباط فصائل جديدة من النباتات والحيوانات تمتاز بإنتاجيتها العالية، قد عطت اشتغال قانون الغلة المتناقضة، الذي تركز عليه أفكار مalthus السكانية.

هـ- إن الخطأ الذي إرتكبه مalthus انه يطبق قوانين الحياة الطبيعية على المجتمعات البشرية من دون أدنى محذور، فالإنسان ليس مجرد مستهلك كما يزعم مalthus، بل هو منتج في الوقت نفسه، وهذا ما أكدته وليم بتي وادم سمث، عندما عد العدد الكبير للسكان المنتجين احد معالم زيادة ثروة البلد.

#### ٤- نظرية مalthus في القيمة

على الرغم من الرابطة القوية التي شددت ريكاردو ومalthus بعضهم الى البعض، ألا أن رؤاهم الاقتصادية كانت متباينة بل ومتناقضة أحياناً، فقد كانا دائمي الاتصال، ووجدت بعد وفاتهما مراسلات كثيرة في شأن القضايا والظواهر الاقتصادية المختلفة.

يرفض مalthus<sup>(٣٧)</sup> نظرية ريكاردو في القيمة ويجابها بنظرية بدائية استقاها من آدم سمث، والتي لم تعد معبرة عن مرحلة التطور التي بلعتها الرأسمالية في صعودها، لذلك فإن مهاجمة مalthus لنظرية ريكاردو في القيمة لا تأتي بجديد، وإما هي امتداد لنظرية آدم سمث إذ يقر مalthus ابتداءً أن قيمة البضاعة تتحدد من خلال كمية العمل التي يحصل عليها المرء عند مبادلة البضاعة، أي أنها تتحدد من خلال كمية العمل التي تستطيع أن تتحكم فيها هذه البضاعة في عملية التبادل.

والجديد الذي أضافه هو تفسيره مقياس القيم، فكمية العمل التي تحصل عليها البضاعة تمثل العمل الحاضر والعمل الماضي الذي بذل في عملية إنتاجها مضافاً إليه الربح.



وعلى وفق هذا فإن العمل لم يعد هو العنصر الوحيد الذي يخلق القيمة، كما ذهب إلى ذلك آدم سميث في إحدى نظرياته المفسرة لخلق القيمة، بل أضاف الربح عنصراً مشاركاً أيضاً في خلق القيمة. عليه تمثل أطروحات مالثوس تراجعاً تاماً عن نظرية ريكاردو، بل وتعارضاً، فيسما يرى ريكاردو أن منشأ الربح يتم من خلال عملية الإنتاج، يرى مالثوس أن منشئه هو عملية التبادل. هذا كان مدعاة لتبلور أفكار مدرسة جديدة تحاول حل الاختناق في تفسير القيمة، لذلك تهيئة الفرصة من خلال أطروحات مالثوس، لحدوث بقلّة كبيرة في تفسير القيمة في المذهب الرأسمالي عموماً، إذ جرى على يد المدرسة الحديثة نقل التحليل من الإنتاج إلى التبادل، مما أتاح المحل لتفسير القيمة من دون الاعتراف بالدور الرئيس للعمل في خلقها، بل جرى توزيعها على عناصر عدة (من ضمنها العمل) لذلك صارت موضوعاً للتوزيع مرتبة على ذلك، وهذا يعني ضمناً أن حصة العمل من جلاء مساهمته في الإنتاج تتمثل بما يسمى البواقي أو (Residual).

#### ٥- نظرية مالثوس في الأزمة الاقتصادية

جاء اهتمام مالثوس بالأزمات الاقتصادية على خلفية الأزمة الاقتصادية التي طالت الاقتصاد البريطاني عام ١٨١٧، إذ توافر جدل بين مفكري ذلكم العصر حول مسببات وأسس معالجة الأزمة. ويطلق تحليل مالثوس للأزمة<sup>٣٨</sup> من فكرة نقص الاستهلاك بسبب وجود طبقتين في النظام الرأسمالي، هما الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة، وما يترتب على سلوكيهما الاقتصادي من تناقص، والطبقة الأولى (الرأسمالية) تتسم بالادخار، والطبقة الثانية (العمال) هي طبقة استهلاكية بامتياز.

لكن ضعف دخول طبقة العمال لا يتيح فرصة للتخلص من المنتجات في الأسواق، والتي تتزايد على وقع التراكم الرأسمالي المتزايد، ولهذا يظهر النقص في الاستهلاك. تكمن أهمية أو جدت محاولة مالثوس أثبات أن التراكم الرأسمالي يمكن

أن يسير الى ما هو ابعد، (مؤدياً الى إفراط عام في الإنتاج وركود اقتصادي وقنوط)<sup>(٣)</sup>.

بيد أن أهم انحازات مالثوس هو إصراره (لأول مرة في النظرية الاقتصادية الانكليزية على الأقل، من هناك تسليماً بإمكانية حدوث أزمات ناشئة عن أسباب كامنة في صميم النظام الرأسمالي) <sup>٤</sup>، لقد ركز مالثوس جل اهتمامه على طبيعة الطلب الكلي وتوصل الى عدم كفاية الطلب المعال (Affective demand)، الذي تشير جواس روسون <sup>٥</sup> الى جواس ميارد كينز قد أحده من مالثوس ولم يكن من بنات افكاره.

وفي سياق تحليل مالثوس لمسببات الأزمة الاقتصادية يرى أن هذا النقص في الاستهلاك المتأتي من نقص الطلب المعال، لا يمكن حله من دون تفعيل دور الطبقة الارستقراطية (طبقة الإقطاع) ورجال الدين والبلاء على الخدم، والتي يعول عليها كثيراً في ردم الهوة في الطلب من خلال الاستهلاك غير الإنتاجي.

إن خطأ مالثوس في نقص الاستهلاك يأتي من عده ادخار أصحاب رؤوس الأموال، من شأنه أن يؤدي الى الركود، على أساس أن هذا الادخار سيقفل من الطلب الاستهلاكي، ولكنه اعقر أن الادخار إذ ما تم توظيفه يرفع الطلب على السلع الإنتاجية، بحيث يمكن أن يبقى مستوى الطلب الكلي مساوياً للعرض الكلي وعند مستوى التوازن.

هذا الفهم المالثوسي لطبيعة الأزمة الاقتصادية واعتماده مبدأ عدم أمكانية تحقيق التوازن باستمرار في الاقتصاد الرأسمالي نتيجة عدم كفاية الطلب، شكل منطقاً لكينز بعد أكثر من قرن لتحليل (هجرة الركود)، والسير بالاتجاه ذاته لتحليل بواعث الأزمة الاقتصادية (١٩٢٩-١٩٣٣)، لذلك كان كينز يثني على مالثوس ثناءً كبيراً ويعده من أهم الاقتصاديين الكلاسيكيين.

## هوامش ومصادر الفصل الثامن

- ١- فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، دار الحدائق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١، ص ٥٧.
- ٢- المصدر السابق نفسه، المكان نفسه.
- \* An Inquiry into the nature and cause of the wealth of nations.
- ٣- جون كينيث جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي (الماضي صورة الحاضر)، ترجمة احمد فؤاد بلبع، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٠، ص ٧١.
- ٤- إسماعيل سفر وعارف دويلة، تاريخ الأفكار الاقتصادية، مديرية الكتب والمطبوعات، جامعة حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ١٧٢.
- ٥- المصدر السابق نفسه، ص ١٧٤.
- ٦- جون كينيث جالبريث مصدر سابق، ص ٧٨.
- ٧- المصدر السابق نفسه، ص ٧٩.
- ٨- محمد دويدار، مبادئ الاقتصاد السياسي، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٣٢٨.
- ٩- المصدر السابق، ص ٢١٤.
- ١٠- ماركس، رأس المال، المجلد الأول (الكتاب الأول - عملية إنتاج رأسمال)، ترجمة فالح عبد الجبار وآخرون، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٧، ص ١٢٢.
- ١١- المصدر السابق، المكان نفسه.
- ١٢- جون كينيث جالبريث، المصدر السابق، ص ٨١.
- ١٣- إسماعيل سفر وعارف دويلة، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
- ١٤- أريك رول، تاريخ للفكر الاقتصادي، ترجمة راشد الراوي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٥٨.

١٥- Adam Smith. Wealth of Nations , vol.١ , p.٩١.

- ١٦- محمود يونس، نظرية التجارة الدولية، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٤.
- ١٧- جورج سول، المذاهب الاقتصادية الكبرى، ترجمة راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٧٧.
- ١٨- عدنان عباس علي، تاريخ الفكر الاقتصادي، الجزء الأول، مطبعة عصام، بغداد، ١٩٧٩، ص ٢٧٦.
- ١٩ - سعيد النجار، تاريخ الفكر الاقتصادي من التجاريين الى نهاية التقليديين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤٢.
- ٢٠- نقلا عن: جون كينيث غالبريث، مصدر سابق، ص ٨٩.
- ٢١- المصدر السابق نفسه، ص ٩٨.
- ٢٢- سعيد النجار، مصدر سابق، ص ١٤٥.
- ٢٣- المصدر السابق نفسه، ص ١٥٠.
- ٢٤- اريك رول، المصدر السابق، ص ١٧١.
- ٢٥- عدنان عباس علي، المصدر السابق، ص ٢٩٠.
- ٢٦- هوفمان، الفكر الاقتصادي ص ٦٧، نقلاً عن عباس عدنان علي، المصدر السابق، ص ٢٩١.
- ٢٧- إسماعيل سفر وعارف دليلة، مصدر سابق، ص ٢٧٣.
- ٢٨- جون كينيث غالبريث، المصدر السابق، ص ١٠٠.
- ٢٩- محمود بكري، الاقتصاد الدولي، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٦.
- ٣٠- إسماعيل سفر وعارف دليلة، المصدر السابق، ص ٣١٣.
- ٣١- عدنان عباس علي، المصدر السابق، ص ٣١٠.
- ٣٢ للمزيد ينظر رمزي ركي، المشكلة السكانية وحرافة المalthوسية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤.

- ٣٣- محمود عند المولى، مصدر سابق، ص ١٣٠.
- ٣٤- ارك رول، مصدر سابق، ص ١٩٠.
- ٣٥- إسماعيل سفر وعارف دليلة، مصدر سابق، ص ٤٦٥.
- ٣٦- جورج سول، مصدر سابق، ص ٧٧.
- ٣٧- سعيد النجار، مصدر سابق، ص ٢٤٥.
- ٣٨- عدنان عباس علي، مصدر سابق، ٢٥٤.
- ٣٩- جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ٩٥.
- ٤٠- المصدر السابق نفسه، المكان نفسه.
- ٤١- حوان روبنسون وحون إيتويل، مقدمة في علم الاقتصاد الحديث، ترجمة، فاضل عباس مهدي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥١.

## **الفصل التاسع**

### **الأفكار الرومانسية والإصلاحية**



## الفصل التاسع

### الأفكار الرومانسية والإصلاحية

تمهيد

من المؤكد أن التغييرات التي حصلت في أوروبا على خلفية نزع سلطة الكنيسة وتراجع سطوة الإقطاع، والصعود الكبير للطبقة الرأسمالية، وشيوع مفاهيم الانفتاح الفكري والفلسفي في ظل تمجيد الحرية بكل أشكالها، وبالنظر لعدم كفاية أية فلسفة من أن تجيب بقوة على كل متطلبات المجتمع في مرحلة تاريخية محددة.

بدأت الرأسمالية وفي ظل ما أفرزته من معطيات حقيقية وفعلية، من مثل الاستغلال والتمايز الطبقي وهدر لإنسانية الإنسان اقتصادياً واجتماعياً، دافعاً لظهور حركات فكرية - سياسية تعارضها.

بدأ جلياً أن التحرر والحرية كانت منصبة على لجم سلطة الدولة، من دون أن تمتد لتصبح حرية مطلقة وتتلامس مع معطيات الواقع الفعلي للرأسمالية الباهضة التي أمعنت في تكبير الإنسان وإذكاء عبودية جديدة لا تقل شأناً عن العبودية السابقة.

فكان لابد من ظهور فكر مناهض وناقد لمساوي الرأسمالية، والآتيان بفكر يحرر الطبقات الشعبية في المجتمعات الرأسمالية من الاستغلال، الذي بدأ يشيعه ممط الإنتاج الرأسمالي بتطوره الحديث باتجاه السيولة والاكتمال.

لقد ظهر هذا الفكر المناهض للفكر الرأسمالي بهيئة نشاطات وأعمال فكرية ذات نزعة اجتماعية إنسانية، شكلت باختلاف مبهجيتها ورؤاها وأساليبها مهلاً لتتلور الأفكار الاشتراكية لاحقاً، هذه جميعاً وجدت صداها في الواقع الاجتماعي - الاقتصادي - السياسي، الذي كان الحاصنة لها، مما يسر لها القبول والانتشار.



وعلى الرغم من عدم توفر الفرصة لتواجد الفكر الرومانسي أو الإصلاحي على أرض الواقع، إلا أنه شكل مبهلاً للكثير من الأفكار الاشتراكية ذات النزعة (العلمية)، بالإضافة إلى أنه احتل مساحة فكرية هامة في سياق التاريخ الفكري للبشرية، في مواجهة الاستغلال والفهر الاقتصادي المتأني من الأنشطة الاقتصادية التي رعتها البطم الاقتصادية وأبررها البظام الرأسمالي.

## المبحث الأول

### الرومانسية الاقتصادية

تلورت آراء كثيرة في إطار رفض المطلق الكلاسيكي البريطاني، من قبل اقتصاديين ألمان وفرنسيين وأمريكيين، إذ بدأ هذا الاختلاف النظامي مرتكزاً على عدم مقبولية التبريرات الاجتماعية والأخلاقية التي يدفعها الاقتصاديون الكلاسيكيون من البريطانيين، للفروق غير العدية في الدخل ووسائل المتعة الناتجة عن الملكية الخاصة والأرباح والثروة، باهيك عن الآثار الاجتماعية العميقة لثورة الصناعة التي أضحت بادية للعيان على وقع الإيغال في القهر والاستغلال.

فالعمال - رجالاً ونساءً وأطفالاً - كانوا مكدرين في المصانع، وبمجرد وجودهم في المصانع يصبحون حاضعين لسلطة صاحب العمل (الرأسمالي)، ولم يكن مخولاً لهم الاعتراض على الأجور أو على ساعات العمل الطويلة أو على الصجيج والرائحة النتنة في المصانع والمساكن والحياة القصيرة والكنيبة.

مثلت أفكار الاقتصاديين الرومانسيين انشفاقاً عن عالم آدم سمث، وجاء معظم هؤلاء من خارج بريطانيا، سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) من فرنسا، وليونار دي سيسمونيدي (١٧٧٣-١٨٤٢) سويسري، فيما كن الصوتان الأكثر أهمية في ألمانيا هما آدم مولر (١٧٧٩-١٨٢٩) وفريدريك ليست (١٧٨٩-١٨٤٦)، وكان مولر هو الزعيم المعترف به لما سمي بالحركة الرومانسية الألمانية.

عليه فالرومانسية حركة صوفية غير متماسكة الأجزاء، وتؤكد وحدة الأرواح واندماج الفرد في كل أكبر منه، من مثل الدولة والمجتمع، وهو ما يشكل افتراق عن فلسفة الرأسمالية التي ترى أن الفرد هو القاعدة، وتحقيق مصالحه ايذاناً بتحقيق مصالح المجتمع.

هذه الرومانسية ظلت قائمة على مر التاريخ البشري بدءاً من الإغريق وإلى الآن، وهي ترد في أجمالها على واقع الأوضاع الاقتصادية - الاجتماعية، التي تتوشع بالظلم والاستبداد.

سيسمونيدي

أولاً: النشاط الفكري والمهيج

بدأ سيسمونيدي نشاطه الفكري في سن مبكرة نسبياً، فقد كان مواظباً على حضور حلقات الدرس مع مدام دي ستايل في مدينة كوبيه بالقرب من جنيف منذ عام 1808، وقدم نفسه كحواري متقد الحماسة لأدم سمث، ولكنه بعد ست عشرة سنة أبدى شكوكاً حدية في آرائه المبكرة. لقد كان لظروف الاجتماعية القاسية التي أفررتها الرأسمالية الجديدة تأثيراً كبيراً على أفكار ورؤى سيسمونيدي، وكانت اعتراضاته شبيهة باعتراضات ليست (كل المعاناة وقعت على كاهل المنتجين في القارة وكل المتعة ظلت للانكليز)<sup>(١)</sup>.

كما أنه اقترب من اعتقاد مالئس من أن الصناعة الحديثة اتجهت بلا ضابط نحو تحقيق فائض الإنتاج، فالمنتج الفرد هو الذي يقرر ما ينبغي إنتاجه من أي دور لجموع العاملين في المصنع، وكان أكبر إسهام لسيسمونيدي هو الاعتراف بوجود طبقات اجتماعية وتحديد سماتها المميزة، لقد كان (أحد أوائل الاقتصاديين الذين تحدثوا عن وجود طبقتين اجتماعيتين، الأغنياء والفقراء، والرأسماليين والعمال)، فمع أفكار سيسمونيدي أصبح الأغنياء أعداء الفقراء، وأصبح الرأسماليون هم أعداء العمال<sup>(٢)</sup>، لقد كان لهذه الأفكار تأثيرها على تحليلات ماركس لاحقاً.

وبسبب من التبريرات والتسويفات الذرائعية القائمة على التجريد التي استخدمها آدم سمث وريكاردو في تفسير ظاهرة الفقر، ذهب سيسمونيدي إلى رفض أسلوب التجريد في الاقتصاد السياسي، على أساس منطقي من أن العقل الإنساني يميل دوماً إلى التضيق والتبسيط كمزية دائمة، وليس التوسيع والتعقيد كما ذهب إلى ذلك ريكاردو.

إن أسلوب التجريد يراه سيسمونيدي غير موائم للعلوم الإنسانية - الاجتماعية، وهو محق في ذلك، إذ أن أسلوب التجريد ظهر في العلوم الصرف من أجل الوصول إلى قوانين ثابتة، ويرى سيسمونيدي بأن أسلوب ومنهجية ريكاردو أنتجت نظريات لا يمكن أن تتطابق مع الواقع<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: الأفكار الاقتصادية

#### ١- نقد الفلسفة الرأسمالية

يعد سيسموندي من جمهرة الاقتصاديين الذين انتقدوا الأداء الرأسمالي، من دون أن يدعوا إلى حلول جذرية لتجاوز هذا النظام، إذ أن سيسموندي ظل يحترم الملكية الخاصة والمنافسة، لذلك طلت أفكاره ودعوته لتطبيقية يراد منها إخماد جذوة الترافف الطبقي وسياسات الإفقار التي يمارسها رأس المال بحق الطبقة العاملة.

لهذا لا يمكن عد موقف سيسموندي من الرأسمالية معادياً، بل هو رد فعل على طبيعة محرجات هذا النظام، وذهب أبعد من ذلك في موضوعات محددة إلى نقد الفلسفة الرأسمالية أساساً

إذ تعرض إلى مفهوم الانسجام والتطابق بين المصلحة الخاصة والعامة والتي عدتها الرأسمالية آلية متحققة لا محال، لأن تحقق مصلحة الفرد لا تعني تعارضاً مع مصلحة المجموع، بل هي في خدمته، لأن هذا من شأنه أن ينعكس لاحقاً على المجتمع برمته من خلال توسيع الفرد لنشاطه الاقتصادي وبالتالي المساهمة في تحقيق المزيد من التراكم.

هذا الفهم الكلاسيكي ظل مسيطراً على رؤى المدرسة الرأسمالية بدءاً من آدم سميث في نظريته (نظرية المشاعر الأخلاقية) إلى الآن.

وهو ما دفع سيسموندي إلى رفض هذا المنطق مبيماً أن الانسجام والتطابق ليس أمراً حتمياً، بل على العكس فإن التعرض والتصادم قائم وهو ما أفضى إلى إيقسام المجتمع إلى طبقتين متضادتين هما الرأسماليين والعمال.

فالرأسمالي يسعى بشكل حثيث إلى تحقيق مصالحه الخاصة من خلال إستغلال العمال بشدة من خلال ملكيتهم لوسائل الإنتاج، هذه الملكية يراها سيسموندي ليس حقاً طبيعياً ووجودها لم يكن قائماً على فكرة العدالة أو تحقيق

منفعة مجتمعية، بل لمنافع شخصية، لهذا فالمملكية بهذه الصورة لا تحضى بالتقدير<sup>(٤)</sup>.

فالحرية والمباقة وإنسجام المصالح التي تعدها الرأسمالية حجر الزاوية في منظومتها الفكرية، رثت أثراً خطيرة في مجتمعاتها، وأدت الى تركيز الثروات بأيدي فئة قليلة من السكان وإفقار الجزء الأعظم من المجتمع<sup>(٥)</sup>.

بيد أن سيسموندي لم يكن مؤمناً بالمساواة في الدخول إلا أنه ينتقد التفاوت الصارخ ما بين الطبقات، وبعد سياسة الاقتصاد الحر تولد طبيعياً الفقر والفاقة من جهة والعنى الفاحش من جهة أخرى، ولا سبل لحماية الفقراء والصعفاء، إلا من خلال الدولة التي لابد أن تتدخل عبر الكثير من الوسائل من مثل برامج الإصلاح الاجتماعي التي اقترحها.

## ٢ - القيمة والتوزيع

مما لاشك فيه فان سيسموندي واجه أهم إشكاليتين في الفكر الرأسمالي شنه شأن كـ المفكرين إلا وهما تحديد القيمة ونظرية التوزيع الرأسماليتين، وكلاهما تعدان موضوعاً خلافياً. فقد استند سيسموندي على تحليل ريكاردو للقيمة مركزاً جل اهتمامه على الشكل المتناقض للسعة، ولم يستطع أن يقدم شيئاً في التوزيع بل كان ريكاردياً في موضوعة الأجر. إلا أن ما أورده في موضوعة استلاب الرأسمالي لأجر العامل وعدم ترك إلا ما هو ضروري لبقائه عن طريق استيلائه على جزء من الأجر، عدت من مرتكرات الأفكار التي بنى عليها ماركس نظريته في فائض القيمة والاستغلال الاقتصادي.

فيما عد التوزيع في ظل النظام الرأسمالي تنتابه إشكالية كبيرة تتراوح ما بين سعي الرأسمالي الى إغتصاب (Extortion) جهد العامل، وإن المستح لا يدفع جميع

الكلمة<sup>٦</sup>، وهذه شكلت قاعدة ومرتكز لفكرة اشتقاق ماركس لعائض القيمة من العمل والاستغلال الاقتصادي.

### ٣- الأزمة الاقتصادية

من المناسب الإشارة الى أن ظهور أفكار سيسموندي لم تكن اشتراكية في نقدها للرأسمالية، بل لأنها جاءت في مرحلة طعت عليها مسحة الاشتراكية المثالية، ولم تكن أفكاره اشتراكية حالصة في النقد والتحصيل والعمق، بل كانت تعبيراً عن متطلبات طبقة الرجوارية الصغيرة في المجتمع، ويعد مشروعه في التحليل الإجمالي محاولة لإصلاح النموذج الرأسمالي.

ويبدو اهتمام سيسموندي في الأزمة الاقتصادية متأثراً من عدم قبوله بقانون ساي (قانون المدفد)، ولم تكن تشكل قضية مركزية في أفكاره، بل كان يرى وجود تناقض ما بين الإنتاج والاستهلاك، مما يبقى حراً مهماً من الإنتاج فائضاً، ويذهب الى تطور قوى الإنتاج السريع (تطور الصناعة) التي بدأت تزيج أعداد من الطبقة العاملة نحو برائس البطالة، مما يخفض من حجم الاستهلاك.

لهذا يرى أن التراكم الذي يسعى إليه الرأسماليون من شأنه أن يدفع باتجاه الزيادة المستمرة في الإنتاج، بينما يظل الطلب متحلاً عنه وهو ما يحدث الأزمة الاقتصادية، هذا التشخيص كان مبكراً للأزمة الاقتصادية في النظام الرأسمالي، إلا أن الحلول التي يدفعها سيسموندي تبدو غير معقولة<sup>٧</sup> من خلال دعوته الى العودة الى أساليب الإنتاج البدائية، والتوقف عن تشجيع المخترعين ومكافأة الصناعيين.

## المبحث الثاني

### الإصلاحية

أولاً: سان سيمون ١٧٦٠-١٨٢٥

#### ١- النشاط الفكري والمنتهج

حينما نقرأ تاريخ سان سيمون (Saint Semon) فإن الانطباع الأول عنه يضعنا أمام رجل مجنون، ولكن ذلك يحف نوعاً ما حين نعلم أن جميع المثاليين الاجتماعيين قد أسرفوا في الهوس والشذوذ الفكري، فالسنوات الأولى من القرن التاسع عشر اصططغت بالفوضى والحيرة من حيث الأفكار، فخصية تفكير الناس كانت تتركز على المذهب العقلي في الفلسفة الذي يقول (أن العقل هو الفيصل في مسائل الفكر والمعتقدات والسلوك) وهو الذي أسست عليه الثورة الفرنسية.

هذا المذهب كان يرتجى منه أن يخلص المجتمع من آفتين هما (الحكم المستبد والفقير)، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً. لقد كان ما إستنتحه سان سيمون من دراسته للتاريخ، هو أن المجتمع يمر بفترات متعاقبة من الانهيار والتوارى، ولعصور الوسطى تعد فترة توازن بينما حركة إصلاح الكنيسة والثورة تعد لا توازن (انهيار)، ولابد من إعادة بناء المجتمع بعد بصره والوصول به مرة أخرى إلى التوازن.

لذلك يرى انه لاستخلاص النظام من براثن الفوضى فأننا نحتاج إلى ديانة مسيطرة، وهو ينبذ الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء ليقول (أن الأوان لإيجاد نوع جديد من المسيحية) هذا الفهم دفعه إلى إصدار آخر كتاب له هو (المسيحية الجديدة)<sup>(٨)</sup>.

شكلت الحركة الصناعية الناهضة في أوروبا الدافع الأساس لتبلور النظام الفكري لسان سيمون، وعلى الرغم من انتسابه إلى طبقة النبلاء الفرنسيين التي تضررت مصالحها بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، إلا انه تأثر بالثورة وشارك فيها

بحدية، وقد انعكست الوقائع والأحداث على طريقة تفكيره، محاولاً أن يبين الآثار الاجتماعية المترتبة على الثورة ويطبق عليها مهنياً أصيلاً، أوصله الى أن يصوع مذهباً صاعياً في أبرز كتبه (النظام الصناعي) الصادر عام ١٨٢١، وهذا ما جعله أقرب الى أن يعد مفكراً اجتماعياً مه الى الاقتصاديين.

وفي عام ١٨٢٥ توفي سان سيمون وأخر كلام قاله (أن حياتي كلها يمكن تلخيصها في فكرة واحدة، وهي أن اضمن لجميع الناس التطور الحر لقدراتهم)<sup>(١)</sup>.

## ٢- الحرية والملكية

يرى سان سيمون أنه قد ارتكب خطأ في القرن الثامن عشر حينما تم الافتراض بأن الإنسان قد منح الحرية المطلقة للإرادة من جهة، وان عمليات الطبيعة محكومة بقوانين ثابتة غير قابلة لتغيير، وبهذا جرى الفصل بين الإنسان والطبيعة، إذ أن هناك قوانين للمجتمع وهناك علم لتطور الاجتماعي يمكن الوصول الى جوهره من خلال دراسة التاريخ الإنساني.

إن حر المشاكل الاجتماعية يكمن في التوفيق بين المصالح المتصارعة، وتصح مهمة السياسية السيطرة على العمل وعلى ظروفه، أو بتعبير آخر (إن السياسة الحديثة قد أصبحت عم تنظيم الإنتاج) ، وعلى الليبراليين القدماء أن يدركوا أنهم على خطأ كبير في إصرارهم على الحرية الفردية، فهي المجتمع يحب إخضاع الجزء للكل.

لهذا نرى سان سيمون يشدد على أن الحرية المطلقة تؤدي الى الفوضى وإلى الصراع على المنافع بعيداً عن التوافق والانسجام، وهذا الأمر يسحقه على الحياة الاقتصادية فهو يرفض الحرية الاقتصادية ويعدها غير كافية لتنظيم شؤون المجتمع، ويدعو الى وضع أسس علمية حديد لتنظيم المجتمعات.

ومثلما ينتقد الحرية فإنه ينتقد الملكية الفردية ويرغب بإلغائها، على خلفية تشجيعها على البطالة والفراغ واليأس، ويقترح أن تستبدل أنظمة الملكية الوراثية



نظام ترتبط فيه الملكية بالقدرات الشخصية على الإنتاج، لأن الإقرار بحق الإرث والملكية الوراثية هي مصدر عدم المساواة في المجتمع.

في هذا أراد سان سيمون أن يبني مجتمع يقوم على القدرات المعرفية بدلاً من المجتمع القائم على حق الوراثة، هذا المجتمع المفترض لا يمكن أن يقوم من دون حكومة صناعية قادرة على وراثة الأملاك وإعادة توزيعها.

### ٣- التنظيم الصناعي

ظل سان سيمون مؤمناً بأن ما يحتاجه المجتمع في تطوره، وفي ضوء ما افترضه واقع المجتمعات الأوروبية، إلى تنظيم صناعي يستمد من تنظيم أشمل للحياة الاقتصادية، قطب الرحى فيه النخبة (Elite) من الناس من رحالات الصناعة والفكر والعلماء<sup>(١١)</sup>.

هذا التنظيم الذي دفعه سان سيمون لا يقوم على مبدأ (باييف) في المساواة، بل طبقاً لمبدأ الأهلية، لذلك ذهب إلى تقسيم الجنس البشري إلى ثلاث طبقات هي<sup>(١٢)</sup>؛  
الطبقة الأولى. العلماء، لممارسة القوة الروحية، ولتقديم أعضاء الهيئة العليا التي اقترح أن تسمى مجلس نيوتن واسماه (مجلس الفحص).

الطبقة الثانية: طبقة رجال الفكر والثقافة، وسماهم مجلس الاقتراح

الطبقة الثالثة: وتصم رجال الصناعة الذي يتسع مفهومها لدى سان سيمون لتشمل المنتجين كافة بما فيهم (مزارعين - تجار - صيارفة)، ويسميا مجلس التنفيذ.

هذه الطبقة الأخيرة تعد هي الأكثر أهمية كونها أكثر خبرة وكفاءة من غيرها، ومتى ما تحققت حكومة الصناعيين، فإن العدالة ستسود تبعاً لمبدأ (لكل تبعاً لكفاءته ولكل كفاءة أو مقدرة أعمالها)، الذي قدر له أن يشكل أساساً في التوزيع الاشتراكي في ما بعد (من كل حسب عمله).

ثانياً: كارل رودبرتس ١٨٠٥-١٨٧٥

#### ١- النشاط الفكري والمنهج

تمثل أفكار كارل جوهان رودبرتس قناة الاتصال بين سيسموندتي وسان سيمون والمفكرين الاشتراكيين، إذ بدأ بتأليف المكري عام ١٨٣٧ في كتيب كبير بعنوان (مطالب الطبقة العاملة) ولكن أبرز ما قدمه هو كتابه اللامع (نحو فهم نظامنا الاقتصادي الحكومي) الصادر عام ١٨٤٢.

على الرغم من ذلك لم يحظَ بالاهتمام الكبير، إلا عندما أعاد الاشتراكيون الألمان إعادة اكتشاف أفكاره بعد أكثر من ثلاثة عقود من ظهوره، بينما يرى الكثير من الماركسيين<sup>٣٢</sup> أن كارل رودبرتس في كتابه ذاك كان قريباً من إكتشاف نظرية فائض القيمة الماركسية.

يشير بعض الكتاب إلى أن رودبرتس كلن قد كتب (رأس المال) ولكنه لم ينشر إلا بعد وفاته، وهو ما ظهر من خلال مراسلاته مع فون كيرشمان، وقد قال حصوم ماركس أنه أخذ الكثير من رودبرتس (بقي ذلك ماركس بشدة)، بيد أن هناك بعض الشواهد التي تشير إلى تأثير ماركس في صياغة بعض أفكاره مما كتبه رودبرتس، خاصة في مشكلتي (إفراط الإنتاج) وأزمات الأعمال<sup>٣٣</sup>.

درس كارل رودبرتس أفكار كل من آدم سميث وريكاردو، ولكن بطريقة مختلفة عما فهمه الألمان التاريخيون، وعلى الرغم من إقراره بوجود مشكلات كثيرة في الأسس الرأسمالية، إلا أنه أخذ بنهج إصلاح هذه العيوب، وهذا ما جعله عام ١٨٤٨ أنان الأحداث السياسية والاقتصادية في ألمانيا، إن يكون واحداً من أبرز منظمي حزب الإصلاح.

عدت أفكاره خطوة متقدمة في عصره لمساائل النظام الرأسمالي، متفقاً مع الكثير من معاصريه وسابقيه، من أن أزمة النظام الرأسمالي هو فرط الإنتاج، مؤكداً على احتواء النظام في أسسه تدفع باتجاه ظهور الأزمات الاقتصادية وهذه تمثل محاولة رائدة في حينها.

بيد أن أطروحته في معالجة الأزمة الاقتصادية وعيوب النظام الرأسمالي ظلت تدور في فلك إصلاحه، تبعاً لشخصية كارل وفلسفته التي لم تكن تنزع إلى الثورية أبداً.

## ٢- نظرية النمو التاريخي

لم يغفل رودبرتس موضوعاً النمو الاقتصادي تاريخياً، وهو يذهب إلى أن التاريخ البشري ينقسم إلى ثلاث مراحل كبرى، تحتوي كل منها على عدة مراحل ثانوية داخلها وهي<sup>(١٥)</sup>؛ المرحلة الأولى: التي اسمها (وثنية قديمة)، كانت تميز بوجود الملكية الخاصة، لا في الأشياء فحسب، ولكن في الناس أيضاً.

المرحلة الثانية: وهي (المسيحية - الحرمانية) التي احتفظت بالملكية الخاصة في الأرض ورأس المال، ولكنها نبذت ملكية الإنسان للإنسان، وهذه هي المرحلة التي لارال المجتمع المعاصر يمر بها، وستستمر بعض الوقت في المستقبل.

المرحلة الثالثة: المسيحية - الاجتماعية، وفيها ستنتقل الأرض ورأس المال إلى الملكية الجماعية، وفي هذه المرحلة سيكون العمل هو السند الوحيد للحصول على نصيب في الناتج، وسيبقى فيها كل عامل نصيباً يقابل خدماته الإنتاجية.

وهكذا كان رودبرتس يتطلع إلى مجتمع اشتراكي في المستقبل، من دون التعجيل بمقدم هذا المجتمع من خلال إثارة العمال ضد الحكومات، إذ كان يعتقد أن الأمر يحتاج إلى مئات السنين لتحقيقه، ومن الممكن العمل على تحسين أوضاع العمال من خلال الجهد التنظيمي من جانب الدولة.

### ٣ الإنتاج

يرى رودبرتس أن جل اهتمام نظام السوق القائم على الحرية الاقتصادية هو تغطية حاجات أصحاب الطلب في السوق من دون أي اهتمام بالحاجات الكلية للمجتمع<sup>(١٧)</sup>، وهذا يخلق عدم التوازن مابين حجم الإنتاج والطلب، فالتوازن المفترض كلاسيكياً يتم فقط بين كميات الإنتاج وكميات الطلب المتحقق في السوق (الفعلي)، مما يعني بقاء طلب غير مغطى ويمثل حاجات محتمية ولكن من دون أن تتوفر قدرات شرائية لدى الناس، سواء أكان هؤلاء مشتركون في الفعالية الاقتصادية أم لا، لذلك يستبعد من حسابات الطلب الكلي الأفراد الذين لا يحصلون على النقود لأسباب تتعلق بالمرض والشيخوخة والعجز.

بناءً على هذا يعتقد رودبرتس أن السوق الرأسمالية تقدم إنتاجاً يؤمن فقط الحاجات الثانوية وليست أحماي حاجات المجتمع، مرتكراً على أن المنتج الفردي يسعى في نشاطه الاقتصادي الى إنتاج السلع التي تعطيه ربحاً من دون الالتفات الى تأمين حاجات السكان، وهذا ينظره جوهر مشكلة الإنتاج الرأسمالي في ظل اقتصاد السوق.

ويضع معالجته لعدم التكافؤ هذا في الدفع بالدولة لتنظيم الإنتاج كيما يكون متوافقاً مع حاجات المجتمع، وكذلك التدخل في مقادير الإنتاج من السلع المختلفة بغية تأمين حاجات جميع الأفراد على وفق قدراتهم الشرائية كما أن الدولة مطالبة من وجهة نظره بتنظيم جهود العمر لإنتاج السلع بحسب ضرورتها للسكان.

### ٤- التوزيع

ينطلق رودبرتس في تحليله للتوزيع من أطروحة أساسية إلا وهي إخضاع مصدر خلق القيمة للعمل لوحده، وعد العناصر الأخرى الخالقة للقيم هبات من معين لا يصب وهي الطبيعة، وأن أي إنتاج لا يكلف سوى العمل وجهد العمل، وعليه فإن العمل هو التصحية الوحيدة التي يقتضيها الإنتاج.

إن الرأسمالي أو مالك الأرض يشارك في الحصول على عائد الإنتاج أو اقتسامه من دون أية مشاركة حقيقية فيه أو تضحية، ويسلبان العامل جزءاً مهماً من إنتاجه، من دون أي تعسف أو أكراه، لأن الاقتصاد الرأسمالي عبر حرية المبادلة وحق الملكية الفردية قد أجاز لهما ذلك.

وبهاجم رودبرتس نظام العدالة الطاهري في اقتصاد السوق القائم على دفع عوائد الإنتاج أو مكافآت المشاركة في الإنتاج بين رأس المال والأرض والعمل، إذ يتضمن في حقيقته ظلماً للعامل وسلباً لحقوقه من قبل مالكي رأس المال والأرض.

كما أن قانون العرض والطلب الذي يتحكم في تخصيص حصص المشاركين في الإنتاج، إلا أن رودبرتس يلحظ بوضوح أن حصة العامل تتناقص مع تزايد حصص ملاك الأرض والرأسماليين، لذلك يظل أحر العامل يحوم حول الحد الأدنى للعيش (حد الكفاف).

وعنى وفق هذا يتوصل إلى أن هناك علاقة عكسية بين تزايد الإنتاج بقاء على رغبة المنتحين في الإرباح والتوسع، بينما تتناقص حصة العمال الذين يعدون أنهم مكوبات الطنب، مما يفصح بدون لبس أنه قد إستدل على نقص في الطلب مقابل فيص الإنتاج قبل ماركس، وهو توصيف وتسبب مبكر للازمة الاقتصادية في النظام الرأسمالي.

إلا أن معالجة رودبرتس لمشكلة التوزيع لم تذهب إلى المرتكر الأول لها وهو طبيعة نمط الملكية في النظام الرأسمالي، أو التخلص من الرأسماليين والملاك العقاريين، إذ لم يكن ثورياً في ذلك، مبرراً نظريته من خلال أمرين<sup>(١٧)</sup>:

الأول: إن طبقة العمال هي طبقة تفتقر إلى الثقافة.

الثاني: هناك ملكية غير مستغلة وصلت إلى أصحابها ببذل الجهد والعمل، وصعوبة الفصل بينها وبين الملكية المستغلة، عند اعتماد مبدأ الإلغاء.

لذلك يتشبت بالدولة لمعالجة التوزيع الظالم لاقتصاد السوق من خلال قيام الدولة بإعادة تقدير الناتج القومي بين حين وآخر، وكذلك احتساب كمية العمل الداخل كمكون في إنتاج السلع لتحديد حصة العمال، وتتولى أحدها من المنتجين وتكافئ ذلك ببطاقات يدفعها المنتج الى العمل، فيما تقوم الدولة بتوفير السلع في مخازن خاصة لتضع العمال.

هذا الحل الذي افترضه كان مثالياً وغير عملياً، في ظل تزايد عدد البضائع وحاجات الإنسان.

## هوامش ومصادر الفصل التاسع

- ١- الكسندر جراي، ص ٢١١، نقلا عن: جالبريث، مصدر سابق، ص ١١١.
- ٢- اريك رول، مصدر سابق، ص ٢٥٤.
- ٣- إسماعيل سفر وعارف دليلة، مصدر سابق، ص ٣٣٧.
- ٤- سعدي إبراهيم، مبادئ الاقتصاد السياسي، الجزء الأول، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٠، ص ١٣٠.
- ٥- فؤاد الدهمان، الوحير في الاقتصاد السياسي، الجزء الأول، دار الهلال، دمشق، بلا سنة نشر، ص ١٠٨.
- ٦- سعدي إبراهيم، مصدر سابق، ص ١٢٩.
- ٧- فؤاد الدهمان، مصدر سابق، ص ١١٢.
- ٨- للاطلاع على جذور الأفكار الاشتراكية بطر: ادموند ولسون، تاريخ الفكر الاشتراكي المعاصر من فيكو الى لينين، ترجمة يونس شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٣.
- ٩- المصدر السابق، ص ٧٦.
- ١٠- المصدر السابق نفسه، ص ١٢٨.
- ١١- سعدي إبراهيم، مصدر سابق، ص ١٢٨.
- ١٢- المصدر السابق نفسه، ص ١٣١.
- ١٣- إسماعيل سفر وعارف دليله، ص ٣٦٨.
- ١٤- ج. ه. كول، تاريخ الفكر الاشتراكي: الماركسية والفوضوية، ترجمة عبد الكريم احمد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣١.
- ١٥- المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤.
- ١٦- المصدر السابق، ص ٢٢.
- ١٧- المصدر السابق نفسه، ص ٣٤.

## **الفصل العاشر**

### **الفكر الاشتراكي**





## الفصل العاشر

### الفكر الاشتراكي

تمهيد

المثالية التي طبعت أفكار العديد من المفكرين على خلفية نهوض الرأسمالية، وتبلور أسلوب إنتاجها في ظل الثورة الصناعية، هؤلاء لم يفهموا عملية سير التغيير الاجتماعي، ولم يتنبأ أحد منهم بحتمية تطور ذلكم النظام الذي كانوا يكرهونه أشد الكراهية، كل ما كانوا يستطيعون فعله هو إستنباط نظم جديدة، ماقضة ما أمكن للنظام القائم، وإن يحاولوا بناء مبادئ لهذه النظم مفترسين أنها ستنتشر عن طريق العدوى، كان هذا هو ما تعنيه كلمة الاشتراكية حين بدأ استعمالها في فرنسا وانجلترا عام ١٨٢٥.

إن الفلسفة الألمانية والفرنسية كانت الأرضية التي بسجت عليها المفاهيم لأولى المذوثة لفلسفة الرأسمالية، فبينما جاءت تجريدات الفرنسيين سواء أكانت الحرية والإخاء والمساواة أو انسحابت فورييه وانحداباته العاطفية - مبادئ اجتماعية أريد منها استحضار رؤى التحسينات الاجتماعية والسياسية، فإن تجريدات الألمان بالمقارنة، هي كالأساطير الضبابية التي ليس لها شكل محدد، وتبقى معلقة في السماء من دون أن تتلامس مع ارض الواقع، لكي تؤدي دور المحرك لتغيير أحوال البشر.

وهذا ما دعا مفكرو الاشتراكية العلمية (ماركس وانجلز) الى الاستنتاج بأن الفلسفة الألمان قد فشلوا في أمداد الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً بالمبادئ لتحرير نفسه، وهو ما شكل قصيتهم الأولى، مستعينين بتحليل الطبقات ودورها في التعبير المشوّد، مركزين حل اهتمامهم بالطبقة العاملة، كونها أكثر الطبقات الاجتماعية تأثراً بمحرقات الرأسمالية، في سعيها لبلورة (Proletarianization) المجتمع باستمرار، وما يصاحب ذلك من الاستلاب والقهر الاقتصادي.

وعدو العنف وسيلة (ماركس- العنف مولد التاريخ) لتغيير وجهة المجتمع من خلال الثورة العمالية العالمية، ارتكازاً على الشعار الذي اعتمده البيان الشيوعي عام ١٩٤٨، ياعمال العالم اتحدوا.

## المبحث الأول

### الاشتراكية المثالية (الخيالية) والفوضوية

أولاً: الاشتراكية الخيالية (روبرت أوين ١٧٧١-١٨٥٨)

في الوقت الذي بدأ الفكر الرأسمالي يغذ السير باتجاه ترسيخ دعائمه، كان هناك اتجاهاً فكرياً بلقندر نفسه من القوة يحتذب ذوي النوايا الطيبة وأن حالف مجرى التاريخ، هذا الاتجاه يؤكد الجوانب الاجتماعية من ذلك النظام الطبيعي المفترض، ويراد به استعداد الناس للتعاون وقندية الطبيعة الشريفة للوع مرحلة الكمال والرغبة في المساواة الاجتماعية لا السياسية فحسب. وترجع أصول هذه الدعوة القائمة على مبادئ المساواة الى ما قبل عهد التنوير ببعيد، إذ ظهرت في عهد الاعريق وعملت على تمهيتها تعاليم المسيحية بشأن أخوة البشر، لقد ساندت هذا الاتجاه محررات النظام الاقتصادي الرأسمالي من مثل: التعطل- طول ساعات العمل- أجور الكفاف- انحطاط الزراعة، فقد مثلت جميعها خيبة أمل مما خلق حواً يلائم دعاة المساواة الاقتصادية.

كان فرانسوا إميل باييف (١٧٦٠-١٧٩٧) يقول (لقد وهبت الطبيعة الناس جميعاً حقوقاً متساوية في التمتع بكل الطيبات) "، وقبله يقول كرومويل (هما أن كل فرد يعمل من اجل تنمية ما تملك الجماعة، لهذا يتعين أن يكون لكل فرد الحرية في استعمال أية سلعة في المستودع العام من اجل استمتاعه ومعاشه المريح دون ما حاجة الى شراء أو بيع، وبدون أي قيد من جانب أي شخص) ".

لاشك أن الأطروحات الفكرية التي وسمت بالخيالية أو الفوضوية، طلّت مثاراً للصراع بينها وبين الماركسية (الاشتراكية العلمية)، سواء في التاريخ التطيري (رمن ماركس) أو رمن أتباعه (لينين -ستالين)، وتطبيقهم لما سمي (بالاشتراكية).

إلا أن هذه الأفكار تم قهرها مع مفكرتها في خضم السلطوية التي وسمت تاريخ الممارسة للنظم الاشتراكية أو اليسارية.

#### ١- النشاط الفكري والعمل

تجسدت الاشتراكية الخيالية في أطروحات احد أهم دعايتها وهو روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨)، الذي يعد مصدر الهام الحركة الاشتراكية الانكليزية في أوائل بزوغها، وعرف كداعية لأفكار الاشتراكية وعاملاً على ترجمتها وتطبيقها عملياً.

كان لطفولة أوين اللمع الأثر في توجهاته اللاحقة، إذ كان شديد الإحساس لعذاب الآخرين، وفي عمله في صناعة السيج الانكليزية لحط مكرراً التماوت المريع في المعاملة بين العباية الشديدة التي تمنح للآلات والإهمال الشديد للإنسان، وعد ما يجري للرقائق الأبيض في مصانع انكلترا أسوء من نظام الرق أو العبيد في الهند الغربية أو الولايات المتحدة<sup>(٣)</sup>.

وعند بدء روبرت أوين العمل في ورش متعددة في انكلترا وبخاصة مدينة مانشستر التي تخصصت في الصاعات السيجية.

خطأ أوين خطواته الفكرية والعملية واهتمامه بقضايا المجتمع الصناعي في سعيه لامتلاك مصانع من خلال الاستثمار وتوظيف العلاقات الاجتماعية، بغية تطبيق آرائه عملياً عبر مجموعة من الآراء التي هيأت الظروف لترى طريقها للتطبيق، مرتكرة على برنامج أريد منه أن يحسن شروط العمل وطبيعة حياة العامل ومن ثم المجتمع بأكمله، وهذه الآراء تبلورت بالآتي<sup>(٤)</sup>:

أ- العمل على إتقان العمل.

ب- التحسين التكنولوجي والتحديث لأساليب العمل.

ج- اعتماد محاسبة المشاعر للرأسماليين بغية إيقاظ الشعور الإنساني لديهم لعرض تحسين أوضاع العمال.

د- السعي الحثيث لإدخال العمل والتنظيم التعاوني ورفض الإكراه والإحضار.

جسدت أفعال روبرت أوين آراءه النظرية بعد ما نجح شخصياً في إدارة عملية الإنتاج في مصانعه، ولكن هذه النجاحات الجزئية أوصلت مشروعه التعاوني الى طريق مسدود نتيجة حجم المشكلات التي يفرزها نظام المصانع الرأسمالي، وتعمق هذه بمرور الزمن. إلا أن هذا لم يفت من عصبه في المشاركة في النقاش الدائر حول تدهور الأوضاع المترتب على التبلور المستمر لسمط الإنتاج الرأسمالي.

ولعل أبرز ما جرى تنظير أوين له هو المحال التعاوني وعمله على تطبيق ذلك في مشروعين أحدهما في اسكتلندا، والآخرى في إنديانا الأمريكية، والتي أسماها تعاوية الانسجام الجديد New Harmony)، مستوحياً الكثير من أفكار الفرنسي شارل فورييه، والتي تركز على ثلاثة متركزات أساسية هي<sup>(٥)</sup>:

- الملكية الخاصة
- الأمور الدينية
- الشكل الاجتماعي للعائلة

فقد طرح أفكاره من خلال محاضرات كان أئرها عام ١٨٢١، والتي عنوانها برنامج تخفيف المساوي الاجتماعية، ومثل هذا خطاباً موجهاً الى الحكومة البريطانية والأمريكية والفرنسية. كما أنه ذهب الى ما هو أبعد، إذ رفض دور النقود، ودعا الى إلغائها واستعاض عنها ببطاقات العمل (Labour Notes) كمقياس للأشياء، في محاولة منه لدفع أحوال العمل ببطاقات تعادل عدد ساعات العمل كمياً التي تبذل في الإنتاج. إلا أن الإدارات الصناعية أحدثت تقوم المنتحات الحيدة وتدفع أقيامها مباشرة، فيما وحدث السبع الرديئة طريقها الى مخزن أوين الذي أطلق عليه (National Equitable Labour Exchange)، وبتراكمها استنفدت إمكانياته المالية مما الحق به خسائر كبيرة.

## ٢- نظرية القيمة

يرى أوين أن المنتج الوحيد لجميع الثروات هو العمل الإنساني، المتجسد في العامل، وعليه فإن مصدر خلق القيمة هو العمل الإنساني، الذي هو المقياس الطبيعي للقيمة، وأن العمال في ظل نظام الإنتاج الرأسمالي يعدون مكرهين على العمل لعدد الساعات التي يحددها المنتج الرأسمالي، انطلاقاً من سعيهم للحصول على فرصة العمل وتأمين استمرارهم بالحياة، ومن دون ذلك فأنهم سيموتون جوعاً في ظل وقوعهم في براثن البطالة.

ومثله مثل جميع الإصلاحيين والرومانسيين يرى أوين أن انتشار الآلات في المصانع يعد مفسدة غير متكافئة بين العمال والآلات (التكولوجيا)، لهذا يضطر العمال إلى قبول أي مستوى من الأجر، إذ أن الآلات تكلف المنتج أو رب العمل أقل مما يكلف العمل البشري الذي يجري إحلاله بدلاً عنه.

بيد أن روبرت أوين ينعطف فكرياً بتميز، ليشير إلى أن سعي الرأسماليين نحو تخفيض الأجر، لن يوقف أو يقلل الآثار السلبية الباعث عن توسع نمط الإنتاج الرأسمالي في إحلال الآلات والتوسع في استخدامها، وأن كان هناك توسع في تشغيل النساء والأطفال لساعات عمل طويلة إن لثا الرأسماليين صوب تحقيق مستويات عالية من الإرباح، عن طريق الاستخدام الواسع للآلات والإمغان في الاستغلال للعمال والنساء والأطفال، أدى من دون أي شك إلى تركيز هائل لثروات بأيدي الطبقة الرأسمالية، مما يترتب عليه قصور في الآليات الرأسمالية عن إشباع الحاجات الإنسانية للبشر.

هذه الرؤيا تحمل نقوة على أسس العلاقات الرأسماليات المتولدة في خضم الإنتاج، ليوجه لها نقداً صريحاً، لهذا يدعو أوين إلى أخلاقيات نقيضه للأخلاقيات المترسحة عن ظروف الثورة الصناعية

### ٣- الربح

يؤمن أوين بأن الانسحاب بين الإنسان والبيئة لن يتم من دون خلق وسط اجتماعي يختفي فيه الربح، ويعد ذلك شرطاً ضرورياً لتغيير البيئة الاقتصادية، فإذا ما تم ذلك فسوف يترتب عليه أن سعر السلعة سيكون مساوياً لتكلفة إنتاجها، أي مساوياً لتكلفة العمل المبذول من أجل إنتاجها، وعندها فإن كل من ينتج سلعة سوف يكون قادراً على استهلاكها، لأنه سيكون بمقدوره شرائها لأن أحوره تكفي لذلك.

إن معالجة نواقص الرأسمالية لن يتم بتعديل العلاقة بين قيمة ما ينتج وقيمة ما يستهلك، بل من خلال إلغاء الربح، لأن إلغاء الأرباح سيوفر فرصة مناسبة لتحقيق العدالة. وتشكل نقمة أوين من الأرباح والتي يعبر عنها من خلال رفضه للمنطق غير العادل في أن تباع السلعة بأكثر من التكلفة، إذ تشكل هذه خطر كبيراً على المجتمع عندما تفضي إلى الأزمة الاقتصادية التي هي أزمة كساد Depreciation ، والمتولدة عن نقص الاستهلاك ( Under Consumption)، وليس عن فيض الإنتاج.

إن السبب وراء ظهور الأزمة الاقتصادية يرجعه روبرت أوين إلى أن أفراد المجتمع العمليين، والذين يشكلون قاعدة الاستهلاك، في ظل إضافة المنتج للربح يجعل سعر السلعة خارج مقدورهم في شرائها وهو ما يدفع إلى الكساد وبالتالي إلى الأزمة الاقتصادية<sup>(١)</sup>.

ومن أجل معالجة الأزمة الاقتصادية ومع ظهورها، يرى أن مفتاح ذلك يستند على إلغاء دور النقود في الحياة الاقتصادية، وإحلال قسائم العمل بدلاً عنها، كما أن إلغاء الربح يجعل السلعة تصل إلى المستهلك مباشرة من دون المرور بالوسطاء.



#### ٤- أفكار أخرى

- في إطار العمل ظل أوين أميناً على نقد الفكر الرأسمالي في مجال تشغيل الأطفال ودعوته الى منعه، وبدلاً من تشغيلهم، لابد من السعي لتنظيم التعليم المحاني لهم.
- إلغاء كل الضرائب التي تفرض على العمال، بل لابد من فتح محلات لبيع السلع الاستهلاكية بأسعار تتناسب مع دخول العمال.
- يرى أن الإنسان بطبيعته ليس شريراً وليس خيراً، والبيئة التي يعيش فيها هي التي تشكل سلوكياته.
- دعا الى اعتماد مبدأ التوزيع بحسب الحاجات وليس تبعاً للقدرات لأن هذه الأخيرة تختلف طبقاً لاختلاف البيئة.

ثانياً: الاشتراكية الفوضوية (جوزيف برودون ١٨٠٩-١٨٦٥)

#### ١- المفهوم والتكوين

- الفوضوية<sup>(٧)</sup> مشتقة من الكلمة اليونانية التي تعني (بدون سلطة)، وهي نظرية اجتماعية-سياسية قائمة على الفردية والذاتية والإرادة، تدعوا الى إلغاء كل نوع من السلطة في المجتمع بغض النظر عن الظروف التاريخية التي يمر بها.
- ولدت الفوضوية في أربعينات القرن التاسع عشر في البلدان التي كانت تمر بسمط الإنتاج البصاعي البسيط عالياً، وهو ما جعل الفوضوية تدافع عن الملكية الصغيرة، ولم تقدم الفوضوية شيئاً ملموساً للقضاء على الاستغلال، وإنما اكتفت ببعض العبارات العامة.
- والفوضوية الفردية أكثر فرق الفوضوية تطرفاً ويتحسد هذا في قول الفوضوي الألماني كاسبر شيمدت (١٨٠٦-١٨٥٦)، الذي يقول (بالنسبة لي لا يوجد شيء أسمى مني... أنني أعلنها حرباً ضد كل دولة حتى ضد أكثرها ديمقراطية)<sup>(٨)</sup>

يعد الفوضوي برودون ومن خلال نظريته (الخدمات المتبادلة) واحداً من أكثر الفوضويين الذين نالتهم انتقادات ماركس وأنجلر، فيما نال باكونين الانتقادات من ليين.

لم يستوعب الفوضويين أهمية الإنتاج الواسع المتأتي من تكثيف الآلات والمصانع في تطور المجتمع، في حين طلوا يدافعون عن الملكية الصغيرة، التي لم تعد هي المحرك الأساس في الإنتاج الرأسمالي.

أعجب برودون الكثير من الباحثين ولكنهم اختلفوا من بعده في الوصول الى المجتمع الفوضوي، وذهب بعضهم الى تبرير العنف والعمل المباشر، وهو ما كان يتناقض مع أفكار برودون. يعد جوزيف برودون مؤسس الفوضوية ومعارضاً للدولة، وتدور أفكاره نحو أمكانية قيام مجتمع مثالي يتحدد فيه النظام والقوى، كان معتداً بنفسه كثيراً، فعندما تم إرساله الى باريس عام ١٨٣٨ لكي يدرس على يدي أشهر أساتذة الاقتصاد أشار الى أنه (لم يجد من بين الاقتصاديين من يفهم الاقتصاد)<sup>(١)</sup>، لهذا كان يرى أن كتابه الذي سيصدر عام ١٨٤٠ يعد حدثاً مهماً.

كان غرير الإنتاج فكرياً فقد نشر العديد من المؤلفات، التي أراد من خلالها إعادة النظر في أساسيات الفكر الاجتماعي لعصره، لقد إستند في تكوينه الفكري على الفكر الهيحلي مستلهماً (جدل هيحل) مطبقاً هذا الجدل على أصل الفكرة والمجتمع، وهو ما دفع الكثير الى معارضته ونقده.

ناهض برودون بقوة الدولة والكنيسة، أي السلطتين السياسية والدينية، بل ذهب الى ابعاد من ذلك عندما عد العدو الأول للحق هو الدين، وهاجم جميع الاتهامات الفكرية في زمنه.

تعرف على ماركس عام ١٨٤١ وارتبطا بصداقة حميمة في بداياتها في فرنسا، إلا أن أطروحات برودون في ألمانيا، كان يرى فيها ماركس، تزييفاً لوعي الطبقة العاملة، وترتب على صدور كتابه فلسفة الفقر ( The Philosophy of

Poverty) عام ١٨٤٦\*، إيداناً بفتح المعركة الفكرية بين ماركس وبردون، فقد رد ماركس عليه بكتابه المعروف فقر الفلسفة (The Poverty of Philosophy)<sup>(١١)</sup>.

اتسمت أفكاره بالتناقض الشديد، فقد كان يورد فكرة في مكان ويعارضها في مكان آخر، مما جعل الصعوبة تكتف التوفيق بينها من قبل ماصريه، لذلك كانت أفكاره تتوزع ما بين ليبرالية وأخرى اشتراكية، ولهذا تعد في محملها فوضوية.

## ٢- المنهج الفكري

يبدأ برودون منهج تفكيره من أن المقولة الاقتصادية تتضمن جانبين: سيء وجيد، مما يجعل تعايش التناقض قائم في كل مقولة اقتصادية، لذلك يرى أن كل شيء اقتصادي يحمل في ثناياه على فكرة فابية، وأخرى متناقضة، مما يعني أن هناك إمكانية للتأليف بينهما، هذا كان واضحاً في الإطار العام لفكره عندما جمع ما بين النظام والفوضى.

فكرة التناقض (الحدلية) استوحاها برودون من (هيجل)، إذ تمر أية فكرة بثلاث مراحل أساسية مؤداها الآتي:



لقد طبق هذه الفكرة على الاقتصاد، وعد الفكر الليبرالي ليس مرفوضاً بجممله، بل أن ما هو مطلوب نزع الأفكار السيئة منه، وتعير القوى المحركة له بغية تغيير النظام الاجتماعي، وعلى وفق ذلك فهو يطبق دياكتيكه على النظام الرأسمالي وعلى النحو الآتي:

يطلق من الملكية التي هي أساس الحرية والعدالة، لكنها انحرفت عن وظيفتها الاجتماعية وعدت (وسيلة للسرقة)، فيما عد المنافسة مشحعة للإنتاج ولكنها تسحق الضعيف، في حين يساعد الاحتكار على أحداث التراكم، مما يؤدي إلى إثراء مالكي رأسمال، وأن تقسيم العمل يساعد على زيادة الإنتاج والثروة، ولكنه يجعل العمل مملاً، وهكذا يحاول برودون إثبات أن كل مقولة اقتصادية تحمل في جنباتها نقائضها.

### ٣- الملكية الخاصة

حظيت ظاهرة الملكية باهتمام بالغ لدى برودون، إذ تعرض بالنقد اللاذع للملكية، فوجودها وروالها يرتبط أشد الارتباط بوجود وروال الحكومة، مرتكراً على أن الحكومة وحدت لحماية الملكية.

وأن الملكية في حقيقتها سرقة، يحصل من خلالها مالكي الأرض ورأس المال على موارد مالية ليست لهم ولم يبذلوا جهداً في سبيل الحصول عليها، ويصل إلى استنتاجه من أن الملكية تقود وتساعد على سرقة المالكين على سرقة الآخرين<sup>(١١)</sup>.

بيد أن الغريب في الأمر هو عدم إلغاء الملكية في البرنامج الاجتماعي لبرودون، بل عدها ضرورية للأفراد لإثبات ذاتهم وتدعيم مبدأ العدالة، وخلاف لما ينظر إليه يعد خطأ، هذه المواقف المتناقضة تعد سمة تتجسد في مواقع كثيرة في أفكاره.

وللتخلص من هذه التناقضات يدور حول فكرته، ليقول أن نزع الملكية الفردية من أصحابها، لا يستند على مبررات حقيقية ومقبولة، وبدلاً من هذا، يمكن تحرير الملكية من مسؤوليتها، على قاعدة قلب حق الملكية أو تحويلها إلى حق آخر هو حق الحيازة، هذا استنتاجه وفق الملكية الزراعية، ودعا إلى تعميمه على الصناعة والتجارة.

ويقترح لتخليص الملكية من مسؤوليتها التحول إلى نظام (الحيازة) باعتماد طريقتين<sup>(١٢)</sup>:

الأولى: ويتم عن طريق عد الأقساط التي تدفع إلى مالك الأرض سنوياً نظير استخدامها، جزءاً من قيمة الأرض، وعند استكمال ثمن الأرض تؤول إلى المجتمع.

الثانية: إنشاء مصرف التبادل لتعميم طريقة تحويل الملكية المطلقة إلى حيازة.

بهذا يفصح برودون عن رؤيته الحقيقية للملكية، فهو لا يعارض الملكية لذاتها، بل الملكية الرأسمالية التي يرى فيها مصدراً للاستغلال.

#### ٤- العدالة

رفض برودون الأساس الفلسفي للكلاسيك القائم على المصلحة الفردية التي تقود الفرد دائماً الى البحث عن مصالحه وتحكم سلوكه وتصرفاته، وتعد محور الانسجام في المجتمع. ويرى أن العدالة هي القاعدة التي يتم الارتكاز عليها لضمان احترام كرامة الإنسان، وكلما اقتربنا من العدالة إقتربنا من الأحذ بمعيار التقدم الاجتماعي، فيما تعجل الثورة بتسريع الحركة باتجاه التقرب من العدالة.

وعلى وقع تأثيره بالمهيج المثالي لهيكل، يؤكد على أن من مخرجات العدالة هو تحقيق شيء من المساواة، وهذا ما يجعل الناس يندفعون بعواطف حياشة باتجاهها، حتى أصبحت المساواة شعاراً لثورة برودون (المساواة أو الموت)<sup>(١٣)</sup>.

فالأفراد بحسب برودون متساوون حتى في قدراتهم، وليس هناك قيمة لكفاءة أو عبقرية ما، وعليه فلا يوجد أي امتياز أو تفضيل في المجتمع لأي فرد مقارنة بأفراد آخرين، وإن وجدت هذه فهي نتاج المجتمع الذي يعيش فيه الفرد ويفضله.

فحسب آرائه الأفراد هم متساوون في الأصل، العقل والفكر عندهم واحد، والفرق يتأتى من احدهم حصول احدهم على تعليم أكثر من الآخر، وبناءً على ذلك لابد من تثقيف المجتمع من احدهم إزالة الفوارق بين الأفراد.

ومن أجل ضمان تحقق العدالة فإن برودون يستدعي الحرية لتحقيق المساواة، وأن السلطات تعدّها خطراً عليها، لذلك فإن السلطة تشوه العدالة، وعلى المجتمع التخلص من الحكومة وسلطاتها من خلال، على أساس تنظيم روابط وعقود حرة فيما بينهم للتعاون في الإنتاج لإشبع الحاجات لسكان، وعبدئاً لا تعد ضرورة لوجود سلطة لأنها تقضي وتنتقص من حرية الفرد والمجتمع.

## المبحث الثاني الفكر الاشتراكي الماركسي

إنه لأمر طيب أن الرأسماليين لم يختطفوا ماركس كما اختطف الغجر آدم سمث، فماركس لم يكن ليصبح رأسمالياً حيداً، كما أنه لم يكن طوال حياته استهلاكياً طيباً، لأنه كان دائماً يعي من الديون.

والواقع أنه من الصعب تحديد مكانة ماركس في تاريخ الفكر الاقتصادي، ويقصر الاقتصاديون الذين يعبرون عن الفكر السائد الآن، الحديث عن ماركس في المناسبات، وعلى الرغم من ذلك، فإن أملايين من البشر قد آمنوا وواصلوا للقاء على قيد الحياة في ظل نظم ادعت أنها ماركسية.

ومثلما كان فرويد وداروين فإن ماركس كان له تأثير هائل على العقل الإنساني في القرن العشرين، غير أن ماركس لم يحظ في حياته سوى بقليل من الشهرة وقليل من الأتباع، وليس أدل على ذلك من أن جون ستيوارت ميل كان أكثر الرجال علماً في عصر ماركس، لم يسمع به قط.

لا يمكن الحديث عن الفكر الاشتراكي الماركسي، من دون تناول دور فريدريك إنجلز بجانب كارل ماركس، إذ كانا رافدين لتبلور هذا الفكر، وكان التقاؤهما إيذاناً بدء الرحلة المنتظمة لستراكم الفكري للاشتراكية العلمية.

يقول إنجلز (إذا كان دارون قد اكتشف قانون تطور العالم العضوي، فإن ماركس اكتشف قانون التطور البشري)<sup>(١٤)</sup>.

إن مآثرة ماركس وإنجلز تقوم بالأساس، في أنهما وحدهما اهتمامهما قبل كل شيء إلى القوانين الاقتصادية للحياة الاجتماعية، إلى الشروط الموضوعية للإنتاج التي تعد الأساس لنشاط الإنسان التاريخي كله، وبهذا الأسلوب وحده ماركس- إنجلز صرّبة شديدة إلى النظريات المثالية السائدة آنذاك.

وبعد ماركس- انحلز ماديتهما الديالكتيكية ثمرة لتطور العلم والفلسفة، فمن ديالكتيك هيجل أخذ ماركس- انحلز نواته العقلية، ومن فيورباخ أخذاً جوهرها الأساس، ونبدأ ما علق بهما من قشور مثالية.

كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣

في أيلول عام ١٨٣٥، كتب طالب الثانوية والفتى اليهودي الصغير في ثانوية فريدريك فيلهلم، موضوعاً للإشياء عنوانه (تأملات شاب صغير)، الذي كان يشع بالمثل العليا والذي لفتت الأنظار اليه، جوهره هو أن الإنسان حينما يختار مهنته عليه أن يتأكد أولاً، أنه لن يكون أداة دليلة للآخرين. كارل ماركس مؤسس مذهب الاشتراكية الحديثة، مزج بين أفكار الكثيرين ممن تقدموه وبين أفكاره الشخصية، ليخرج من ذلك فلسفة جديدة طموحة أصبحت أساساً لحركة قوية بمرور الزمن، على الرغم من نقائصها وما أثبتته التاريخ من أخطاء في تنبؤاته كان ماركس في وقت واحد فيلسوفاً ومؤرخاً وعالمًا اجتماعياً واقتصادياً ومجادلاً قوياً في المازعات التي تحللت حياته وميرتها. لقد أنفق ماركس حراً كبيراً من حياته في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي الكتابة وكانت قاعة المطالعة في المتحف البريطاني ملاذه ومكان عمله على امتداد سنوات طويلة، وكسب جره من ررقه من كتاباته في جريدة (ذي نيويورك تريبيون)، وهو الأب الشرعي لجريدة نيويورك هيرالد تريبيون.

وفي سبيل القيام بمهمته استخدم ماركس العلم الاجتماعي عتاداً، يتكون أصلاً من تمكين واسع المدى من حقائق التاريخ وعصره، وبعد (التفسير الاقتصادي للتاريخ)، الذي جاء به من أعظم الانجازات الفردية التي حققها علم الاجتماع<sup>(١٥)</sup>.

بيد أن التفسير الاقتصادي للتاريخ لا يعني أن الناس، عن وعي أو بدونه تحركهم الدوافع الاقتصادية، إذ على النقيض من هذا فإن تفسير دور الدوافع غير الاقتصادية وأسباب عملها، وتحليل الطريقة التي ينعكس بها الواقع الاجتماعي على مرآة النفس الفردية، يعد عنصراً جوهرياً من عناصر النظرية.

عاش ماركس معظم حياته فقيراً، مع زوجة قبلت التغلّي عن وضعها الارستقراطي، كان سنده المادي دائماً هو أنحله، حتى عندما توفت إحدى بناته لم يستطع دفع مستحقّات دفنها

#### أولاً: النظام الفكري الماركسي

يعد الباحثون والمفكرون أن البناء الفكري للماركسية كلاً واحداً، أي أنها منظومة فكرية تتكامل من خلال مرتكزاتها الأساسية وهي مراوحة المادية والمثالية، عبر قراءة توظيفية جديدة، أريد منها تعبّر انحله من أن ماركس أعاد الفلسفة الهيكلية لتقف على أرجحها، ونزع عن المادية قشورها، لهذا فأن هاتين القاعدتين هما المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

فقد وظف ماركس الفلسفة الديالكتيكية التي تمتد جذورها الى فيلسوف اليونان هرقليدس الذي عاش في القرن السادس (ق.م)، وديالكتيك تعني في اللغة الإغريقية (فن الماطرة أو فن الوصول) الى الحقيقية في النقش، عن طريق كشف التناقضات في أقوال الخصم ودحضها، هذه الفلسفة تقوم في مبادئ العامة على التناقض والتطور.

هذه الفلسفة استطاع هيجل صوغها برؤية جديدة ويسبغ عليها منهجاً ديالكتيكياً عاماً، مستوحياً من هرقليدس (إن العالم يتألف من متصادات تتصارع فيما بينها وعراً التطور لهذا الصراع)<sup>١٦</sup>.

إذ جاء هيجل بنظريته عن التطور الديالكتيكي التي تصور العالم في حالة من الحركة المستمرة وفي حالة من التعبير والتطور والتحول مصدرها التناقضات الداخلية.

فقد أقام ماركس انحله ديالكتيكهما على أساس الاكتشافات العلمية الثلاثة الكبرى في القرن التاسع عشر، وهي اكتشاف الخلية الحية وقانون حفظ وتحول الطاقة ونظرية دارون عن شوء وارتقاء الأنواع، وبهذا أعطى للتحليل المادي أفقه الممتوح، شأنه شأن التحليل المثالي، وكلاهما شكلاً منظومة الفكر الماركسي. وعلى



الصد من هيجل لم يتخذ ماركس واحلز الفكرة المطلقة، التي يراها هيجل هي صانعة المادة، وعليه فإن الوعي هو الذي يحب أن يوافق الواقع الموضوعي، بل على الواقع أن يخضع الى التراكيب الذهنية التي تستخلصها فلسفة هيجل عن طريق التأمل.

وللديالكتيك قوانين ثلاثة رئيسة هي<sup>(١٧)</sup>:

١- قانون وحدة الأضداد وصراع الأضداد.

٢- قانون الانتقال من التغيرات الكمية الى التحولات الكيفية.

٣- قانون نقض النقيض.

والمادية التاريخية هي علم القوانين العامة لتطور المجتمع أو هي تعميم موضوعات المادية الديالكتيكية على دراسة الحياة الاجتماعية، وجوهر المادية التاريخية كما ورد في مؤلف ماركس (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي)<sup>(١٨)</sup>: يدخل الناس فيما بينهم أثناء الإنتاج الاجتماعي لمعيشتهم في علاقات معينة ضرورية مستقلة عن أرائهم، وتوافق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية، وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة في تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموحودة، لتصبح قيوداً على تطور القوى المنتجة عندئذ يحصل عصر الثورات الاجتماعية.

ويمكن القول أن هيجل وضع ماركس في تعارض مع الافتراض الحوهرى للاقتصاد الكلاسيكي، عندما جعله يقل فكرة التغيير، بما في ذلك التغيير الثوري، وقد سادت حرة ماركس العملية على جعله أكثر ثورية<sup>(١٩)</sup>.

إما المادية الديالكتيكية<sup>(٢٠)</sup> فهي نظرية مادية، لأن نظرتها الفلسفية الى الكون مادية، إذ أن العالم بطبيعته مادي، المادة أصل والوعي ناشئ عنها، وديالكتيكية في علاقاتها وتفاعلها والمطر إليها في تطورها وتعيرها.

إذ أن التطور لا يتم على أساس كمي بسيط، بل على أساس أنه عملية تؤدي فيها التغيرات الكمية التدريجية الطميفة في مرحلة معينة، الى تغيرات كيفية حتمية.

كما أن الديالكتيك الماركسي يؤكد على أن صراع الأضداد يشكل المحتوى الداخلي لعملية التطور، هذا التطور يجري بخط حلزوني وتصاعدي، على أساس نقض النقيض، ومن ثم حفز الفكرة الجديدة، لتأخذ مساحتها الممكنة في محيط الفكر، ولتلقى بظلالها على وعي المجتمع وطبقته الفاعلة الثورية.

#### ثانياً: الأفكار الاقتصادية

إنكب ماركس وأنجلز بعدما أصدر البيان الشيوعي عام ١٨٤٨، واعتماد منهج مطلق تاريخي في تحليل الطواهر الاقتصادية، من خلال تحليل أسلوب الإنتاج الرأسمالي وطبيعته وقوانينه الحكمة، بدأ من تحليل ما يسميه ماركس (وثنية السلعة)<sup>(١١)</sup>، وانتهاء بتحليل علاقات الإنتاج الرأسمالي التي تشكل مرحلة عليا في تطور العلاقات السلعية.

هذا أرم ماركس- أنجلز بدراسة البناء الفكري وقوانين الإنتاج الرأسمالي، وكامل منظومة التفكير الرأسمالية، مبتدأً بنظرية القيمة، التي تعد حجر الزاوية للكشف عن القوانين الداخلية، وهو ما افرد له ماركس جهداً ومساحة رمزية واسعة، لذلك انبرى الى تشريح منظومة القوانين الرأسمالية.

#### ١- نظرية القيمة

إنطلق ماركس في تحليله لموضوع القيمة<sup>(١٢)</sup> (في ضوء عدم إستقرارها عند آدم سميث وريكاردو)، وإستفاد من أطروحات ريكاردو للقيمة المرتكزة على تحديد قيمة أية سعة استناداً على عدد ساعات العمل التي بذلت في إنتاجها، وهو ما وفر دعماً لنظريته التي تقرر بشكل محدد أن العمل هو المصدر والأساس في خلق القيمة وبالتالي الثروة، إذ يرى ماركس الى أنه (لا تتولد ذرة واحدة) من القيمة عن أصحاب رؤوس الأموال<sup>(١٣)</sup>.

لقد حاول ماركس أن يربط جزءاً من انتقاداته للرأسمالية باشتقاق (فائض القيمة)، لذلك حاول الانسياق وراء المفهم الرأسمالي في التركيز على الإنتاج،

مستعلاً أن القيمة وفائض القيمة لا يمكن الوصول إلى اشتقاق منطقي وعلمي لهما إلا من خلال الإنتاج.

يرى ماركس أن السلع (الأشياء) منتج اجتماعي وتعتبر تلقائياً عن نمط العلاقات الاجتماعية القائمة، هذه ليست لها قيمة إلا لأن العمل الإنساني متجسد فيها، من هذا المهم اشتق ماركس وثبة السلعة التي تظهر عندما تظهر فيها المنتجات كسلع، هذه الوثبة لا تنفصل أبداً عن أسلوب الإنتاج الرأسمالي.

السلعة بحسب ماركس تلعب دور (الخلية الأساسية) والعنصر الضروري للنظام الرأسمالي، ومن دونها لا يمكن أن تظهر الرأسمالية بل وتبدو مستحيلة الوجود، والمشارك ما بين جميع السلع ذات القيمة، هو وجود عنصر العمل فيها جميعاً، وهو جهد أنساني إتحاد صورة ظاهرة (عمل حي) أو صورة عمل مختزن أو متراكم (عمل ميت).

عنه فإن السلعة المحتوية على عمل هي الوحيدة التي لها قيمة، وهذه هي التي لها قيمة تبادلية، وأن أقيامها تتحدد وتقاس بمقدار العمل الذي تحتويه. وما يقوم به الذهب من دور هام في العلاقات الاجتماعية، وليس للذهب في الحقيقة قيمة، إلا لأن استحلاصه يقتضي كمية معينة من العمل الإنساني، وقيمه تعتمد على كمية العمل اللازم اجتماعياً لإنتاجه<sup>(١٦)</sup>.

## ٢- نظرية فائض القيمة

تعود جذور ما اصطلح عليه (فائض القيمة - Surplus Value) إلى الاشتراكيين، من مثل سيسموندي وبردون وغيرهم، إلا أن ماركس استطاع عبر جهد فكري وعملي من اشتقاق فائض القيمة من الإنتاج، وعد قانون فائض القيمة من القوانين الأساسية لنمط الإنتاج الرأسمالي.

فالإنتاج الرأسمالي ليس مجرد إنتاج للبضاعة (السلعة)، بل هو من حيث الجوهر إنتاج للقيمة الزائدة، إن العامل لا ينتج لنفسه بل لأجل الرأسمال، ولا يعد العمل منتجاً غير ذاك الذي ينتج للرأسمالي قيمة زائدة، أو الذي يخدم ازدياد

الرأسمال بصورة دائية<sup>٣٥</sup>. وانتدأ ماركس تفسيره لطاهرة فائض القيمة من الإنتاج، وتحديداً من العمل، وهذا يعده ماركس مثله مثل أية سلعة، وهو يميز بين نوعين منه هما: القدرة على العمل: عدد ساعات العمل المباعة من قبل العامل والمدفوع ما يقابلها من ثمن بحسب تقدير صاحب العمل.

قوة العمل: هو ما ينتجه عن العمل أو ما يحققه العامل من عمله، والذي يبيعه المنتج بمعرفته. فالرأسمالي عندما يستخدم عدداً من العمال فإنه في الواقع يقوم بشراء قوة العمل من العامل، والتي لها قيمة كما لباقي السلع، وتحدد هذه القيمة بعدد ساعات العمل اللازمة لإنتاجها، وماركس يؤكد أن الرأسمالي يعمل دائماً على استخدام قوة العمل، التي يشتريها بقدر أكبر مما يلزم للإبقاء عليها.

يبين ماركس<sup>٣٦</sup> أن فائض القيمة هو الفرق بين كلمة قوة العمل وقيمة المنتج، هذا الفائض يأخذ شكلين هما الفائض المطلق والذي يتولد مباشرة عن زيادة وقت العمل الذي يشتغل فيه العامل لحسابه، إما الفائض النسبي فيتولد عن تحفيض وقت العمل الضروري، أي الوقت اللازم لإنتاج السلع والخدمات الضرورية لحفظ حياة العامل مع بقاء الوقت الكلي الذي يعمل فيه ثانياً. ويتوقف حجم الفائض ونموه على معدل سرعة دوران رأس المال، الذي من خلاله يتمكن الرأسمالي من استخدام عدد مضاعف من العمال، مما يؤدي إلى مضاعفة فائض القيمة.

إن فائض القيمة عموماً يرجع إلى خصوصية التي ينفرد بها عصر العمل، والذي يتمثل في إمكانية أن ينتج ما هو أكثر من قيمة ما يحتاجه لإغراض الاستهلاك الضروري، وهو ما يمثل اغتصاب الرأسمالي لحزء من جهد العامل غير مدفوع الثمن، وهو استغلال اقتصادي لا يوجد له مسوغ مقبول، إلا أنه اضطرار اقتصادي يفرضه نمط الإنتاج الرأسمالي تعسفاً. من ذلك يتوصل ماركس

الى أن فائض القيمة يتم انتزاعه من خلال رأس المال المتغير، إلا وهو عنصر العمل بشكل رئيس. بشكل عام ولإغراض التبسيط في فهم اشتقاق فائض القيمة، يمكن بيانه من ظروف الإنتاج الرأسمالي في القرن التاسع عشر ولحد الآن، فإذا كانت عدد ساعات العمل المحددة للعمل هي (١٦) ساعة لرجال و(١٤) ساعة للنساء والأطفال، كما هو معتاد آنذاك، وهي تساوي قيمة الحفاظ على استمرارية العامل في بيع قوة عمله للرأسمالي، بما يساوي (٦) ساعات عمل تعد مدفوعة الأجر، بينما تظهر (١٠) ساعات من العمل غير مدفوعة، يتم من خلالها انتزاع فائض القيمة، بعد أن يجري دفع جزء منها لعناصر الإنتاج الأخرى.

على وفق فهم ماركس لفائض القيمة، يشير الى أنه بدون اخذ فائض القيمة بنظر الاعتبار، لا يمكن فهم أي شيء في المجتمع الرأسمالي، ولا يمكن فهم العلاقات الطبقيّة في ظل الرأسمالية، لهذا يشدد على (أن صنع فائض القيمة هو القانون المطلق لهذا النمط الإنتاجي)<sup>(٣٧)</sup>.

### ٣- نظرية التركيب العضوي لرأس المال

من الطبيعي أن حصة من السلع المباعة في الأسواق يمثل فائض قيمة، فإذا تصرف الرأسمالي في كل هذا الفائض لاستعماله الشخصي، لن يتبقى له لمواصلة الإنتاج إلا قدر من رأس المال الذي من المؤكد لا يساوي القدر الذي كان في متناول يده عند البداية.

ويسمى الإنتاج المعاد في هذه الحالة بإعادة الإنتاج البسيط، في حين أن الإنتاج الموسع يعني تخصيص قدر من فائض القيمة المتحقق لزيادة الإنتاج، وفي هذه الحالة فقط نستطيع القول أن تراكمًا قد حصل<sup>(٣٨)</sup>.

في رأس المال (الجزء الثالث) الذي تولى انجلز نشره بعدما توفي ماركس عام ١٨٨٣، ركز على رأس المال وبخاصة التركيب العضوي له، وما حفز ماركس على الاهتمام بالتغيرات الحاصلة في طبيعة التركيب العضوي لرأس المال

(Organic Composition Of Capital)، هو سرعة التقدم التكنولوجي والفني وعملية الإحلال المستمر بين رأس المال والعمل، والتي يحريها المنتج الرأسمالي، والمتأدية كنتيجة طبيعية لمنتحت الثورة الصناعية الصاعدة، وما يترتب على هذا من رفع للقيمة والإرباح.

وبعد تقسيم رأس المال الى ثابت ومتغير أساس الفهم الماركسي للتركيب العضوي لرأس المال، إذ أن رأس المال الثابت يتحسد في وسائل الإنتاج (الآلات والمباني.. الخ)، بينما يتحسد رأس المال المتغير في قيمة قوة العمل والأحور (التكاليف المتغيرة)، وتتلور صيغة التركيب العضوي لرأس المال من خلال نسبة قيمة رأس المال الثابت الى نسبة قيمة رأس المال المتغير بالآتي:

التركيب العضوي لرأس المال =  $V/C$

$C$  = رأس المال الثابت

$V$  = رأس المال المتغير

ورأس المال الثابت يزيد من إنتاجية العمل، وبالتالي يزيد من فائض القيمة، وهو ما يسعى الرأسمالي للاستمرار فيه سعياً وراء تعظيم أرباحه من خلال رفع قيمة السلعة المبيعة، ويترتب على وفق هذا اشتقاق معدل الاستغلال، الذي يتعرض له العامل في ظل الإنتاج الرأسمالي من خلال الآتي<sup>٣٩</sup>.

معدل الاستغلال = وهو نسبة فائض القيمة الى رأس المال المتغير

$$V / M =$$

$M$  = فائض القيمة

$V$  = رأس المال المتغير

أما معدل الإرباح فيتم استخراجها من قسمة:

معدل الأرباح = نسبة فائض القيمة الى الرأسمال الكلي أي:  $C + V / M$

يبد أن التكوين العضوي لرأس المال ذو تكوين مزدوج فهو من ناحية ذو وجه قيمي (قيمة وسائل الإنتاج وقيمة العمل)، ووجه تركيبى (كتلة وسائل الإنتاج المستخدمة وبين كمية العمر الصوري لتشغيل هذه الوسائل)، ولكن عندما نتحدث عن تركيب رأس المال بشكل عام فالمقصود هو التركيب العضوي.

وما يستوجب القول أن ماركس قد أشار مبكراً الى تأثير تغيير التركيب العضوي على طبيعة محط الإنتاج الرأسمالي، من حيث التشغيل واستخلاص فائض القيمة، وما يترتب عليه من زيادة إفقر (أملق) الطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية، وهو ما دفعه الى التنبؤ بالثورات الاجتماعية للعمال.

هذا أغناه أنجلز<sup>(٣٢)</sup> عندما أشار الى مستقبل الإنتاج الرأسمالي سيكون لصالح ذوي الياقات البيضاء أي (العامل المهندس)، بينما سيذوى أصحاب الياقات الرقاء نتيجة لتغير التركيب العضوي لرأس المال وارتفاع المستوى التكنولوجي.

لهذا فإن القانون الذي يتبعه نمو التراكم والتغير في رأس المال، سيؤدي الى خلق علاقة متبادلة حتمية بين تراكم رأس المال وتراكم الشقاء، بحيث تتراكم الثروات في جانب (الرأسماليين) ويحدث تراكم بنفس الدرجة للفقر والشقاء والجهل والتلبد والاحتطاط والاستعباد، في الجانب الآخر (الطبقة العاملة) التي تنتج رأس المال<sup>(٣٣)</sup>.

#### ٤- نظرية اتجاه الربح نحو الانخفاض وحدوث الأزمات

استطاع النظام الرأسمالي توظيف إمكانات التقدم التكنولوجي، لإعادة تركيب رأس المال، بحيث يزيد رأس المال الثابت باستمرار على حساب رأس المال المتغير، من أجل زيادة الإنتاج وإنتاجية العامل، وفي هذا يسعى المنتج الرأسمالي الى تحقيق غرضين أساسيين في الوقت ذاته وهما: الأول- من زيادة الإنتاج باستطيع المنتج تخفيض تكاليف الإنتاج لأن العلاقة بينهما عكسية، وهذا يؤدي الى زيادة الإرباح.

الثاني- من زيادة الإنتاجية للعامل يجري زيادة فائض القيمة.

إلا أن هذا تجانبه كوابح عديدة، منها أن العلاقة بين زيادة الإنتاج وانخفاض التكاليف، لا يجري الى مالا بهاية، بل هناك حدود تعود بعدها التكاليف للارتفاع مرة أخرى، كما أن الارتفاع المستمر لرأس المال الثابت باستمرار سيكون على حساب رأس المال المتغير، الذي يشكل المصدر الأساس لارتفاع فائض القيمة، مما يؤدي الى حصول انخفاض في معدل الأرباح مع كل تعبير حاصر في التركيب العضوي لرأس المال، ومن الممكن الاستدلال على هذا من البيانات الافتراضية الآتية:

لو افترضنا أن رأس المال المتغير (V) = ٤٠ مليون دينار

وأن رأس المال الثابت (C) = ١٦٠ مليون دينار

ندئذ يكون معدل الأرباح  $V + C / V = 40 / 160 + 40 = 22\%$

وفي حالة ارتفاع رأس المال المتغير الى = ٥٠ مليون دينار ورأس المال الثابت الى = ٣٠٠ مليون

دينار فإن معدل الأرباح سيكون:  $300 / 50 + 50 = 16\%$

عليه نلاحظ من الأرقام السابقة أن ارتفاع رأس المال الثابت من شأنه أن يخفض معدل الأرباح من ٢٢% - ١٦%، وهذا ما يدفع أرباب العمل الى تعويض هذا الانخفاض عن طريق الضغط باتجاهين:

الأول: الإمعان في استغلال العمال من أجل رفع معدل فائض القيمة، من خلال زيادة الإنتاجية ورفع شدة العمل.

الثاني: زيادة الإنتاج بشكل إجمالي مما يخلق فيضاً كبيراً، لن يكون بمقدور الطلب من إمتصاصه، كون الأحمال للعمال تميل الى الانخفاض باستمرار، وهذا يقود الى حدوث الأزمة التي يراها ماركس مطهراً لنقص الاستهلاك لدى الطبقة العاملة، لأن العمال لا يستطيعوا شراء إنتاجهم، فقيمة الإنتاج لا تساوي قيمة الأجور.



لذلك تظهر فجوة سببها قصور الاستهلاك (Under Consumption)، والتي يراها ماركس ليس نتاج التناقض بين الإنتاج والاستهلاك، بل في طبيعة التناقض الأساس الذي يطبع الحياة الاقتصادية الرأسمالية، وهو (التدقق بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والطابع الفردي لملكية وسائل الإنتاج)، لهذا أصبحت هذه النظرية واحدة من أهم النظريات المفسرة للدورة التجارية cycle prissiness<sup>(٣٣)</sup>.

### ثالثاً: تقويم الماركسية

الفكر الماركسي شأنه شأن جميع الأفكار التي انسابت على مر التاريخ تخضع للتقويم، وهي في كل الأحوال ست ظروفها وأوضاعها، لأن الفكر هو إبعكاس للواقع، ولكن هذا لا يمنع من عرض الانتقادات التي وجهت إلى هذا الفكر وهي على سبيل الإبانة:

١- جاء تأكيد ماركس- انحلز على العامل الاقتصادي، كعامل محوري في أحداث التغييرات في محتلف المراحل التاريخية، ليفهم على أن العوامل المادية هي الحاكمة لمجرى التحول من تشكيلة اقتصادية - اجتماعية، وهو وأن كان مؤثراً إلا أن هناك عوامل روحية ودينية قد أدت إلى تعيرات نوعية كبيرة في مجرى تطور مجتمعات عديدة.

٢- إن تبني ماركس لأطروحات ريكاردو فيما يخص الأجور عند مستوى حد الكفاف، تعد أطروحة غير واقعية في المجتمعات المعاصرة.

٣- لم تعد المجتمعات كما تصور ماركس منقسمة إلى طبقتين الرأسمالية والطبقة العاملة، بل دخلت إلى التركيب الطبقي طبقة ثالثة هي الطبقة المتوسطة (طبقة التكووقراط وهي طبقة حاملة للتطور).

٤- لم يكن ماركس موقفاً في تفسير قانون القيمة، إذ لم يعد الآن مقبولاً، إن العمل هو الحائق الوحيد للقيمة، بل أدخلت المدرسة الحديثة عناصر الإنتاج الأخرى في ذلك، كما أن التكنولوجيا والمكون العلمي قد أضحت متغيراً في خلق القيم.

٥- على الرغم من صحة الفكرة الماركسية حول الميل المستمر للإرباح نحو الانخفاض، إلا أن ربط مركز بين تطور الرأس مالية وتصاعد الارتفاع في التركيب العضوي لرأس المال مفترضاً معدلاً ثابتاً للاستغلال، ينتابه انتقاد بحسب وجهة نظر جوان روبنسون، مفاده أن معدل الاستغلال لا يمكن أن يظل ثابتاً، إلا في ظل ثبات الأجور الحقيقية، وهذا لن يكون متاحاً مما يعرض أصل الفكرة إلى المراجعة.

## هوامش ومصادر الفصل العاشر

- \* - وردت في: فريدريك أنجلز، العنف في التاريخ، المكتبة الاشتراكية، دمشق ١٩٧٣، ص ٦.
- ١- جورج سول، المذاهب الاقتصادية الكبرى، ص ٨٣.
- ٢- المصدر السابق نفسه، ص ٨٢.
- ٣- ادموند ولسون، تاريخ الفكر الاشتراكي، مصدر سابق، ص ٧٩.
- ٤- للمزيد ينظر: ج كول، تاريخ الفكر الاشتراكي (الماركسية والفوضوية)، مصدر سابق.
- ٥- المصدر نفسه، ص ١٨.
- ٦- فؤاد الدهمان، الوحي في الاقتصاد السياسي، ص ١٣٦.
- ٧- عبد الرزاق مسلم الماحد، مذهب ومفاهيم في الفلسفة والاحتماع، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٧٧، ص ٨١.
- ٨- المصدر السابق، ص ٨٢.
- ٩- فؤاد الدهمان، الوحي، مصدر سابق، ص ١٤٨.
- \*\* - هناك اختلاف فيما أوردته الترجمات المختلفة، ففي العنوان الفرنسي يرد عنوان الكتاب (فلسفة المؤسسة)، في حين ورد في الترجمة الانكليزية (فلسفة الفقر)، والصحيح هي الترجمة الانكليزية
- ١٠- فرانز مهنرغ، كارل ماركس: تاريخ حياته ونضاله، ترجمة خليل الهدي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٠٤.
- ١١- جورج سول، مصدر سابق، ص ٨٧.
- ١٢- إسماعيل سفر وعارف دليّة، مصدر سابق، ص ٣٤٩.
- ١٣- فؤاد الدهمان، مصدر سابق، ص ١٤٩.

- ١٤- فرانز مهنرغ، كارل ماركس، مصدر سابق، ص ٣٩٨.
- ١٥- حوزيف شومبيتر، عشرة اقتصاديين عظام، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٩.
- ١٦- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٧٥.
- ١٧- عبد الرزاق مسلم الماجد، مصدر سابق، ص ٥١.
- ١٨- ماركس - انجلز، المختارات، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٢.
- ١٩- جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ١٤٦.
- ٢٠- المصدر السابق نفسه، المكان نفسه.
- ٢١- كارل كورش، التصور المادي للنظرية الماركسية، ترجمة محمد كة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٣، الفصل السابع (وثنية السلعة)، ص ١١٢.
- ٢٢- استند في شرح وتوضيح نظرية القيمة، ماركس، رأس المال، المجلد الأول (الكتاب الأول- عملية إنتاج رأسمال)، الفصل الرابع عشر، ص ٢٠-٢٠٠.
- ٢٣- المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٦٢٧.
- ٢٤- جان باي، القوانين الأساسية للاقتصاد الرأسمالي، ترجمة شريف حناته وآخرون، دار النهضة-دار القلم، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٠.
- ٢٥- ماركس، رأس المال، مصدر سابق، ص ٦.
- ٢٦- المصدر السابق نفسه، ص ٧.
- ٢٧ - م.رورنتال، مشاكل الجدول في رأس المال لماركس، ترجمة إبراهيم كة، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩، ص ٤٤.
- ٢٨- جان باي، مصدر سابق، ص ١٣٢.
- ٢٩- ماركس، رأس المال، مصدر سابق، ص ٢٨.

٣٠- فريديك أنجلز، المختارات، ترجمة وصفي البني، مشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣، ص٢٦٤.

٣١- جان ناي، مصدر سابق، ص ١٤٢.

٣٢- اوسكار لانكة ومايكل كالييتسكي، الاقتصاد السياسي، ترجمة محمد سلمان حسن، ج١، دار الطبيعة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣١٤.

## **الفصل الحادي عشر**

### **المدرسة الحدية**

Marginality School



## الفصل الحادي عشر

### المدرسة الحدية

تمهيد

أوصلت الأفكار الكلاسيكية المبتوثة مذ آدم سمث والى جون ستيوارت ميل الى أشبه ما يكون طريق مسدودة لكثرة النقد الذي بدأ يهال عليها سواء من الاشتراكيين أم من الرأسماليين، فقد وظف ماركس وابلز ومن قبلهم الاشتراكيين على إحتلاف مشاربهم جل انتقاداتهم الى الرأسمالية، وما أدى إليه أسلوب أنتاحها من زيادة الشقاء والبؤس في أجمالي سكان مجتمعاتها، كما شاركت المدرسة التاريخية الألمانية بحركة النقد هذا.

فحنبت التطورات الفكرية الحادثة والتي يمكن من خلالها القول أن الفكر الكلاسيكي الرأسمالي قد وصل الى مرحلة الشيخوخة أو الانحطاط على حد تعبير شوميتز<sup>(١)</sup>، ويبدو أنه إستهلك مرحلته التاريخية، مما بدأ معه ممكناً أن ينزاح جانباً ويفسح المجال لظهور فكر جديد. إن أكثر مواطن الصعف في الفكر الرأسمالي الكلاسيكي هو موضوع القيمة وموقع العمر فيها، وما ترتب على هذا من اصطفاى طبقي حاد تندو علائم تأثيره في الحياة العامة ومستقر الرأسمالية واضحاً، فالواقع بدأ يلقي بظلاله كما هو الحال في حدة النقد الفكري.

لهذا حاءت الأفكار النيوكلاسيكية بشكلها الحدي تعبيراً عن مراجعة موضوعية لأوصاع الفكر والممارسة، فبدلاً من التركيز على الجانب الموضوعي للسلعة تركز المدرسة الحدية على الجنب الداتي، أي بدلاً من الاهتمام بالإنتاج كما هو الحال في التحليل الكلاسيكي والماركسي أصبح التحليل النيوكلاسيكي (الحدي) منصّباً على تحليل الطلب.



إي أن سحر الحديد كما يسميه جالبريث يظهر في الاهتمام بالاستهلاك وترك الإنتاج في الخلف، مما أضفى شيئاً حديداً هو الاهتمام بالذاتي على حساب الموضوعي، وهو ما يسر إضعاف الاهتمام بتحليل القيمة وفائض القيمة، إلا أن هذا لا يعي بأي حال من الأحوال أن المدرسة الحديدية هي من خارج منظومة الفكر الرأسمالي، بل يعدها البعض محاولة تطويرية وأكثر ليبرالية من الكلاسيكية.

## المبحث الأول

### أسس التحليل الحدي

يتسم التحليل الحدي بصورة خاصة بسمات خاصة أسبغت عليه مكانة مهمة في تاريخ الأفكار الاقتصادية، وعلى الرغم من الاهتمامات المختلفة لرواد ومفكري هذا التيار، إلا أنهم يشتركون في خطوته الرئيسية وهي:

أولاً: منهجية البحث

من المعروف أن آباء الفكر الكلاسيكي الأوائل عدا ريكاردو اعتمدوا المنهج الاستقرائي في التحليل، إلا أن مفكري الحدية نهجوا منهج ريكاردو في الاستنباط والتحريد، وابتعدوا عن الأحذ بالاستقراء وملاحظة الواقع ودراسة الوسط الاجتماعي، وكانوا يؤكدون على أن التحليل المنطقي وحده يكفي لاستخلاص مبادئ عامة لسلوك الفرد.

بدأ استكشاف التحليل الحدي، من قبل الفرنسي أوجستين كورنوبو (Augustine Cournot) مع الألمانيين ي ه فون ثونين (J.H.Von Thunen) وه.جوسين (H.H.Gossen) قبل ألفريد مارشال بأكثر من عقدين من الزمن، كما ساهم ويليام ستانلي جيفونز بالعديد من الأفكار الهامة، التي طورها فيما بعد ألفريد مارشال، الذي له الدور الرئيس في استكمال منظومة التحليل الحدي<sup>١</sup> استغل الحديون التحليل المحدد والمقترن بالحسابات وبتكميم السلوك الفردي، من أجل الانتعاد عن القضايا الاجتماعية ودفعه جانباً، في محاولة لعزل الاقتصاد عن محيطه السياسي والاجتماعي، بعدما كانت مقترنة به منذ وليم بتي ولحد الربع الأخير من القرن التاسع عشر. فأسلوب الحساب الحدي الذي استخدمه الحديون لأول مرة، أصبح جزءاً مركزياً في منهجية الاقتصاد، وقد استوحى الحديون ذلك من ريكاردو عندما حاول استخدامه لبيان الربح التفاضلي.

والحساب الحدي<sup>(٣)</sup> هو تطبيق مبادئ وأسس الرياضيات (التفاضل والتكامل) على الحدود العليا والدنيا للدوال الرياضية، المعتمدة على المطلق الاقتصادي، وهي سمة أظهرتها هذه المدرسة على خلاف أغلب المدارس التي سبقتها.

#### ثانياً: مذهب الحدية

مثلاً أراد آدم سميث وريكاردو ومالتس أن يكون كل واحد منهم اسحق نيوتن الاقتصاد، بواسطة اكتشاف قوانين الطبيعة، ومثلما وضعت الطبيعة الأرض تحت تأثير الجاذبية، فقد وضعت الطبيعة الحس البشري تحت حكم سيدين هما (الأم والمتعة)، فقد سعى جيرمي بنثام لأن يكون نيوتن الكون الأخلاقي، وعلى وفق ما سمي أنجيل بنثام Jeremy Bentham<sup>(٤)</sup>.

هذه الأطروحة مأخوذة في جزء منها من مذهب المتعة للفيلسوف اليوناني القديم (اريسطيوس - Aristippus)، وهي ما شكلت نقطة الارتكاز للتحليل الحدي، عندما أضاف إليها بنثام تحذيراً أخلاقياً، عندما دعا الأفراد إلى أن يحتاروا الدليل الذي من شأنه أن يريد المتعة الكلية إلى أقصى حد ممكن، وهي صيغة النفعية (سعادة أعظم لأكثر عدد)<sup>(٥)</sup>. لقد انتكر بنثام أسلوباً لتقدير كمية المتعة والأم، وأطلق عليه حساب التفاضل والتكامل للسعادة، هذا الحساب يستند على عوامل أربعة هي<sup>(٦)</sup>:

١- الشدة

٢- الأمد

٣- التيقن

٤- القرب الرماني والمكاني

ويعتمد بنثام أجراء مقارنة بين كل قيم المتعة مقابل كل قيم الأم، فإذا كان هذا لصالح المتعة، عندئذ يعطي اتجاهاً للفعل المتناغم مع اهتمامات الفرد. إن فكرة المنفعة التي شكلت محور النظرية الحدية اكتنفها بعدان في آن واحد: تقديمي

ورحعي<sup>(٧)</sup>، فمن ناحية أنها أحضعت قصة عناصر الإنتاج في عملية التوزيع لوحدة المبدأ في المعاملة وساوت بين عناصر الإنتاج وبدون تمييز، فكل عنصر يستحق من مردود ينسجم ومساهمته الحدية في عملية الإنتاج، وهنا تكمن الخطوة النقدية، إذ تم وفق هذا تحاور الحكم الكلاسيكي ببقاء الأحرار عند حد الكفاف (قانون الأحرار الحديدي). في حين تعد رجعية لأنها حولت العامل مدنياً من عنصر بشري إلى مسخ مادي، فالإنسان ممثلاً بأحوره أضحي سلعة يحري تقرير قيمتها عن طريق قوى السوق من عرض وطلب، أسوة ببقية السلع المادية.

### ثالثاً: المفهوم الذاتي للقيمة

طلت نظرية القيمة تمثل بدون أدنى شك العمود الفقري للنظرية الاقتصادية، وترفدنا مسيرة الفكر الاقتصادي بوصوح تام أن نظرية القيمة ذاتها، ظلت على اختلاف مراحل التطوير الرأسمالي، الصخرة التي تصدعت عليها رؤى المفكرين الكلاسيكيين والحديثين على حد سواء. والنظرية الكلاسيكية بسبب محدوديتها وعدم اكتمال نتائجها الذاتي المنعكس في عدم وصوح الوظيفة الشائبة لمفهوم القيمة، جرى التأكيد الكلاسيكي فقط على جانب التكاليف أو العرض، سعياً وراء الاهتمام بالتبادل فقط.

وقد عمق من هذه المحدودية، التناقض الذي أوقع الكلاسيك أنفسهم فيه، من خلال تصديهم لتوزيع حصص عناصر الإنتاج، حيث أحققوا في اعتماد معيار نظري محدد لأحكام تفسيرهم ولو أن مفكري المدرسة الكلاسيكية أعاروا اهتمامهم لحل (معضلة القيمة)، وأولوا الطب والتوزيع جهداً متوازياً مع اهتمامهم بالعرض والإنتاج، لتمكنوا عملياً من احتصار مسيرة العطاء الفكري لما يقارب مئة سنة.

إما النظرية الحدية فهي الأخرى ثبتت عدم اكتمالها حينما ذهبت إلى الطرف المعاكس بحثاً عن العوامل المقررة للقيمة، إذ أصرت هذه النظرية على أن المنفعة هي العنصر المقرر للقيمة وبالتالي الطلب.

مما أفقد عملية تقرير القيمة قاعدتها الموضوعية المتمثلة بتكاليف الإنتاج، فتصوروا أن اكتشافهم لمفهوم المنفعة الحدية قد أوصلهم إلى الحقيقة الكبرى في علم الاقتصاد.

فالذاتية التي انغمست فيها المدرسة الحدية تعد الفكرة المركزية، والمركزة على المنفعة الحدية (Marginal Utility) أي منفعة الوحدة الإضافية الأخيرة، والتي تحتل الأهمية في تقرير سلوك الفرد منتجاً أم مستهلكاً، من دون الاهتمام بالمنفعة الكلية (Total Utility).

هذا يعبر عنه جون كينيث غالبريث (ليس ما يعطي القيمة هو الإشباع الكلي المستمد من حيرة واستعمال أحد المنتجات، بل هو الإشباع (المنفعة) التي تحققه الإضافة الأخيرة التي يحصل عليها الفرد من ذلك الاستهلاك، والتي تكون الرغبة فيها عند أدنى مستوى)<sup>(٨)</sup>.

إن التركيز الحدي وعموم المفكرين السيوكلاسيك على المفهوم الذاتي للقيمة، أفقدهم الاهتمام بالمفهوم الموضوعي، وهذا ما انتبه إليه كل من مارشال ووالراس، عندما شذوا عن أهمية البحث عن الأسس الموضوعية للقيمة، في محاولة للجمع بين عصري القيمة (الذاتي الموضوعي)، كيم يتم إدخال موضوع تكاليف الإنتاج، وبالتالي الجمع بين الطلب والعرض في تأثيرهما على خلق القيمة.

وهذا ما دفع والراس إلى أن يعد من ذلك عندما تناول مشكلات الإنتاج والتراكم، فيما أدرج مارشال في إهتمامه، المشكلات المرتبطة بالتوزيع (Distribution)<sup>(٩)</sup>.

## المبحث الثاني أعلام المدرسة الحدية

أولاً: التيار النمساوي

كارل منجر (١٨٤٠-١٩٢١)

### ١- الأفكار العامة

ينتمي كارل منجر الى جيل جديد من المفكرين الذين لحطوا تحجر النظرية الرأسمالية، جيل لا يريد الغوص في الأفكار أو السياسات الاقتصادية، وليس لديه رغبة في أن يضيف شيئاً الى المحزون المتجمع من الحقائق، بل كان ساعياً بحد نحو مبادئ جديدة للمعرفة وأدوات جديدة لحشد الحقائق وسوقها أمامه<sup>(١)</sup>.

لم يكن منجر يهتم بحل واحدة من المشكلات الفردية الكثيرة التي يتصنها مذهب ما، بل بهدم البنيان القائم وأقامته على أسس جديدة، لذلك سعى الى صوغ مبدأ أساس لنظرية من احد دائرة أوسع نطاقاً، أوردها في كتابه أسس النظرية الاقتصادية The Foundations of Economic Theory.

إن الفكرة الأساسية التي تقوم عليها نظرية منجر هي أن الناس يصفون قيمة عى السلع لأنهم يحتاجونها، هذه الفكرة ربما مثلت للبعض تعاهة وكاعتراض يقدم ضد الكتاب الكلاسيك، إلا أن منجر بين أن كل واحد من هؤلاء الكتاب بدأ بمثل هذا الإدراك ثم ألقاه جانباً لأنه لم يتمكن من السير به قدماً.

في ظل تركيز الكتاب الكلاسيك على التكاليف، بدأ التقييم الذاتي قد فقد في جهاز الثمن الرأسمالي، ونظر الى طواهر الطلب المبنية عليه، على أنها غير ذات نفع بالقياس الى الحقائق الموضوعية، ويرى بعض نقاد منجر أن النظرية الداتية في القيمة، وفي أفضل الحالات يمكن أن تفسر أثمان مقادير ثابتة من السلع الاستهلاكية ليس إلا.

إن جميع نواحي الانتظام الاقتصادي بوجه خاص تستخلص من قوانين الثمن، هذا الإدراك  
عده منحرف فرضاً واضحاً بذاته، فالهدف هو الكشف عن قانون تكوين الثمن، وبمجرد أن ينحج في  
إرساء حل مشكلة تعيين الثمن في كلا حاسي (العرض) والطلب، على أساس تحليل الحاجات  
البشرية، وعلى أساس ما جاء به فريدريك فون فايزر (المنفعة الحدية).

## ٢- الثروة والقيمة

أولى منحرف إهتماماً بارزاً على موضوعي الثروة والقيمة، إذ يرى أن الثروة ليس بالإمكان أن  
يكون وجودها ملموس، ما لم ترتبط بوجود حقيقي لحاجة بشرية، وكل شيء لا يتمثل بحاجة  
للإنسان لا يعد في عداد الثروة، وذهب منجر الى بيان هذه الثروات وتقسيمها الى ثروات حرة  
كلهواء وثروات إقتصادية، ويحاول أن يصع منحرف مقياساً لهذه الثروات، ويربطه بتنكم الأهمية  
التي يضيفها المستهلك عليها، فبعضها له قيمة استعمالية من دور أن تكون لها قيمة تدللية.  
يربط كارل منجر بين الإشباع المتحقق من السلعة وقيمتها، إذ تعد عملية الإشباع المستمر  
من السلعة تحميماً من شدة الحاجة إليها، لهذا فإن الوحدة الأخيرة المستهلكة من السلعة في جدول  
رغبت المستهلك، إذا لم تكن ذات نفع له نتيجة توفرها فإن قيمة هذه الوحدة (الأخيرة) تنص ربما  
الى الصفر أو دونه، وطالما أن المنفعة تعد قيمة، فعلى وفق هذا المنطق (نصح المنفعة الحدية  
حاملة لقيمة الشيء)<sup>(١١)</sup>.

لقد افرد في إطار إهتمامه بالسلع مساحة واسعة من تحليله، في محاولة منه لتمييز السلع  
عن بعضها، محدداً أن الأشياء ذات النفع (الأشياء النافعة)، كيما تحمل خصائص (شروط) صفة  
السلعة حقيقية لاند من توافر الأتي<sup>(١٢)</sup>؛

- إن تسد حاجة بشرية قائمة فعلاً.

- لها خواص تشكل سبباً لإشباع حاجة.

- إمكانية توجيه هذا الشيء لسد الحاجة وإشباعها.

فقدان هذه الشروط كلاً أو جزءً ينفي فقدان السلعة لصفاتها كسلعة، ويذهب أبعد من ذلك الى تصنيف السلع بحسب درجة ضرورتها، فبعضها له القابلية على إشباع الحاجة بشكل مباشر من مثل السلع الاستهلاكية و سلع أخرى تعد إنتاجية أو مكملة، وهذه لا تستهلك بشكل مباشر بل يمكن أن تساهم بإنتاج السلع الاستهلاكية. هذا التصنيف من الأهمية بمكان حيث ظل يشكر مكوناً أساسياً في النظرية الاقتصادية الجزئية (Micro Economic Theory) الى الآن.

### ٣- السعر

يعتقد كارل منجر أن السعر ما هو إلا مفهوماً عارصاً يظهر على خلفية التبادل، الذي يحدث بفعل عملية التبادل، والذي يسعى فيه طرفاً العملية زيادة المتعة عند الحصول على سلعة والتحلي عن الأخرى. بيد أن تحديد السعر يخضع لمتغيرات حاكمة، تنشئ بعضها عن ظروف عملية التبادل، وحال السوق، والرمز، ومعلومات الشخص عن السوق، والمهارات التي يتمتع بها الشخص. ومن الملاحظ أن التحليل السيكلوجي الذي اهتمت به المدرسة الحديثة في سياق بحثها عن القيمة والطلب، وما أضافته الى الفكر والنظرية الاقتصادية، وعلى الرغم من أن السعر خاصص لتحليل الاقتصادي، إلا أن جهد المدرسة الحديثة في محال تحديد السعر، لم يرتقي الى تحديد دقيق ومحكم للسعر، إذ لم يستطع مفكري هذه المدرسة حسم هذا. بل نعتقد أن هناك إشكالية فحواها أن القيمة جرى تحديدها على أساس سيكلوجي فردي، ولأن السعر هو تعبير عن القيمة، أصح من الصعب إيجاد متغير حاكم موضوعياً لتحديد السعر، مما أبقره رهناً بالتأرجح من دون قيود.



ثانياً: التيار الحدي في لندن

وليم ستانلي جيفونز (١٨٢٥-١٨٨٢)

#### ١- الأفكار العامة

جاءت ولادة جيفونز بعد سنة من وفاة مالثس وتوفي قبل سنة من ولادة كينز، وما يلاحظ أنه عاش بين حيليين من المفكرين البارزين، يربطهم رابط أنهم قدموا بقداً لاذعاً لأسلوب الإنتاج الرأسمالي، وبالذات فيما يخص أسس التوازن الاقتصادي المفترض، وظهور الأزمات الدورية. إن تأثير العلوم التي حصل عليها جيفونز في بواكير حياته، كان واضحاً على طريقة تفكيره ونتاجه الفكري، وبدأ أول نتاجه الفكري شرح نظرية المنفعة الحدية ثم أردفها بدراسة إحصائية عن التقلبات الاقتصادية.

ويعد كتابه نظرية الاقتصاد السياسي (Theory of Political Economy) الذي نشر عام ١٨٧١، حاملاً لجوهر أطروحاته الفكرية التي ركزت على بحث موضوعتي الاستهلاك والتبادل<sup>٤</sup>، متجاوزاً ما ذهب إليه الكلاسيك من التشديد على الاهتمام بالتبادل وعد الاستهلاك حالة متحققة طبقاً لقانون ساي<sup>٥</sup> (Says law)، الذي شكك فيه مالثس ورفضه كينز.

وما يشكل ارتباطاً فكرياً بين جميع مفكري المدرسة الحية، هو ابتدائهم التحليل انطلاقاً من أطروحة جيرمي بنتام في اللذة والألم، ويعطي جيفونز للفرد أمكانية أدراك وتقدير أي نوع من الألم هو أكبر من الآخر، كما يمكن له أن يعرف متى تزيد اللذة على الألم إلا أن ما تمت ملاحظته هو رفضه لقياس المنفعة والألم واللذة، وعد ذلك أمراً غير ضرورياً، والاكتفاء بتقدير أن منفعة هذه السلعة أكبر من تلك السلعة.

فيما شكل موضوع تكميم السلوك الإنساني والجانب السيكولوجي المتعلق برغبات الفرد، أمراً بالغاً لمفكري المدرسة الحدية فيما بعد، وشغل أوار مساحلات ونقاشات واسعة حول ذلك، توزعت بين ضرورة التعبير بأرقام عن المنفعة من

عدمه؟، وهل يمكن عملياً قياس اللذة والألم؟ هذا الجدل أستمّر لسنوات طويلة، وقد أنبرى ادخوثر عام ١٨٨١ لفك هذا التحديد باستخدام منحنيات السواء.

## ٢- تحليل المنفعة

حاول جيفونز بشكل مستقل وبعيداً عن الآخرين، الوصول إلى المنفعة الحدية بوصفها تعبيراً عن حرية التصرف الاقتصادي<sup>(١٥)</sup>، مستفيداً من توصيات فليمينغ (Fleeming) الذي نشر توضيحاته البيانية لقوانين العرض والطلب عام ١٨٥٠.

إذ أعطى جيفونز إهتماماً بالغاً بموضوع تحليل المنفعة، تبعاً للإرث العلمي الذي بدأ مسيرته الفكرية بها، مستخدماً حبه وولعه بالرياضيات والإحصاء في بيان طبيعة المنفعة والتميز بين وحداتها. هذا دفعة إلى دراسة وتحليل المنافع المتولدة عن إستعمال وحدات السعة كفة بشكل كلي (Total Utility)، وبشكل مفرد تراتبياً، وصولاً إلى الوحدة الأخيرة وتقدير منفعتها أي (المنفعة الحدية)، التي يراها جيفونز هي التي تقرر قيمة السلعة وتدفع باتجاه أحداث التبادل. وتعد أبرز مساهمة لجيفونز في ردد النظرية الاقتصادية هي محاولته في بناء نظرية تحليل المنفعة، ومنها يطلق لاستكمال البناء النظري في مجال التبادل وعرض العمل ورأس المال. لهذا كان يعتقد بقوة أن البعض من المتغيرات الاقتصادية من مثل الأسعار، يمكن أن تخضع لقياسات دقيقة يعبر عنها بالأرقام، على خلفية أيمانه بأن الرياضيات والإحصاء لم يحصرِ مراوحة استخدامهما في الاقتصاد السياسي، وبالتالي عدها وسائل مهمة ومساعدة للوصول إلى الحقائق الاقتصادية.

إلا أنه استعد إمكانية التعبير عن اللذة والألم، وكان يرى أن الطابع الذاتي للمنفعة، يستطيع الفرد في أفضل الأحوال التعبير عنه، بتقديرات إعتيادية للكمية التي يدور حولها النظام الاقتصادي.

لقد أعطى جيفونز الجانب الاحتمالي وعدم التيقن (Uncertainly) في تحليل المعطيات الاقتصادية دوراً في مستقبل الأحداث الاقتصادية، وهذه تعد من الإضافات التي جاء بها على خلاف الكثير من المفكرين، سواء أكانوا كلاسيكيين أم حداثيين.

### ٣- القيمة

من المؤكد أن المدرسة الحدية بأجمالها، جاءت كرد فعل على عدم الرضا عما جاءت به المدرسة الكلاسيكية من رؤى بشأن القيمة، وبخاصة ريكاردو الذي إستعمل ماركس أطروحته لتعزيز النظرية الاشتراكية القيمة/ العمل، واستثمارها في اشتقاق فائض القيمة.

لقد رفض جيفونز رفضاً قاطعاً أن العمل هو الحالق الوحيد والأساس للقيمة، وليس هناك سبباً يربط بينهما، وبالتالي فإن القيمة لا تتناسب مع العمل المبذول في الإنتاج، وهذا في بوطنه رفضاً صريحاً لنظرية القيمة الريكاردية، وهجوماً كبيراً على الماركسية.

وعلى هذا الأساس ليس للعمل أي تأثير في تحديد أقيام السلع، بل على العكس تماماً، تصحح قيمة العمل مرتبطة اشد الارتباط بقيمة السلعة التي ينتجها العامل، ولم تعد قيمة السلعة تتحدد بمقدار العمل الذي ينفق في إنتاجها، في منظومة الأفكار الحدية.

لكن جيفونز يعود فيستدرك أهمية العمل ليشير أن العمل قد يهين في الكثير من الأحيان الفرصة للتأثير في قيمة السلعة، هذا عده الكثير من المفكرين تراجعاً عن أطروحة جيفونز بشأن العمل والقيمة، بل أن هذا أدخل عنصر الشك والموقف السلبي بصحة نظرية المنفعة الحدية ودورها في خلق القيمة كما رآها الحداثيين.

ويبدو أن مفكري المدرسة الحدية سقطوا في الإشكالية ذاتها، التي انتابت الكلاسيك، عندما لم يستقر آدم سميث على مفهوم محدد للقيمة.

إلا أن الرؤيا المركزية عند جيفونز حول القيمة تظل تدور حول الأطروحة الآتية: إن القيمة ترتبط بشدة بالمنفعة الحدية، وهذه الأخيرة بدورها تتأثر بمقدار العرض من السلعة، وهذا العرض يتأثر هو الآخر بتكاليف الإنتاج، لذلك فإن العرض يظل هو المقرر الأخير للقيمة، وهنا تكمن العودة للإنتاج في تحديد القيمة، وهو المدخل الذي اعتمده آدم سميث وريكاردو وماركس وسيمون وغيرهم.

## هوامش ومصادر الفصل الحادي عشر

- ١-Schumpeter ,J.A, Economic Doctrine and Method , Oxford University Press, New York , ١٩٧٦ ,p.٥ .
- ٢- تود ج بوشهولز، أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين، ترجمة نزيهة الأفندي وعزة الحسيني، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٨٨.
- ٣- أوسكار لانكه، مصدر سابق، ص ٢١٧.
- ٤- تود ج. بوشهولز، ص ١٢٢.
- ٥- نقل عن: عدنان عباس علي، مصدر سابق، ص ٣٦٠.
- ٦- المصدر السابق نفسه، ص ١٢٣.
- ٧ ناسل الستاني، الفكر الاقتصادي من التناقض إلى الصوح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٤٣.
- ٨- ج ك غالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ١٢٤.
- ٩- أجناسي ساكس، تيارات رئيسة في علم الاقتصاد، ترجمة فاضل عباس مهدي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٤.
- ١٠- جوزيف شومبيتر، عشرة اقتصاديين عظام، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١١٤.
- ١١- إسماعيل سفر وعارف دليلة، مصدر سابق، ص ٥١٢.
- ١٢- أريك رول، تاريخ للفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ٣٧٩.
- ١٤- عبد الرسول سلمان، معالم الفكر الاقتصادي، الكتاب الأول، شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد، ١٩٦٦، ص ٢٩٣.
- ١٥- Robinson , J. Economic Philosophy , Adlin , Chicago ,١٩٦٢.p.٥٢.

## **الفصل الثاني عشر**

### **مدرسة التوازن العام الكلاسيكيون الجدد**

New-Classics



## الفصل الثاني عشر

### مدرسة التوازن العام

#### الكلاسيكيون الجدد

تمهيد

يمكن أن يقال دون تحفظ أن كلاً من النظرية الكلاسيكية والنظرية الحديثة تقفن في موقع متناقض من بعضهما في مسألة تقرير القيمة، ففيهما أصحى الانقسام كاملاً في ثنائية القيمة، وأريد من النظرية الكلاسيكية العديدة أن تعيد الأمور إلى نصابها، لترتقي كواحدة من أهم مسارات التوفيق في الفكر الاقتصادي.

يقول الفريد مارشال أن المدرستين الكلاسيكية والحديثة إذا أخذتا مفصلتين فأنهما تمثلان فقط نصف الحقيقة، لهذا كان حرص الكلاسيكيين الجدد الجمع بين رؤيتي المدرستين من أجل إعادة الحياة إلى الفكر الرأسمالي من جديد.

بعد انتهاء عهد مؤسسي تحليل المنفعة الحديثة، أضحى أساس النظرية الاقتصادية الذي يلقي القبول، وما تلاه يكاد أن يكون كله عملية صقل وتهذيب، وهي تأتي لتحلل الظروف التي تتطلبها خلق موقف من التوازن.

ما يمكن الإشارة إليه هو أن عدم اكتمال أدوات التحليل الداعمة لتعميق التنظير، قد أدى أيضاً إلى أطالة الفجوة بين مستوى النظرية وقاعدتها الواقعية التي من المفترض أنها حواء لتفسيرها، قد بدا واضحاً في بناء كل من النظريات السابقة، التي إعتمدت هيكل المنافسة كمودج سوقي للتنظير، بينما أشاحت الأوضاع اللاحقة عن ظهور أشكال متعددة من المنافسة.

إن تعقد أوضاع الاقتصاد الرأسمالي في مرحلة إكمال ونصح أسلوب إنتاجه، وظهور مشكلات عديدة لم يكن قد تعرض لها من قبل، على الرغم من وجود ظواهر تنذر بذلك، كما أشار لبعض منها مالثس، إلا أن الاسترخاء الرأسمالي على أطروحة ساي في حدوث التوازن ووجود اليد الحفية عند آدم سميث، ظلت تلقي



بكلّكلها على المكر السائد في عدم تعرض الاقتصاد الرأسمالي الى مشكلات حدوث الأزمات، أو ما يعرف بالدورات التجارية.

ما يمكن قوله أن تبلور الأفكار حول أهمية أحداث التوازن المفترض، لاسيما وأن الإشكالية القائمة في منظومة الفكر الرأسمالي لم يتم تحاورها، وهي التناقض بين الإنتاج والاستهلاك، أو ما بين فاعلية نظرية الإنتاج الرأسمالي ونعثر وفشل نظرية التوزيع، هذا الذي يعود في كد حواسه الى التناقض بين الطابع الفردي للملكية والطابع الاجتماعي للإنتاج، والذي لم ترغب الرأسمالية الاعتراف به، بل انهزمت الى أمام.

ويعتقد أن الإهتمام بمسألة التوازن الذي جرى التطير له عند الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم تكن مجرد محاولات فكرية مزروعة عن الواقع، بل جاءت لتؤسس للاهتمام بالتوازن الذي بدا يحتل أهميته من خلال ضعف آلية التصبيط الذاتي (Auto-Regulation)، التي كان يعول عليها في أحداث التوازن العام.

## المبحث الأول

ليون والراس Leon Walras

(١٨٤٣ - ١٩١٠)

### أولاً: التكوين المعرفي والمنهج

يعد الأب الروحي لمدرسة التوازن الاقتصادي ومؤسسها، وأبرز دعاة نظرية التوازن الاقتصادي عندما كان أستاذاً للاقتصاد في جامعة لوران، التي كرمته بأن نقشت على تمثاله فقط عبارة التوازن الاقتصادي<sup>(١)</sup>. وشكلت إهتمامات والراس بإعادة النظر بكامل منظومة الفعالية الاقتصادية أولى خطواته البحثية، مهتماً بالروابط التي تشد الأحداث الاقتصادية بعضها ببعض، في محاولة منه لتسبيب تلكم النتائج الحادثة في مجرى الحياة.

بيد أن الآثار الحقيقية للبناء الفكري لوالراس يتأتى من مصادر أساسية هي<sup>(٢)</sup>:

- ١- تأثير حميد ساي (المنظر الكلاسيكي) على والراس، والقاتل بالتوازن بين الطلب والعرض انطلاقاً من العرض.
- ٢- قراءته المنفردة لمؤلف الرياضي كورنوت (المبادئ الرياضية لنظرية الثروة)، وإستخدامه التحليل الرياضي للوصول الى التوازن الاقتصادي العام.
- ٣- إمكاناته الرياضية ودراسته الهندسية، وبحوثه في الاقتصاد التطبيقي، جعلت منه واحداً من أبرز مفكري الاقتصاد الذين يعتمدون الأسلوب الرياضي، في تحليل الظواهر الاقتصادية.
- ٤- إهتم والراس بالجوانب الكلية، ولم يول الجوانب الجزئية إلا قدراً بسيطاً، فهو يعتمد منهج التحليل من العام الى الخاص.

إختار والراس وعلى عكس الحدين منهجاً مختلفاً في تناول الأفكار وأسلوب التحليل، وصولاً الى منهجية التفكير العلمي، فقد إختار أن يبحث في الوقائع والإحداث الاقتصادية العامة ذات الأفق الشمولي (الكلي)، وليس الانغماس في الحزنيات لذلك فهو وأن استخدم في بعض الأحيان شروحاً جزئية، فقد كان يريد منها الوصول الى الهدف، وهو التماس مع التحليل الاقتصادي الكلي ( Macro Economic Analysis).

ثانياً: تحليل ظاهرة تداخل المنفعة - الندرة

يرى والراس أن هناك تداخلاً واضحاً بين ظاهرتين هما الندرة والمنفعة الدين يلقيان بظلالهم المؤثرة على عملية التبادل في الأسواق، بيد أن هاتين الظاهرتين لهما دور في تحديد قيمة الأشياء ويتخذ من مقياس الرغبة المتحققة للفرد من إستهلاك آخر وحدة (الوحدة الحدية) معياراً، مقصراً فواصل المنفعة الحدية في إطار الوحدات العائلية، مؤكداً أن المنفعة البادرة (مزيج الندرة - المنفعة) هي الأساس في تحديد القيمة<sup>(١٣)</sup>.

على الرغم من إعتقاد والراس بالمنفعة المتناقصة (Diminishing Returns) التي تأتي من إشباع الحاجة بشكل متدرج، إلا أن هذا لم يدفعه لايلاء القيمة ما تستحق مما كان حصلاً عند الحدين الآخرين، بسبب اشغاله بموضوع التوازن الاقتصادي العام.

ويعود عدم إهتمام والراس بموضوعة القيمة الى الآتي<sup>(١٤)</sup>:

أ - لم يخرج والراس عن الإطار العام للحدين، ولم يكن يهم والراس معرفة سبب القيمة أن كان الطلب أم الكلفة ؟.

ب- ظل موضوع تحديد السعر من خلال العرض أو الطلب، أو أنهما يحددان السعر، لا يحظ باهتمامه

ج- يعطي والراس للمفعل ورد الفعل دوراً في فهم العلاقة التبادلية بين مختلف الظواهر، وان السعر الذي يتحدد في السوق على وفق المنافسة

الحرّة يمكن توصيفه بأنه السعر الوحيد والسائد، ويسمح بمبادلة أكبر كمية ممكنة من السلع في السوق، وهذا يسميه (السعر المثالي) والذي يؤدي إلى (التوازن المثالي).

#### ثالثاً: نظرية التوازن العام

يقرر والراس ابتداءً أن العرض والطلب يرتبطان من خلال الثمن وأن الندرة هي التي تحددهما في النهاية، ويعتمد والراس على الربط بين نظرية المنفعة الحدية ونظرية دقيقة من الناحية الرياضية عن توازن السوق، وللتخلص من ضغط تفسير القيمة، ذهب إلى ما يسمى المساواة أو التكافؤ بين المنفعة والندرة، ومرد ذلك إلى تأثيره بوالده الذي كان يقول أن الندرة هي المنفعة الحدية نفسها، هذه الندرة يعرفها (بأنها المشتقة من المنفعة الفعالة بالقياس إلى الكمية المملوكة)<sup>(٥)</sup>.

ويتحقق التوازن في سوق تنافسية حين يكون الثمن بحيث يتساوى العرض والطلب، ويستخدم والراس حيلة خاصة، ليبين كيف ينتج هذا الثمن من المنافسة، وهذه هي فكرة الثمن المخدوق، فإذا لم يكن العرض والطلب متساويين عند هذا الثمن، يعلن عن ثمن جديد، ويستمر الأجراء إلى أن تتحقق المساواة، وهكذا يمكن الوصول إلى ثمن التوازن.

حاول والراس تهيئة دفاع قوي عن الحرية الاقتصادية، التي انتقدت بشدة من قبل سان سيمون وممكري المدرسة التاريخية الألمانية، إذ اعتمد سلسلة معادلات عد فيها الأثمان متغيرات مستقلة، وأن عملية التبادل تجري من قبل الأفراد إلى أن يتم الوصول، إلى أن تصح المنافع الحدية للسلعتين متساوية لكل فرد. هذا من شأنه أن يعطينا دوال للعرض والطلب بحيث تتوافر لنا معادلات مساوية لعدد المجاهيل، مما يجعل أمر التوازن محتوماً.

إن محدودية التوجه الذي انصب عليه جهد مارشال، أدركه بعمق والراس وتحاوزه في أنموذجه الشامل للتوازن العام، فقد استطاع أن يدمج عضواً كافة

القطاعات الاقتصادية في كل مترابط. كما يجب أن يكون، وبهذا توصل الى مرحلة غلق النظام. أقام والراس تحديده النظري للتوازن على إمكانية الاستفادة من تقسيم العناصر الأساسية المكونة للثروة، كما يسمح له بالوصول الى الوظائف والأنواع المحتملة للسلوكيات الظاهرة في النظام الاقتصادي العام والتميز بينها، مطلقاً من وضع تقسيم للثروة يستند على سلوك ودور رأس المال، الذي يدخل في إنتاج سلع تستخدم مرة واحدة وأخرى معمرة (تستخدم لأكثر من مرة). وعلى خلفية هذا الفهم يشتق أربع نظريات لاستكمال منظومته الفكرية المؤدية الى التوازن العام وهي:

- أ- نظرية التبادل
- ب- نظرية الإنتاج
- ت- نظرية تكوين رأس المال
- ث- نظرية الرأسمال الدائر

واتساقاً مع ذلك يقترح وجود ثلاث أسواق في الحياة الاقتصادية وهي<sup>(١)</sup>:

- أ- سوق المنتجات المادية
- ب- سوق الخدمات الإنتاجية
- ت- سوق رأس المال

إن تركيز والراس انصب على فهم آلية التوازن في كل سوق على حده مأخوذة بشكل منفرد، ومن ثم دمج الأسواق الثلاث وصولاً الى التوازن الاقتصادي العام (General Equilibrium) ويستلزم حدوث التوازن في السوق المنفردة توافر شرطين أساسيين هما، وجود المنافسة الحرة (التامة) وأن تكون الأسعار متواربة حتى يتساوى بفعلها العرض مع الطلب، أي يتساوى السعر الطبيعي مع سعر السوق.

#### رابعاً: انتقاد آراء والراس

يمكن لوالراس ومشايخه القول فقط بأن كل شيء يعتمد على كل شيء آخر، وبحيث لا يتبقى للسداهة حير للمناورة، إذ أن الطلب المركب والمشتق يحتمل أن تؤدي الزيادة في الطب بسب سعة ما الى زيادة عرض سلعة أخرى، أو أن تؤدي الزيادة الحادة في أجور عمل تصنيع الطابوق الى بطالة لعمال البناء.

وقد أدرك والراس نفسه بأنه لن يكون من العملي التوصل الى موقع التوازن عن طريق التجربة والخطأ، إلا أنه تخيل قدرة المشتري والباع على الاستمرار بإعلان الطلبات والعروض ليعثروا على المجموعة التوازنية.

انعكس وضع والراس كمهندس ميكانيكي على تناوله موضوع التوازن، والتي تعبر عنها جوان روسون من أنه أقام توارناً ميكانيكاً تجريبياً. ويمكن أن نشير الى بعضاً من هذه الانتقادات: ١- بينما كان التراكم هو محور اهتمام الكلاسيك، ركز النيوكلاسيك على التوازن في ظروف الثبات أو السكون، وهو ما أدخلهم في إشكالية التوازن الديناميكي.

٢- يسيء والراس تفسير الموقف الكلاسيكي، عندما لم يترك حدود الإنتاج، فالكلاسيك اخذوا بالحدود المفروضة على إنتاج أية سلعة.

٣- يستند والراس الى فرض منافي للعقل، وهي أن لكل فرد بصيرة صحيحة لا عن حياته هو فحسب، بل عن سلوك جميع الأسعار ضمن مدى مستقبلي غير محدد.

## المبحث الثاني

الفريد مارشال A. Marshall

(١٨٤٢-١٩٢٤)

أولاً: أهمية فكر مارشال

مثر السّاح الفكري مارشال تجاوزاً لهيمنة المدرسة الكلاسيكية والحديثة، وبفلة نوعية حظيرة في المضمون الفلسفي - الإيديولوجي للمكر الاقتصادي، ولأن أثارة ظلت شاحصة وممتدة الى الآن، إذ يعد هذا المكر تحديداً للمكر الكلاسيكي، وهو ما أصفى عليه وصف الفكر الكلاسيكي الحديد. والفرق في مفهوم الاقتصاد مارشال ومفهوم الاقتصاد السياسي الذي كان سائداً لأكثر من مئة عم سابق، يتمثل بزغ الطابع السائد عبد دراسة العلاقات الاجتماعية والطبقات وتناقض مصالحها في محتوى مجتمعي ديناميكي، وهذا هو التقليد الكلاسيكي والماركسي. فقد تحول التأكيد في طر الاقتصاد المارشالي (كتابه مبادئ الاقتصاد)، الى دراسة تصرفات الفرد بعيداً عن مرحلته التاريخية ومحتمعه والرمز، متجاوزاً سمة الواقعية التي تتصف بها العلوم الاجتماعية، ومعتماً التحريد المفرط، محولاً الإنسان الى سلعة مساوية للسلع الأخرى.

يقول بلوغ Blaug أن الكثير من المفاهيم التي إبتدعها مارشال في سائه للنظرية الجرنية، ولو أنها كانت مفيدة بحد داتها إلا أنها في ذات الوقت، خلقت مشاكل صورية استنفدت أفصر الجهود لحيل من الاقتصاديين من أجل إيجاد حلول لها<sup>(٧)</sup>.

يعد مارشال من أوائل الذين أدركوا أن الاقتصاد علم تطوري، إن كتاب (المبادئ) هو ثمرة عشرين عاماً من العمل الفكري، والذي ظهر عام ١٨٩٠. إن لب الجهاز التحليلي لكتاب مارشال (Principle of Economic) ووراء تلك النواة

وفوقها وحولها علم الاجتماع الاقتصادي للرأسمالية الانجليزية في القرن التاسع عشر، التي تقوم على قواعد تاريخية ذات مدى وصلابة يؤثران في النفس.

كان مارشال في الحقيقة مؤرخاً إقتصادياً من المرتبة الأولى، وإن جاز أنه لم يكن ليحلل بالدرجة نفسها من ناحية الفن التاريخي. بيد أن تمكنه من الحقيقة التاريخية والمصى التحليلي لعقله، لم يكن كل منهما مفصلاً عن الآخر، ولكنهما كانا يكونان اتحاداً وثيقاً بحيث تقحم الحقيقة الحية نفسها على النظرية التي يراد أثباتها.

يشير المفكرون إلى أن مارشال تعلم الاقتصاد واستنار بمؤلف جيمس ستوارت مل، الذي افتقد إلى البراهين وتحديد النتائج، لذلك يقال أن عقل مارشال أخذ على الفور إزالة القيود المفروضة وتعميم القضايا المنطقية على مؤلف مل، وليس ثمة حاجة إلى ما يزيد على هذا من أجل تحويل الصرح الذي أقامه مل، إلى صرح يحمل طابع مارشال.

يعترف مارشال نفسه بالعون الذي لقيه من كورنو وثون، والواقع أن تأثيرهما العميق عليه واضح، فمنحيات الطلب والعرض التي يشتمل عليها التحليل الجبري أو الحاص للتوازن، هي المنحيات التي وضعها كورنو، والتحليل الحدي هو تحليل ثون، ومعامل المنفعة حاء به حيفونر. إن الاتجاه الرياضي لعقله كان مواتياً للانحاز الذي حققه في ميدان النظرية الاقتصادية، إذ أن الاستخدام الفعلي لأساليب التحليل الرياضي أنتج ذلك التحليل، ومن دونه ما كان بالإمكان تحويل تلك المادة الفكرية الثرية لأدم سميث وريكاردو ومل إلى أدوات حديثة للتحليل.

يشير جوزيف شومبيتر<sup>(٨)</sup> أن ما يسترعي الانتباه في مارشال هو إتقان البناء الاقتصادي في موضوعاته، إذ يتسم عرضه لنظرياته بالرشاقة والسهولة والبراهين البسيطة والموجزة، كما أن تدريب مارشال الرياضي هذب حتى بياناته الشفوية،



وميز رسومه البيانية ببساطة ساحرة، على العكس من كتابات والراس التي تتسم بالثقل المتعب. إن مارشال قد فهم تماماً فكرة التوازن العام وبذلك اكتشف (نظاماً كوبرنيكياً) بأكمله تبقى به جميع عناصر الكون الاقتصادي في أماكنها بفعل التوازن والتفاعل المتبادلين. وابتدع مارشال تلك الأدوات السهلة<sup>١٢</sup> التي نعرفها الآن، مثل الإحلال ومعامل المرونة وفائض المستهلك\* وشبه الربح والوفورات الداخلية والخارجية والأحل القصير والطويل، التي أضحت عناصر في أي تحليل اقتصادي.

كان مارشال أول من أظهر أن المنافسة الكاملة لن ترفع الإنتاج دائماً، وهذا هو أول ثغرة في جدار الأفكار الكلاسيكية، نتج عنه أن الإنتاج يزيد عن الحد الأقصى التساقي، وذلك عن طريق تقييد الصاعات التي يطبق عليها مبدأ تناقص العلة، وتوسيع الصاعات التي تخضع لمبدأ تزايد العلة، وهو ما طوره في ما بعد كل من بيغو وكلاين.

يرى بعض المفكرين أن هناك ثلاثة فروع سادت في العصور الوسطى وهي فروع معرفة عظيمة : وهي اللاهوت ويهدف إلى الكمال الروحي، والقانون ويهدف إلى العدالة، والطب ويهدف إلى سلامة الجسم، وقدم مارشال فرعاً رابعاً عظيماً هو الاقتصاد ويهدف إلى تحقيق الرفاه المادي للجميع.

وفي السنوات الممتدة من عام ١٧٧٦ - ١٩٧٦، سيطرت خمس كتب على علم الاقتصاد في تدبّع لم ينكره أحد تقريباً وهي: كتاب آدم سميث (ثروة الأمم) وكتاب ريكاردو عن (المبادئ) وكتب ميل عن (المبادئ) وكتاب مارشال عن (المبادئ) وكتاب سامويلسون (علم الاقتصاد)<sup>(١٣)</sup>.

ثانياً: منهج البحث

جاء الفكر المارشالي في ظل انعطافة تاريخية مهمة، تتمثل بوصول الفكر الاقتصادي إلى مرحلة يحتاج فيها، إلى إعادة نظر وتجديد في ظل صعود ظاهرة الاحتكار، في محاولة للتنظير إلى فكر اقتصادي جديد يتم من خلاله الوصول إلى

علم الاقتصاد، وإغلاق النظام الفكري الذي أقيم الى أكثر من قرن يتم فيها تجاوز الاقتصاد السياسي بهذا، يكون ممهداً لطلاق رسمي بين الحواش الاجتماعية والسياسية والاقتصاد، كما ينأى بالاقتصاد الى الحواش السيكولوجية والذات الفردية وسحب نظرية النشوء والارتقاء البيولوجية، لكي يتم توظيفها على الجانب الاجتماعي، وهذه هي وجهة نظر مدرسة كمبرج التي ترى في المقولات والأفكار الاقتصادية بأنها تتسم بالتطور بالنمو الارتقائي.

وفي جانب المنهج البحثي<sup>١٣</sup>، فإن مارشال يعتمد التحليل الجزئي (Partial) في محاولة لربط بين النظرية السيكولوجية- الذاتية مع النظرية الموضوعية في تفسير القيمة. مما فرض عليه الالتزام بمهجية تعترف بالمنهج التاريخي، عندما يشير الى أن علم الاقتصاد ما هو إلا امتداد لأفكار الآباء الأولين (سمث- ريكاردو- مالثوس) ومع أن للحقيقة والتاريخ دورهما المخصص في التطوير، إلا أنها تحتاج باستمرار للتدقيق والفحص والتمحيص.

إد حاول مارشال أن يعطي دفعة جديدة على حلفية دحول الرياضيات في إثبات حقائق اقتصادية، كما جاء عند أغلب مفكري المدرسة الحدية أو المدرسة النيوكلاسيكية، لهذا يعطي مارشال منهج التحريد بعده المطلوب في التوجه الفكري الجديد، ويولي موضوعه تخلص الأفكار مما علق بها من معلومات تاريخية أو تجريبية.

#### ثالثاً: نظرية القيمة والتوزيع

أدرك مارشال الحاجة في الاقتصاد الرأسمالي الى نظرية للقيمة تتجاوز مشكلات النظرية الكلاسيكية، لهذا اعتمد المنطق الحدي ذاته في تحليل موضوع القيمة، ويطلق مارشال الى أن القيمة هي تعبير عن نتاج المقابلة بين العرض والطلب، لهذا فهو يرهن تحديد القيمة بمتغيري المدفوعة وتكاليف الإنتاج، لذلك فإن إدخاله لمفهوم المنفعة الكلية ومفهوم المنفعة الحدية ويستنتج بفعلهما فائض المستهلك.

مما يعني أنه حريص على دراسة الطلب ولكنه لا يقف عند ذلك فقط، بل سعى الى بيان العوامل المؤثرة في الأسعار، سعياً وراء تصميم تحليله الجانب الآخر إلا وهو جانب العرض، الإدراك المارشالي لأهمية تحليل القيمة وإرتباط التوريد بها، جعله يهتم بعنصر الزمن الذي ادخله بقوة لنوع الصفة التي لارمت التحليل السابق الموصوف بالسكونية (Static)، حتى يضيفي على تحليله طابعاً ديناميكياً، أفاده في الوصول الى مرونة الطلب (Demand Elasticity).

يقول مارشال أن المدرستين الكلاسيكية والحديثة أدا أحذتا منفصلتين، فأنهما تمثلان فقط نصف الحقيقة في عملية تقرير القيمة، في تعبيرها الاقتصادي المعبر عنه في الأسعار، إما الحقيقية فلا تأتي ألا بتزاوجهما<sup>(١٣)</sup>:

- ١- فوراء الطلب تقف المنفعة الحدية: وهذه هي قيمة الاستعمال.
- ٢- ووراء العرض تأتي تكاليف الإنتاج: وهذه هي قيمة التبادل.
- ٣- ينتج عن هذا أن السعر يقرره تفاعل كل من الطلب والعرض معاً: فهما كالمقص الذي لا يمكن أن يستغني أحد طرفيه من القطع عن الطرف الآخر.

بهذا فإن مارشال يقر على جملة سمات منها<sup>(١٤)</sup>:

- أ - إعادة الحياة مرة أخرى الى دور التكاليف في عملية تقرير الأسعار.
- ب- إن تقرير السعر من قبل العرض والطلب يصح بغض النظر عن طبيعة السوق.
- ت- يبين أن للزمن تأثيره على الأهمية النسبية لطرفي تقرير الأسعار، ففي المدى القصير يكون الطلب هو المهيمن، يقابله زيادة في الأهمية النسبية للعرض كلما اتجه الزمن نحو الأجل المتوسط والبعيد، هذا عرف بتحليل الفترات (Period Analysis) .

وبضيف مارشال الى أن عوامل الإنتاج الثلاثة (العمل-الأرض-رأس المال) يتم تحديد أنصبتها على وفق العرض والطلب، وهو في هذا حاول الجمع بين طرفي القيمة (الدائي والموضوعي)، إلا أن مارشال استطاع أن يوسع قاعدة عناصر الإنتاج على خلفية ظهور ثورة المديرين ( Management Revolution)، إلا وهو عنصر التنظيم الذي أضفى عامل الإنتاج الرابع.

وحاول أن يسوغ الرؤيا الريكاردية بشأن رأس المال ويدافع عنها، ويهاجم الرؤية الماركسية بتيحة لتجاهلها قيمة عنصر (المخاطرة) في استخدام رأس المال عندما ابتدع فكرة الانتظار كأساس لتفسير مردود رأس المال<sup>(١٥)</sup>، كما أنه تجاوز نظرية الإنتاجية الحدية في عملية التوزيع، ويدفع تكاليف الإنتاج كمحدد للعرض، من أجل بناء نظرية لتحديد العنصر النسبية لعناصر الإنتاج.

#### رابعا: التوازن الجبري

شكل عنصر الرمز عاملاً مهماً في رؤية مارشال للتوازن، ومثلما إبتدع مارشال فكرة الرمز القصير والمتوسط والبعيد في التحليل الاقتصادي، إلا أن صوابه للتوازن شابهها الضعف ولم تكن مقبولة تماماً لقد جاء حل الإهتمام المارشالي بالتوازن في إطار المنشآت أو الوحدات الإنتاجية الصناعية تحديداً، لذلك فقد الإمكانية في تحليل التوازن في الإطار الكمي (Macro)، في حين أن الإرث في التوازن يرتكز على تحليل التوازن من وضع السكون، أو التوازنات الساكنة في مرحلة لاحقة، إلا أن أطروحات والراس في التوازن العام أكثر نضجاً.

لهذا نلاحظ أن نظرية مارشال في التوازن تقدم رؤية أقل دينامية حول سلوك المشروعات في ظل المنافسة التامة. ولذا يصعب ضابطين للتوازن اعتماداً على الرمز، فإذا استهدف المشروع تعظيم إرباحه في إطار طاقة محددة فإنه سيكون في توازن في الأجل القصير، إما إذا كنت هناك فرصة لتعظيم الإرباح في ظل اختيار الحجم الإنتاجي الموائم، فإن التوازن يتحقق في الأجل الطويل

خامساً: انتقاد آراء مارشال

١- لقد كان مارشال تواقاً لإدخال عنصر من عناصر العرض والطلب في أقصوصة الاقتصاد، من خلال تقسيم السلع الى نوعين أحصع أحدهما الى قانون العلة المتناقضة والأخرى الى قانون العلة المتزايدة، ولما كان نمو الطلب مرتبط بمقدار التوسع في إنتاج كل سلعة من السلع، فهذا يعني أن هناك دورتان لكلا شقري مقص العرض والطلب، تشير جوان روسون الى أن مارشال نفسه كان عارفاً بالتروير، الذي قام به عندما حشر هذه المفاهيم ضمن إطار من التوازن القائم في حالة من السكون<sup>(١١)</sup>.

٢- يأخذ مارشال بنظر الاعتبار بأن الكساد (Slump) قد يتسبب عن افتقار رجال الأعمال الى الثقة بربحية استثماراتهم في المستقبل، إلا أنه لا يسمح لمقترحه هذا بتعكير الصورة العامة للتوازن، في ظل التأثير المفيد لقانون ساي.

٣- استمر مارشال بتأجيل معالجته لمشكلة البطالة، وقد يعزى ذلك الى فشله في المواءمة بين معرفته بحقائق الحياة الاقتصادية وبين نظريته في التوازن، وكان محلده (البقود والائتمان والتجارة) والذي أنهزه بعمر الثمانين، هو (مجرد تلصيق لشف سابقة كتبت بعضها قبل خمسين سنة من ذلك- على حد تعبير كينز)<sup>(١٢)</sup>.

### المبحث الثالث

فلفر يدو باريتو Vilfredo Pareto

(١٨٤٨-١٩٢٣)

#### أولاً: التكوين المعرفي

يقولون بحق باريتو عند وفاته أنه (كارل ماركس البرجوازي)<sup>(١٨)</sup>، إذ كانت شخصيته الشامخة تكاد تقف وحدها، فباريتو لا يمكن حصره في نطاق صيق، فهو لم يتملق لأي مذهب، وليس في وسع أية عقيدة أو أي حزب الرعم بأنه من إتباعها أو أتباعه، برعم أن الكثير من العقائد والأحزاب استخدمت شذرات من ذلك العالم المفكري.

إن باريتو فعل ما لم يقدر عليه والراس، فكون مدرسة بالمعنى الكامل الذي تدل عليه الكلمة، فتكونت دائرة من الاقتصاديين البارزين، يعترفون بسيد واحد ومذهب واحد، وأستفاد باريتو من شروط السواء للمستهلك لادحورث، وخرائط محميات السواء، إلا أنه يظل يدين لأستذه والراس الذي إستقى منه التوازن العام.

شكر اكتشاف باريتو لشروط الإنتاج والتبادل أسساً لاقتصاد الرفاهية Welfare Economic، التي تختلف تماماً عما جاء به مارشال- بيجو في نظرية الرفاهية التي نهلت من التوازن الحزني Partial Equilibrium، في حين إعتمد باريتو على التوازن العام لوالراس، إلا أن اشتقاقه لشروط المرتبطة بالإنتاج والتبادل ظلت تحمل اسمه بدون منازع.

لقد حاول باريتو الإتيان بإجابات أريد منها وضع الحلول لمعالجة البواقص التي تركها تحصيل والراس، وهي في مصاميتها تعد المطلقات الأساسية لتحليله، وتتوزع هذه البواقص على النحو الآتي<sup>١</sup> :

- ١- لم تكن أطروحة والراس للعلاقة بين رأس المال وسعر الفائدة وبخاصة لدور السلع الرأسمالية الجديدة مقنعة تماماً، مما حدا بباريتو إلى تجاوز

- موضوعه تشكيل رأس المال كلياً من نظرية التوازن العام، إذ تيقن بقوة إستحالة صوغ نظرية تتسم بالتكامل ضمن الهيكل النظري الاقتصادي لوالراس
- ٢- لقد تنبه باريتو على الرغم من قناعاته بنظام والراس الذي أقامه على أساس المنافسة التامة التي رآها باريتو إفتراض غير واقعي.
- ٣- ما يتعلق بموضوعه النمو الذي تشكل هاجساً لكل النظريات والأفكار الاقتصادية.

إن باريتو لم يبتدع جهازاً نظرياً كاملاً، بل إقتبس مفهوم (محييات السواء) من الاقتصادي الانكليزي (ف.ي ادجورث) الذي إستخدمها لأول مرة عام ١٨٨١ في كتابه (الروحانيات الرياضية)<sup>(١٣٠)</sup>.

ويشكك باريتو بقدرة الدولة وجهازها الحكومي بسبب افتقاره أعمالها للكفاءة، ويرى أنه حتى لو إستطاعت وزارة اشتراكية للإنتاج، يمكن أن تصل نظرياً الى ما يمكن أن تحرره العوامل المخففة للتوازن في اقتصاد رأسمالي قائم على الحرية الاقتصادية المثالية، فإنه يمثل نصراً لقوى القمع.

#### ثانياً: أمثلية باريتو

تتركز أمثلية باريتو على أساس تجاوز الأمثلية المقامة في نطاق الوحدات الإنتاجية الفردية، أو معرفة الاتحاضات التي يعتمدها السلوك الفردي وصولاً الى تحقيق الأمثلية (Optimization)، من خلال اعتماد مبدأ الاختيار الذي يمكن أن يقوم به المنتج/أو المستهلك ما بين تدنية التكاليف (Minimization Cost)، أو تعظيم العوائد (الأرباح) (Maximization of Profit).

إد يبدو أن فرصة تحقيق أو الوصول الى الأمثلية في النطاق الفردي أو على مستوى الوحدة الإنتاجية ممكناً، ولكن هذا يواجهه صعوبات عديدة عندما يستخدم على نطاق الاقتصاد الكلي.

## ١- معايير الأمثلية عند باريتو<sup>(٣١)</sup>

أ- معيار الأمثلية في الإنتاج: يتمثل هذا المعيار بزيادة إنتاج سلعة دون الاضطرار الى تحفيض إنتاج سلعة أخرى، أي أن عوامل الإنتاج الداخلة في الإنتاج، تكون كافية لإنتاج كلا السلعتين عند مستوى التكنولوجيا والفن الإنتاجي السائد.

ب- معيار الأمثلية في الاستهلاك: يكون معيار الأمثلية في الاستهلاك عند الأفراد، يتحقق عندما يمكن زيادة استهلاك الفرد من دون أن يكون ذلك قائماً على أساس امتناع أو حرمان فرد آخر، على أن يكون ذلك مشروطاً بمستوى من التفضيل الفردي وعند كميات معينة من السلع.

ج- معيار الأمثلية على مستوى النظام الاقتصادي: هذا المعيار يجمع بين الاستهلاك والإنتاج، إذ يعد الوضع الأمثل متمثلاً بإنتاج السلع وتوزيعها واستهلاكها بالكميات والنسب التي يترتب عليها أن يكون عدد الوحدات المطلوب التنازل عنها من كل سلعة لغرض إنتاج وحدات إضافية من سلعة أخرى، معتمداً على المعدل الحدي للتحويل.

أي أن عدد الوحدات من السلعة التي يكون المجتمع مستعداً للتخلي عنها لصالح الحصول على وحدات أكثر من سلعة أخرى، يعتمد على تحويل عناصر الإنتاج المتاحة من هذه السلعة الى أخرى يسمى بالمعدل الحدي للتحويل، مشروطاً بأن تكون المنافسة هي السمة للنظام الاقتصادي، يعد وضعاً أمثلياً.

## ٢- شروط الأمثلية

إن الوضع الأمثل الذي أراده باريتو يرتفع بالشروط الآتية<sup>(٣٢)</sup>:

أ- أن لكل نمط من تخصيص الموارد (Resource Allocation)، وضعاً أمثلاً يتناسب معه.

ب- التوزيع الأولي للموارد الإنتاجية.

ج- مع كل تغير في تقسيم الدخل بين الأفراد يتغير الوضع الأمثل.

د- لا يمكن المقارنة بين أوضاع مثلى في ظل اختلافات في توزيع الدخل.



## هوامش ومصادر الفصل الثاني عشر

- ١- ج. شوميتز، عشرة اقتصاديين عظام، مصدر سابق، ص ١٠٦.
- ٢- أريك رول، تاريخ للفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ٣٨٣.
- ٣- المصدر السابق نفسه، ٣٨٤.
- ٤- إسماعيل سفر وعارف دليّة، مصدر سابق، ٥٢٩.
- ٥- أريك رول، مصدر سابق، ص ٣٨٤.
- ٦- كلاويد نابليون، الفكر الاقتصادي في القرن العشرين، تعريف نعمان كفاي، منشورات النفط والتنمية، ١٩٧٩، ص ٢٠.
- V-Blug.M, Economic Theory in Retrospect, Irwin, Homewood, Illinois, ١٩٦٢, p. ٣٩٩.
- ٨- شوميتز، عشرة اقتصاديين عظام، مصدر سابق، ص ١٣٢.
- ٩- المصدر السابق، ص ١٣٤.
- \*- جاء مارشال بفائض المستهلك رداً على فائض القيمة لماركس.
- ١٠- تود ج. بوشهولز، أفكار جديدة، مصدر سابق، ص ١٩٠.
- ١١- شوميتز، مصدر سابق، ص ١٤٧.
- ١٢- تود ج. بوشهولز، مصدر سابق، ص ١٣٢.
- ١٣- باسل البستاني، الفكر الاقتصادي، ص ٢٢.
- ١٤-Marshall A, Principles of Economic, Macmillan London, ١٩٢٠, chap ٣, p ٦.
- ١٥- باسل البستاني، الفكر الاقتصادي، ص ٢٥.
- ١٦- حوان روبنسون وحون إيتويل، مصدر سابق، ص ٧٤.
- ١٧- المصدر السابق نفسه، ص ٧٥.
- ١٨- جوزيف شوميتز، مصدر سابق، ص ١٤٧.
- ١٩- كلاويد نابليون، مصدر سابق، ص ٤٣.
- ٢٠- أريك رول، تاريخ للفكر الاقتصادي، مصدر سابق، ص ٤٠٥.
- ٢١- كلاويد نابليون، مصدر سابق، ص ٤١.
- ٢٢- المصدر السابق، ص ٤٢.

## **الفصل الثالث عشر**

### **المدرسة الكينزية**



## الفصل الثالث عشر

### المدرسة الكينزية

تمهيد

يعد ظهور الفكر الكينزي بموجب توصيفات بعض المفكرين بأنه (ثورة)، أطاحت بها هو متوارث من الفكر الرأسمالي، بيد أن هذا الظهور لم يكن حالة عابرة أو إرهاصات مفكر، بل أن الشعور بالرصاص والإرتياح عن أداء الاقتصادات الرأسمالية الرئيسة انذاك، وبخاصة بريطانيا حاملة الثورة الصناعية ومولد الفكر الاقتصادي لم يعد كذلك، على خلفية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، التي مزقت أوصال التجارة والمدفوعات الدولية.

لقد شكلت أفكار جون مينارد كينز، قوة كبيرة في النظرية الاقتصادية والتطبيق الاقتصادي، وأحدثت تطوراً عظيماً في الاقتصاد المعاصر، وتكتسب أعظم دلالاتها هو كونها تمثل تحولا في المنهجية الاقتصادية بوجه عام.

قبل عنه إشراكاً مرة وأخرى رأسمالياً مرتداً عنها، تعرض للسقذ، وأهملت أطروحاته وآراءه رداً من الزمن، ذاع صيته في المحافل الرسمية والفكرية، في الجامعات ومنتديات الفكر، فهو لم يكن اقتصادياً فحسب، بل مؤرخاً ومعرفياً وفناناً، مهتماً بعلم الجمال أحياناً، حتى أنه قرب شعبية رئيس وزراء بريطانيا آنذاك (تشرشل).

جاءت الحرب العالمية الثانية لتعطي لأفكار كينز مساحتها المنتظرة من النجاح، ولتوجه ضربة قوية للرفض الكلاسيكي لتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، ومثلما أكدت الحرب صحة ومصادقية الفكر الكينزي، وجهت في الوقت نفسه ضربة للسياسات الرأسمالية القائمة على المبدأ الكلاسيكي (دعه يعمل... دعه يمر).

لكنه في النهاية قدم للرأسمالية في عمق أزماتها ولحظة احتصارها، وفي ظرف تاريخي حاسم، علاجاً ناحعاً، قال عنه شوميتز (أنه طبيب إسعاف الرأسمالية)، تبرأ من الكثير من المقدسات الرأسمالية، وأستخدم محرمانها أحياناً، لكنه ظل أمياً على فكره البرجوازي، ومعتداً بأسس الرأسمالية كنظام اقتصادي.

## المبحث الأول

### مسوغات ظهور الفكر الكينزي

أولاً: التكوين المعرفي

يقول براتراند راسل (Bertrand Russell) أحد أبرز فلاسفة بريطانيا أن كينز لديه (أدنى وأصفى) "عقل عرفته على الإطلاق، وعلى الرغم من نشأت كير في الفردوس المفقود في كامبردج، إلا أن كينز وأفكاره طافت أنحاء العالم. جميع رؤساء أمريكا من فرانكلين روزفلت إلى ريتشارد نيكسون مروراً بكينيدي وكونسون، اعتمدوا سياسات اقتصادية كينزية، إلا أن نيكسون أعبر (أسوأ) جميعاً نتبع كينز الآن"<sup>(١)</sup>.

اهتم في مقالاته بالجوانب التاريخية ودراسة الشخصيات، فقد كتب عن اينشتاين ونيوتن وغيرهم، مما دعا مؤرخ أكسفورد الشهير هيو تريفور روبر، وصع إسم كينز بين كبار المساهمين في المنهج التاريخي.

قال عنه فلاديمير ايلتش لينين قائد الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧، أنه (برجوازي من أعلى طبقة) ويقصد بها ضعيف الولاء السياسي، بينما كان كينز يرحل قال (عندما تأتي الثورة الشيوعية سأكون بجوار علم البرجوازية).

وعلى الرغم من تعرضه إلى النقد حول مظهره الخارجي وشكله، والتي كان أقساها من مدرس مساعد بقوله (أنه قبيح بشكل واضح، ذا شفاه بارزة، وحاجبين ثقيلين، مما هو أقرب إلى شكل القرد قليلاً)، إلا أن كير تعايش مع هذا الوجه الشبيه بالقرد، وطل مقتنعاً أنه قبيح، ومع هذا تزوج من راقصة الباليه الروسية المعروفة ليديا لوبوكوفا Lydia Lopokova.

شكل تأثير البيوريتانية والضغط الأخلاقي والفلسفي الذي حملته عائلة كينز، دوراً هاماً في هروبه إلى أمام، فانتمى إلى جمعية الحواريين التي ظلت تناقش ثلاثة موضوعات رئيسة هي الفلسفة وعلم الجمال وأنفسهم، مما جعله يتحرر من

قيود العائلة ويسعى الى تكوين نفسه بعيداً عنها، حتى في المجال المادي على الرغم من  
ارستقراطيته.

لم يكن إهتمامه بالرياضيات وموهبته فيها ونجاحه في جامعة كمبرج ترضي رغبته، فقد  
كتب الى أحد أصدقائه (أسي اسب الحزن لعقلي وأدمر دكاني وافسد مجري)، لذلك بدأ بالقراءة  
في المجالات الاقتصادية، وكان أول كتاب قرأه هو كتاب الفريد مارشال (المبادئ)، بعدها بدأ الكتابة  
الى مارشال الذي شجعه كثيراً، فقد كتب بعدة مدة قصيرة (إن مارشال يضايفني بالحاحه كيما  
أتحول الى اقتصادي محترف).

في أداء امتحان الخدمة العامة جاء ترتيبه الثاني من بين (١٠٤) متقدماً، ومن السخرية كانت  
نتائج كينز في الاقتصاد والرياضيات من أسوأ النتائج، وقد علق كينز على نتائجه في الاقتصاد قئلاً (إن  
الممتحنين لم تكن لديهم معلومات كافية، وأنه سوف يعلمهم)<sup>(١٧)</sup>

جاءت أفكار جون مينارد كينز ربما مخالفة لما هو معتاد من آراء الكلاسيك والكلاسيك  
الحدود، فقد وحه سهام بقده الى الاقتصاديين السابقين من أمثال بيكو الذي كان على الدوام  
يقول (إن الحل كله عند مارشال).

يعد كتاب (النظرية العامة) لكينز والمتضمن لحملة أفكاره، إذ يحكم الاقتصادي المعروف  
سامويلسون (Samuelson)، على غموض النظرية بالقول هو (كتاب سيء الصياغة، ضعيف  
التنظيم، وأي إنسان عادي، خدعته السمعة السابقة - يشترى هذا الكتاب، فإنه مخدوع في  
الثنى. إنه كتاب متعجرف، ذو مراج سيء عيب في جدله، وليس كريماً في شكره، يرجز بالفوضى  
والارتباك.. باختصار أنه عمل عنقري)<sup>(١٨)</sup>.

ثانياً: أزمة الفكر الرأسمالي (الأزمة الاقتصادية)

لقد ناقش المؤرخون الاقتصاديون طويلاً سبب الكساد العظيم، ولكن لا توجد إجابة بسيطة، والسؤال الأهم هو ما الذي حوّل الركود المؤقت إلى كابوس؟، إذ عايشت أمريكا فترات ركود من قبل ولكن ليس بهذه الحدة.

كينز كان مجبراً على (صراع طويل للهروب) من التراث الذي ترعرع في ظلاله<sup>(9)</sup>، لقد كانت رؤيته واضحة بـ الاعتراف بأن المستقبل مجهول ومن شأنه أن يؤدي إلى تهديم مجموع البيان النظري الأرثوذكسي المستند إلى مفهوم التوازن اللامتناهي (Timeless Equilibrium).

يؤكد أغلب الاقتصاديين في تفسير الأزمة اجتماع (تصادف) أكثر من حدث سيء في وقت واحد، من مثل بضوب فرص الاستثمار بعد تسارعها في العشرينات، قرار المستهلكين تقليل الإنفاق وسداد القروض، إتخاذ الحكومات المذعورة لسياسة حمائية، وفي مواجهة كل ذلك كان رد فعل نظام الاحتياطي الفيدرالي هو سياسات أشد، وليس سياسات أخف.

مدد قرر مصي من نظرية كينز ناقش مالتوس مع ريكاردو موضوعاً أمكابية حدوث إفراط في الإنتاج، على أنه المقابل لنقص في الطلب المتأني من نقص الاستهلاك، إلا أن الجميع رفضوا آنذاك ما سمي أكدوبة وقصور الإستهلاك أو نقص الطلب، وإذا كان نقص الطلب الفعال (Effective Demand) لا يمكن أن يحدث تبعاً لأراء ريكاردو وساي، فمن الواضح أنه لا يمكن أن تكون هناك حاجة إلى إجراء حكومي لتعزيز الطلب.

على هذه الحلفية شن كينز هجومه على ساي وقانونه آذ يقول (الشيء الأكثر عبءاً هو تصديق قانون ساي الذي هاجمه مالتوس منذ قرن مصي)، والية التوازن المفترضة، مدعياً أن الاقتصاد الرأسمالي محمول على عدم التوازن والاضطراب، لعدم قدرة اليات السوق من صط التدفقات الاقتصادية، مفترضاً أن الإقتصاد لا يحد بالضرورة توازنه في العمالة الكاملة (التامة)، بل يستطيع الاقتصاد من الوصول

الى التوازن عند مستوى أقل من الاستخدام الكامل أي بوجود بطالة، وهو ما سماه (توازن البطالة الناقصة)

كما أنه يهاجم ريكاردو بقوة، ويؤكد أن (هيمنة منهجية ريكاردو لمدة مئة سنة كان بمثابة الكارثة التي اعترضت التقدم في علم الاقتصاد)<sup>(١٥)</sup>.

لم يكن كينز هو الوحيد الذي شن هجمته على ساي، بل سبقه في العشرينات من القرن العشرين عدد من الباحثين الاقتصاديين، الذين خرجوا عن المألوف وهم (فوستر) و(كتشينج) الذي كان من العاقرة المبكرين (على حد جالبريث)، إذ يقول (لقد كان هؤلاء السادة في محال النظرية الاقتصادية "ويقصد الاقتصاديين الكلاسيك" لا يقدمون أكثر من الافتراض، حتى دون أية محاولة للإثبات، بأن تمويل الإنتاج نفسه يزود الناس بوسائل الشراء)<sup>(١٦)</sup>.

ومثلما أثبت كينز عدم إمكانية تحقيق الاستخدام الكامل وفقاً لرؤية ساي، ذهب الى التشكيك بالتوازن بين الادخار والاستثمار، وهو ما كان مفترضاً بحسب الفروض الكلاسيكية، استناداً لحيادية النقود، فيقول كينز أن حجم الاستثمار يكون بالضرورة مساوياً لحجم الادخار، ولكن عند التأمل يتبين أن الحال ليست كذلك.

تبعاً لذلك يصبح من الصعب الاعتماد على آراء الكلاسيك، من أن كل الدخل ستدفق عائداً في صورة طلب على السلع والخدمات، وفقاً لما نص عليه "قانون ساي"، وبعبارة يمكن أن يتسرب عن طريق مدخرات غير مستخدمة أو غير مستثمرة

لقد بدت الحاجة كانت الماسة الى مثل كينز ليهدي من روع الاقتصاديين المتعلقين بأهداف التقاليد الكلاسيكية، ومعهم أجيال قلائل أساءوا تعليمها، وكانت بريطانيا تشعر بالارتباك والحيرة حين توازن بين الصرح المنطقي البراق الذي أقامته الكلاسيكية، وبين صورة الواقع الرهيب التي تراءى أمام أنظارها.

استطاع كينز أن يستخدم منطقاً له قوة الأغراء ذاتها وفي أسلوب رائع كما تدعمه الرياضيات الصعبة، لكي يوضح السبب في عدم نجاح النظام في أداء



وطيفته، بل وانه أدخل على طريقته مقاييس الحديدية والتوازن المقررة، وأهم من هذا مقدرة الرخص على وصف الدواء الذي ترتب عليه مشقة كبيرة، من دون وضع الخيار بين الرأسمالية البحتة والاشتراكية الحالية<sup>(٧)</sup>.

على الرغم من اعتماد كينز للمبدأ القائل بحدوث نقص في الطلب الفعال بحسب ما أشار إليه مالثس وكالسكي من قبل والذي قلله كينز بقوة، وقبوله الصموني بالتصور الماركسي للضرورة الرأسمالية، والفائل بحصول النقص في الاستهلاك (Under Consumption)، كنتيجة طبيعية لمضمون فائض القيمة وطابع الاستغلال الرأسمالي.

إلا أنه يرى أن النقص في الطلب الفعال (Effective Demand) الذي يخلق الأزمة، يتأتى من عوامل عدة هي<sup>(٨)</sup>:

١- هبوط الميل الحدي للاستهلاك، Marginal Propensity to consumption والذي يمكن تفسيره من جانبين، إن الاستهلاك لا يرتفع بالنسبة ذاتها عندما يرتفع الدخل، وكذلك اتجاه الدخل يتعد شيئاً فشيئاً عن المساواة.

٢- تناقص الكفاية الحديدية لرأس المال، ويرجع كينز سببه إلى تناقص الانفاق الاستهلاكي العام، الذي يترتب عليه تناقص الأرباح، وبالتالي انخفاض الكفاية الحديدية لرأس المال المستثمر، مما يؤدي إلى لجم توجهات المستثمرين لطلب الإستثمارات الجديدة.

٣- تفضيل السيولة، وهو عامل مهم في التأثير على سعر الفائدة، إذ أن إرتفاع التفضيل عند الأفراد لأي سبب، من شأنه أن يبقى أسعار الفائدة عند مستويات مرتفعة، ولما كانت العلاقة عكسية بين سعر الفائدة والميل للاستثمار، ولما كان سعر الفائدة مع الكفاية الحديدية لرأس المال يحددان القرار الإستثماري، فإن اتجاهات التراجع في الاندفاع نحو الإستثمار، وبالتالي حدوث نقص في الطلب الكلي، قد توافرت مبررات حدوثهما.

٤- تجميد الأموال الاحتياطية: على الرغم من أيمان كينز بطلب الأموال لأغراض الاحتياط، إلا أنه يرى في المبالغة في تجميد أموال كثيرة لدى الوحدات الإنتاجية أو الأفراد بدافع الاحتياط، من شأنه أن يؤدي إلى إشكالية مركبة، طرفها حدوث النقص في الطلب الاستهلاكي والطلب الاستثماري، وهو ما يعمق حدوث الأزمة.

ويخلص كينز إلى أنه طالما لا يحمل المستقبل درجة عالية من التيقن بسلوك المتغيرات الاقتصادية، كما يزعم الكتاب الكلاسيك، فليس من الممكن وجود صارم للعقلانية المفترضة، وهذا ما دعا كينز إلى القول بالآتي:

إن الأعراف التي تؤثر على القرارات هي أساليب جميلة ومؤدبة، معمولة لغرفة مجلس إدارة جيدة التأييد ولسوق منظم بشكل حسن ، إنني أتهم النظرية الاقتصادية الكلاسيكية بكونها هي نفسها واحدة من هذه الأساليب الجميلة والمؤدبة، التي تسعى للتعامل مع الحاضر بالتجريد عن واقعة، معرفتنا بالقليل جداً عن المستقبل<sup>(٩)</sup>.

## المبحث الثاني الآراء الاقتصادية الكينزية

### أولاً- البطالة والاستخدام

تعد البطالة التي تفشت في معظم البلدان الرأسمالية واحدة من العوامل الدافعة لظهور الفكر الكينزي، لاسيما وأن معظم الأطروحات الكلاسيكية السابقة لم تعط إلا القليل لموضوع التقلبات في الاستخدام، وافترضت أن الإنتاج في أي اقتصاد قائم على أساس المشروعات الحرة، يتقرب بصورة تقترب كثيراً من حالة التوازن بين العرض والطلب، وأنه في ظل ذلك المردوس المتوازن يستطيع كل من يستحق عملاً أن يحصل عليه.

يرى الكلاسيك أن الأحرار تهبط عندما يزيد عرض العمل عن الطلب عليه، شأنه شأن أي سعر آخر، وأن انخفاض أجور العمل بالدرجة الكافية يعطي الفرصة المناسبة لأرباب الأعمال لاستخدام أكبر عدد من العمال.

كما افترضت نظرية الاستخدام الكلاسيكية أن استمرار البطالة يرجع سببه فقط إلى عدم قبول العمال بأجور أقل، مما يعني أن البطالة اختيارية، ولا وجود للبطالة الإحصائية التي تأتي من عجز النظام الاقتصادي من توفير فرص العمل المناسبة مع عرض العمل.

يعتقد كينز أن النظرية الكلاسيكية مهما بدت منطقية لا تنطبق على الواقع في الاقتصادات الرأسمالية في ظل الأزمة القائمة، وقد أفرد مساحة مهمة في النظرية العامة لنقد الأطروحات الكلاسيكية بشأن الاستخدام.

في النظام الرأسمالي تعبيرات التناقضات والمعاناة تأتي من مصادر متعددة ومتنوعة، والاهتمام الذي تبديه الدول الرأسمالية باقتصاد الرفاهية تأتي اعترافاً واضحاً بوجود التناقضات، المتأنية أصلاً من عدم قدرة السوق على تحقيق العدالة في توزيع الدخل.

إن البطالة الواسعة كانت مألوفة وواسعة النطاق واقعياً، وهو ما لم يظهر بوضوح إبان المراحل الأولى للرأسمالية، لكن بدا ذلك مترافقاً مع تطور قوى الإنتاج (التطور التكنولوجي)، الذي وفر الفرصة لإحلال الآلة محل العامل.

لا يمكن الإنكار مطلقاً، إن كينز لم يكن رأسمالياً وحيثاً ومتأثراً بماذجها، ولا يمكن أن يأتي بظرية توازن بعيدة عن المصالح الرأسمالية. إذ يرى كينز أن هذا التوازن موجود بين العرض والطلب بما يقرر مستوى البطالة، ولكن هذا المستوى قد يكون من الانخفاض بالقدر الذي يتعطر معه عدد كبير من العمال الأكفاء القادرين والراغبين في العمل وبالأجور السائدة، ومن هنا لا يمكن أن تكون الأجور العالية السبب في البطالة.

كما أنه يعتقد أن خفض في الأجور يعادل من الناحية النظرية النتائج المترتبة على الهبوط في سعر الفائدة، وأن ما يمكن تحقيقه بخفض الأجور يتم بصورة أفضل عن طريق خفض سعر الفائدة، وأن لم يكن أي من الاجرائين بالعلاج الكافي، ومن الطبيعي أن تجري مقاومة حفص الأجور من قِبل نقابات العمال، التي هي جزء حقيقي من النظام الاقتصادي وهو ما تكره النظرية الكلاسيكية.

يؤكد كينز أن هناك ارتباطاً بين مستويات الاستخدام والدخل، فعند كل مستوى من الدخل هناك مستوى معين من التشغيل يتناسب معه، وهي كلها مستويات توازن ليست بالضرورة توازنات عند مستوى الاستخدام الكامل الذي تفرسه النظرية الكلاسيكية.

وفي هذا السياق ينتقد كينز الكلاسيك في سعيهم الدائم لخفض الأجور والتركيز على الحد الأدنى من الأجور (الأجور الكافية)، ومن ثم الأجور الحدية، ويوظف هذا في إثارة المباشرة على خفض الطلب الكلي.

## ثانياً - الدولة والسياسة المالية

لم تتجاوز أية مدرسة اقتصادية أهمية الدولة/ الحكومة في الحياة الاقتصادية، إلا أن بعضها قيدت هذا الدور تبعاً للفلسفة التي إعتمدتها، وبرر الاقتصاديون الكلاسيك الموقف من الدولة على أساس الموقف السليم من المسائل المالية، فأكثر ما تحرص عليه أفكار الرأسمالية موضوعة إيرادات الحكومة المتأتية من الضرائب، فإذا ما كان دورها كبيراً وواسعاً تطلب الأمر مستوى عال من الإيرادات، مما يعني تشدد في فرض الضرائب.

هذا الفهم كان يهدف إلى خفض الالتزامات المترتبة على الرأسماليين، إذ أن الضرائب المرتفعة تحجم من إمكانية التركيم الرأسمالي المطلوب، لأن ذلك يعم على حساب استقطاعات من الأرباح الرأسمالية.

تعود آراء الكتاب الكلاسيك بدءاً من أب المدرسة آدم سميث، الذي يرى في دور الدولة ما هو إلا (سكرتارية رجال الأعمال - اللجنة التنفيذية للطبقة الرأسمالية)، فدورها هو تيسير عمل الوحدات الإنتاجية وليست إعاقته، من دور أي اعتبار أو أقرار بالحاجة إلى دور للدولة، وهذا يرتبط بعدم القبول بإمكانية حدوث أزمات اقتصادية تستوجب تدخلها. هذا خالفه كبير محتجاً على الكلاسيك بالآتي:

١- إن الحكومة هي العامل الكبير الذي يعوض مظاهر الفوضى، التي لا يمكن السيطرة عليها والتي تميز الرأسمالية.

٢- في وسع الحكومة أن تستثمر حين يقل تفاؤل الرأسماليين ويضعف الاستثمار.

٣- إذا ما حدث هبوط في الدخل القومي بسبب من قصور المدخرات عن اللحاق بالاستثمارات المطلوبة، وقررت الدولة أن تعالج ذلك، تطلب الأمر قيامها بالأنفاق من الأموال التي لا تأخذها من الجمهور، أي بمعنى

أنها تنفق بأكثر من الضرائب التي يتم جبايتها، مما يعني أن الدولة تحدث عجزاً متعمداً في موازنتها.

- ٤- يؤمن كينز بأن الحياة الاقتصادية الصحيحة للشعب تتطلب حالة تقترب من المساواة في التوزيع، وهذا يتطلب أن تعمل الدولة على اعتماد الضرائب التصاعدية، على أن تصاحبها إجراءات للتأمين الاجتماعي والخدمات العامة، مما يساعد على إعادة توزيع الدخل لصالح الشرائح الفقيرة، ويستهدف كينز من ذلك تحريك الاستهلاك بهدف رفع الطلب الكلي، لاسيما وأن الميل الحدي للاستهلاك عند الشرائح الفقيرة يكون عالياً.
- ٥- يدعو كينز إلى اعتماد سياسات حمائية (كمركية) ضد سلع الدول الأخرى وغلق الحدود أمامها، بغية تشجيع الإنتاج المحلي الذي يخلق فرص العمل لمواطني البلد، حتى وأن كان على حساب المزايا المقارنة أو النسبية.

#### ثالثاً- السياسة النقدية

أحد أهم المزايا التي ظل يحتفظ بها كينز وعلى طوال سنوات جهده البحثي في الفكر الاقتصادي، هو ما ذكره بشأنه جوريف شوميتز، إن إصرار كينز على الجمع بين النظرية الاقتصادية والسياسة العملية جعله مصاباً (بلعنة الفائدة).

أهم خصائص نظرية كينز في نطاق تقرير الدخل والفائدة هي الآتي<sup>(١)</sup>:

١- أنها حولت التركيز من مسألة تقرير الأسعار والتقلبات الاقتصادية إلى تقرير مستوى الأرباح وبالتالي الدخل والاستخدام.

٢ رفض كينز الفصل بين الجانب النقدي والحقيقي في التحليل الاقتصادي كونهما مترابطان عضوياً.

٣- عد سعر الفائدة ظاهرة تقررهما العوامل النقدية وليست العوامل الحقيقية.

٤- يتحدد سعر الفائدة من خلال تقاطع منحنى تفضيل السيولة Liquidity Preference ومنحنى عرض النقد (Money Supply).

وفي الوقت الذي يشير فيه كينز الى محدودية النظرية الكلاسيكية في الإتيان بتفسير واضح ومقبول لمعدل الفائدة والدخل، يقع هو أيضاً في إشكالية تقديم الحل، بسبب من أن منحنى تفصيل السيولة يرتبط بمستوى الدخل، على الأقل في ما يخص الطلب على النقود لأغراض المعاملات (Transactions Demand)<sup>(١١)</sup>.

يضع كينز مجموعة تحديدات على الدولة للتعامل مع النقد والسياسة النقدية هي<sup>(١٢)</sup>:

١- على الدولة العمل على معالجة تحديد عرض النقد، لما له تأثير على سعر الفائدة، مما يتطلب تأمين وفرة من العرض النقدي في التداول، من أجل إبقاء سعر الفائدة عند مستوى، يجعلها منخفضة كيما يشجع الاستثمار.

٢- فك ارتباط النقد (السائل) المتداول بالمعادن واستغناء الدولة عن الأساس الذهبي (Gold Standard)، هذا من شأنه أن يقلل تعلق الأفراد بالنقد السائل.

٣ قيام المصارف والسوك المركزية التي تتولى إصدار العملة بتحفيض قيمتها، من أجل تقبير طواهر الاكتناز النقدي، وعندئذ سيقبل الأفراد من تمسكهم بنقد تنخفض قيمته شيئاً فشيئاً، هذا سينعكس إيجابياً على إنخفاض سعر الفائدة.

٤- الفائدة ننظر كينز هي أصلاً ظاهرة نقدية، وهي ليست مكافأة عن (الانتظار) كما يزعم مارشال، بل مكافأة عن عدم الاكتناز أي التخلي عن السيولة.

٥- يرجع في كينز بشأن الفائدة الى مذهب أرسطو قديماً والكنيسة الوسطى، في أن المال في حد ذاته غير منتج، وحبذ قيام مجتمع يحصل على الجزاء فيه أولئك الذين ينتجون السلع والخدمات، أكثر من الذين يحتكرون الأسواق ويمتصونها ويكتنزون الثروات.

### هوامش ومصادر الفصل الثالث عشر

- ١- Bertrand Russell , Autobiography , London: Unwin paperbacks, ١٩٧٥, p.٦٩.
- ٢- Robert Skidelsky, John Maynard Keynes, vol.i, London Macmillan, ١٩٨٣, p.١٨٠.
- ٣-Ibid,p ١٧٣
- ٤- Paul Samuelson , Lord Keynes and the General Theory , Econometrica , vol.١٤ , ١٩٤٦,p.١٩٠.
- ٥- نقلاً عن: جوان روبنسون وكون إيتويل، مصدر سابق، ص ٨١.
- ٥- Blaug, op.cit , p.١٢٧
- ٦- جون كينيث جالبريث، مصدر سابق، ص ٢٥٠.
- ٨- Hansan,A.A, " A Guid to Keynes, McGraw-Hill, New York, ١٩٥٣,p.١٤٠.
- ٩- جوان روبنسون وكون إيتويل، مصدر سابق، ص ٨٢.
- ١٠- ج. أكلي، الاقتصاد الكلي: النظريات والسياسات، ترجمة عطية مهدي سليمان، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٦.
- ١١- جورج سول، مصدر سابق، ص ١٨٨.
- ١٢- فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١٣٩.





## **الفصل الرابع عشر**

### **المدرسة النقدية وتياراتها الرئيسية**



## الفصل الرابع عشر

### المدرسة النقدية وتياراتها الرئيسة

تمهيد

شهد الاقتصاد الرأسمالي منذ أزمة عام ١٩٢٩-١٩٣٣، وبفضل الأفكار الكينزية تجاوزاً لمشكلته أزمة الكساد العظيم (The Great Depression)، ليعم بثلاثين سنة من النمو الاقتصادي الرائع، إلا أن هذا لم يستمر، فقد ظهرت الكثير من المشكلات على صعيد الاقتصادات المحلية أم على صعيد المنظومة الرأسمالية.

لذا أصبح من الطبيعي أن تتجاوز الأحداث الفكر الكينزي، لأن الواقع الاقتصادي الذي ظهر فيه هذا الفكر يبدو مختلفاً تماماً، لذلك ظهر الفراغ واضحاً في عدم إمكانية الكينزية من إيجاد الحلول اللازمة والسريعة للمشكلات التي بدأت أثارها واضحة.

هذا فسح المجال لتنظير إقتصادي جديد يحاول أن يجد مكانه بديلاً عن الفكر الكينزي السائد، على خلفية المشكلات القائمة من ناحية، والشعور بأن الكينزية قد إعتدت على الكثير من أسس الكلاسيكية، وعد سياساتها وبخاصة تدخل الدولة ابتعاداً عن منافع وأصول الرأسمالية كما جاء بها آدم سميث.

لهذا نلاحظ الشعار الذي اعتمده الأب الروحي ومؤسس المدرسة القودية (ميتون فريدمان) من أن الخلاص من المشكلات القائمة هو بالعودة إلى (الأصول والمبادئ للفكر الكلاسيكي). لقد خدمت هذه المدرسة ظروف اقتصادية مصاحبة منها (ارتفاع مستويات التضخم- البطالة- ارتفاع أسعار النفط)، مما وفر مساحة لقبول أفكار هذه المدرسة لعرض الخروج من الأزمة، ووجدت في الرئيس الأمريكي رونالد ريجان في بدايات ولايته حيز داعم ومطبق لها بجانب رئيسة وزراء بريطانيا (مارجريت تاتشر).

عندما خاض الرئيس الأمريكي ريغان معركة الرئاسة عام ١٩٨٠ ضد جيمي كارتر، أورد بعض المفاهيم الاقتصادية بشكل طريف (الركود هو أن يفقد حارك وظيفته، والكساد هو أن تفقد أنت وظيفتك، والانتعاش هو أن يفقد جيمي كارتر وظيفته).

## المبحث الأول أسس الفكر النقدي

لقد ذكر كينز في خطاب موجه الى الرئيس روزفلت تشبيهاً ذكياً مع الاستهزاء بالقوى النقدية (بعض الناس تلمح الى انه يمكن رفع الناتج والدخل عن طريق زيادة كمية النقود، ولكن هذا يشبه محاولة من يريد أن يضمن نفسه فيشتري حزاماً أكر من حسمه، في الولايات المتحدة اليوم حزامك كبيراً جداً بما يكفي لطنك)<sup>(١)</sup>.

وهو ما عبر عنه ميلتون فريدمان من أن تأثير كينز أدى الى احتجاج مؤقت لنظرية كمية النقود، ولكن من المحتمل أن يكون قد أدى الى تساؤل دائم للبحث والكتابة الاقتصادية الموجهة للنظرية والتحليل النقدي، وقد ساعد ذلك على إنتشار الرأي القائل (بأن النقود لاتهم أو أنها لاتهم كثيراً)<sup>(٢)</sup>.

ترتكز أطروحة المدرسة النقودية على تقرير صغم أصدره ميلتون فريدمان وأنا ج شوارتز (Anna J Schwartz) بعنوان التاريخ النقدي للولايات المتحدة ١٨٦٧ - ١٩٦٠<sup>(٣)</sup>، يحمل فيه المؤلفان على كبير منطلقين من انه لم يعط السياسة النقدية ما تستحق من الاهتمام والدور في تحليله.

فقد أثبت الكساد قوة السياسة النقدية لا عقمها كما زعم كينز، ففي السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٣، انخفضت كمية النقود بمقدار الثلث، ووجه فريدمان وشوارتز الاتهام الى هيئة الاحتياطي الفيدرالي آنذاك كونها رفضت تقديم السيولة النقدية للبنوك، عندما هرع العملاء لسحب ودائعهم، ولو حدث ذلك لكان من شأنه أن يزرع الثقة عند العملاء ويقلل الهوس في سحب المدخرات.

لاحظ خبراء النقد بعد عقد الستينات أن سرعة تداول النقود أظهرت خطأ ثابتاً من النمو المتوقع لما بعد عام ١٩٤٨، وبعد أثبات قوة النقود ونفخ الحياة مجدداً في المذهب النقدي، بدأ خبراء النقد في تحدي الادعاء الكبير بأن الأنفاق الحكومي يستطيع حفر الاقتصاد، ولديج هذا التين، احتاحوا لإظهار أن مضاعف كينز كان صفراً

واحتاج هذا الأمر الى بيان من أين تأتي النقود للأنفاق المالي الحكومي؟، إذ ظلت الموارد المالية ثابته؟ فإذا ما أنفقت الحكومة أموالاً أكثر، لابد لجهة أخرى من تحفيز أنفاقها، وتم رفع الضرائب لتمويل الحكومي فالمستهلكون ربما يقللوا استهلاكهم، وإذا تم الاقتراض من الجمهور عبر سندات حكومية فهذا سيرفع من سعر الفائدة، وبالتالي سيقلل المستثمرون طلبهم على الاستثمار الجديد مما يعني دون تزاخم.

أنصار كينز لم يرفضوا فكرة التزاخم أو الطرد، لكنهم يشيرون الى عدم تكافؤ ذلك مع الأنفاق الحكومي خاصة خلال الركود، بيد أن الانموذجات الكينزية تعترف بأن كينز قد بالغ في قصيته، ولكن هذا ليس سبباً لأن يبالغ بعض خبراء النقد في قصيتهم.

بدأ كينز تحليله الاقتصادي نقدياً مؤمناً بطرية فيشر في مقالاته عن (الإصلاح النقدي)، مصوراً أن سرعة التضخم تدفع الناس الى أنفاق نفودهم بمعدل أسرع، مما يؤدي الى إرتفاع الأسعار بمعدل أكبر، فيما لم يؤمن فريدمان بهذا، المفارقة المثيرة للسحرية هي أن كينز بدأ نقدياً وبصح فكرياً وأصبح كينزياً، في حين بدأ فريدمان كينزياً وبصح فأصبح نقدياً، وعندما كتب كينز البطرية العامة أقنعه الكساد بأن مبادئ خبراء النقد كانت عقيمة.

يعلن فريدمان بتواضع، أن الاقتصاديين لا يعلمون عن السياسة المالية ما يكفي لتحريكها بحكمة، إذ يستغرق الأمر ربما أحياناً ستة أشهر، قبل أن تؤثر السياسة المالية على الناتج القومي الإجمالي الاسمي، وأحياناً سنتين، بل أنها عادة ما تؤدي الى إيداء الاقتصاد عندما يتم ضبط الإيقاع الاقتصادي.

في الجانب الإيديولوجي تؤكد المدرسة على أن الأداء الاقتصادي يجب أن لا يتعرض الى الارتباك بفعل التدخل الحكومي أياً كان نوعه، وهو ما جرى تسميته في أدبيات التوقعات العقلانية بالمصدقية في التعامل ما بين القطاع العام والقطاع الخاص.

## المبحث الثاني

### التيارات الرئيسة للمدرسة النقدية

أولاً: تيار التوقعات العقلانية

#### ١- المرحعية الفكرية

ترجع أصول هذه المدرسة الى دراسة قام بها جون موث (John Muth) عام ١٩٦١، في إطار البحث عن أجراء من الحقيقة تتم أضافتها الى النظرية الاقتصادية، مع التصارع الواسع بين الأفكار المعاصرة منها والحديثة.

مع بداية عقد السبعينات كانت هناك مجموعة من الاقتصاديين المشتغلين بحقل الاقتصاد الكلي من مثل (Lucas-Sargent-Wallace) من أنصار نظرية التوقعات العقلانية، قد عملوا على تكامل مسيحها ورؤاها ومطومتها الفكرية لتدخل الأدب الاقتصادي، في ظل أزمة حادة طالت مفاصل الاقتصاد الرأسمالي، لتوفر فرصة سانحة لقبول أية آراء تخرج الاقتصاد من أزمتة.

إذ ركز هؤلاء على تطوير نظري عام ينهل من معين الفكر الكلاسيكي ويتجاوز أطروحات فريدمان، وصولاً الى سياسة تتواءم مع روح النظام الرأسمالي، دفعاً باتجاه أحراج النظام الرأسمالي من وهدت أزمته المستمحلة في تزاوج البطالة والتضخم (Stagflation)، وعرفت هذه المدرسة الفكرية بالعقلانيين (Rationalists).

هذه الاتجاه الفكري لها في رحم المدرسة النقودية ممثلة في مدرسة شيكاغو وآراء (ميلتون فريدمان)، إلا أنها اعتمدت خطأ بعيداً عن المدرسة النقودية لاحقاً، بل عدت أحياناً استمراراً لرحم الآراء الكبيرة، وانقلاباً ضد آراء ميلتون فريدمان (M. Friedman)<sup>(٥)</sup>.

بيد أن هذه المدرسة وكما هو التاريخ الاقتصادي تتوافق مع أصول الرأسمالية، فعلى خلاف التحاريين الذين قالوا أن الحكومة تساعد الاقتصاد، في حين حاءت الكلاسيكية لتنظر الى إراحة الدولة جاساً كونها مؤذية.



إما أنصار الكينزية فعدو وجود الدولة لازماً لمساندة الاقتصاد، لأن الآليات الاقتصادية غير قادرة على صط الأوصاع الاقتصادية، في حين أشار الفوديون إلى أن الحكومة مفيدة وغير مفيدة، إما مشايعو التوقعات العقلانية فيدعون إلى أن التدخل الحكومي هو وهم، مثل خداع السحرة، لا يستطيع تغيير الحقيقة كثيراً.

## ٢- التضخم

وفي إطار معالجة التضخم الذي شكل أصعب المشكلات الاقتصادية في بريطانيا وأمريكا بنحو أقل اشتملت الآراء على اتجاهين:

الأول: نظريات الزخم (Momentum) أو نظريات لب التضخم (Inflation Core)، التي ترى أن هناك زخماً يتلارم مع ظاهرة التضخم، وهو إبعكاس للحركة البطيئة لقوى المعدية للتضخم، وهذا التفسير يأتي في إطار سياق التوقعات المكيفة أو المرتدة ذاتياً<sup>٦</sup>، المرتكرة على أن العمال والشركات يشكلون توقعاتهم عن معدل التصخم المستقبلي بواسطة احتساب المتوسط المتحرك (Moving Average) لمعدلات التضخم الحارية والمتباطئة، وهذا المتوسط المتحرك يحصر من التضخم المتوقع دالة بسيطة لمعدلات التضخم الحارية والماضية، مع الأخذ بنظر الإعتبار التوصيف النفسي للتوقعات.

الثاني: نظرية التوقعات العقلانية، والتي نعتقد بإمكانية تحجيم التضخم حالمًا تتوافر القاعة عند الأفراد والوحدات بأن الحكومة والبنك المركزي حدار في محاربة التضخم، مما يعني أن التوقعات التضخمية ستقل وسيخفض معدل التضخم لاحقاً، من دون أية آثار سلبية على معدل البطالة، وهو ما يدفع نحو نمو للناتج الحقيقي<sup>(٧)</sup>.

ففي دراسة (Taylor) حول التضخم وظف فيه نظرية التوقعات العقلانية، لبيان أن الوحدات الاقتصادية في أمودحه تقوم بتشكيل التوقعات عن التضخم، كدالة لكافة المتغيرات المناسبة للتنبؤ بالتضخم المستقبلي.

لهذا يرى أن هناك الكثير من الإستراتيجيات التي تستطيع جميعاً، وبنجاح خلق انكماش في الاقتصاد مع عدم وجود كلف من نوع إرتفاع البطالة، ومن بين هذه البدائل إستخدام سياستين مالية ونقدية إنكماشية، على أن يعتمد مقدار هذا الانكماش في السياسة على ديامكية عقود الأجور، فمقدار الأجر الاسمية التي كانت موجودة في العقود القديمة، مما يعطي المجال لتحديد التضخم بكلف زهيدة جداً.

### ٣- السياسة الاقتصادية

ركزت مدرسة التوقعات العقلانية على عجز صانعي السياسة الاقتصادية، في إيجاد سياسة اقتصادية منتظمة مضادة للدورات التجارية، وتحقيق الاستقرار في الاستخدام (التشغيل) ورفع الدخل القومي الحقيقي، من خلال التأكيد على الجوابب الجدلية في النظرية الكلية. تقرر التوقعات العقلانية على توازن كافة الأسواق، ذلك لأن الأسعار تتوافق مع بعضها البعض دائماً للتحلص من أي فائض أو نقص، هذا المطلق الكلاسيكي في دور آليات السوق يتفق عليه معظم الاقتصاديين، إلا أن الكينريين والقوديين يسمحون بفترات إنتقال أطول أما بسبب الأجر العائمة أو فترات التباطؤ في انتقال أثار السياسة النقدية، وهو ما تعزوه هذه المدرسة الى التوقعات وتدفق المعلومات.

فيما أفردت الأطروحات اللاحقة إهتمامها للعناصر النظامية الرئيسة المكونة لسياسة الطلب، وتلك التأثيرات الناتجة عن العناصر العشوائية المكونة لهذه السياسة، وبالتالي رفض سياسات الطلب الإجمالي الهادفة الى التأثير على المتغيرات الحقيقية في الاقتصاد.

يبين (Stein)<sup>(٨)</sup> أن التوقعات العقلانية تقوم في الأساس على ثقة الحكومة بالوحدات الاقتصادية، حالما يتوافر الوقت الكافي والمناسب للوحدات لملاحظة طريقة عمل السلطة النقدية، فإن العنصر النظامي المكون لمسار الطلب الاسمي

والناشئ بفعل سياسات معالجة الطلب النقدية، سوف يتم التنوؤ به مما يفقد أي من تأثيراته على المستوى السعري.

مما يعني أن العصر غير المتوقع سيكون له التأثير الرئيس على المتغيرات الحقيقية، كما أن صدمة العرض غير المتوقعة سيكون لها التأثير نفسه في حالة الحد العشوائي على المتغيرات الحقيقية، لذلك فإن السلطات والوحدات الاقتصادية لن تكون متوقعة لسلوك الحد العشوائي، مما يفقدهم إمكانية التأثير على المتغيرات الحقيقية بفعل اتباع سياسات الطلب.

لذلك تدعو نظرية التوقعات العقلانية إلى أن أي تحليل مفيد لطبيعة السياسات الاقتصادية الكلية، يجب أن يتضمن بالضرورة اختياراً بين قواعد لسياسة كلية قابلة للتنبؤ، ومتسمة بقدر من الاستقرار، وبين الإجهاد في وضع هذه القواعد، على أساس أن السياسات الاستقرارية القريبة الأمد فشلة<sup>٤</sup>.

على أن لا تستبعد هذه السياسات وجود معدل طبيعي للبطالة ( Natural Rate of Unemployment)، مما يعني رفضاً للمنطق الكينزي القائل بأن البطالة لا تظهر إلا في حالة فشل سياسات الطلب الفعال.

وبهذا فإنها إقامة الرابطة بين مستوى الاستخدام والتوقعات من منحى العرض العمودي عند نقطة الاستخدام التام، يؤدي إلى أن أية زيادة في الطلب الكلي ستدفع الأسعار إلى الارتفاع، وهي زيادة إسمية وليست حقيقية، ولطالما يمتلك الأفراد التوقعات العقلانية بشأن مسار السياسات، فإنهم لن يتوهموا بهذا النوع من الارتفاع مما يحيد تأثير سياسة زيادة الطلب الكلي على الناتج أيضاً.

#### ٤- السياسة المالية

تطلق هذه النظرية في رؤيتها للسياسة المالية من مفهوم ريكاردو، من أن جميع الفعاليات الاقتصادية تستجيب عموماً للتعيرات في مستوى ووقت الطلب الحكومي ومستويات الضرائب، كما يبين أن الاختيار بين العجز أو اعتماد الضرائب الكبيرة سوف يؤثر على أولاً على المستوى العام للأسعار<sup>٥</sup>.

وفي إطار تقويم اقتصادي هذه المدرسة للسياسات المالية المعتمدة وأثارها في ضوء أطروحات التوقعات العقلانية، توصلوا الى أن مقياس لدالة الرفاهية Welfare Function، لا يمكن أن يعمل وانه يجب إستخدام مقياس فعالية السياسة المالية بدلا عنها، رافضين في الوقت نفسه مبدأ زيادة الضرائب لتمويل العجز الحكومي<sup>(١١)</sup>.

على عكس النقديون الذين يرون أن زيادة الأنفاق الحكومي في ظروف العجز، من أجل تحفيز الطب الإحمالي، من شأنه أن يرفع مستويات أسعار الفائدة ويخلق تراخياً على الاستثمار. يتوصل منظرو العقلانية الى النتيجة ذاتها ولكن من خلال آلية مختلفة ترتبط بالأفراد وباستعمالهم للتوقعات العقلانية، إذ سوف يؤدي العجز المالي حتماً الى زيادة الضرائب، ومن أجل الاستعداد لدفع الضرائب فإن الأفراد والشركات سيلجأون الى أحداث تخفيض حقيقي ومدموس في الاستهلاك، مما يؤدي الى أصعاف فاعلية تأثير الزيادة في الأنفاق الحكومي، وبالتالي عدم فاعلية السياسة المالية المعتمدة.

هكذا يرى أتباع هذه المدرسة، أن السياسة المالية الوحيدة المؤثرة والقادرة على أصعاف أو إيقاف تأثير الريادات في الأنفاق الحكومي، تنأت فقط من السياسة التي تفاجئ الأفراد والشركات على حد سواء، والتي لا يمكن التنبؤ بها أو معرفتها، راعمين أن التدخل الحكومي يتطلب التقليل باستمرار وربما التحييد.

بيد أن هذه المدرسة وكما هو التاريخ الاقتصادي تتوافق مع أصول الرأسمالية، فعلى خلاف التحاريين الذين قالوا أن الحكومة تساعد الاقتصاد، في حين جاءت الكلاسيكية لتنظر الى إزاحة الدولة جانباً كونها مؤذية.

إما أنصار الكينزية فعدو وجود الدولة لازماً لمساندة الاقتصاد، لأن الآليات الاقتصادية غير قادرة على ضبط الأوضاع الاقتصادية، في حين أشار النقوديون

الى أن الحكومة مفيدة وغير مفيدة، إما مشايعو التوقعات العقلانية فيدعون الى أن التدخل الحكومي هو وهم مثل خداع السحرة، لا يستطيع تغيير الحقيقة كثيراً<sup>١٢</sup>

#### ٥- أسواق الأسهم والسندات

يقدم سوق الأوراق المالية أكثر الأدلة أقنعاً على صحة أراء التوقعات العقلانية، إذ يقرر الاقتصاديون أن هذه السوق لها القدرة العالية على امتصاص المعلومات على الفور تقريباً، وأن أسعار الأسهم تعكس هذه المعلومات فوراً.

وسرعة تدفق المعلومات والرمز متغيرات فاعلة في سلوك قيم هذه الأسهم، فإذا ما تواردت معلومات تشير الى توقع شركة ما، أنها تواجه عاماً طيباً لأدائها الاقتصادي، وأن الأفراد قد تأخروا في معرفة هذا، فلن يكون بمقدورهم الاستفادة من المعلومات.

لذلك فإن أسعار أسهم الشركة سوف ترتفع بناءً على توقعات السنة القادمة والأرباح والعوائد المتوقعة، وليس على أساس البيانات المالية الجارية.

هذا الفرض تسميه نظرية التوقعات العقلانية (فرصة السوق الكفاء)<sup>١٣</sup>، وإذا ما صح ذلك، فمن غير الممكن هزيمة متوسط العائد على الأسهم عن طريق تتبع تحركات السعر، فالسوق يقوم فعلاً بتقدير العوائد المستقبلية بكفاءة، عليه يصبح من الصعب أن تكون الأسهم مقومة بأعلى أو أقل من سعرها الحقيقي، إلا إذا كان الأفراد يجهلون خصائص الشركة أو جرى حجب معلومات عنهم، عندئذ يصبح سعر السوق معبوداً لا يخطئ.

في هذا السياق يشير اقتصاديو التوقعات العقلانية وبالذات روبرت لوكاس وتوماس سرحنت<sup>١٤</sup>، إن سلطة الحكومة على السوق تكاد تكون ضعيفة الى درجة، ويعتمد العقلانيون الأسواق المالية ثم ينتقلون الى الأسواق الأوسع في الاقتصاد.

فإذا ما قررت الحكومة أن ترفع مؤقتاً أسعار أسهم إحدى الشركات عن طريق شراء أسهمها، فإن العوائد والأرباح المستقبلية هي التي مثلت دافعاً لهذا

الشراء، عندئذ يشعر المستثمرون أن سعر السهم قد جرى تقويمه بأعلى من سعره، مما يدفعهم إلى بيع الأسهم.

إما إذا باعت الحكومة أسهمها في السوق فإن أسعار الأسهم سوف تنخفض بشدة، مما يدفع المستثمرين للشراء نظراً لشعورهم بأن الأسهم تستحق سعراً أعلى، إلا أن هذه التحركات مهما بلغت، فإن السعر سيعود إلى قيمته الحقيقية، ما لم تكن هناك معلومات جديدة تؤثر على المستثمرين لقبول أسعار جديدة.

#### ثانياً: تيار اقتصاديات جانب العرض

ركز الكلاسيك في سياساتهم الاقتصادية الكلية على الإنتاج أي إدارة جانب العرض، بينما انصب جهد الكيرية على جانب إدارة الطلب Demand Management، هذه السياسة ظلت فاعلة لعقود ليست قصيرة، وعلى خلفية الأوضاع التي ضربت الاقتصاد الرأسمالي، وإحفاق السياسات الاقتصادية المرتكزة على الرؤية الكينزية، إيفتح المجال الواسع لأراء كثيرة لحروج من الأزمة.

وقد تصدرت مدرسة اقتصاديات جانب العرض كوليد هعين، من الرؤى النقودية وأخرى من التوقعات العقلانية، في مسعى منها لتعيد الإنتباه مرة أخرى إلى جانب العرض، مطلقاً من أن الناتج لا يعتمد فقط على الطلب الكلي بل يعتمد أيضاً على قاننية الاقتصاد في عرض السلع والخدمات، وهو ما وسم هذه التيار باقتصاديات جانب العرض (Supply - Side Economics).

إن المحافظة على معدل مناسب للنمو وتطوير الإنتاجية في آن واحد، يحتاج بعائبه إلى التركيز على أن عوامل العرض مثل كمية رأس المال والرغبة في العمل تمثل هي الأخرى محددات أساسية للنمو مثلما هو النقص في الطلب الإجمالي، لذلك فإن الاهتمام بزيادة الإنتاج هي الطريقة الأقصر لبلوغ السيطرة على التضخم والبطالة في الاقتصاد معاً<sup>١٥٥</sup>، من دون أن تحري أية مقايضة فيما بينهما

لهذا تدعو المدرسة الى أن يتم اعتماد سياسات من شأنها أن تحفز النمو في العرض الكلي، من خلال دعم الإنتاج وتحقيق الاستخدام الكامل، مما سيؤدي الى خفض الأسعار، هذه الدعوة تعد انتقاداً واضحاً للمفاهيم الكيزية، ولا يمكن القول أن هذا يعد أمراً جديداً، فقد وجدت هذه الأفكار في عقد الثلاثينات من القرن العشرين على يد المفكر جون فون هايك (J.V. Hayek)، الذي أكد على أن المودج الكيزي لا يستطيع العمل في اقتصاد تكون صفته الأساسية التضخم وانخفاض الإنتاجية<sup>(١٦)</sup>.

النموذج الكينزي يرى أن جل الحفر في الإنتاج وجانب العرض ومكافحة البطالة يتم انطلاقاً من الأنفاق الحكومي، وعكس ذلك سيريد حتماً من البطالة، بينما ترى مدرسة اقتصاديات جانب العرض أن يواحه بشكل أفضل من خلال تحفيز الإنتاجية ومموها، كيما تؤثر في جانب العرض، وتحفيز الضرائب المفروضة على القطاع الخاص وعلى المستهلكين سيحفر بدوره كلاً من الادحار والاستثمار من ناحية، وأر تحفيز الضرائب من شأنه أن يحفز الأنفاق الحكومي، مما يوفر الفرصة لتخفيض العجز في ميزان المدفوعات من ناحية أخرى، وهذا يعزز بالتأكيد موقع الاقتصاد نحو الأفضل.

يؤكد اقتصاديو جانب العرض على أن إيقاف التصاعد في التضخم المتأني من زيادة الطلب الكلي على العرض الكلي، يتم من خلال خفض في الطلب الكلي الذي يعمل مترامناً الى أبطاء التضخم ويرفع من البطالة، وهذا لا يقدم شيئاً.

لذلك لابد من التوجه الى جانب العرض الذي سيعمل على تخفيض تكاليف الإنتاج، من خلال خفض الضرائب بشكل عام وتقديم الإعفاءات الضريبية لقطاع الأعمال الخاص، مما يترتب عليه أحداث خفض في أسعار المنتجات التي سيرافقها تحسن في الإنتاجية، وهذا سيشجع على زيادة الإنتاج وبالتالي ستخفف البطالة مع التضخم في آن واحد.

#### هوامش ومصادر الفصل الرابع عشر

- ١- John Maynard Keynes, The Collected Writings of J.M. Keynes, vol.xx1, London , Martin's Press for Royal Economic Society , ١٩٧٣ , p. ٢٩٤ .
- ٢- Milton Friedman , "Money: Quantity Theory" In International Encyclopedia of the Social Sciences, N Y, Free Press, ١٩٦٨, p ٤٣٨.
- ٣- Milton Friedman & Anna J.Schwartz, Monetary History of United State ١٨٦٧-١٩٦٠, Princeton, Princeton University Press, ١٩٦٣.
- ٤- تود ج بوشهولز، مصدر سابق، ص ٢٨٣.
- ٥- جالبريث، مصدر سابق، الفصل الحادي والعشرون.
- ٦- Dornbusch,R and Simonsen,M, Inflation, Debt and Indexation, The MIT press ,Cambridge, USA,١٩٨٢,p ٥٤
- ٧- Taylor,B "Staggered Wage Setting in Macro Model", American Economic Review, Paper and Proceedings, ١٩٧٩, p. ١٠٨.
- ٨- Stein.H, "Variable Wind Fall", New York Time Magazine , Sep.١٩٧٩, p.١٤.
- ٩- McCallum,B " Rational Expectation and Macro Economies Stabilization Policy", Journal of Money, Credit and Banking, Nov.١٩٨٠, p ٧١٦.
- ١٠- Barro,R. "Rational Expectation and Macro economic in ١٩٨٤", A.E.A Paper and Proceedings,May,١٩٨٤,p ١٨٠.
- ١١- Stein,op.cit, p.٧٦.
- ١٢- تود ج. بوشهولز، مصدر سابق، ص ٣٢٥.
- ١٣- Lucas, R. "An Equilibrium Model Of The Business Cycle", Journal of Political Economy, Dec.١٩٧٥, p١١١٣.
- ١٤- Sargent,T. & Wallace,N. "The Optimal Monetary Instrument and the Optimal Money Supply Rule", Journal of Political Economy, April,١٩٧٥, p ٢٤١
- ١٥- Dyal,J&Karatgas,N, Basic Economics, Macmillan Publishing Company, New York,١٩٨٥,p.٣٨١.
- ١٦-Scott,R.&Nigro,N,Principles of Economics, Macmillan Publishing company ,N.Y, ١٩٨٢, p.٨٠٥.





## **الفصل الخامس عشر**

### **حصار الطواف في الفكر الاقتصادي**



## الفصل الخامس عشر

### حصاد الطواف في الفكر الاقتصادي

تمهيد

جاء طوافنا في الفكر من (٢٥٠٠ ق.م) والى الآن، فرصة للتعرف على جذور الإرهاصات الفكرية، التي قدحت في هذه المرحلة أم تلك، كما أنها شكلت دلالة على أن الحياة لم تكن رهينة معطى واحد، سواء أكان ذلك فكراً أم قوة اقتصادية أم مادية.

وما يمكن قوله أن لكل مرحلة فكرها الذي يعبر عن حاجات المجتمع عند مرحلة تاريخية موصوفة، ويمثل حاجة موضوعية لدفع عوامل البناء الاقتصادي - الاجتماعي إلى الأمام، وهو ما عده البعض من الباحثين تعبيراً عن حاجات الطبقات المهيمنة في المجتمع، وهو ما يحد أسابده في تاريخ بشوء الأفكار والرؤى.

بيد أن التحول الكبير الذي يمكن التوقف عنده باستمرار، أو الاستعانة به لا يبتعد كثيراً عن الفهم السائد من أن الرأسمالية على الرغم من مخرجات أفعالها الاقتصادية الصرف، إلا أنها استطاعت أن ترفع لواء البحث والتنظير في المجال الاقتصادي، مع كل انتقاله تجري في غمط إنتاجها والتحويلات الجبرية عليها من المرحلة الماركستيلية (التجارية) إلى مرحلة الرأسمالية المعولمة، إلا أن هذا التنظير الفكري ظل أميباً ومتمحوراً حول نواة ثابتة من المفاهيم والمناهج الأساسية

ما هو جدير بالاهتمام هو بيان النواة الصلبة للفكر الرأسمالي، الذي يحظى بمساحة واسعة من الاهتمام في إطار حركية وتكيف الرأسمالية مع مقتضيات التحديات التي تواجهها، والبرغم أن النموذج الرأسمالي في التطور بكل قيمه وأخلاقياته وتنظيماته هو (الحقيقية المطلقة)، مضعياً على الفكر والنظام الرأسمالي مشروعية لا حدود لها وكأنه (نهاية التاريخ).

هذا لم يكن محض مصادفة أو حتمية تاريخية كما يحلو للبعض الإشارة إليها، بل هو في حقيقته نتاج بلورته عقول مفكري ومطري الرأسمالية طبفاً لوطيفتهم العامة في البطام السياسي والاقتصادي الرأسمالي. وعدئذ فقط لا غرابة إذا وجدت أن بدرة البلوط قد انبتت شجرة بلوط، على حد تعبير المفكر اليوت (Eliot).

## المبحث الأول

### فكر النشأة والتوسع الرأسمالي

أولاً: أسس الفكر الاقتصادي المنظم

من المعروف أن نشأة النظام الرأسمالي تمثلت بمجموعة العمليات التاريخية التي أفصت إلى سيادة إقتصاد السوق، وسيطرة الإنتاج الصناعي في مرحلة إكتمال ونضج نط إنتاجه، وفيه عدت قوة العمل بضاعة<sup>(١)</sup>، وتقسيم العمل الاجتماعي نقطة انطلاقه وتطوره.

وبعاب ذلك فإن ظهور الأفكار الاقتصادية الرأسمالية لم يكن اعتباطاً، وإنما كانت هناك عوامل كثيرة حتمت ظهوره، رداً على ما كان سائداً آنذاك من أفكار لم تعد تسير التطور الذي طرأ على المجتمعات الأوروبية، وأبرزها الاستكشافات الجغرافية التي عدها آدم سميث أكبر الأحداث المسجلة في تاريخ البشرية.

إن الفكر الرأسمالي في مرحلته الوليدة كان مرتكزاً ومتزامناً مع عصر التنوير الذي يعد (نسقاً) في نظام الفكر الأوروبي العام، وبحسب تقسيمات الفيلسوف الفرنسي المعاصر ميشيل فوكو، فإن التنوير الأوروبي تشكل في إطار العصر الكلاسيكي الذي يقع بين عصر النهضة الذي بدأ في القرن السادس عشر، هذه العصور (المراحل) التاريخية تمثل الإيقاعات الكبرى في المخطومة الفكرية الأوروبية، التي تمت دون أن تحدث فيها (إنقطاعات معرفية) " على حد الزعم السائد.

ما يلاحظ أن صعود الإبداع المعرفي والفلسفة الذي جاء به فلاسفة عصر التنوير والنهضة، من مثل (فولتير - مونتسكيو - سان سيمون - غوته - وغيرهم) كان يصدر عن فعل إيماني كوني، عني الرغم من إدراكهم للفروق بين المجتمعات، إلا أن انتماءهم الإنساني ظل هاجساً رئيساً للمنتج الفكري.

هذه الفلسفة كانت معيناً مهماً للفكر الإنساني، إذ أعلنت عن سمات العدالة والحريات وجوهر القوانين ومثالية الأشياء، فأضحى الإنسان كائناً يتنوّياً كونيّاً في

أن واحد معاً، مشدوداً إلى تراثه وخصوصياته من جهة، محاولاً الرحيل إلى الشريعة جمعاء فهو مشدود من جهة لخصوصيته ولكونيته من جهة أخرى.

تؤكد معظم الدراسات إلى أن الرأسمالية منذ نشوئها كنمط إنتاج مكتمل، كانت عالمية، وفي أبعادها الأساسية هي بالضرورة أيديولوجية ذات بعد اقتصادي مهيم، مقدمة نتائجها في الفكر والنظرية الاقتصادية على أنه خطاب يتمتع بدرجة عالية من التحريد والاستقلالية، إلا أن أيديولوجية الرأسمالية لا تختزل في هذه السمة الرئيسة<sup>(١٣)</sup>.

إن موارد وتجارب وعناصر وفعاليات الرأسمالية الحافلة محلياً ودولياً تميط الشام عن الوجه الآخر لها، وتفصح التناقضات التي يتسم بها سلوك وآليات الرأسمالية في جميع مراحل تطورها، وصولاً إلى نظريتها الاقتصادية التي تحاول إضفاء الموضوعية والحيادية لها، وهو جعلها تتخبط هي الأخرى في التذبذب بين موقفين<sup>(١٤)</sup>:

الأول: محاولتها أن تكتسي طابعاً تجريبياً متحرراً من الأبعاد الأيديولوجية، وعد الاقتصاد محكوماً بقوانين اقتصادية بحتة، عبر إحتراع سلسلة من التواريات خاصة لمعاييرها تحت زعم أن هذا يحدث تلقائياً، كنتاج لفعل ميكانيزم الأسواق المضبطة (Antiregulatory).

الثاني: ميل الفكر والنظرية إلى أن تحدا المرحلة التاريخية، وتلهم الدولة الرأسمالية التي تشغل مركز المبطومة ممارسات فعالة لتأطير أفعالها، وتدعم موقفها في إعتداد السياسات التي من شأنها تيسير الهيمنة والسيطرة على العالم.

على وفق ذلك يكتسي الفكر الاقتصادي الرأسمالي طابعاً اقتصادياً، هو نتاج حاجة موضوعية جوهرية خاصة بهذا النظام، فالرأسمالية لا تكون ألا أدا توافر هذا الشرط، مما ينتج عنه انقلاب العلاقة بين مجال السياسة ومجال الاقتصاد لصالح، نظراً لاختلاف هذا النظام عن النظم السابقة له، مما يسمح لقوانين الاقتصاد كيما تصبح حاكمة في إعادة إنتاج المجتمع الرأسمالي في شموليته

إكتسبت الفلسفة الرأسمالية صيرورتها المتكاملة، وتحقق لها التطابق المشود بين الخطاب الداعم لتطورها، ومنطق علم الاقتصاد الذي أنشأته وأصفت عليه طابع الحتمية المرعومة، لم يكتمل إلا بعد الثورة الصناعية، على الرغم من حدوث تطابق وتناقض في المرحلة الانتقالية ما بين الإقطاع (نمط إنتاجي) والرأسمالية (كمط إنتاج نوعي متقدم ومهيمن ومصفي للأنماط السابقة له).

بيد أن تحديد فجر النظام الرأسمالي لا يرتبط بظهور التجارة والعلاقات السلعية- البقدية، بل عندما حدثت تعبيرات في نمط الإنتاج من دون إنكار الدور الذي أدته الماركنتيلية (Mercantilism)، في إرساء دعائم ظهور الرأسمالية من خلال انحارها للتراكم الأولي لرأس المال البقدي، عبر الربا والتجارة، والذي منعه الدستور الإقطاعي من التحول إلى رأسمال صناعي، في ظل طبيعة التنظيم الحرفي (نظام الطوائف) في المدن.

لهذا كن لراماً إزاحة معوقات السير لمسألة التراكم، هذا الأخير أدى في الاقتصاد السيدي الدور ذاته الذي أدته الخطيئة الأصلية في اللاهوت (التيولوجيا)، فإكتشاف الذهب والقصة في أمريكا واستئصال وإستعباد وقبر السكان الأصليين في ماحمهم، ونهب حزر الهند الشرقية وتحول أفريقيا إلى مصيدة لصيد السود التجاري من أجل إقامة التجارة المثلثة ما بين أوروبا- أفريقيا- أمريكا، تمثل جميعها استخداماً عنيفاً لممكنات القوة والسيطرة.

وهو ما عبر عنه كارل ماركس (K.Marx) العنف أنه مولد التاريخ، وعلى الرغم من عدم القناعة بالارتكاز عليه بصورة مطبقة، لتفسير صيرورة أحداث التراكم رغم أهميته (حققيقة أن الرأسمالية كانت عدوانية بعنف منذ البداية لا يفسر بذاته انتشار الرأسمالية)<sup>(٦)</sup>.

في حين ساهم تذليل الأشكال الطبيعية وتوسيع السوق الداخلية وطروف تحزنة أوروبا وصعود الدولة القومية بفضل معاهدة وستفاليا (Westphalia) عام



١٦٤٨، شكلت بمجملها تفاعلات داخلية خدمت الرأسمالية، وساندت ظهورها ودفعت غمط أنتاجها نحو التكامل والوضج.

فثلما وفرت المرحلة التجارية شرط التكديح (البلرة-Proletarilization) ، أي تحويل الملاحين الصغار الى عمال مأحورين، وتحديد الأجر للعمال بالمققات اللازمة لإطعام الفرد السالع عند وليم بتي (W.petty)، أو تحديده بأحر الكفاف كما دعا ترجو (Turgot).

ووفر الفكر الاقتصادي الفيروقراطي(الطبيعي) الفرصة اللازمة للرأسمالية عبر التنطير الفيروقراطي للصربية الواحدة على ملاك الأرض، مما سهل على الرأسمالية فرصة إزاحة الإقطع من أمام الرأسماليين، مما أتاح تعريز التراكم لرأس المال النقدي الذي شكل مكانة هامة في منظومة الفكرية للاقتصاد السياسي للرأسمالية يتم من خلاله ليس فقط تحديد الإنتاج السيط، بل أيضاً عملية تجديد الإنتاج الموسع للعلاقات الاجتماعية.

لذلك يلحظ أن المنطق الاقتصادي للرأسمالية مسد ظهورها التاريخي يستند الى تعظيم التراكم من خلال برعة الحشع والرغبة اللامتاهية في الإثراء(كدسوا . كدسوا، تلك هي وصية موسى والأنبياء) <sup>٦</sup>

#### ثانيا: الفكر الاقتصادي للتوسع الرأسمالي

حل التراكم المتحقق في البلدان الأوربية جاء من مصادر خارجية، وعن طريق النهب المنظم لدول العالم الثالث (البلدان المستعمرة)، أو عن طريق التبادل التجاري غير المتكافئ، بيد أن التراكم يصح مستحيلاً في جميع نقاط النظام بدون الأجواء غير الرأسمالية (الأممات السابقة للرأسمالية)، فقوة العمل والموارد الطبيعية تقع في مدار الإنتاج غير الرأسمالي الذي هو المحيط التاريخي للتراكم<sup>(٧)</sup>، وارتكاراً على ذلك لابد لرأس المال من الانطلاق الى الحارج للحصول على السيطرة في تلك المجتمعات مستخدماً أقسى التدابير.

لهذا فالفكر الرأسمالي التجاري الذي طمع تلك المرحلة أستلزمته حاجات رأس المال التجاري، التي عبر عنها أحياناً بطرق غير مشروعة، فليس من الدهشة بمكان أن يلبس التجاريون آراءهم رداء سياسياً، وتطلعوا بفضل ذلك للدولة كيما تطبق نظرياتهم، فكان تأييدهم لقيام سلطة مركزية قوية تحميهم من دعاوى المنافسة وبخاصة في الخارج متمقاً هذا تماماً، في أن التعير في البناء الفوقي يأتي كاستجابة لضرورات البناء التحتي.

بناء على ذلك فقد سادت موجة الدولة القومية كتعبير عن مصالح الطبقة التجارية، هذه الدولة كانت متلهفة لتحطيم كل من اصطفاية المجتمع الإقطاعي، وعالمية السلطة الروحية للكنيسة.

تحت لواء المصالح القومية جرى تبرير سلوكيات الرأسماليين ودولتهم الطبقية في قهر المجتمعات الأخرى، فالوظيفة الرئيسة لنمط الإنتاج الرأسمالي تختلف تاريخياً، إلا أن الثابت فيها هو السوق، والرأسمالية تساوي أسواقاً عالمية منذ نشوئها، ولايجار هذا ظل خطاب الرأسمالية باستمرار يستدعي الاتحاه القطري في الرأسمالية نحو توسيع الأسواق، مستهدفاً تنمية الثروة الوطنية.

في ظل هذا حدث لأول مره زيجة مطلقة مابين رأس المال المالي والتجاري في إطار قانوني وسياسي جرى تهيئته لخدمة الرأسمالية الصاعدة والذي ترتب عليه امتلاك القوة الاقتصادية، مع المساندة من فلسفة الحرية الاقتصادية

جرى الاستناد على قوة إضافية ذات طابع سياسي التي هي الدولة (كأداة للقهر) والعنف شرعياً من أجل إدارة الصراع داخلياً وخارجياً (ففي الداخل تم القضاء على بقايا الإقطاع وتوفير الحماية القانونية للملكية الخاصة، في حين إدارة الصراع مع الرأسماليات التجارية الأخرى وتأمين الأسواق الخارجية)<sup>(٨)</sup>.

إن ظاهرة الميل الشره للتوسع العالمي للرأسمالية، لم تكن مغامرة غير محسوبة أو محض صدفة، فالتراكم الذاتي أي بدون توسع خارجي للنظام الرأسمالي

ممکن نظرياً، إذا كان الأجر الفعلي بقدر محسوب يمكن من خلاله خلق طلب مساو للعرض. ولكن الاتجاه العام للنظام بدأ من رواد المدرستين التجارية (Hume, Cantillon, Petty)، وكذلك الكلاسيكية (Ricardo, Smith)، هو الاحتفاظ بمستوى الأجر الفعلي (أجر الكفاف)، الذي لا يرتفع إلا على وفق حالة الصراع بين العمال والمنتجين (وهذا لم يحدث ألا في نهايات القرن التاسع عشر)، إما عندما لا يرتفع الأجر الصوري بالقدر اللازم، فإن التراكم يتطلب تعويض ذلك توسعاً دائماً وخارجياً للسوق.

لذلك تكمن أسس التوسعية الإخبارية لمط الإنتاج الرأسمالي لتحقيق مسألتين هامتين هما: الأولى: تبلور شروط التقسيم الدولي للعمل وموجبه أصبح العالم حاصعاً لشبكة من العلاقات التجارية والاقتصادية، وسط ماخ عام اتسقت فيه بلدان تجمعها خصوصيات معينة لتكون قطاعاً تصديرياً للمواد المعدنية والزراعية، لرفد اقتصادات البلدان الرأسمالية بمستلزمات إنتاجها، وهكذا إستقرت هذه الأوضاع الى الآن.

الثانية: أفرزت علاقات اللاتكافؤ بين البلدان الأوربية (المركز) والمستعمرات (الأطراف)، إن أصبحت القوى الاجتماعية في النظام الرأسمالي تتحكم في عملية التراكم داخلياً، وعملت على إخصاع العلاقات الخارجية لمقتضيات خدمة هذه العملية.

هذا بينما في البلدان الطرفية ليست عملية التراكم ألاً ناتجاً مطعماً على التراكم في المركز، فهي بهذا المعنى عملية تراكم تابع<sup>(٩)</sup>.

مثلما عملت الأوضاع على تبلور الرأسمالية في مراحلها الأولى مؤدية الى تراكم رأس المال الأولي، مستندة الى الدولة القومية ومنظومة العلاقات الداخلية

والخارجية في دفع مسار النمو والتراكم، فإن هذه الممكّنات قد إستنفدت مرحلتها التاريخية لبدأ التنظير يهيئ لمرحلة جديدة من التطور.

فكانت الثورة الصناعية التي إبتلقت من انكلترا لتؤرخ تقدماً أكثر في تطورات قوى الإنتاج، وما يترتب عليها من تعاطف لروح الفائز الاقتصادي إلى البلدان الأوروبية لصالح أحداث التراكمات المرغوبة، لتكتسي جميع المظاهر طابعاً سلعياً بدأ من الإنتاج الاجتماعي مروراً بقوة العمل وانتهاء بوسائل الإنتاج.

### ثالثاً: النظرية الاقتصادية للتوسع الرأسمالي

اتحدت النظرية الاقتصادية تعبيراتها الأولى بالارتكاز على إشاعة خطاب الرضى عن فعل السوق (آلية الأسعار-Price Mechanism) دون تحفظ متخدة من (الاقتصادوية) المفردة ديانة حقيقة للمجتمع الرأسمالي، دافعة بقوة لإكسء ذلك بفلسفة الفردانية والحرية مدعية أن المصلحة الفردية هي محرك النشاط الإنساني، ولا تتقاطع مع مصلحة المجتمع، بل هي تعزيز لها على حد تعبير أب الاقتصاد الرأسمالي آدم سميث (عندما يعمل المرء لنفسه فإنه عالماً ما يخدم المجتمع أكثر مما لو عمل من أجل المصلحة العامة)<sup>(١١)</sup>

حتى تستكمل النظرية الاقتصادية جوانبها في الدفاع عن كنه النظام الاقتصادي- الاجتماعي الرأسمالي فقد تناولت بالتحليل موضوعة القيمة التي تعد الركن الأساس لمنظومة التوزيع في أي نظام اقتصادي.

آباء النظام الاقتصادي الرأسمالي لم يستطيعوا فك لعز القيمة ووقعوا في ضبية الرؤيا تجاهها، فما بين عد العمل هو مصدر القيمة إلى إعتبار كمية العمل هي المحدد، وعندما لم تستطع هذه من حل إشكالية التوزيع في النظام الرأسمالي جرى التحول إلى تكاليف العمل التي تتحسد في السلعة.

عدم الوضوح هذا أدخل النظرية الاقتصادية والفكر الاقتصادي في ما سمي بلعز القيمة (Paradox of Value)<sup>(١٢)</sup> من ناحية، وفائض القيمة المؤدي إلى الاستغلال والإفقار من ناحية أخرى، مما حفز مفكري الرأسمالية على تجاوز القيمة

المستندة الى العمل الاجتماعي الى مفهوم آخر للقيمة يعتمد على التقويم الداتي للمنفعة من أجل إسباغ مشروعية على أرباح الرأسماليين المتحققة بتكلفة إنسانية كبيرة لهذه المجتمعات (إذ أن حيلاً من الصناعة الانكليزية يستهلك ثلاثة أحيال من العمال).

إن التناقضات المحسوسة في التنظيمات الاقتصادية ليس من شأنها حرف الاتجاهات أو الأساليب الرئيسة لتطور الرأسمالية، لأن هذه التناقضات الحادثة في مراحل معينة من خطابها العام الفلسفي والاقتصادي، تتأق من التباين الحادث في السق العام لمسار الرأسمالية، بعية تعظيم نروح الفائض الاقتصادي في ظل مرحلة تاريخية وتعميق التقسيم الدولي للعمل.

في كل مرحلة تاريخية نجد أنفسنا أمام خطاب فلسفي تتجه الرأسمالية فيه، لتدعيم موقفها من أجل تبرير استحداث آليات ووسائل اقتصادية-اجتماعية بديلة تتناغم مع مصالحها، وفي هذا تستدعي الرأسمالية نظريتها الاقتصادية لتصوغ هذه المصالح وتضفي عليها تبريراً عقلائياً ومنطقياً، فعندما إحتاجت بريطانيا الى تحرير التجارة وحفص القيود الحمائية، جاءت نظرية التكاليف النسبية لريكاردو لتبرهن على وفق حدلقة رقمية وبفروض غير واقعية، على أن المكاسب ستعم كل البلدان المتاحرة دون أي اعتبار للفروقات في التطور الاقتصادي، ثم أردفت تلك عمداً بأن التجارة محفز (محرك) للنمو الاقتصادي (Engine of Growth).

ففي الوقت الذي عدت فيه الرأسمالية التجارية الدولة ضرورة لازمة للرأسمالية في مراحلها الأولى، كوبها نتاج المجتمع عند درجة معينة من تطوره حسب التعبير الهيحلي، لقطت الرأسمالية دور الدولة هذا من تبحيل دورها والإطراء عليها، الى الدعوة الى لحم وكبح تدخلها وصولاً الى عدها شراً، مستعيرة رؤية توماس هوبر (Th-Hobbes) في مؤلمه (الليماثان - Leviathan) ' وعدها كالوحش.

إن الفهم الرأسمالي ذا الطابع الفوضوي اليميني للحرية الفردية، الذي يقوم عليه علم الاقتصاد يعادي أي تنظيم مجتمعي، حتى وإن كان في إطار الرأسمالية، وإن الخروج عن هذا الفهم حملته مدارس اقتصادية أوربية (المدرسة الألمانية مثلاً)، وبالصدد تم تقديس الدولة في نمط المشيئة التاريخية، التي هي نتاج أوربي خالص دمجت فيه الرعة القومية المتطرفة مع الفوضوية اليمينية، للتكور حول الذات من أجل الدفاع عن المصالح المتحققة داخلياً.

ومثلما وقع الفكر الاقتصادي الرأسمالي في تناقضاته الممتدة رمايياً ومكانياً، بسبب من التناقض الرئيس بين فردانية التملك وجماعية الإنتاج، يصاحبه تناقض النظرية الاقتصادية الحاضرة التي تقس التقابلات في المفاهيم (Concept).

هذه النظرية ذات الطابع الطوباوي الواضح، إذ أنها تقوم على إفتراضات بعيدة عن الواقع، وأن وجدت فهي تغطي مساحة صغيرة من اللوحة الاقتصادية، من مثل إنطباق توصيف ظروف المدفسة الحرة على بعض منتجات القطاع الزراعي غير القابلة للتخزين.

إن عدم تمكن المفكرين الكلاسيك من الأتيان إلى صيغ عامة لنظرية لتوزيع والأسعار، أحبرهم إلى الهروب إلى الأمام نحو نظرية غير مكتملة للقيمة، بجانب التراحعات الكثيرة عن مفاهيم وأطروحات قبلوها ثم عادوا إلى نقضها.

لهذا يلحظ المشل الذي طال النظرية الاقتصادية الرأسمالية، في تفسير القيمة وبالتالي توفير أسس صحيحة للتوزيع، أمام البقد الهائل للماركسية وطابع الترافص الطبقي الذي أقرته، والمشكلات التي نتجت عن وحشية ممط الإنتاج الرأسمالي، الذي أدخل الرأسمالية في أزمة، مما تطب وجود عنصرين، بزوع تناقض ورؤية مستقبلية لتجاوز هذا التناقض والأزمة، هذه يسرت لمجيء فكر ونظرية اقتصادية جديدة.

عندئذ جاء الفكر النيوكلاسيكي (New-Classical) من مسار مختلف، فبينما صيغت النظرية الاقتصادية الكلاسيكية على الفردية واشتقت القيمة من الإنتاج، فإن

النيوكلاسيك حافظوا على الفردية وحولوا الاهتمام من الإنتاج الى الطلب من خلال استقصاء المنفعة الفردية بغية التخلص من تراث الربط بين القيمة والعمل، متجهة صوب صوغ نظرية للأسعار بالاستناد الى مفهوم المنفعة (Utility) والتفضيلات (Preferences).

إمكانية وقوف الفكر والبطرية الاقتصادية جاء بسبب عدم التأكيد العملي عليها، لهذا تسأل جوان روبنسون: هل أن هناك مفهوماً للنظرية أم لا في حقيقة الأمر؟<sup>(١٤٣)</sup>.

لقد جرى تصور التوازن بين العرض والطلب استناداً الى قياس تشابه ميكانيكي، حالة في ذلك الأوران في روج من الموازين، إذ أقتبس والراس فكرة التوازن العام من أحد المهندسين، وكثيراً ما لجأ مارشال الى قياسات بيولوجية للتشابه عند بحثه لعملية تحري عبر الزمن، إلا أن التعبير عن عرصه وطلبه كان ميكانيكياً<sup>(١٤٤)</sup>.

إن الخطأ المنهجي الذي لاحظته جوان روبنسون وعلامات الارتباك وترييف المحاجة، والتفكير المرتجى للاقتصاديين النيوكلاسيك قد فصح عجرهم عن فهم الكساد الكبير، ويعرى ذلك الى الفشل في المواءمة بين حقائق الحياة والنظرة الى التوازن.

هذه النظرية تولاهها بالنقد اللاذع المفكر الروسي نيقولا بوخارين، وعدها نظرية الطبقة المرتاحة، المنهمكة باستهلاك ثمرات الآخرين من وجهة نظر ريعية خالصة.

ثم لحقه في النقد جون ميارد كينز القائل (إسي أنهم النظرية البيوكلاسيكية نكوبها تتمش بكونها، أسلوباً حميلاً ومؤدباً تسعى للتعامل مع الحاصر بالتحريد عن مواقعه، مثلها مثل معرفتنا بالقليل عن المستقبل)<sup>(١٤٥)</sup>.

تعالج النظرية الاقتصادية الممهدة للرأسمالية في كل مراحلها بمفاهيم مثالية عمومية لا تقل عن عمومية الفكر العقلاني إراء الهندسة الاعتيادية، وهو ما كان

مدعاة لعصب (فريدريك ليست) الذي تسأل (أي نوع من العلم هذا الذي لا يلقي أي ضوء على الطريق الذي يحب أن نسلكه؟)<sup>(١٧)</sup>، ومثله يشير كل من حاكوب فاينر وهابرلر إلى أن النظرية الرأسمالية من زمن آدم سمث كانت تحمل دائماً شيئاً خاطئاً ... فالصورة تتشوش حاملاً تستبدل المنافسة بكل أنواع الشوائب الاحتكارية<sup>(١٨)</sup>.

إن التوشح بالعقلانية (Rationalization) لا يحض بتأييد الواقع المحسوس، فالقدر الذي تحرص الرأسمالية محلياً على العقلانية في التصرف بمواردها، تتعامل على الضد من ذلك عالمياً في استهلاك الموارد الطبيعية الباصرة وتتعامل معها على وفق عالمية السوق، مما عرص هذه الموارد إلى الآن إلى نتائج مفعجة تتنافى مع مزاعمها حول العقلانية.

فالرأسمالية تطرح أشياء وتعمل على تحقيق أشياء أخرى، فهي تتبنى فكر ثم تطور سلسلة من الاقتراحات الملموسة التي تعكس مجال السياسة الاقتصادية من جهة أخرى، دون الاعتراف بأن ثمة تناقضاً حاداً بين المنهجين، بل تعد ذلك نزوعاً نحو الامثلة.



## المبحث الثاني

### الفكر الاقتصادي للرأسمالية الحديثة

أولاً: الفكر الاقتصادي لرأسمالية القرن العشرين

لقد خلف الكلاسيك والنيوكلاسيك تراثاً مغرماً بالتوازنات اللازمية، والمستندة الى مغالطة أساسية في النظام، هي في الاعتقاد بأن السوق يتجه لتحقيق التوازن دائماً، معتمدين تشبيهاً خاطئاً في الأساس، لأن الحركة عبر الزمن لا تتحرك إلا باتجاه واحد من الماضي الى المستقبل.

من الملاحظ أن مطلع القرن العشرين شهد ظهور الاحتكارات القومية بفعل ظواهر عدة، كان أبرزها على الإطلاق هو التركز (Centralization) والتمركز (Con- Centralization) في الإنتاج ورأس المال، الذي ساند إنضاج ظاهرة الامبريالية بوجهها الاقتصادي.

نذا التسريع في أحداث ظاهرة التركيز والمركزة، جاء لصالح الإلغاء المؤقت (التأجيل) لتناقضات التراكم الرأسمالي، مما يدفع حتماً لتراكم أكبر ولتناقضات أشد عمقاً<sup>(١٨)</sup>.

مما أرخ لانطلاق التنظير الاقتصادي لتحليل الآثار الإيجابية لهذه الاحتكارات ودعمها، ليؤسس الى مرحلة إراحة المؤسسات الصغيرة والتولج الى عصر المندمجات (Conglomerates)، دفعاً باتجاه الحصول على السيطرة الاقتصادية وتعظيم الأرباح، طالما أن هذه الأخيرة تربو عما يتحقق في ظروف المنافسة التامة، التي تخضع لقانون تساوي الأرباح ( Law of Profit Equalization)<sup>(١٩)</sup>.

تاريخياً شهدت أمريكا (أول دولة رأسمالية) الموجة الأولى من الاندماج الاحتكاري في الفروع الصناعية الرئيسة (صناعة صب الفولاذ - صناعة السيارات - الصناعة البتوية) عند نهايات القرن التاسع عشر، فيما شهدت أيضاً الموجة الثانية من الاندماج والتركيز الاحتكاري في مجال الألمنيوم وإنتاج

الحاويات الزجاجية عند عشرينات القرن الماضي، كتعبير عن دخول الرأسمالية الأمريكية مرحلتها الاحتكارية.

لقد تهيأت للرأسمالية الأمريكية إمكانات كبيرة وضخمة، مكنتها من الولوج السريع الى الاحتكار، ولعل أبرزها النظام الاتحادي الذي يعطي مساحة واسعة وتوحيد السوق المحلية الى سوق ضخم بفضل التشريعات التجارية، لقد مكن اتساع السوق من التوفيق بين حقوق الشركات، وما تكتسبه من قدرات احتكارية وبين ما يتحقق من وفورات النطاق اقتصادياً، بحانب التوافر على مساحة من المنافسة الاحتكارية ومثلما ساند الفكر الاقتصادي ظروف كل مرحلة من مراحل الرأسمالية، وتسويع أفعالها في الداخل والخارج، نجد أن التنظير الاقتصادي في القرن العشرين يولي الاحتكارات مساحة من إهتمامه، لهذا نلاحظ تناول مجموعة من الاقتصاديين من مثل حوان روبنسون (J.Robinson) وتشمرلن (E.H Chamberlin) يرون الظاهرة الاحتكارية، من خلال وضع ما يسمى بالمنافسة الناقصة، بغية استعادة متطلبات الكفاءة الاقتصادية في ظل الاحتكار المتعدد.

هذا التحول حمل أثراً بعيدة المدى، تطلعي بنارها ليس فقط معتمعات الأطراف بل المجتمعات الرأسمالية ذاتها، أبرزها الآتي:

١- إعادة الاهتمام الى الأسواق وتقدمها على ما سواها، لضمان السيطرة على مصادر المواد الأولية، مما برر الاتفاق بين الدول الصناعية لاقتسام النفوذ وابتداع الصيغ المناسبة لاستبقاء السيطرة على المستعمرات، من دون اضطراع وتنافس الدول الصناعية فيما بينها.

٢- التحول في دور الدولة من الدولة الحارسة الى الدولة المسيطرة أو الأمرة (Leading)، هذا حظي بالدعم الفكري من قبل كبار الاقتصاديين الرأسماليين (جوزيف شومبيتر-J. Schumpeter)، الذي أكد على أن

الاحتكارات من شأنها دعم الابتكار التكنولوجي، وسهولة توجيه الاقتصاد عن طريق  
الرأسمالية الاحتكارية.

٣- فقدان الآمل بالتوازن الاتوماتيكي الذي جاءت به الكلاسيكية وعضدته النيوكلاسيكية،  
وكلاهما فشلتا في الآتيان بحل للخروج من الأزمات، وهو ما أباح الحق لكينز أن يعطي  
(صك الغفران) لتدخل الدولة (الدولة المدبرة- Keeper-House).

لهذا جرى إعادة بناء النظام الرأسمالي (الفكر- النظرية) دون المساس بأسس الفلسفة  
الرأسمالية وثوابتها، فقد تحول التحليل من طابعه الحزني (Micro) الى التحليل الكلي (Macro)،  
والذي مثل أعدة تشكيل للعلاقات الرأسمالية كاستحانة للظروف الموضوعية (ظروف دورة الأعمال  
Economic-Cycle)، ولتحفيف حدة الصراع الطبقي وتركيد الأوضاع وحفر الأنفاق الاجتماعي.  
وقد أشار جالبريث الى أن النظم الرأسمالي قد تعرض مد عشرينات القرن الماضي، لأربعة  
تطورات أساسية (مو القابات المهيبة- دولة الرفاهة- الثورة الكيرية- زوال سلطة الرأسمالي  
التقليدي)، هذه ساهمت جميعها في ضمان مستقبل الرأسمالية، ولولاها لما أمكن للرأسمالية أن  
تستمر في العيش.

هكذا فقد ساندت الدولة الرأسمالية الاحتكارات، بعدما فقدت السيطرة على استحداث  
النمو والتطور، فأطلقت العنان لها لتغزو سطوة الاحتكارات العالمية (الشركات المتعدية الجنسيات-  
TNCs) احد أهم العوامل الحاكمة لاحقاً على الصعيد العالمي.

وهو ما دفع الاقتصادي الفرنسي بيرجالييه الى أن هذا أظهر تناقصاً جديداً في الرأسمالية  
هو (المدفسة/ الاندماج) "، مما أوصل نمط الإنتاج الرأسمالي الى أزمة جديدة تمثلت بالتزواج المطلق  
بين الركود والتضخم (Stagflation).

مما أعاد التذكير جدياً بأطروحة الاقتصادي الروسي اللامع كوندراتييف، من  
أن النظام الرأسمالي يتعرض الى دورات طويلة تمتد ما بين (٥٠-٥٥) سنة سميت

بدورات كوندراتييف<sup>١١</sup> (Kondratieff Cycles)، وهي من نوع الدورات طويلة الأجل التي لم تحظ بالقدر الكافي من التحليل.

ثانياً: الفكر الاقتصادي للرأسمالية المعولمة (ما فوق امبريالية)

الفكر المبتوئ لمرحلة ما بعد انتهاء القطبية الثنائية وتفكك منظومة الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية)، يقدم نفسه على أنه فكر الليبرالية الجديدة المعولمة والمستند إلى الواقع الذي أفرزته ظروف الصراع مع الأيديولوجية الاشتراكية، هذا الفكر يستند على آليات معروفة ومحربة (الحصص - الصرف العائم - خفض الأنفاق الحكومي - إلغاء التقنين) (Deregulation)، من أجل إطلاق المطلق لحرية الأسواق في أن تفعل فعلها.

هذه الفروض الحاكمة للاقتصاد العالمي وضرورة اقتصاداته المحلية الآن، لم تكن نتاج إرلاق فكري، بل هي نتاج موازين قوى تطورت بدرجة متطرفة لصالح رأس المال، على حساب الطبقات الكادحة والشعوب المعلومة في الأطراف، والتي فقدت ما تبقى من قوتها المكتسبة سابقاً. لقد أعطى هذا الفكر دفعاً لسيطرة الشركات العملاقة على الاقتصاد العالمي، فاندفعت صوب العالم منتشرة في كل بقاعه محاولة الاستفادة من كل ميزة نسبية في إطار تدوين (Internationalization) كل الحياة الاقتصادية، وصولاً إلى الفرد ذاته مهما كان حسه وهويته فهو إنسان عالمي (وكونه مواطناً من دولة ما فهذه كانت صدفة)، وهي بهذا تريد اتكاء المجتمع الإنساني على العالمية منتجا وثقافة ولغة وتاريخاً، مما يعني بالحثم تخلي الإنسان عن موارثه الاجتماعية والدينية والثقافية.

وفي الوقت الذي تطور فيه الأدب الأوربي من الأسطورة إلى العقل، من حيث الشكل والمضمون إلى التحرير من الميتافيزيقية، وداعياً إلى السلطان المطلق للعقل من خلال الاسترشاد بلمعان البداهة الكاف للبحث عن الحقيقة (إنا لا أسلم

شيء ألا أن اعلم انه حق) على حد تعبير ديكرت، أي إسقاط كل سلطة ولا سلطة على العقل ألا العقل نفسه

لذلك فتأريخ الممارسة الرأسمالية في عالم الأطراف سواء بشكلها التقليدي أم المعاصر (المتوحش)، لا يشيخ عن ممارسة إنسانية تصفي درجة مقبولة من الصدقية، أو الثقة في نتج مخزجاتها المدفوعة تجاه الإنسانية، حتى في داخل مجتمعاتها.

فهي لم تستطع طوال مسيرتها من القضاء على الفقر والعوز على الصعيدين الوطني والعالمي، على الرغم التقدم الذي حصل في طرق وأدوات الإنتاج وارتفاع الإنتاجية، والثورة الصناعية الثالثة أو كما يسميها ألفن توفلر حضارة الموجة الثالثة، بل على العكس من ذلك فإن سياساتها (وشركاتها) أدت الى تعميق الفقر (الإفقار المعمم) والتهميش (Marginalization) في مجتمعات الأطراف.

العالم في ظل العولمة كما هو عام ١٧٨٩، مليارات من البشر ترفض أن تكون لشيء، فهي تمادي بحقها في الحياة، كانت الرأسمالية تقدر السلعة (وثية السلعة) بينما الرأسمالية المعولمة وانطلاقاً من تقديسها لرأس المال (وثية رأس المال) فهي مستعدة لارتكاب أقصى الجرائم بحق الإنسانية من أجل الأرباح وتركيم رأس المال.

لا تحتفظ الشريعة بتاريخ للجشع والقسوة، وطالما أن الرأسمالية هي (تدمير حلاق لا يتوقف)، فهي في الثورة الصناعية الثانية دمرت الروابط العمالية والأسر الكبيرة ومجتمعات الفلاحين وتجمعات العمال، وفي الثورة الصناعية الثالثة تعمل على تفكيك المجتمعات المحلية واجتثاث العائلات من جذورها المحلية، ورمي العمال الى براثن البطالة باسم الحفاظ على مرونة (Flexibility) الشركات وكفاءتها الاقتصادية.

هذه الازدواجية ظلت الرأسمالية تحمل أشرعتها منذ نشوئها والى الآن، إذ لم نجد رأسمالياً يوصف العلاقة بينه وبين العمال هي علاقة استغلال، وهذا ينطبق

تماماً على مخط العلاقات الاقتصادية بين الدول الرأسمالية (المراكز) ودول العالم الثالث (الأطراف)، إذ تقدم هذه الدول علاقتها على أنها علاقة اعتماد متبادل أو شراكة (Partnership)، وليست علاقات تبادل لامتكافئ واستغلال أو هي في التحديد (كوزومو-سوقية).

الرأسمالية وهي تعتمد الفكر العولمي (ألفافوق-امبريالي) تعد أسواق الأطراف أسواقاً احتياطية لبصائعها، وهذه رؤية أمريكية راسخة منذ عشرينات القرن الماضي، عندما صرح برونو نيومان رئيس غرفة التجارة الأمريكية في المكسيك عام ١٩٢٣ (بأن السوق الأوروبية كانت وستبقى سوقاً محدودة لبصائرها.. لذلك يجب علينا تهيئة أسواق جديدة)، ويقصد بها أسواق الأطراف، انطلاقاً من مبدأ أساس وهو أنه ليس لأي شعب الحق في البقاء دون أن يفتح أسواق بلاده للتجارة الرأسمالية.

لهذا نلاحظ إهتمام أمريكا (كونها الدولة المركزية) للمنظومة الرأسمالية، قد عملت بجد الى الارتكار على المرتكزات الثلاثة للرأسمالية (WB, IMF, WTO)، في أحكام سيطرتها على العالم اقتصادياً.

ترويض الرأسمالية من خلال حقوق الإنسان الاجتماعية والاقتصادية، والتغني بهذا في حطاب العولمة ومن دونها الاعتراف بها على الرغم من أنها (تساعد التفاهة) على حد تعبير الفيلسوف اليوناني كستوربارديس، ومن دونها لا يبقى للديمقراطية والحرية من معنى يذكر، طالما أن الكل مهددون بأن تحكمهم نظم وأيديولوجيات تمعن في تهمةهم بحيث يعيشون على التأمينات الاجتماعية والصدقات، بل والغريب أن هذا يحدث في مجتمعات قائمة على أسس ديمقراطية، وإلا فكيف يصح هناك مواطنون فائضون عن الحاجة (Surplus People).

وفي ظل صعود الأميلة (جعل كل شيء مالي) العالمية، وتوافر ظروف توحش رأس المال العالمي والاندراج في سلك الأمركة (Americanization) على أنها أرقى الأنماط والثقافات، ومحاولة فرضها على مجتمعات العالم، يحتاج الى

مراجعة، إلا إذا كانت الرأسمالية المعومة معفاة مما هو واجب مفروض على كل غمط مجتمعى.  
والعومة (الليبرالية الجديدة) بالنسبة لنا نحن مواطنو العالم الثالث على الأقل، تشبه  
(النداهة) ليوسف إدريس التي تنادى الناس ليلحقوا بها فتمنيهم بعوالم غريبة عامصة مغوية، فهي  
قوة غيبية قاهرة لا فكاك من قدرتها الاغوائية، ليكون الوقوع في حذنها شارة الصيغ، وعندئذ  
تصبح السعادة الرأسمالية (Capitalism Nirvana) مجرد وهم أو يوتوبيا.

## هوامش ومصادر الفصل الخامس عشر

- ١- لينين، الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، دار التقدم، د.ت، ص ٨٢.
- ٢- سيار الجميل، العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٠.
- ٣- سمير أمين، حول نظرية التضيق، بحوث اقتصادية عربية، العدد (١)، خريف ١٩٩٢، ص ٧.
- ٤- سمير أمين، مناخ العصر، مصدر سابق، ص ٢٠.
- ٥- أوليفر كوكس، الرأسمالية نظاماً، ترجمة إبراهيم كبة، مطبعة العاني، ١٩٧٣، ص ٢٢٢.
- ٦- ز.ف.سوكوليسكي، نظرية التراكم، ترجمة عارف دليلة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٩.
- ٧- سمير أمين، التطور اللامتكافئ، ص ١٠٦.
- ٨- أريك رول، مصدر سابق، ص ٥٨.
- ٩- سمير أمين، ما بعد الرأسمالية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٤.
- ١٠- نقلاً عن: إسماعيل سفر وعارف دليلة، مصدر سابق، ص ٢٢٦.
- ١١- Samuelson W. Nordhaus, Economic , McGraw Hill, Twelfth Edition , ١٩٨٦, p.٤١٦.
- ١٢- محمد حافظ، تعريب الليفان، مجلة المنار، العدد (٦٦)، حزيران، ١٩٩٠.
- ١٣- جوان رونسون وجون إيتويل، مصدر سابق، ص ٦٥.
- ١٤- المصدر السابق، ص ٧٩.
- ١٥- جون ميارد كينز، النظرية العامة، ترجمة نهاد رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢، ص ١١٢.
- ١٦- أوليفر كوكس، مصدر سابق، ص ٢٢٦، الهامش ٧.



- ١٧- V. Jacob , Americas Aims and The Progress of Under Developed Countries  
In Bert.F Hoeselitz , The Progress of Underdeveloped Areas, Chicago  
١٩٥٢,p.١٥٧.
- ١٨- م. روزنتال، مشاكل الجدل في رأس المال الماركسي، ترجمة إبراهيم كبة، مطبعة جامعة بغداد،  
الطبعة الأولى، ١٩٧٩، ص ١٩٢.
- ١٩- أوسكار لانكه ومايكل كالتيسكي، الاقتصاد السياسي، ترجمة محمد سلمان حسن، الكتب الأول،  
دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٧.
- ٢٠- بيرجاليه، الامبريالية عام ١٩٧٠، ترجمة فؤاد مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٢٩.
- ٢١- حول دورات كوندراشييف ينظر: والت روستو، من هنا وهناك، ترجمة محمد دويدار، المكتبة  
الأهلية، عمان، ١٩٨٤.

## **الفصل السادس عشر**

### **الفكر الاقتصادي في العالم الثالث**



## الفصل السادس عشر

### الفكر الاقتصادي في العالم الثالث

تمهيد

تعد مدرسة التبعية إحدى المدارس الفكرية التي نمت في أحضان البلدان النامية، على خلفية استعمار البلدان الصناعية الأوروبية لبلدان الشرق سواء في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية، ويبدو لوهلة الأولى أن الاستقلال نقيض التبعية، يتغذى من معين أوضاع هذه البلدان وبخاصة ثلاثي التخلف: الأمية- الفقر- الجهل، لذلك شكلت تحليلات هذه المدرسة معيماً إلى الكثير من الاقتصاديين، وشغلت مساحة من الفكر الاقتصادي الحديث ولاسيما في حانبه التنموي.

وفي إطار محاولة البلدان النامية للتخلص من تحلفها والتشوهات التي حدثت لاقتصادياتها نتيجة السيطرة الاستعمارية، كانت بلدان أمريكا اللاتينية ساقطة في هذا الجاسب، كونه استطاعت الحصول على استقلالها مبكراً مقارنة بالبلدان النامية الأخرى.

لقد أتاحَت الظروف لجمهرة من الاقتصاديين المنضوين تحت لواء لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لشؤون أمريكا اللاتينية (ECLA)، أن يظموا أفكارهم التي تركزت حول أوضاع التبعية، مستعينون بكل التراث الفكري المناهض للاستعمار والامبريالية.

لا يمكن مطلقاً فك تأثير الفكر الاشتراكي بنسخته الماركسية من منظومة أفكار اقتصاديين هذه المدرسة وتوجهاتها، لكن هذا كان أكثر وضوحاً لدى الماركسيين الحدد، الذين لم تشبعهم آراء مدرسة التبعية، فحاولوا بناء منظمة فكرية جديدة، تتجاوز أطروحات مدرسة التبعية بعدما فشلت هذه الأخيرة في خفض مستويات التبعية بكل أنواعها.

ومن المناسب الإشارة الى أن ظهور هذه المدارس الفكرية، جاء في إطار محاولة محاربات تطورات الفكر الاقتصادي الذي بات يعبر عن مصلحة وحاجات البلدان الصناعية، في مرحلة إكمال نمط إنتاجها واستقرار نتائجها الاقتصادي على أسس مكية، وهو لم يكن يحمل أيّاً من هموم البلدان النامية في ثانيا إهتماماته.

على وفق ذلك بات من المحتتم على اقتصادي هذه البلدان، الأتيان بأفكار تتواءم مع طبيعة هذه المجتمعات ومستوى نتائجها الاقتصادي، وحجم المعضلات التي تعيشها أو تتساكن معها.

لذلك نلاحظ أن إتجاهات توسع وتطور هذه النظرية إمتدت الى مختلف بلدان الأطراف في أفريقي واسيا وأمريكا اللاتينية، فقد ظهرت أفكار هذه المدرسة في ما سمي (مجموعة العالم الحديد) في منطقة الكاريبي عام ١٩٦٢، وفي أفريقيا على يد سمير أمين، ووردت في أسيا ثاب في أفكار غاندي وأطروحة(دادا ثاوروجي) في (نظرية الاستنزاف).

وقد أغنى كتاب ومفكري المدرسة من أمريكا اللاتينية، المجالات التي تلامست معها، في ضوء واقع البلدان الطرفية، هؤلاء الكتاب أضافوا وانتقدوا وطوروا أفكار اندريه حوبدر فرانك، وكان أبرزهم شيسلو فورتادو وسانتوس وغيرهم.

**المبحث الأول**  
**أطروحات مدرسة التبعية**  
**Dependency school**

أولاً: التوجهات العامة

حاجت أطروحات مدرسة التبعية لتؤكد أن آليات وسياسات الدول المتقدمة الصناعية (منظومة الدول الرأسمالية)، كانت قسدية في الإمعان في خلق آليات وإعتماد سياسات وإجراءات من شأنها، أن تؤدي إلى تجذير موضوع التبعية بمختلف أوجهها، التكنولوجية- المالية- الثقافية- الفكرية، لهذا جاءت كتابات هذه المدرسة لتتناول جميع مفردات لوحة التبعية.

وتأتي نظرية التبعية بالضد من نظرية التحديث (Modernization)، فتقرر في البداية أن الاحتكاك المكثف بين البلدان المتقدمة والمتخلفة كان موجوداً ومازال وهو واقع تاريخي وحاصر، إلا أنه لم يحدث تعبراً ولا تنمية وإما أدى إلى تكريس التخلف وتدعيمه''، ولم يؤد هذا الاحتكاك إلى أن يتحول المجتمع التقليدي إلى مجتمع حديث أو حتى إلى صورة قريبة من هذا المجتمع الحديث، بل أدى على العكس من ذلك إلى ظهور نمط من التغيير هو التخلف بعينه أو ما يسمى بتنمية التخلف\* في الدول الناعمة.

إن من أولى المطاهر التي جرى التركيز عليها في سياق تحليل هذه المدرسة هو الآتي:

الأول: التقسيم الدولي للعمل بين البلدان التي فرضت بموجبه البلدان المتقدمة على البلدان النامية التحصص في إنتاج المواد الأولية والأنشطة الزراعية والرعية.

الثاني: إنبياز نظرية التجارة الدولية وبخاصة (نظرية التكاليف النسبية) لريكاردو، ولصالح البلدان الصناعية المتقدمة.

الثالث: التبادل اللامتكافئ الذي طبع النظام الاقتصادي العالمي، مذهب نهوض الرأسمالية والى الآن.

هذا محور الاهتمام بالتبعية ومرتكز التنظير الفكري لهذه المدرسة، فقد جرى الارتكاز على أطروحة رورا لوكسمبورغ التي ترى (إن قيام علاقات إقتصادية بين إقتصاد متقدم وأخر متخلف من شأنه أن يعظم المنافع لصالح الإقتصاد المتقدم)<sup>(٣)</sup>.

فيما رأت أن السعي الذي اعتمدته البلدان المتقدمة وسياساتها في أعاقه أية محاولة لتعدين موقع البلدان النامية في قسمة العمل الدولية، شكلت مهماً إضافياً، للسعي نحو الخروج من شراك التبعية المتعددة.

إذ جرى تقسيم عوامل تخلف البلدان النامية (الأطراف) الى مجموعتين رئيسيتين هما: المجموعة الأولى: العوامل الخارجية للتبعية والتي نجد جذورها مع ظهور الرأسمالية كنظام عالمي، وسيطرتها بشكل مباشر على دول العالم المتخلفة، وممارساتها لاستنزاف وسرقة الفئض الاقتصادي لهذه البلدان وتوزيع هذه التبعية على الآتي<sup>(٣)</sup>:

١- التبعية الاقتصادية: وتتمثل في سيطرة رأس المال الاحتكاري الأجنبي على معظم الفئض الذي تنتجه قوة العمل المحلية في البلد المتخلف.

٢- التبعية التجارية: والتي تتضح ملامحها من خلال اعتماد البلد المتخلف في علاقاته التجارية على عدد محدود من البلدان الصناعية، بل أن بعض البلدان المتقدمة، وفي إطار استعمارها وسيطرتها على أوضاع البلد، حصرت التعامل التجاري للبلد المتخلف مع إقتصاد بلدها، كما في حالة احتلال بريطانيا للعراق.

٣- التبعية المالية: وهي آلية اعتمدتها معظم البلدان المتقدمة عند استعمارها للبلدان المتخلفة، إذا جرى ربط عملة البلد المحتل بعملة البلد الاستعماري، لينسحب على السيطرة على الائتمان والنظام المصرفي وصولاً الى إصدار العملة المحلية،

وتحديد سعر صرفها، مما أدى كل ذلك الى أحداث تدفق عكسي للموارد باتجاه المئروبولات الدولية متمثلاً بتحويلات الأرباح وفرائد وإقسط الدين، وفي الوقت الذي يجري فيه نزح ممكنات البلد المتخلف، يجري تحويله من مصدر لرأسمال الى مستورد لرأس المال.

٤- التبعة التبعة: وهي واحدة من أهم أطروحات هذه المدرسة، وعنوان لمصادقتها في الكشف عن آليات التبعة التي إعتمدت لعرض أنقاء مستويات التخلف في جميع المستويات، مما ييسر تجذير موضوعة التبعة، فقد وضعت البلدان المتقدمة وشركاتها شروطاً لنقل التكنولوجيا والمعارف العلمية، من دون المساعدة والسماح للبلدان المتخلفة من فهم وفك رموز هذه التكنولوجيا، لاسيما وأن التعقيدات التي تم وضعها لا تسمح بذلك، مما يبقى (وربما توسع) الفاصلة الزمنية (الهوة) التكنولوجيا والفنية والعلمية للإبقاء على التوزيع العوالم الثلاثة أو الأربعة. المجموعة الثانية: العوالم الداخلية للتبعة، وتتضمن التشوهات التي ألحقها تحول نمط الإنتاج الرأسمالي، الى هذه الاقتصادات والعلاقات التي تركها أسلوبه في بنية هذه الاقتصادات، وتوزع هذه التشوهات على الآتي:

١- تشوه البنية القطاعية للاقتصاد المحلي، إذ تسيطر قطاعات الإنتاج الأولى وبخاصة الإستخراجية في الاقتصاد المتخلف من خلال نسبة مساهمتها في تشكيل الناتج وكذلك في تشعب الأيدي العاملة.

٢- تشوه الروابط والتشابكات القطاعية ما بين قطاعات الاقتصاد الواحد، إذ تبدو الروابط في جلها متجهة الى (الأمام) الخارج وضعيفة نحو (الخلف).

٣- تشوه هيكل الصادرات والذي يتمظهر من خلال وحدانية سلعة التصدير.

وتذهب هذه المدرسة الى التأكيد بأن عوالم التبعة واليانها لم تكن تعمل بهذه الصورة، لولا توافر ممكنات داخلية من أهمها وجود فئات أو شرائح محبة يعد بعضها طبقية، تعمل على إدامة أواخر التبعة لغرض صمان إنتفاعها، هذه الشرائح حرة وصمها (بالكمبرادورية)\*\*، أي التي تساند الأحملي في تحقيق



مصالحة في البلد، مقابل انتفاعها بمنتجات من الفائض الاقتصادي الذي يتم نزحه الى الخارج. تعد المدرسة الهيكلية<sup>(٤)</sup>: تياراً من مدرسة التبعية ويعد جوهان جولتنج (Gulteng) أبرز منطريها والذي قدم أطروحته (نظرية هيكلية للامبريالية) والتي يتوضح فيها تأثيره بمدرسة التبعية، إذ يشير الى أن الامبريالية هي شكل خاص من أشكال الهيمنة، يقوم فيها المركز بمد جسوره في الأطراف من خلال الصفوة (النخبة - Elhte).

ويتوقف ما تحظى هذه النخبة من مكانة الى حد كبير على الدعم الخارجي، وتتحقق علاقة الهيمنة عبر نمط من الاتصالات يتمكن فيها المركز من الاتصال المباشر بأجرائه وبدول الأطراف المختلفة، في وقت لا تتمكن فيه دول المحيط من الاتصال ببعضها البعض وبالمراكز الأخرى.

ويؤكد جولتنج على أن الامبريالية لا تتمثل فقط في علاقات التبعية الاقتصادية، بل في العديد من المجالات السياسية والعسكرية والثقافية.. إلخ، كما أن أي شكل من هذه الأشكال يمكن أن يتحول للشكر الآخر، فالامبريالية السياسية يمكن أن تتحول الى اقتصادية من خلال فرص معدلات التبادل التجاري، والامبريالية في مجال الاتصالات يمكن أن تتحول الى امبريالية ثقافية من خلال التحكم في نوعية المعلومات المتاحة، والامبريالية الثقافية يمكنها هي الأخرى من التحول الى امبريالية اقتصادية بتصدير النماذج معينة للتنمية.

عليه يرى جولتنج أن الامبريالية بهذه المعنى لا ترتبط بالرأسمالية وحدها، كما لا تقتصر على العلاقة المباشرة بين المركز والأطراف، بل يمكن أن تتم بالوكالة من خلال طاهرة الامبريالية الصغرى، من مثل علاقة أمريكا بالبرازيل وعلاقة هذه الأخيرة بدول أمريكا اللاتينية، أو علاقة أمريكا بجنوب أفريقيا ومن ثم بدول الجنوب الأفريقي.

ثانياً: تفسير التبعية

الفكرة الأساسية التي نهضت عليها مدرسة التبعية تنطلق من عادة تعريف الرأسمالية بشكل يختلف عما دهست اليه الماركسية، فالرأسمالية من وجهة نظر مفكري المدرسة ليست مموأ في أساليب الإنتاج وبما يؤدي الى أن تتحول قطاعات عريضة الى بروليتاريا بل على العكس من ذلك (أنها تمثل علاقات التبادل التي تؤدي الى أن يتحول فائض القيمة من مكان آخر، أي ينتج في مكان ويستهلك في مكان آخر، من خلال علاقات تقسيم عمل غير متكافئة بين الدول)<sup>(6)</sup>.

يرجع اندريه جوندرو فرانك الى أن السبب في التبعية، يعود الى العلاقة بين الدول المتخلفة (الدول النبعة) والدول الرأسمالية (دول المركز) لم تكن بحال علاقة متكافئة، هذه العلاقة كانت ولا تزال علاقة غير متكافئة تستغل فيها الدول القوية الدول الضعيفة.

ومن هنا فقد ظهر في العلاقات الدولية شكل من أشكال الخضوع والسيطرة، الخضوع من جانب الدول التابعة والسيطرة من جانب الدول الرأسمالية، وهنا تحول العالم الى مراكز وتوابع وأشياء توابع تقوم بدور وسيط بين المراكز والتوابع.

إن التطور التاريخي للمجتمعات الإنسانية لم يكن تطوراً داخلياً مكتفياً بذاته، ففي مراحل تاريخية موصوفة، رحفت المجتمعات الرأسمالية على مجتمعات أخرى في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

لقد احضع النظام الرأسمالي النظم غير الرأسمالية للسيطرة السياسية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، مسخراً إمكاناتها هذه لإنتاج فائض يتم نقله باستمرار الى مراكز (متروبولات) النظام الرأسمالي.

وبهذه الطريقة أصبحت العلاقة بين المراكز وتوابعه علاقة غير متكافئة، ويحكمها نظام تقسيم العمل الدولي الذي تقوم فيه كل وحدة من وحدات النظام العالمي (المراكز وأشياء\*\*\* التوابع والتوابع) بدور اقتصادي وسياسي معين.

كما أن البناء الطبقي والسياسي في المجتمعات التابعة يعمل على إسناد هذه العلاقات وتوطيدها، فالرأسمالية العالمية التي زحفت على دول العالم الثالث، حاولت أن تشجع قيام برجوازيات محلية تابعة (حتى وإن اضطرت على إنتاج "برجوازية أو رأسمالية بالأنايب" كما يشير إلى ذلك محمود عبد الفصيل) تشاركها في جزء قليل من الفائض، ولكنها تبذل في مقابله كل الطاقة لتدعيم أواصر التبعية والتخلف في المجتمع التابع

لهذا تعمل الرأسمالية العالمية والمحلية لا على خلق الأنشطة التي تسهم في تحقيق التنمية- كما يشجع مريدو الرأسمالية- بل على تدعيم الأنشطة التي يترتب عليها أعلى قدر من الفائض الذي يتم نقسه إلى الدول الرأسمالية الكبيرة.

لذلك فإن شكل التنمية الذي ظهر في بلدان العالم الثالث هو شكل من التنمية الرثة أو التسمية التابعة، التي لا تتجه نحو خلق استقلال وطني بقدر ما تتجه نحو تدعيم أواصر التبعية<sup>(٧)</sup>.

### ثالثاً: الدولة التابعة

لا يختلف مفكرو<sup>(٨)</sup> مدرسة التبعية (اندرية جوندر فرانك- سيشلو فورتادو- دوس سانتوس ... الخ) في توصيف الدولة عن التوصيف الماركسي إلا قليلاً، إذ يؤكدون بشكل واضح وصريح على أن نظام الدولة في المجتمعات التابعة يختلف عن نظيره في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، ويؤكدون أيضاً على الارتباط بين نظم الدولة والبناء الاجتماعي، ف نظام الدولة هو انعكاس لبناء اجتماعي تابع يخضع لنظام تقسيم العمل الدولي، وبهذا فإن من خصائصها الارتباط بالبناء التابع من ناحية وبظروف تقسيم العمل الدولي من ناحية أخرى.

وعلاقة الدولة بالمجتمع ليست علاقة ميكانيكية تتأثر بها الدولة من دون أن تؤثر فيها، ولبناء الاجتماعي والأسس الاجتماعية التي تقوم عليها الدولة تتأثر بسياسة الدولة وأدوارها ومخرجات أفعالها المختلفة.

بناء على ذلك فإن الدولة لا يمكن أن تفهم الدولة إلا إطار بناء اجتماعي معين وفي ظروف تاريخية معينة، وكذا الحال للبناء الاجتماعي الذي لا يمكن أن يفهم إلا في ضوء الدولة المهيمنة عليه والموجهة للسياسات داخله.

إن الخصوصية التي تميز الدولة في ظروف التبعية، تحصر في أن علاقاتها بالمجتمع التابع ودورها فيه يتحددان بتلك الظروف، فالشروط الاقتصادية في المجتمع التابع وساء العلاقات الاجتماعية داخله، يتحددان على وفق العمليات التي تتم في مكان آخر من السوق العالمي (دول المركز الرأسمالي).

وعلى وفق ذلك فإن طبيعة الدولة ودورها في تنظيم العمليات الاقتصادية وتدخلها في شؤون الاقتصاد والمجتمع، لا يتم في ضوء ظروف داخلية تلقائية، بل تؤثر فيه بشكل واضح الظروف الخارجية المرتبطة بالنسق الرأسمالي العالمي.

هذا سوف ينعكس بقوة على الأنسبة الاقتصادية والاجتماعية المحلية، التي يتركز عليها المجتمع التابع، وهي في النهاية تعد أنية وسيطة، فالدولة التابعة تستمد جزءاً كبيراً من دعمها وتأييدها من الخارج (أي الدولة المركزية الرأسمالية) المسيطرة أو المستعمرة لهذا البلد.

هذه التبعية تنعكس على الدولة وبنائها تبعاً للأسس المادية الموحودة في مجتمعات المركز، إذ لا تحتاح هذه الدولة بدرجة كبيرة إلى الحصول على شرعيتها من تأييد الطبقة الرجوارية المحلية ولا من الأسس الداخلية للشرعية، وإنما تستمد حلها من تأييد الرأسمالية العالمية، ومن الأسس الاجتماعية التي يقوم عليها تقسيم العمل الدولي.

والدولة التابعة هي في حقيقتها دولة يساهم النسق الرأسمالي في تشكيلها وهي تبقى وتستمر في الوجود بمصل تدعيم هذا النسق واستمراره، وهكذا تستطيع الدول الرأسمالية من الوصول إلى العلاقة الشرطية، بين وجود نظم الحكم التابعة واستمرار الاستحواذ على خيارات المجتمعات الطرفية.

وما يميز تحليل الدولة التابعة عن غير التابعة، هو أننا في المجتمع التابع نكون بصدد علاقة بها أطراف ثلاثة: الدولة والبناء الاجتماعي الداخلي والبناء الاجتماعي للنظام الرأسمالي العالمي، وهذا المبدأ ينطبق على تحليل أي وحدة من وحدات النظام العالمي، سواء أكانت الدولة من المراكز أو من التوابع أو أشباه التوابع<sup>(٨)</sup>.

**المبحث الثاني**  
**أطروحات الماركسيين الجدد**  
**سمير أمين**

أولاً: حياته ومؤلفاته

١- حياته<sup>١</sup>

ولد في صعيد مصر عام ١٩٣١، أنهى دراسته الجامعية في باريس عام ١٩٥٤ من معهد الدراسات السياسية، والتحق بعدها بمعهد الإحصاء الفرنسي ليحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٧ عن أطروحته (امتزبات الهيوية لاحتواء الاقتصاديات ما قبل الرأسمالية في النظام الاقتصادي الدولي- دراسة نظرية في الآليات والقوى التي أنتجت ما يعرف بالاقتصاديات المتخلفة).

عاد إلى بلده مصر عام ١٩٦٠ ليعمل خبيراً اقتصادياً في المؤسسة الاقتصادية، ثم سرعان ما ترك مصر بسبب نشاطه السياسي كونه عضواً في الحزب الشيوعي المصري، وبحسب قوله إنه طلب منه مغادرة مصر للحفاظ على سلامته على خلفية توتر الوضع في مصر إبان حكم الرئيس جمال عبد الناصر.

عمل مستشاراً للتخطيط في جمهورية مالي لمدة ثلاث سنوات، ثم اشتغل في حقن التدريس الجامعي أستاذاً للعلوم الاقتصادية في جامعات متعددة، بواتيه- داکار- فانسان.

إحتير من قبل منظمات الأمم المتحدة مديراً للمعهد الأفريقي للتخطيط والتنمية الاقتصادية التابع للبرنامج الإنمائي للأمم المتحدة للسنوات ١٩٧٠-١٩٨٠، بعدها شغل منصب مدير المكتب الأفريقي لمنتدى العالم الثالث في داکار، ومشرفاً على بحوث (إستراتيجية المستقبل العربي والإفريقي)

إقترح مارتن برونفنبرنير ترشيحه عام ١٩٧٨ لنيل جائزة نوبل في الاقتصاد، عن خدماته ونشاطه الفكري والبحثي في شؤون الاقتصاد والتنمية في دول العالم

الثالث، إلا أن معاداته للطابع الرأسمالي في إستغلال العالم الثالث والآليات التي تعتمد عليها في إخصاع هذه المجتمعات، وموقفه من (الصراع العربي-الإسرائيلي وحقوق الشعب الفلسطيني)، تم إستبعاد ترشيحه لهذه الجائزة منذ عام ١٩٧٨- وإلى الآن.

عرف سمير أمين مثقفاً من العالم الثالث ومناضلاً من أجل تحريره ودفع ثمناً غالياً لمواقفه هذه، كن أوصحها انه لم يكتب باسمه الصريح، إذ ظل يتنقل في كتاباته تحت أسماء مستعارة عدة منها: سعيد المصري- احمد القدسي-حسن رياض- بيير ديبون- بيير آمون- يوفس دوريل، كل هذه الأسماء تدل في حقيقتها عن الشخص نفسه (سمير أمين).

يقال عن سمير أمين أنه معروف في الغرب مجهول في وطنه، فالقليل من مثقفي واقتصاديي بلدانا لا يعرفون من هو سمير أمين، فقد قدم ما يربو على أربعين كتاباً في اللغة العربية، وأكثر من (٣٠٠) دراسة وبحث نشرت وترجمت الى العديد من اللغات الأجنبية(الانكليزية- الفرنسية- الإيطالية- اليونانية- السويدية- اليابانية- الكرواتية- الألمانية- البرتغالية- الكورية- الدنمركية).

تركزت أبحاثه وأعماله الفكرية على حقول الاقتصاد والسياسة والاحتماع، وتناول من خلالها كرم ما يتعلق بالتنمية والتحلف والنظام الرأسمالي العالمي، وأعطى خصوصية لإفريقيا التي خصها بدراسات تطبيقية شملت اغلب دولها.

قدمت العديد من الرسائل والاطاريح الجامعية ليل الماجستير والدكتوراه في أفكاره الاقتصادية والاجتماعية، أغلبها كانت في جامعات أمريكا اللاتينية واسبانيا وإفريقيا، كونه ماضلاً ومفكراً ثورياً.

ومثلما كانت أبحاثه حادة اتجاه البلدان الرأسمالية، نتيجة سيطرتها على بلدان الأطراف، إلا انه كان أكثر نقداً للتجربة الاشتراكية، التي سماها متحقة في بلدان عدة، لهذا أتسمت أبحاثه بالعمق والاتساع وروح الكشف العلمي التي أمتاز بها

والحرأة على الذهاب الى ما وراء العقلية الضيقة والحزئية، مرجعاً عالمياً في النظرية الاجتماعية.

## ٢- مؤلفات الدكتور سمير أمين<sup>(١٠)</sup>

- دراسة في التيارات النقدية والمالية في مصر
- التراكم على الصعيد العالمي
- التبادل غير المتكافئ وقانون القيمة
- التطور اللامتكافئ
- الأمة العربية: القومية وصراع الطبقات
- الطبقة والأمة في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية
- قانون القيمة والمادية الامبريالية
- المغرب العربي المعاصر
- الاقتصاد العربي المعاصر
- أزمة الامبريالية: أزمة بنيوية
- أزمة المجتمع العربي
- ما بعد الرأسمالية
- الأمة العربية
- إمبراطورية الفوضى
- في مواجهة أزمة عصرنا
- نقد روح العصر
- مناخ العصر
- ما بعد الرأسمالية المتهالكة
- الفيروس البيوليبرالي
- في مواجهة أزمة عصرنا
- ثقافة العولمة وعولمة الثقافة



- إفلاس التنمية في أفريقيا (بالفرنسية)

- إمكانية التنمية وفك الارتباط في الجنوب الأفريقي

ثانياً: الإشكالية الأساسية في فكر سمير أمين

تشكل محاولة إكتشاف الإشكالية الأساسية التي يحويها النتاج الفكري لسمير أمين، نقطة الارتكاز في مسعى أي باحث متتبع لأعماله الفكرية، ولعل أبرز ما في ذلك هو أن أسلوبه المتميز في نثر أسئلة عديدة على القارئ، من دون الإجابة عليها في ذات العمل الفكري الإبداعي، بل يتركه يستقرئ ويستنبط إجابات من هذه الدراسة أو تلك، ليأتي في أعمال أخرى ليتناولها بوضوح، فهو في ذلك يخلق حواراته المباشرة وغير المباشرة.

هذه الإشكالية (أو الإشكاليات) تعد بمثابة جماع التصورات التي تعكسها الأفكار والوقائع المعرفية والايديولوجيا التي تعلف هذه الأعمال، وأدللها على تأمل براهينه ومراميه، هو ما يمكن تلمسه في منظومته المفاهيمية: التطور اللامتكافي، النظام العالمي المركز والأطراف الاغتراب الاجتماعي- نمط الإنتاج الخراجي- القيمة العالمية أو عالمية القيمة- فك الارتباط، والتفريق بين مفهوم (نمط الإنتاج) كمفهوم محرد و(التشكيلة الاجتماعية) كتحسيد لواقع تاريخي مادي وملموس ومشخص.

وعلى الرغم من أن أعمال سمير أمين ظلت تحمل قدراً غير قليل من مخاطر التعامل مع فكر متحرك ومتغير وسيال، مارال على مدى أكثر من نصف قرن من الزمن يعطي ويتحطى ويتجاوز.

بيد أن اجتماع هذه المنظومة وتفاعلها والتداخل والتكامل القائم فيما بينها، تأسس على وفق فرضيات، بدت تحكم أعمال الفكر والإبداع وتوجهها صوب رؤية سمير أمين الأساسية هذه الفروض الحاكمة هي:

أ- صعوبة دراسة مجتمعات الأطراف في العالم الثالث بمعزل عن آليات النظام الرأسمالي العالمي ومركز منظومته (الدولة القائدة)، والذي لا

يمكن بأية حال من الأحوال، أن يعيد إنتاج نفسه كمهيمن على مصادر القوة المختلفة  
ألا من خلال التوسع والسيطرة.

ب- إن التطور التاريخي للنظام الرأسمالي العالمي، قد أدى إلى اعتماد أساليب مختلفة من  
وسائل وأساليب السيطرة المتناغمة مع حاجة هذا النظام، والتي تلبي اتجاهاته في  
أحكام السيطرة على العالم، فبدأ بالقوة العسكرية لإخضاع البلدان خارج منظومته إلى  
الوسائل الاقتصادية المباشرة، مقنناً تطور القوى الإنتاجية في الأطراف، وهو بهذا يسعى  
دوماً للمحافظة (أو توسيع) الفجوة بين المراكز والأطراف، كيما يهيئ إمكانات (تطور  
التخلف أو إعادة أنتاحه).

ت - على الرغم من عدم التماثل وربما الاختلاف العاد في بعض الجوانب ما بين بلدان  
الأطراف (المتخلفة)، ألا أنها تخضع في تشكيلاتها المتعددة إلى نموذج موحد يتسم  
(هيمنة الرأسمالية الزراعية في الاقتصاد المحلي - نمو دور البرجوازية الكمبرادورية  
المرتبطة بالرأسمال الأجنبي - عدم الاكتمال البنوي اقتصادياً ومجتمعياً).

### ثالثاً: الأفكار الاقتصادية

نحن قبالة مؤرخ وعالم إقتصاد وسوسيولوجي ومنظر ومحلل سياسي وفيلسوف تاريخ  
وحضارات، ومن جانب آخر، فإن الفكر النظري لا يفصل عنده العمل السياسي الملتزم كاشتراكي  
ومناصر لقضايا إضطهاد الأنظمة والاستغلال.

لقد جاء السطح الفكري ليتولى المجاهرة في نقد المركزية الأوربية في الايدولوجيا السائدة، إن  
في تيرها الرأسمالي أو الماركسي الاورثوذكسي، عبر تقديمه رؤية شاملة لطبيعة العلاقات بين العالم  
المسيطر والعالم التابع، تجمع بين الأنبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وطرح تفسيراً  
متمكماً لقضية التحلف في العالم الثالث، يقوم على مزج التحليل المعاصر بالتطور التاريخي لعلاقات  
السيطرة والتبعية.

وأدخل مستويات أخرى للتعليل بخلاف الأطر الرسمية المنظورة للعلاقات بين المراكز الرأسمالية المتقدمة والأطراف، وهي العلاقات بين التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية في كل منهما، والروابط المصلحية التي توثق بين القوى الحاكمة في دول الأطراف بمثيلاتها في المراكز الرأسمالية العالمي.

كذلك تنبّه إلى الدور الخطير الذي تلعبه الاحتكارات والمؤسسات الدولية المتعددة الجنسيات في استمرار علاقات التبعية بين المراكز والأطراف، وعلاقاته اللامتكافئة لصالح إستغلال دول المركز لثروات العالم الثالث، وتتنوع أخفاق أية مشاريع للتنمية فيها، وإمكانات تشريك تشكيلاتها الاقتصادية الاجتماعية.

#### ١- الرأسمالية: النية والتحول والآليات

الرأسمالية رغم تحولاتها المستمرة والسريعة نسبياً، وعلى الرغم من جدية هذه التحولات، إلا أنها تظل حبيسة المنطق الخاص بها، فهناك افتراق بين جوهرها الثابت ومتغيرها المعلن .  
الخطاب الأيديولوجي الرأسمالي بشقيه الاقتصادي والسياسي في جانب مهم منه يبدو خيالياً، فهو يكشف شيوع المنافسة في الأسواق المختلفة، في الاستفادة من التقدم المراد له أن يحدث بفصل التطور المستمر والسريع للقوى الإنتاجية والتكنولوجية، مما سيعكس على كل الطبقات الاجتماعية من أجل تكريس الديمقراطية والسلم الاجتماعي.

هذا من شأنه أن يعود بالفائدة لكافة الشعوب مما يعني صعود للعقلانية المفترضة، نظراً لعدم وجود بديل معقول (بحسب مشايخي المنطق الرأسمالي)، لذلك لابد من إحصاء كل الجوانب الاجتماعية لمتطلبات المنطق الأحادي للرأسمال العالمي.

هذه الصورة الافتراضية التي تحاول الرأسمالية إصفاها هي محاولة تحميلية لإحفاء الوجه المتوحش للرأسمالية في صورتها المعاصرة، يفيها ويكذبها تأريخ الرأسمالية والتي لا تركز على أي أساس علمي حقيقي.

هذا التاريخ هو بامتياز تاريخ صراع مستمر بين منطق التراكم الرأسمالي والمصالح الاجتماعية والوطنية المتناقضة معه، والمعارقة في ذلك هو أن الارتباط بين البعد الهدام لمنطق الرأسمالية الأحادي بالبعد الخلاق والإبداعي للمنطق ذاته.

إن جميع انموجات النظام الرأسمالي ارتكزت على نظرة امبريالية للعالم بالتوافق مع انتشار الرأسمالية، التي تحمل عدم التكافؤ والاستقطاب على المستوى العالمي.

يظل سمير أمين أميناً على أطروحة تبناها منذ تصديه لموضوعه التطور التاريخي، ودور الرأسمالية في أحداث التحلف في العالم الثالث، إذ يرى أن الرأسمالية كانت عالمية وامبريالية منذ اقتحامها بلدان الشرق في القرن السابع عشر، و(أن غط إنتاجها هو فض وأغش)<sup>(١٢)</sup>.

تتبع الرأسمالية منذ نشأتها إلى اقتحام العالم، ويعود السبب في ذلك إلى الانتقال من السيطرة السياسية الأيديولوجية الخاصة بالنظام الخراجي السابق، إلى السيطرة الاقتصادية الخاصة بالرأسمالية يدشن تطوراً معدياً سريعاً للقوى المنتجة، لا سبيل لمقارنته مع التطور الذي شهدته الحقبة اللاحقة.

بيد أن النظرة الشاملة للرأسمالية في ضبط إيقاع العالم على وفق رؤاها، بغية تحقيق الضبط والسيطرة والهيمنة، لا يستقيم مع التناقضات الداخلية لأطراف الفعلة في المنظومة الرأسمالية، والتنافس الذي تمارسه المراكز الرأسمالية للاستحواد على الفوائد الاقتصادية المقولة من العالم الثالث ونقل عبث أزمته إلى الأطراف يحدث فيما بينها صراعاً أوسع في بعض مراحله بالدموية، فالحربان العالميتان (الأولى والثانية) أحدثتا الصراع ما بين الامبرياليات المركزية.

ولكن عندما يتعلق الأمر بقضية تهم العالم الثالث (منطقة العواصف بحسب التعبير الرأسمالي) يحدث التحالف بين هذه المراكز، وهذا أمر يعد تاريخياً، والآن يبدو العالم الثالث في مواجهة الدولة المتحدة، الدولة (الأمريكية- الأوروبية- اليابانية) الموحدة<sup>(١٣)</sup>.

يطل العالم الثالث يتعرض الى التهميش المستمر أكثر فأكثر في النظام العالمي، لا بوصفه مصدقاً لأمداد للمواد الأولية أو سوقاً للاستيراد من المراكز أو لتوظيف الرساميل الدولية وحسب، على الرغم من الارتقاء الحاد في التقنيات المستخدمة والمتأتي من إرتفاع مكون العلم والتكنولوجيا في السلع المنتجة، وهو ما يوفر حفص في الطلب على منتجات العالم الثالث من المواد الأولية.

هذا المنطق اعتمدته البلدان المركزية للضغط على البلدان النامية، بغية منع دول العالم الثالث من المطالبة بتعديل قسمة العمل الدولية، وإقامة نظام اقتصادي عالمي حديد قائم على العدالة والتكافؤ في العلاقات الدولية. إن التراجع المؤقت في الطلب على المواد الأولية في عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، ليس مرده التطور التقني، وأن كان ذلك حقيقياً، إلا أن حالة الركود الاقتصادي التي انتابت الدول الصناعية الكبرى المسماة (G-7) أدى الى انخفاض الطلب، وهو تراجع مؤقت، سرعان ما كشفت الأوضاع عن وقتيته، عندما دخلت الرأسمالية مرحلة توسع جديد، وهذا يتم دوماً بعد كل دخول لمنظومة الرأسمالية مرحلة الركود.

إن التوحش الرأسمالي الذي تفرزه محرجات أفعالها الاقتصادية والسياسية في المرحلة المعاصرة من تاريخ البشرية، يدلل بدون أدنى شك من أنها تلبس لبوس الإحضاع القسري بكل الوسائل المتاحة، بما فيها العسكرية (القوة الصلبة - Sold power).

مما يؤكد على أن حاجة الرأسمالية للعالم الثالث ليس في إطار الاعتماد المتبادل كما تزعم، بل في إطار موحه جديدة من الهيمنة والسيطرة والإحضاع، لحاحتها القائمة لها في الحصول على المواد الأولية، ولتصريف منتجاتها التي تعجز اقتصاداتها عن استيعابها.

في نظام الامبريالي الرأسمالي تكون المراكز هي المسيطرة اقتصادياً والأطراف هي الخاضعة والنظام الرأسمالي هو بالأصل أول نظام اقتصادي كوني

يشمل المعمورة بأسرها والاقتصاديات المركزية المهيمنة في هذا النظام متمحورة على دائها، أي مكتملة

إما اقتصاديات الأطراف فهي متجهة كلياً الى الخارج (غير مكتملة- متأخرة)، والهيمنة الاقتصادية هي التي تلحمها وتكسحها وتحول بينها وبين استدراك تأخرها، وسبب هذا التأخر خارجي حتى ولو إستدخلته وإستبطنته تحالفات طبقية تتولى إعادة إنتاجه<sup>(١٤)</sup>.

## ٢- النظام العالمي

على الرغم من أن التطور أفضى الى جعل الإحساس بأن العالم أصبح وحدة لا تتجزأ أقوى مما كان في مراحل تأريخه السابقة، وإن الشعوب تنتمي الى منظومة عالمية مندمجة، إلا أن التباين في مناطق العلم تبدو واضحة تماماً، ولهذه الوحدة العالمية أبعاد عديدة، اقتصادية وثقافية وإعلامية... الخ

بيد أن موضوع الاعتماد المتبادل الذي تدفعه الرأسمالية العولمية ومشايعوها (على الرغم من عدم صدقية توجهاتها)، هو ليس أمراً جديداً، بل أن الرأسمالية منظومة عالمية الطابع، منذ أولى علامات بزوغها الراجع الى زمن تفصله خمسة قرون عن عصرنا.

غير أن هيكل هذا النظام العالمي المدمج قد إستمر في التطور حتى إختلفت سماته اختلافاً كبيراً من مرحلة الى أخرى، ومن هذه الراوية يقسم سمير أمين مراحل تطور هذا النظام على النحو الآتي<sup>(١٥)</sup>:

المرحلة الأولى: من عصر الثورة الصناعية الى الحرب العالمية الأولى كان القرن التاسع عشر الطويل قد إتسم بأمودج لتوحيد العالم واتخذ شكلاً معيناً (الكولونيالية والاستعمار والهيمنة البريطانية) تحت هيمنة قطبية واحدة هي الإمبراطورية البريطانية، وهو شكل رفضته كل من الحركة الاشتراكية والعمالية وحركات التحرر الوطني للمستعمرات.

المرحلة الثانية: من عام ١٩١٧ الى عصر انتهاء الحرب الباردة، وتفكك منظومة الدول الاشتراكية، وتميزت بتعايش نظامين متضادين أيديولوجياً واقتصادياً وسياسياً. لذلك فهي مرحلة القطبية الثنائية.

المرحلة الثالثة. وتبدأ من عام ١٩٩٠ صعوداً، ويرى الأمريكيان كونهم القوة الماعلة في العالم تتسم بإعادة توحيد العالم مرة أخرى تحت التفرد الأمريكي، فهي إذن عودة للقطبية المتفردة. إن المتغير الفاعل في صياغة النظام العالمي هو الدور الذي لعبته النظم الوطنية في الغرب والتي تعد متمركزة على الذات ومفتحة على الرأسماليات الطرفية كإطار حقيقي يسر عمل آليات السوق والمنافسة.

في حين إنتمت الرأسماليات الطرفية (المحيطية) وهي في طابعها الحوهرى غير وطني، أي غير متمركزة على الذات، مما يعنى أن منظومة الأسعار والدخول الداخلية لبلدان الأطراف، ليست نتاج هيمنة قائمة على أسس وطنية، بل ناتج تحالف عالمي البعد بالأساس يتسم بعدم التنظر بين أطرافه.

مما يؤكد أن صيرورة النظام العالمي في حقيقته هو نتيجة تحالف بين رأس المال المسيطر عالمياً، وبين الطبقات الحاكمة والمستعلة محلياً والخاصة، سواء أكانت هذه الطبقات سابقة على الرأسمالية في الأصل أم كانت ناتج التوسع الرأسمالي، وهو شأن البرجوازية هنا.

ومثلما اعتمدت بريطانيا على إحترام حرية التجارة الدولية Enterprise and Free ، فإن أمريكا تعتمد الآن على الدور المهيمن للشركات متعددة الجنسيات ورأس المال المتعدي الجنسيات، لهذا يعد الخطاب النيوليبرالي إيديولوجياً ومخادعاً في الوقت نفسه.

لهذا تبدو العلاقة بين رأس المحتكر (الاوليغوبولي Oligopoly) والدولة علاقة مبهمه وغامضة، إذ أن اتجاهات سلوك رأس المال العابر وحركته ومجالات توظيفه من أجل أخراج الرأسمالية المعاصرة من وهدت ألامة يمثل هروباً الى

الأمام، فإشاعة العلاقات المالية (تمويل العلاقات الاقتصادية الدولية) (Finapcrarisation) تحس وتؤجر الأرمة داخل دوامة الركود، لأنها تضاعف من عدم التكافؤ في توزيع الدخل وتجبر الشركات على لعب دور الممول.

وعليه فإن الفائز من رأس المال العائم (Capital Flottans) الذي يحصص الاقتصاد العالمي لمعيار واحد ووحيد هو الأرباح المالية<sup>(١١١)</sup>، يشكل خطراً كبيراً على مستقبل الاقتصاد العالمي مما يتوجب التصدي له، وهو ما أدركه مبكراً بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أي قبل أن تتجمع عناصر الفكر الجديد بوضوح تام، المفكر المجري كارل بولاني (K. Polanyi)، والتي يمكن أن يطبق عليها العولمة المضطمة (Controlled Globalization)<sup>(١١٢)</sup>.

فالنظام العالمي الجديد يقوم على مرتكزات أساسية هي:

أ- دور الشركات المتعدية الحسيات في اختراق الاقتصادات الطرفية وقيادة الاقتصاد العالمي من خلال رأس المال والتكنولوجيا.

ب- ثلاثي الرأسمالية (صندوق النقد الدولي - البنك الدولي - منظمة التجارة الدولية) الذي يعمل بتناغم وانسجام وفق رؤية موحدة لإعادة إدماج العالم في نظام واحد يعد نهاية التاريخ إلا وهو النظام الرأسمالي.

ت- القوة الصلبة (Sold Power) وهي القوة العسكرية الأمريكية بالإضافة إلى قوة حلف الأطلسي (الساتو) في ضبط إيقاع حركة العالم والتدخل في شؤون الدول.

ث- الاستخدام الواسع لطيف حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، كقوة ناعمة (Soft Power)، وهي معطيات إنسانية كبيرة أريد من خلالها استباحة هذه البلدان لأهداف رأسمالية خالصة لا علاقة لها بأحوال المجتمعات.

ج- تسعى المنظومة الرأسمالية وقطبها الرئيس أمريكا إلى تحويل العالم إلى منظومة واحدة، تتحلل فيها الحكومات المحلية والحدود والثقافات



والمواريث...الخ، والإقرار على عالم جديد تحكمه ضوابط جديدة وهي<sup>(١٨)</sup> :

- حكومة عالمية- مجموعة الدول الصناعية الكبرى (G-٨).

- وزارة الدفاع- حلف الناتو.

- وزارة التجارة- منظمة التجارة العالمية.

- وزارة المالية- البنك الدولي.

- البنك المركزي العالمي- صندوق النقد الدولي.

- وزارة الداخلية- مجلس الأمن الدولي.

إن الليبرالية المعومة التي دفعت مشروعها الجديد في ظل الاستقطاب الحاد وتحت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية، أدت من دون أدنى شك الى تلور تدريجي لوسائل جديدة لضمان السيطرة على الصعيد العالمي لصالح الثالوث المركزي المهيمن، وهو ما يطلق عليه لاحتكارات الخمسة الجديدة وهي<sup>(١٩)</sup> :

أ- احتكار التكنولوجيات الحديثة.

ب- احتكار المؤسسات المالية وهو احتكار يكمل عمل الاحتكار السابق في تدعيم هيمنة المركز على التصنيع من الباطن في الأطراف.

ت- احتكار القرار في استخراج واستخدام الموارد الطبيعية على صعيد عالمي والتحكم في خطط تنميتها من خلال التلاعب بأسعارها، بل وقد يصل الأمر الى الاحتلال العسكري المباشر للمناطق العنية بهذه الموارد.

ث- احتكار وسائل الإعلام (الميديا) الحديثة على صعيد عالمي كوسيلة فعالة لصياغة والتأثير في الرأي العام بما يدعم الهيمنة وخططها عالمياً ومحلياً.

ج- احتكار أسلحة التدمير الشامل والوسائل العسكرية المتطورة التي تتيح التدخل (من بعيد) أو (من فوق) دون خوض عمليات حربية طويلة ومكلفة بشرياً.

ومن المناسب الإشارة الى أن تفاعلات وتداعيات مشروع الاستقطاب الجديد، يرمي الى زيادة ضمان هيمنة الولايات المتحدة حتى على مشاركيها في الثالوث المركزي، أي فرض عولمة ليبرالية تحت قيادتها ليصبح القرن الواحد والعشرون هو (القرن الأمريكي بحق).

لهذا يظل سمير أمين ملتزماً بأطروحاته المركزية والتي إعتمدها منذ سنين هو أن العالم الثالث إراء تحدٍ (حرب المئة سنة) الجديدة التي بدأت الرأسمالية المركزية للعرب المتقدم (فعلياً) تحوضها ضد شعوب الأطراف سواءً في آسيا (العراق - أفغانستان) وإفريقيا (الصومال) وربما لاحقاً في أمريكا اللاتينية وهي مرشحة لشمول بلدان أخرى تحت رايات وهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الملاحظ على السعي الأمريكي لأحكام صوع النظام العالمي على هواها ووفق مصالحها في الهيمنة والتفرد، هو أنها بدلاً من أن تكون موفرة الأموال لباقي بلدان العالم من خلال تمتع ميراثها التجاري بفائض، كيما تدفعه لأحداث التوسع الرأسمالي المرغوب، وبما يضمن شروط إعادة إنتاج هيمنتها، فأنها على عكس بريطانيا التي كانت تتمتع بفائض هيكلية لميران التجاري البريطاني، مما وفر الشروط اللازمة لإعادة إنتاج موقعها المهيمن.

فالولايات المتحدة الأمريكية فهي أكبر مستورد للأموال، ومن ثم أصبحت مجتمعاً طغيانياً يمتص النصيب الأعظم من الفائض المنتج خارجه، ولاشك أن استمرار هذا الوضع الهش رهين رضوخ بقية بلدان العالم لتفاهم إفقارهم بلا نهاية.

ونظراً لإدراك الولايات المتحدة التام لذلك فإنها تسعى بدأب الى تعويض ضعفها الاقتصادي باستغلال تفوقها العسكري والووي، وذلك من خلال إقناع شركائها في الثالوث المركزي بضرورة تسليم رمام إدارة العالم لحلف شمال الأطلسي، حتى تتحقق عبارة كيسنجر الذائعة (العولمة ليست إلا مرادفاً للهيمنة الأمريكية).

### ٣- قانون القيمة في الأطراف

أحد أهم الموضوعات التي أبدع في تحليلها سمير أمين هي موضوعة التفريق بين قانون القيمة في المراكز والأطراف، وهو ما إستطاعت الرأسمالية إيجازه، لذلك يظل الصراع بين قانوني القيمة في النظام الاقتصادي العالمي، يوسم تلكم العلاقة بين المراكز والأطراف، والهدف الأسس من بدء منظومتين للقيمة، هو للاستفادة من الفرق في إشتقاق مفهومي القيمة، وطبعاً دائماً لصالح الاقتصاد الأقوى، كما ذهبت لذلك من قبل روزا لوكسمبورغ ولينين وبوخارين وغيرهم.

إن السعي لتدويل جميع العلاقات الاقتصادية يظل سعياً قائماً لفتح الأسواق أمام الرأسمالية، وهو ما تحرص على تفعيله دائماً، لهذا يلحظ وجود أسواق للمواد الأولية تتحدد على وفقها أسعار عالمية، بحساب وجود أسعار فائدة عالمية سائدة، في حين تعمل عمداً الرأسمالية من أيجاد أسواق عالمية للعمل تتحدد بموجها أسعار (أحور) للعمل، من شأنها أن تؤدي الى تآخيد الأجور عالمياً شأنها شأن السلع وعناصر الإنتاج الأخرى.

وهي في ذلك ليست غافلة عن ذلك، بل أن موجة الرأسمالية في التوسع العالمي، عبر ما سمي في حيه (نشر الصناعة جنوباً) أو في حقيقتها نشر الرأسمالية، لم تكن بعيدة عن هدف أساس ظلت الرأسمالية أمينة على إعتماده لأن الحير كل الحير بالنسبة لها فيه، ألا وهو أيجاد الآليات المناسبة لتحقيق الأرباح ونزح الفائض الاقتصادي من الأطراف باتجاه المراكز.

من المعروف جيداً أن جل فائض القيمة يتحقق من خلال العمل، عليه فقد حرصت الرأسمالية على العمل باتجاهات متعددة:

أ- نقل العديد من الصناعات وبخاصة الملوثة أو المتقدمة من بلدانها الى الأطراف.

ب- الاستثمارات الأجنبية المقامة في الأطراف.

ت- قيام الشركات بإنتاج جزء من مكونات سلعها في بلدان طرفية عدة.

ث- استغلال القدرات البشرية في بلدان الأطراف سواءً الفنية منها أو العلمية.

هذه جميعاً تأتي في إطار الاستفادة من الفروقات في الأجور ما بين المراكز والأطراف، وهو سيحعل تكلفة إنتاج السلع في الأطراف أقل، في حين أنها تحافظ على قيمتها في السوق العالمية، بفضل الطابع الاحتكاري من جهة أو بسبب القوة الاقتصادية التي تمتلكها الشركات، كطرف فاعل في الحياة الاقتصادية العالمية.

لهذا نلاحظ أن هناك مفهومي للقيمة في الاقتصاد العالمي المعاصر، وتبدي المصالح الرأسمالية في الحفاظ على وجودهما، كيما يظل نزوح وانتقال الفائض الاقتصادي من الأطراف الى المراكز قائماً باستمرار.

مما يعني أن غنى المراكز يتم على حساب إفقار مجتمعات الأطراف، وتحويل قواها العاملة الى جيش احتياطي للرأسمالية ومسامير في عجلة أنتاجها، بأحور بحسة وعلى حساب بيئته التي يزداد تلوثها نتيجة التصنيع الشره للشركات المتعددة الجنسيات.

وعليه فإن اتجاهات الرأسمالية المعاصرة تخفي وراءها نمطاً حقيقياً للسوق مختلف تماماً عن التطور التطري الذي يروح له، فالسوق الحقيقية ذات طابع ثنائي (مردوج) واضح، تتوزع ما بين سوق محلي وأحر عالمي، السوق المحلية تشتمل على أسواقها الثلاثة المدمجة (سوق العمل ورأس المال والسلع) المدمجة الثلاثة.

في حين تقصر السوق العالمية على (سوق لرأس المال والسلع) وتستبعد سوق العمل، لان في ذلك إعادة نظر بالإنتاجيات والقيم المحلوقة في الأطراف وهو ما يهدد مسألة التبادل اللامتكافي، لهذا فهي انتقائية في اجتزاء ما يخدم مصالحها.

يرى سميير أمين أن مجرد الاندماج في النظام الرأسمالي الدولي لا يتضمن بالضرورة فرص ممط الإنتاج الرأسمالي، بل يمكن أن يعني أعماط الإنتاج السابقة على الرأسمالية -على الأقر بشكل حرثي- في المجتمع التابع، الأمر الذي يمكن من تحفيص الأحرور في قطاع الإنتاج للتصدير، بحيث يحصر العمال في هذا القطع

على جزء من الحد الأدنى اللازم لمعيشتهم من القطاع التقليدي (السابق على الرأسمالية).

كما أن المركز يدفع بالمحيط إلى نظام يعوق بالأساس التنمية الرأسمالية الخالصة، بحيث يعد قطاع الإنتاج للتصدير معرولاً عن بقية الاقتصاد في المحيط، نظراً لانخفاض الطلب عليه في الخارج، بالإضافة إلى أن انخفاض الأجور في هذا القطاع، يؤدي إلى انخفاض الطلب على سلع المستهلك الجماهيري، مما يحول دون نموها.

وعلى العكس من ذلك تمثل دخول الفئات الاجتماعية الطفيلية الجزء الأكبر من الطلب الموجه لسلع المستهلك المالي أو التفاحري، مما يؤدي إلى توجيه الاستثمارات إلى هذا القطاع، وليس لقطاع المنتج لسلع المستهلك الجماهيري، وعادة ما يقوم قطاع إنتاج السلع الكمالية في المحيط على الاستخدام الكثيف لرأس المال، بحيث يؤدي نموه إلى عدم أحداث زيادة ملموسة في فرص العمالة، وبذلك يتم التهميش (Marginalized) الغالبية العظمى من السكان.

إن النظام الرأسمالي يشتمل على نوعين من الرأسمالية أحدهما متركزة حول نفسها وتتميز بالديناميكية، وهي رأسمالية المراكز، والأخرى في الأطراف (المحيط)، وهي رأسمالية مقيدة تسير في طريق مسدود، ويرتبط النوعان ارتباطاً هيكلياً بحيث يعيد هذا النظام العالمي تحديد نفسه باستمرار.

إن الاحتكارات الخمسة تظل متضامنة ومتكاملة وتعمل معاً لإعطاء قانون القيمة المعولمة الحديد مصمونه، وليس هذا القانون تعبيراً بحال من الأحوال - عن ترشيدية اقتصادية (محض)، يمكن فصلها عن السياقات الاجتماعية والسياسية التي يعمل فيها هذا القانون<sup>(٢٠)</sup>.

بل أن قانون القيمة هو تعبير (مكثف) عن هذه التكييفات الاجتماعية والسياسية، إذ أن التكييفات المذكورة تعمل على إلغاء مغزى تصنيع الأطراف، من خلال تخفيض القيمة المضافة المنوط بهذه الصناعات، بينما ترفع في المقابل نصيب

القيمة المضافة في الأنشطة المرتبطة بالاحتكارات الخمسة إياها، أذن فهي تكيفات تتج تراثية حديدة غير متكافئة تمثل جوهر الشكل الجديد والمستقبلي للاستقطاب على الصعيد العالمي. ذلكم هو منطق آليات الرأسمالية المعاصرة، ولن يؤدي عمل قانون القيمة المعولة الى (اللاحق)، حتى بالنسبة لذلك الفريق من بلدان الأطراف الأكثر تقدماً ونجاحاً في التصنيع ومواجهة المنافسة في الأسواق العالمية، وإنما سوف يؤدي على العكس تماماً الى مزيد من الاستقطاب، أي تفاقم ظواهر الفقر (الحديدة) وأن كان ذلك سيأخذ أبعاداً أكثر حدة فيما أسماه سمير أمين (العالم الرابع).

#### ٤- نمط الإنتاج

إن نمط الإنتاج يعد من وجهة نظر سمير أمين مفهوماً مجرداً، وهو ابتداءً ينفي فكرة التعاقب المنتظم لهذه الأنماط في تاريخ البشرية، ولذلك يسجل افتراقاً منهجياً عما ذهب اليه ماركس في فكرة التعاقب المنتظم للتشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية، على الأقر في الحالة المدروسة لماركس وهي الدول الأوروبية، في حين أفرد ماركس للشرق (البلدان المتخلفة) نمطاً خاصاً اسماه نمط الإنتاج الآسيوي<sup>(٣١)</sup>.

إلا أن ستالين<sup>(٣٢)</sup> قد عصد هذه التشكيلات وأنماطها المرافقة، وعدّها عامة وتنطبق في جميع المراحل التاريخية وعلى مختلف البلدان، والذي راءه بعض المفكرين تعسفاً، أريد منه لجم التنظير الفكري للانتقال صوب الاشتراكية من مواقع وأساليب مختلفة، مما يعني انه كان يستهدف تطبيق النموذج السوفيتي، وهو أحد جوانب الخلاف الصيني - السوفيتي.

لهذا يميز سمير أمين بين خمسة أنماط للإنتاج وهي<sup>(٣٣)</sup>:

- ١- نمط الإنتاج (الجماعوي البدائي).
- ٢- نمط الإنتاج الفرجاني.
- ٣- نمط الإنتاج العبودي.
- ٤- نمط الإنتاج السلعي الصغير البسيط.

## ٥- نمط الإنتاج الرأسمالي.

يرى سمير أمين أن محدد الاندماج في النظام الرأسمالي الدولي لا يتضمن بالضرورة فرض نمط الإنتاج الرأسمالي، بل يمكن أن تبقى أنماط الإنتاج السابقة على الرأسمالية - على الأقل بشكل حثي - في المجتمع التابع.

ويذهب الى توصيف هذه الأنماط بدقة كافية مقترباً في بعضها من التوصيف الماركسي، ومما يشير اليه هو التراصيف الطبقيّة في بعض الأنماط وما تعكسه من انقسام مجتمعي حاد، فيما يعد نمط الإنتاج السلعي البسيط، والذي لا يوجد مجتمع بالتحصيل عاش في كنفه، وإنما هو مرحلة عابرة تؤسس لمرحلة ونمط إنتاج أكثر وضوحاً.

فيما يؤكد سمير أمين كأطروحة ألمعية من أن نمط الإنتاج الإقطاعي والعبودي، يقعان ضمن نمط الإنتاج الحراجي كحالة حدية حيث تكون الجماعية في وضع متدهور وذلك بسبب طابع الملكية، هذا الطابع الحدي هو الذي يسمح بوصف التشكيلات الإقطاعية في الأطراف بالتشكيلات (المحيطة) مقابل التشكيلات الفرجانية المركزية.

هذا ينسحب على نمط الإنتاج العبودي الذي يقع على حدود التشكيلات الفرجانية، لا كنمط مركزي ولكن كتشكيل (أناوي). بيد أن إحدى أهم الأطروحات التي جاء بها سمير أمين على طول اهتمامه بقضايا العالم الثالث (الأطراف) هو الآتي:

مع التوافق بين رؤى سمير أمين وماركس حول الدور المركزي الذي لعبه نمط الإنتاج الرأسمالي، والظاهرة الرأسمالية كونها تعد ظاهرة تقديمية مقارنة بالإقطاع، فإن سمير أمين يذهب الى ما هو أبعد ويمتج تحليل الأنماط على استقامته الى النهاية، إذ يرى أن نمط الإنتاج الرأسمالي حتى في طبيعته الحبيبية يتسم بالشراسة والفضاضة، لذلك يسعى باستمرار الى تصفية الأنماط (ما قبل الرأسمالية) عند تلامسها معها أو تواجدها معها في محيط معين، وسرعان ما يسيطر هذا النمط

ويسحر غلبته على هذه الأنماط ليهدف منها وظيفتها الخاصة ويدخلها قسراً ضمن إطار وظيفته هو، من دون أن يؤدي ذلك الى تدمير جذري لها.

إلا أن سميح أمين يركز على الدور الذي يلعبه نمط الإنتاج الرأسمالي في البلدان المحيطة والاقتصادات التابعة، إذ لا يلعب هذا النمط دوره المعتاد في تصفية الأنماط (الرعي الإقطاعي الأوليغارشي-العبودي الح) على خلاف ما حصل في البلدان المركزية، ومرد ذلك من وجهة نظره هو أن اقتحام الرأسمالية الى هذه البلدان أحدث تشوهاً كبيراً في الهياكل الاقتصادية- الاجتماعية، وترتب عليه أن نمط الإنتاج الرأسمالي الطرفي أصبح هو الآخر مشوهاً، هذا الأمر في جله كان مقصوداً من قبل الرأسمالية.

هذه القضية لها ما يبررها لخدمة مصالح الرأسمالية، وبالتالي أبقاء الفجوة قائمة بينها وبين البلدان الطرفية، وحتى التسمية التي تحريها هذه البلدان تظل هي الأخرى مشوهة أو كما يسميها إسماعيل صبري عند الله (تنمية حيثة) وليست طيبة.

إن تواجد نمط الإنتاج الرأسمالي متمملاً مع أنماط الإنتاج الأخرى من شأنه أن يعظم نزح الفائض الاقتصادي من الأطراف الى المراكز لأنه يعظم الأرباح في الأطراف من خلال فائض القيمة المنتزع من الأنشطة المتصلة بالمراكز.

ويعتقد أن هذا الفهم ضروري لاقتصادي وممكري العالم الثالث، لمعرفة آليات فعل نمط الإنتاج الرأسمالي في الأطراف، وطبيعة التنمية المتحققة واتجاهاتها، لاسيما وأن سيطرة نمط الإنتاج الرأسمالي تعبر عن نفسها في مستوى آخر، إذ أن هذا النمط يشكل في الواقع نظاماً علمياً، حيث تنتظم التشكيلات (المحيطة والمركزية) جميعها في نظام واحد منظم وتراتبى.



## ٦- تعاقب التشكيلات الاقتصادية- الاجتماعية<sup>(٣٤)</sup>

تعد المجتمعات التاريخية (تشكيلات) تتضافر فيها من جهة عدة أنماط إنتاجية (ما قبل الرأسمالية)، وتنظم علاقة مجتمعاتها مع المجتمعات الأخرى، فالتشكيلة هي بنية مشحونة ومسطمة تميزها سيطرة نمط إنتاج معين، تتمصل معه مجموعة معقدة من أنماط الإنتاج الحاصصة له.

إن تحليل تشكيلة اجتماعية مشحونة يجب أن يتركز أذن حول نمط توليد الفائض الخاص بهذه التشكيلة، وكذلك الفائض المحتمل انتقاله من وإلى التشكيلات، ثم تحليل كيفية التوزيع الداخلي لهذا الفائض بين مختلف الأطراف المعنية (الطبقات والمجموعات الاجتماعية).

وإن شرط وجود تشكيلة طبقية متعلق بتطور القوى المنتجة، وبدرجة تقسيم العمل الذي يترافق معها، مما يوفر التطور الكافي لظهور (الفائض) الذي يأخذ شكلاً غير سلعي (حراج، ريع) في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، وسلعياً في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي، مما يتيح استعمال (فئس القيمة)، والطريقة التي يتم بها توزيع هذا الفائض هي التي تعطي للتشكيلة الاجتماعية وجهها الحقيقي.

مفهوم التشكيلة هو أذن فعلاً مفهوم تاريخي والتقدم التكنولوجي- مستوى تطور قوى الإنتاج- هو تقدم تراكمي، هذا التقدم يستمر في أطار تشكيلة ما ويسمح بتأريخ التأريخ. بيد أن التعاقب التاريخي للتشكيلات الاجتماعية في الغالب، يتخذ شكل تعاقب التشكيلات الجماعية ثم التشكيلات الحراجية، وضمن هذا تدخل القوى المنتجة من حديد في صراع مع العلاقات الاجتماعية، مما يفتح الباب واسعاً على تشكيلة رأسمالية.

تتسم التشكيلات الرأسمالية جميعها بسيطرة نمط الإنتاج الرأسمالي، وكل المنتجات تأخذ طابع سلع، في حين أن المنتجات التي يدخل فيها فائض الأنماط السابقة هي وحدها التي كانت تكتسي سابقاً هذا الشكل من الممكن القول بدون مواربة أن تحليل تشكيلة ما، هو محاولة للبصير بمشاكل تولد الفئس الاقتصادي

وتداول الفائض والقوى الاجتماعية المتحركة فيه، وفي الأزمات ما قبل الرأسمالية يتسم أصحاب الفائض الاقتصادي بشيء من الشفافية مقارنة بالتشكلات والأزمات الأخرى، ويعتقد المتحيزين في هذه الأزمات بأن هذا الاقتران للفائض ضروري لبقاء الوضع الاجتماعي (الطبيعي)، تحت تأثير المتغير السياسي الإيديولوجي الذي يأخذ بالضرورة الشكل الديني الذي ظل يسيطر على الحياة، في حين أن الدين الحقيقي للرأسمالية هو (الاقتصادوية) وبعبارة سوقية هي (محطة النقود)، أي الاستهلاك وعبادة الاستهلاك لذاته.

وعلى وفق الحاجة الدائمة للرأسمالية إلى أسواق لمنتجاتها التي تتزايد طردياً مع تطور قوى الإنتاج، وشهوتها التي لا تنقطع للمواد الأولية الضرورية لصاعاتها، فهي تعتمد الخروج المستمر للعالم الثالث، سواء أكان ذلك في إطار استعماري أم في إطار حرية التجارة والاندماج.

لهذا فإن عدوان نمط الإنتاج الرأسمالي من الخارج على الاقتصادات الطرفية، يشكل جوهر مشكلة الانتقال إلى التشكيلات الرأسمالية الطرفية<sup>(٢٥)</sup>.

إن أية تشكيلة (أو نمط إنتاج) لا يمكن أن يظهر بشكل مباشر ومن دون مقدمات، بل أن أي منهما (التشكيلة- النمط) يشأ في رحم مرحلة سابقة له، وفي ظل تشكيلة سابقة على التشكيلة التي ينتمي لها، تحتضنه ويتزعرع في بيئتها حين سيطرته وإحصاعه للأزمات الأخرى أو إحلالها محل التشكيلة السابقة.

## هوامش ومصادر الفصل السادس عشر

- \*- أول من أطلق هذا التعبير هو اندريه جوندرو فرانك.
- ١- توماس سنتش، الاقتصاد السياسي للتخلف، ترجمة فالح عبد الجبار، ج ١، دار الفارابي، ١٩٧٨، ص ١٨.
- ٢- نقلا عن: سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي، ترجمة حسن قبيسي، دار ابن خلدون، بدون تاريخ، ص ١٤٣.
- \*\* - أول من أطلق هذا المفهوم هو قائد الثورة الصينية ماوتسي تونغ، ويعني بها. الوكلاء المحليون من البلدان التابعة (الأطراف)، الذين يقدمون ويعملون لخدمة الدول الاستعمارية وهم في نظره (عملاء).
- ٣- يمكن الاطلاع على أشكال التبعية: يوسف عبدالله صايغ، التنمية العنصرية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.
- ٤- ويبستر، سوسيولوجيا التنمية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦.
- ٥- للمزيد ينظر: موريس دوب، دراسات في تطور الرأسمالية، ترجمة رؤوف عباس حامد، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٧٨.
- \*\*\* - ظهر مفهوم أشباه التوابيع ومفهوم النسق الرأسمالي العالمي من خلال الدراسات التي قدمها والرشتين وتلاميذه:
- E. Wallerstein , Modern World System , Academic Press , New York , ١٩٧٤.
- ٦- للمزيد ينظر: اندريه جوندرو فرانك، البرجوازية الرثة والتطور الرث، ترجمة الهيثم الأيوبي وأكرم ديري، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣.
- ٧- للتفصيل في الاطلاع على آراء بعض المفكرين الماركسيين بشأن الدولة التابعة (دولة العالم الثالث)، من مثل حمزة علوي- عيسى شفعي- وآخرون، ينظر: عبدعلي كاظم المعموري، إشكالية الدور الاقتصادي- الاجتماعي للدولة الريعية النفطية العربية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، مقدمة الى كلية الإدارة والاقتصاد- جامعة بغداد- ١٩٩٧.

- ٨- احمد زايد، الدولة في العالم الثالث، مطبعة التضامن، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٥٤.
- ٩- محمد حافظ ذياب، سمير أمين: مواطن العالم الثالث، مجلة المنار، العدد (٦٤)، ١٩٨٨، ص ١٣٤.
- ١٠- للمزيد عن مؤلفات سمير أمين وأبحاثه وكتاباتة، يمكن الرجوع الى موقعه على شبكة المعلومات الدولية، منتدى العالم الثالث أو موقع سمير أمين.
- ١١- عبدعلي كاظم المعموري، في فلسفة الخطاب الاقتصادي الرأسمالي (الجوهر الثابت والمتغير المعلن)، مجلة دراسات فلسفية، بيت الحكمة، العدد (٤)، ٢٠٠٢.
- ١٢- سمير أمين، التطور اللامتكافئ، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٤.
- ١٣- للمزيد ينظر: سمير أمين، العالم الثالث في مواجهة الدولة الأمريكية الأوربية اليابانية الموحدة، مجلة المنار، العدد (٦٥)، ١٩٩٠.
- ١٤- سمير أمين، الطبقة والأمة في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية، ترجمة هنرييت عبودي، دار الطليعة للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٠.
- ١٥- سمير أمين، تأملات في النظام العالمي، مجلة المستقبل العربي، ١٩٨٩، ص ٧٥.
- ١٦- سمير أمين، شروط إنعاش التنمية، المستقبل العربي، العدد (١٩١)، ١٩٩٥، ص ٦.
- ١٧- سمير أمين، مناخ العصر: رؤية نقدية، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٤.
- ١٨- محمد محمود الأمام، الظاهرة الاستعمارية الجديدة مغزاها بالنسبة للوطن العربي، (من كتاب) العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، ندوة مهداة الى سمير أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ١٠٤.

- ١٩- سمير أمين، الفجوة بين الفقراء والأغنياء (الإشكاليات - الآليات - المستقبل) منتدى العالم الثالث، موقع المنتدى على شبكة الانترنت، ٧-٨.
- ٢٠- سمير أمين، في مواجهة أزمة عصرنا، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٨.
- ٢١- للمزيد من التفصيل: موريس غودلييه وآخرون، حول نمط الإنتاج الآسيوي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨.
- ٢٢- مجموعة باحثين، الانتقال نحو الاشتراكية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٣.
- ٢٣- سمير أمين، التطور اللامتكافئ، مصدر سابق، ص ١٥.
- ٢٤- المصدر السابق، ص ١٧.
- ٢٥- سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي، مصدر سابق، ص ٢٠٥.

# تاريخ الأفكار الاقتصادية



دار الحسام للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - ص.ب. 366 عمان 11941 الأردن

هاتف: 5231081 فاكس: 009626-5235594

E-mail: dar\_alhamed@hotmail.com

daralhamed@yahoo.com

www.daralhamed.net